الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الجاسوس النبيل

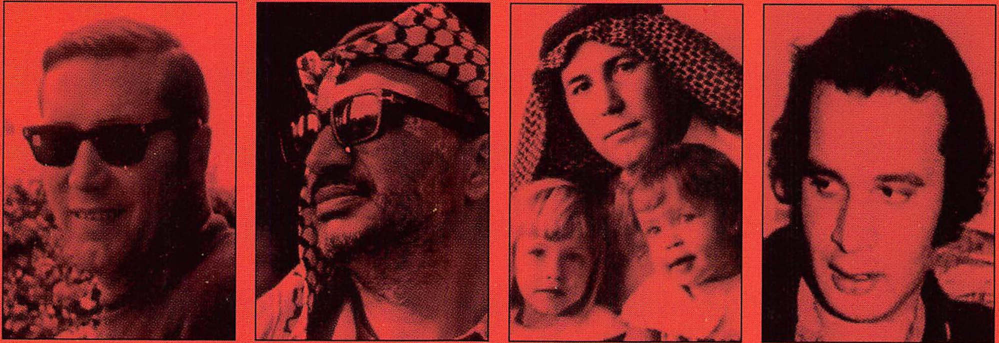

حياة روبرت ايمز وموته

تأليف: كاي بيرد

ترجمة: د. محمد جياد الأزرقي

الجاسوس النبيل

حياة روبرت ايمز وموته

الجاسوس النبيل

حياة روبرت ايمز وموته

تأليف: كاي بيرد
الحائز على جائزة بوليتزر

ترجمة
د. محمد جياد الأزرقي

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Good Spy: The Life & Death of Robert Ames
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Crown Publishers, an imprint of the Crown Publishing Group, a division of Random House LLC, a Penguin Random House Company, New York
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2014 by Kai Bird
All rights reserved
Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
2015 م - 1437 هـ

ردمك 978-614-01-1728-0

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

لأستاذي الجليل الدكتور بيتر فؤاد عبود

اعترافاً بفضله وتقديراً لتوجيهاته خلال مرحلة

الدّراسات العليا وما تلاها في جامعتي تكساس وكليّة مدلبري

المترجم

إلى سوزن

وإيفون أيمز

التي فقدت أب أطفالها الستة في بيروت

ولذكرى والدتي

جرين نيوهاوس بيرد (1926–2012)

ثلاث نساء قويّات

مقدّمة المؤلف

الاثنين، 13 سبتمبر 1993

كانت السّماء صافية الزّرقة في يوم صحو من أيام سبتمبر في العاصمة واشنطن. كان يوم أمل للنّاس في الشّرق الأوسط بعد عقود من الحروب المتسلسلة والمذابح والأعمال الإرهابيّة الفظيعة. غير أنّ فرانك أندرسن، مسؤول العمليات السّريّة في وكالة المخابرات المركزيّة في العالم العربي كان بالغ الاستياء. إنّه يعلم يقيناً أنّ شيئاً جيّداً غير اعتياديّ على وشك الحدوث. كان في الحادية والخمسين من عمره الذي قضى نصفه في الشّرق الأوسط. بعد أنْ انضمّ للوكالة عام 1968 تدرّج بسرعة إلى مناصب الخدمات السّريّة فيها. تعلّم العربيّة في بيروت وتخصّص في موضوع الشّرق الأوسط. أصبح في عام 1993 مدير العمليّات في الشّرق الأدنى وجنوب غرب آسيا. في ذلك الصّباح كان على قناعة أنّ السّلام سيحلّ في المنطقة التي كرّس حياته المهنيّة كاملة من أجلها. كان عليه أن يكون بالغ السّرور، إلاّ أنّه حافظ على صمته المطبق.

كان رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين وياسر عرفات رئيس منظمة التّحرير الفلسطينيّة موجودين في البيت الأبيض يستعدّان للتّوقيع على اتّفاقيّة سلام بحضور الرّئيس الأمريكي بل كلينتون. لقد دعا الرّئيس الأمريكي ثلاثة آلاف شخص لحضور تلك اللحظة التّاريخيّة في الحديقة الجنوبيّة للبيت الأبيض. شكّ أندرسن أنّه لم تتمّ دعوة أحد من الوكالة لحضور مراسم التّوقيع، واعتقد حينها أنّ في ذلك إجحافاً لها، وأنّ أحداً ما في البيت الأبيض قد نسي أنّ عمليّة السّلام بدأت كعمليّة مخابرات سريّة. فهو يعتقد بشدة أنّ الوكالة من خلال نشاطاتها السّريّة ومصادرها، هي التي خلقت الفرصة لتحقيق اتفاقيات أوسلو التي كان من المقرّر أنّ يتمّ التّصديق عليها من قبل الطرفين. كان يعرف أنّ العمليّة بدأت منذ عقود ماضية عندما قام ضابط شاب في الوكالة اسمه

روبرت كليتن أيمز بأوّل اتّصالات سـريّة عالية المسـتوى بين الولايات المتّحدة والفلسـطينيين. لقد عبّد الطريق لاتفاقيّات السّـلام نتيجة تصميمه المهني وعمله في سلك المخابرات. قُتِل أيمز في بيروت بتاريخ 18 أبريل 1983 نتيجة تفجير شـاحنة فـي هجـوم انتحـاري على السّـفارة الأمريكيّة. كان موجـوداً في المكان الخطـأ وفـي الوقـت الخطـأ. لقي في ذلك الهجوم الإرهابي سـتة عشـر أمريكيًّا حتفهم، بينهم سبعة من رجال الوكالة، بالإضافة إلى أربعة وستين من المدنيين اللبنانييـن. كان شـعور أندرسـن فـي ذلـك اليوم الخـاص، هو أنْ يتذكّـر ويُذكّر الآخرين بما قام به أيمز من أجل عمليّة السّلام.

حيـن وصـل أندرسـن صبـاح ذلك اليـوم إلى مكتبه فـي لانغلي حيث مقر الوكالـة، عقـد اجتماعـه اليومـي عند السّـاعة التاسـعة مع كبار مسـاعديه. يتذكر چالس إنغهارت وهو ضابط عمليات خدم برفقة أيمز أنّ أندرسن قال للحضور: «تعلمـون أنّـه يـوم كبيـر لعمليّة السّـلام. كنّا جميعاً متفائلين فـي تلك الأيّام بأنّ الإسرائيليين والفلسطينيين سيثوبون إلى رشدهم». سأل أحد الحاضرين إنْ كان رئيـس الوكالـة مـن ضمـن المدعوين. وبعد التّدقيق فـي الموضوع اتضح أنّه لم يكنْ هناك ممثل للوكالة في حفل مراسم التّوقيع.

بعـد أن مـرّت لحظـة مـن الصّمـت المربك، التفت أندرسـن إلى مسـاعده بـوب بوسـارد وقـال: «حسـناً، هيـئ لنا حافلة لنذهب لزيـارة موتانا». ثمّ أضاف أنّـه يجـب عليـه أنْ يُحضـر معه عـدداً من الضّبّاط الجدد الذيـن انخرطوا حديثاً في قسـم العمليّات السّـريّة وبعض المحللين ليذهبوا جميعاً إلى المقبرة الوطنيّة في آرلنغتن. عند وصول الحافلة إلى المكان المنشود ترجّل الجميع وذهبوا إلى حيث يرقد أيمز. تجمّعوا حول قبره، وقال بعضهم شيئاً في ذكرى الفقيد الرّاحل. وبعد سنوات قال أندرسن: «إنّني فخور أنّ تلك كانت فكرتي. لقد كانت وليدة اللحظـة». ثـم يمضـي بوصف ما حدث «عند السّـاعة العاشـرة والنصف صباحاً كانت حافلة للوكالة في انتظارنا عند مدخل البناء. صعدنا إليها، وكنّا نحو ثلاثين أو أربعين شـخصاً، أكثرهم من الضّبّاط الجُدد. لقد أردنا أنْ تكون تلك الزّيارة فرصة لنقل القيم العالية». حسب قوله.

حين وصل الجميع إلى ضريح أيمز الواقع على تلة صغيرة تظلّلها أشجار

البلوط الكبيرة، نظر أندرسن ومرافقوه إلى نهر بوتومك نحو البيت الأبيض. كانوا يعلمون أنّه في تلك اللحظة وبالذات في الدّقيقة الثالثة والأربعين بعد الحادية عشرة سيوّقع الجانبان الإسرائيلي والفلسطيني إعلان مبادئ حول حكومة مستقلّة للفلسطينيين في المناطق التي تحتلها إسرائيل في غزّة والضّفة الغربيّة. قال رابين في معرض تعليقه الرّسمي: «إنّنا نحن الجنود العائدين من المعارك مخضّبين بالدّماء، نحن الذين حاربناكم، أنتم الفلسطينيين، نقول لكم اليوم بجلاء وبصوت مرتفع كفانا دماء ودموعاً. كفانا!».

ذكر توماس فريدمن مراسل نيويورك تايمز أنّه في اللحظات التي أعقبت التّوقيع على الوثائق «جذب الرّئيس كلينتون السّيّد عرفات من ذراعه اليسرى والسّيّد رابين من ذراعه اليمنى ودفع برقة الرّجلين أحدهما نحو الآخر، تلا ذلك تربيتة رقيقة على ظهر رابين. مدّ عرفات يده للمصافحة، وبعد لحظة من التّردّد وابتسامة باهتة علت وجهه، مدّ رابين يده ليصافح عرفات. أطلق الجمع المحتشد آهة تنمّ عن الفرحة التي غمرت المكان، في حين اغرورقت عينا كلينتون بالدّموع، فاندفع قائلاً: «إنّها لحظة حذر، غير أنّ الأمل قد انتصر بلا شكّ على التّاريخ».

ذكر أندرسن فيما بعد قائلاً: «كنّا عند ضريح بوب في تلك اللحظة التي تصافح فيها الرّجلان، كما كان مخطّطاً». كُتب على بلاطة الضّريح البيضاء عبارة بسيطة تقول: «روبرت كليتن أيمز، وكالة المخابرات المركزيّة للولايات المتّحدة الأمريكيّة. 6 مارس 1934–18 أبريل 1983». يوجد إلى جنب قبر أيمز قبور لمحاربين قتلوا خلال الحرب الأهليّة ولأمريكيين آخرين قُتلوا في حروب أمريكا في أوروبا وكوريا وفيتنام. وكان خلف القبر قبر لأدميرال وُلد عام 1876. لكنّ بلاطة ضريح أيمز هي الشّاهد الوحيد في مقبرة آرلنغتن الذي يفيد أنّ المُسجّى هناك ضابط في العمليّات السّريّة للوكالة. تحدّث أندرسن بإيجاز عن حياة الفقيد المهنيّة وكيف أنّ علاقته السّريّة مع رئيس مخابرات منظمة عرفات وهو علي حسن سلامة قد دفعت بقضية الفلسطينيين إلى الواجهة. شرح أندرسن لمرافقيه من الضّبّاط الجدد أنّ أيمز هو أحد شهداء الوكالة الأبطال، وأنّ العلاقة التي أقامها كانت بفعل طيبته وسط ذلك العالم المحفوف بالمخاطر. «لم يكنْ

دوره كدور لورنس»، حسب رأي هنري ملر جونز، وهو ضابط آخر في قسم العمليّات السّريّة. «كان قليل الصّبر مع كلّ من يظهر التأييد المزيّف ومع أولئك المغامرين المتحمّسين. كانت نظرته للشّرق الأوسط تتسم بالسّذاجة أحياناً، رغم أنّه كان يفهم شخصيّات الثّوريين اليساريين في العالم العربي ويعرف دوافعهم، بالقدر نفسه الذي كان يحترم فيه التّقاليد القبليّة والشّيوخ».

عرف أيمز أنّ ضابط الوكالة الجيّد يجب أن يكون مدفوعاً بحب الاستطلاع إزاء الآخرين من الأجانب، ويتمتّع بدرجة من التّعاطف نحو نضالهم. يقول ملر جونز: «لقد تعرّف إلى الملوك والأمراء والثّوريين والإرهابيين ورعاة الماعز وفدائيي الغرف السّريّة في الشّوارع الخلفيّة». كان حاذقاً وهو يشقّ طريقه وسط غابة من المرايا التي تكشف الشّرق الأوسط. كان حذراً بالفطرة ورجلاً يحفظ الأسرار. إنّه يوحي بالثقة، حتّى في حضرة رجال ذوي ماضٍ دام. لكنّه كان في الوقت نفسه ذكيًّا، فقد تمكّن بفضل ذلك أنْ يترقى في منصبه ليصل مرتبة من يرفع التّقارير الصّباحيّة اليوميّة إلى الرّئيس أو وزير الخارجيّة حول تعقيدات الوضع في الشّرق الأوسط وسياساته وتاريخه. كان نموذجاً لضابط المخابرات. «يعترف الجميع بدوره في بدء عمليّة السّلام»، حسب ما يتذكّر لندزي شرون، المحلّل في الوكالة.

يتذكّر إنغلهارت قائلاً: «وقف الجميع دقيقة صمت حداداً على أرواح رجالنا ونسائنا ونحن نصطف على الحشيش حول الضّريح. تذكّرت وقتها أنّني سألت نفسي: لماذا بعد كلّ الذي عملناه، لم يعترف الرّئيس كلينتون بجهودنا وتجاهل مساهمتنا. نحن نعرف أنّ ذلك ربما غير مناسب من النّاحية السّياسيّة. ومع ذلك فإنّ غيابنا كان أمراً مؤلماً». بعد دقائق تحرّك أندرسن ومرافقوه نحو ضريح وليم بكلي مدير محطة الوكالة في بيروت، والذي اختطِف في شهر مارس من العام 1984، وأسيئت معاملته ومات بعد 15 شهراً من اختطافه، ربّما بسبب مرض ذات الرّئة. ومن ثمّ ذهب الجميع لزيارة ضريحي جيمس ومونيك لويس، اللذين قُتِلا في اليوم ذاته الذي قُتِل فيه أيمز، وكلاهما من موظفي الوكالة. ثمّ انتقل الجميع إلى موقع ضريح كنيث هاس، الذي كان مدير محطة الوكالة في بيروت آنذاك، وقُتِل مع الآخرين في التّفجير الانتحاري. أخيراً، زار أندرسن

ومرافقوه ضريح فرانك جونسـن، وهو ضابط آخر لقي حتفه في ذلك التّفجير. دُفن الجميع في مقبرة آرلنغتن، وكانت تلك أكبر خسارة مُنيت بها الوكالة خلال تاريخها.

كانت زيارة المقبرة لحظة حزن، ولكن في الوقت نفسه امتزجت بمشاعر الابتهاج لأنّ تلك التّضحيات لم تذهب سدى. يقول إنغلهارت: «كنّا جميعاً نحسّ بشعور خفيّ من البهجة. فبالنّسبة إلينا نحن الذين أمضينا حياتنا وسط عاصفة الصّراع العربي الإسرائيلي، كان احتفال البيت الأبيض علامة إيجابيّة. لقد حصل الطرفان على كلّ ما يبغيان حسب اتّفاقيّات أوسلو، أو هكذا تصوّرا. كان لديّ شعور معيّن في ذلك الوقت أنّ تضحيات رفاقنا الرّاحلين لم تذهب أدراج الرّياح، وأنّ الشّعبين الإسرائيلي والفلسطيني قد أطلق كل منهما رقاب الآخر بعد أنْ كانا يحكمان القبض عليها، وإنّهم جميعاً إخوة وأخوات». لكنّ ذلك كان أضغاث أحلام!

الفصل الأوّل

النّشأة والبداية

كان روبرت كليتن أيمز ضابطاً كفؤاً متميّزاً. الذين يعرفونه من أفراد الوكالة يعتقدون أنّه أدّى واجبه على أكمل وجه ممكن لأنّه كان يجيد الإصغاء ويتّسم سلوكه بالبساطة. لقد كان أمريكيًّا كلاسيكيًّا بكل ما للكلمة من معنى، ومثاليًّا طيّباً منفتح العقل كشخصيّة الممثل جيمي ستوارت. لم يكن يعتري شخصيّته أيّ شيء شائب زائف أو منافق، وهو متحرّر من الأحقاد والرّواسب. وكما وصفه ضابط آخر في الوكالة: «أنّه يمثّل شخصيّة الأمريكي، لكنّه لم يكن قبيحاً أو عربيداً». كان الأجانب الذين عرفوه جيّداً يكنّون له كلّ الاحترام.

وُلد بوب أيمز في 6 مارس عام 1934 في مدينة فيلادلفيا، ونشأ في حارة روكسبورو التي تسكنها غالبيّة كبرى من البيض من الطبقة العاملة في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة. يفتخر سكّان الحي الذين يعيشون في البيوت المتجاورة المصفوفة بعضها بجانب بعض على امتداد جانبي شارع ردج أفنيو بعلاقة الجيرة القويّة. يرتبط الحي بمركز المدينة عن طريق عدد من خطوط الحافلات، وتوجد فيها عشر كنائس. وتُعتبر المنطقة آمنة وهادئة نسبيًّا بالمقارنة مع مناطق فيلادلفيا الأخرى. أمضى بوب كامل طفولته وشبابه في بيت من طابقين رقمه 4624 في شارع بيچن. عمل والده ألبرت كلايتن أيمز في مصنع للفولاذ وأمضى اثنين وثلاثين عاماً من حياته في خدمة شركة SKF السّويديّة التي تصنع المحابس الكرويّة الفولاذيّة ball bearing. أمّا جدّه لأبيه ألبرت بورغارد أيمز فقد عمل شرطيًّا في المدينة. كانت وظيفة والده ألبرت «بدّ» في مصنع الفولاذ فحص المحابس الكرويّة في الموقع النّهائي لخط الإنتاج، وهو عمل مملّ قليل الأجر. أمّا أمّه هلن فرانسس أموروسا فقد كانت ربّة بيت. كان بوب الطفل الثاني للعائلة، فقد وُلدت أخته پاتريشا قبله بثلاث سنوات وأخته الصّغرى نانسي بعده بسنتين. عاشت العائلة حياة اقتصاديّة متواضعة بالاعتماد على مرتّب

والده من أسبوع لأسبوع. كان الوالد عضواً في اتحاد عمال الفولاذ الأمريكيين. وبين عام وآخر كان الاتّحاد يقود العمّال لإضراب في موسم الأعياد من أجل تحسين أحوالهم المعيشيّة. وعندما يحدث ذلك يقوم ألبرت ببيع أشجار الزينة متنقلاً من بيت لبيت ومن شارع لآخر. كان يتحدّث بصوت هادئ ولم يشكُ إطلاقاً أو يرفع صوته أو يده على أيّ من أطفاله. مرّت العائلة بأوقات عصيبة، لكنّ بوب نشأ وهو يشعر أنّه جزء من الحلم الأمريكي.

أمّا أمّه هلن فكانت تمثّل الجيل الثاني لعائلة من أصل إيطالي. كانت شديدة الشّغف بالقراءة من بين كلّ أفراد العائلة، والمسؤولة عن «النظام» داخل البيت. تقول ابنتها نانسي: «كانت لها طريقتها الخاصّة. يجب عليك أنْ تنفّذ ما تؤمر به». حافظت هلن على نظافة البيت وترتيبه. فيوم الاثنين مخصّص للغسيل ويوم الثلاثاء للكيّ. لكلّ طفل واجب عليه أن يؤدّيه، إضافة للواجبات المدرسيّة المنزليّة. كانت الأمّ كاثوليكيّة غير متعصّبة، بدليل أنّها تزوّجت رجلاً من أتباع الكنيسة المنهجيّة Methodist. ونظراً لأنّ الأطفال على دين أبيهم، فقد كانوا يذهبون أيام الأحد إلى كنيسته. ورغم أنّ العائلة تُعتبر عائلة عمّاليّة إلا أنّ كلا الوالدين كان عضواً مسجّلاً في الحزب الجمهوري، حالهما حال جيرانهم الآخرين في المحلة. تتذكر نانسي قائلة: «لم تحترم أمّي الرّئيس روزفلت، لقد كانت امرأة ذكيّة تتابع أخبار الرّاديو وتقرأ الصّحف بشكل منتظم. كانت من الجمهوريين الذين يحبون الرّئيس دوايت أيزنهاور».

نشأ بوب شديد الولع بالقراءة كوالدته التي قالت عنه: «إنّ الولد كان يلتهم الكتب التهاماً». عندما بلغ من العمر عشر سنوات أهداه خاله جون موسوعة الإنسكلوبيديا البريطانية. وبعد أشهر عدّة كنّا جالسين مساء حين نزل بوب من غرفته في الطابق الثاني ليخبرنا أنّه أكمل قراءة الموسوعة من الغلاف إلى الغلاف. «كان بوب مهذباً في سلوكه ولطيفاً في معاملة الآخرين، ولم يكنْ يحبّ المواجهات مهما كان نوعها». كما تتذكّر أخته نانسي. كان هادئاً يميل إلى العزلة وقليل الكلام. انضم كسائر الأولاد في المحلّة إلى فرقة الكشّافة. ورغم أنّ هواية والده كانت صيد الحيوانات والأسماك، فإنّ بوب لم يعر ذلك أيّ انتباه، وترك بنادق والده وأعواد صيده في مكانها. ونظراً لكونه الابن الوحيد للعائلة، فقد

استغلّ ذلك الامتياز. فلو طلبت الأمّ منه أنْ يغسل الصّحون، كان يذهب إلى المطبخ ويقف هناك يصفّر ويردّد ألحاناً تعجبه. كان يحبّ أن يصفّر، رغم علمه تمام العلم بأنّ أمّه تكره ذلك. وتضطرّ في النّهاية إلى طرده من المطبخ. وعندما كان في الصّف السّادس اقترح أحد معلميه أنْ يُنقل إلى مدرسة پن چارتر وهي مدرسة خاصّة أفضل بكثير من المدرسة الحكوميّة العامّة في محلته. «ولكنْ من يملك الأجور ليدفعها كي يذهب بوب إلى پن چارتر». كما تقول أخته نانسي.

كان بوب شديد التّدقيق في التّفاصيل. كانت غرفته في شارع پيچن صغيرة بالكاد تتسع فقط لسريره ورفّ للكتب وطاولة صغيرة أيضاً. ولذلك لا بُدّ أن يكون كلّ شيء فيها «نظيفاً ومرتّباً». كان خطّه حين يكتب جميلاً ودقيقاً ومرتّبًا جدًّا. وكما تتذكّر نانسي أنّه حتّى عندما يجلس للعشاء فإنّ مكوّنات وجبته على الصّحن يجب أن توضع منفصلة بعضها عن بعض، فهو لا يحبّ أنْ تُخلط. ولذلك كانت الأمّ حريصة جدًّا أن تضع الصّلصة وسط البطاطا المهروسة.

في سن الثالثة عشرة أو الرّابعة عشرة حصل بوب على تذكرة لمشاهدة عرض لكرة السّلة قام به فريق عمالقة هارلم. فُتن الشّاب باللعبة بعد أن شاهد العرض، وفي عيد الميلاد لتلك السّنة أهداه والداه كرة سلة، فكانت تلك أفضل هديّة تلقاها في حياته. تتذكّر أخته نانسي فتقول: «أنْ تمتلك كرة سلة وأنت ساكن في حارة روكسبورو، فذلك شيء نادراً ما يحدث».

دخل بوب وأختاه المدرسة الثانويّة في حارتهم، وكانت تقع على مسافة قريبة من البيت. بلغ طول الولد في تلك المرحلة ست أقدام وثلاثة إنشات. كان فتى يافعاً وسيماً ذا شعر داكن وعينين بلون البندق وحنك متميز. كان شابًّا أنيق القيافة دمث الأخلاق هادئ الطباع وذا ابتسامة واسعة. ومع كلّ هذه الصّفات الحميدة، لم يكن على علاقة مع أيّ من البنات في سنّه. قالت أمه فيما بعد: «لم يكن شخصاً ينقاد مع الجموع». كان يمضي وقته بمفرده أو برفقة أصدقاء قلائل ممّن يستمتعون بلعب كرة السّلة.

في فصل الصّيف عمل «بوب الطويل القامة» منقذاً للسابحين في مدينة وايلدوود كرست. وهي مدينة صغيرة بالقرب من ساحل جرزي. كانت وايلدوود المدينة الثانية بالنّسبة إليه بعد فيلادلفيا، حيث يسكن جدّاه لأمه فيتوريو وأنجز

أموروسو، وهما مهاجران من أصل إيطالي. امتلك جدّه فيتوريو أو فكتر محلاً لبيع الفرو، وكان يتباهى دائماً بأنّ زوجات المدراء التّنفيذيين لشركة دو بونت للكيمياويّات، كنّ من ضمن زبائنه. خسر فكتر كثيراً حين انهارت الأسواق الماليّة في الولايات المتّحدة عام 1929، لكنّه اجتاز تلك الأزمة بدليل أنّه ظلّ يمتلك بيتاً كبيراً على السّاحل وعمارة فيها عدد من الشّقق في مدينة ساحل جرزي. رفضت هلن أنْ تتلقى أي مساعدة من والديها الموسرين، لكنّها حرصت كلّ صيف أن تبعث بأولادها إلى بيت جدّيهم.

كان اهتمام بوب البالغ هو لعب كرة السّلة، وحين كان يعمل منقذاً للسابحين في مدينة جدّيه صيفاً، انضمّ إلى نادٍ صغير اسمه نادي كني ليمارس لعبته المفضّلة. ذات مرة خلال وجوده هناك تعرّف إلى توم غولا، الذي اعتقد أنّه لاعب متميّز بحقّ. يتذكّر جاك هارمر الذي سكن قريباً من بيت أيمز في فيلادلفيا أنّ بوب كان يتحدّث باستمرار عن غولا. «لعب بوب كرة السّلة على مدار السّنة. كان في نهاية شارعنا ساحة ترابيّة حوّلناها إلى ملعب. كنت وأنا في بيتي أسمع صوت كرة بوب وهي تضرب أرضية الشّارع عندما يكون في طريقه إلى السّاحة، فأركض للالتحاق به. وفي صباحات الشّتاء الباردة تكون السّاحة متجمّدة، لكن حين يدفأ الجو تصبح أيدينا والكرة ملطّخة بالطين». يضيف هارمر أنّ أيمز كان «فتاً رائعاً، لكنّه عصيّ على الفهم على المستوى الشّخصي، إنّه شخص محبوب للغاية».

أحبّ بوب اللعبة، وفي السّنة الأخيرة من المرحلة الثانويّة قاد فريق المدرسة في تسجيل النّقاط. وهذا ما فتح المجال أمامه، إذ أعطته جامعة لاسال منحة دراسيّة لأربع سنوات. وهذه الجامعة كاثوليكيّة غير مختلطة يديرها الآباء اليسوعيّون. كما أنّه حصل على زمالة أخرى من كليّة غنزبرغ حيث وعدوه أنْ يكون ضمن الفريق الأوّل، لكنّه عرف أنّ غولا ينوي الالتحاق بالجامعة المذكورة، وأنّه فضّل أنْ يلعب في فريق يضمّ غولا. كان بوب أوّل شخص في العائلة يذهب إلى الجامعة. ولغرض الحدّ من التّكاليف مكث بوب مع عائلته خلال سنوات التحاقه فيها.

تفوّق في دراسته وتخصّص في علم الاجتماع إضافة إلى دراسة بعض

المقـررات فـي علـم النّفس والفلسـفة، وكانت لديه موهبـة لتعلم اللغات. فمثلاً علّم نفسه بعض الأسبانيّة خلال وجوده صيفاً في وايلدوود. وفي الجامعة تفوّق في تعلم الفرنسـيّة. كانت لديه فكرة من نوع ما أنّه سـيلتحق بمكتب التّحقيقات الفدرالـي فـي الوقت المناسـب. علـم أنّ المكتب قد عيّن عـدداً من المحامين، لذلك أخذ بعض المقررات الأوليّة في دراسة القانون وحصل على معدّل 3.06، علماً بأنّه كان يمارس لعبة السّلة كلّ يوم. كان يجيد التهديف من جانب الملعب، وأصبح نجم حارة روكسـبورو في اللعبة. غير أنّه في جامعة لاسـال كان ضمن فريق الاحتياط لأنّ فريق الجامعة كان ذا مستوى عالٍ. يتذكّر فران أومالي أحد أعضـاء الفريـق «أنّ أيمـز كان لاعبـاً ممتـازاً ولـم يفهم لماذا لـم تُتح له الفرصة ليلعـب أكثـر فـي المباريـات، وكان غو لا هو نجم الفريق». احترف صديقه غو لا فيمـا بعـد ولعـب لصالـح فريق فيلادلفيـا ووريرز ثمّ لصالح نيويـورك نكز. كان لاعبـاً مميـزاً إلـى الحـدّ الذي دعـا يوغي بيريرا مدرّب فريـق نيويورك يانكيز أن يصفه بأنّه ديماجيو كرة السّلة. كان مدرب فريق لارسال كن لوفلر خريج جامعة ييـل حيـث درس المحامـاة وهو قاد الفريق عام 1954 إلى البطولة. كان موسـماً رائعاً لجامعة لارسـال. لقد فاز الفريق في تسـع عشـرة مباراة من أصل عشـرين. وعندما عاد الفريق من مدينة كنزس في الرّبيع استقبلته الجماهير التي بلغ تعدادها عشـرات الآلاف فـي المطـار. وفي خضمّ ذلك الاحتفـال والتّرحيب، لمح أيمز بعضهم يحملون لافتات كُتب عليها اسـمه، فكانت تلك اللحظات بالنّسـبة إليه وقت سعادة غامرة.

لكنّ المدرّب لوفلر ترك أيمز كلاعب احتياط في أغلب مباريات البطولة، رغم أنّ معدّل النّقاط التي سجّلها كان عالياً. ومع ذلك بقي محافظاً على اعتزازه بفريقه، إكسـبلوررز. خلال موسـم 1953–1954 لعب في أربع عشـرة مباراة من أصـل ثلاثيـن مباراة وكان معدل تسـجيله نقطتين فـي كلّ مباراة ومحاولة ارتداد واحـدة. لقـد حافـظ طيلة حياته على ميدالية البطولـة باعتباره عضواً في الفريق. كما احتفظ بقصاصات الصّحف التي تحدّثت عن المباريات، وحتّى بطاقة أمتعة للسّـفر علـى طائـرة TWA عندمـا طار مـع الفريق إلى مدينة كنـزس. بقي يتذكّر أن المـدرب لوفلـر قـد حرمه من اللعب في المباريات المهمة وكتب في إحدى

المرّات قصّة قصيرة ذكر فيه أنّ المدرّب قال له: «لا أتحدّث إليك لأخبرك أنني آسف لكوني لم أشركك في اللعبة هذه الأمسية». ردّ بوب عليه: «إنّني لست آسفاً على كل ما أقوم به. إنّني أبذل جهدي وأنت تقبّلت ذلك كرجل. لكن من الصّعب جدًّا على اللاعب أنْ يجلس على مقعد الاحتياط».

رغم أنّ أيمز غاضب لكونه احتياطياً، غير أنّ تصرّفه كان لطيفاً على الدوام، وحافظ على روح التّعاون مع أعضاء فريقه. لقد علّمته كرة السّلة النّظام والمثابرة. «قد تكون بعض أنواع الرّياضة الأخرى مسليّة»، كما قال لوفلر. «لكنّ الحقيقة هي أنّ أكثرها تعتبر ابتدائيّة بالمقارنة مع كرة السّلة. ما من لعبة أخرى تتطلب السّرعة والتّخطيط المعقد. ما من لعبة أخرى تتطلب سرعة التّحرّك وسرعة التّفكير والمهارة الرّياضيّة». ويمضي أيمز للعب كرة السّلة طيلة حياته.

بعد تخرّجه من جامعة لاسال في شهر حزيران من عام 1956، ذهب مباشرة إلى مدينة أورنج في ولاية تكساس ليعمل في شركة كاتكينز للإنشاءات. وكغيره من الشباب الأمريكيين في فترة الخمسينيات كان يتوقع أن يُساق للخدمة العسكريّة، لكنّه كان بحاجة إلى كسب بعض المال. دُعي بوب للخدمة العسكريّة بتاريخ 8 نوفمبر من عام 1956. وبعد ثلاثة عشر أسبوعاً من التّدريب الأساسي، تمّ تنسيبه إلى شعبة الاتصالات العسكريّة في الشّرق الأوسط. انتقل إلى أفريقيا في بداية فصل الشّتاء من عام 1957. كان عمل الشّعبة المذكورة يختصّ في التقاط الإشارات في محطة كاغنيو خارج مدينة أسمرة في أريتريا، التّابعة لإثيوبيا في حينها. كان عليه أنْ يدقّق النّظر في الخارطة ليتعرّف إلى المكان الذي سيذهب إليه. تعني كلمة كاغنيو باللغة الأريتيريّة «أن تأتي بالنّظام إلى منطقة غارقة في الفوضى». وذات مرة زار الجنرال وليم وستمورلاند محطة التّنصّت فقال: «لا أعتقد أنّ القوّات المسلحة الأمريكيّة لها محطة في منطقة بعيدة معزولة مثل محطة كاغنيو».

كانت كاغنيو موقع المخابرات المركزيّة الرّابع التّابع للجيش الأمريكي. عُيّن أيمز عضواً في الوحدة 9434 المتخصّصة في التقاط الإشارات. كان عليه أن يمضي أربعة أيام في رحلة على متن طائرة من نوع دوغلاس سي 47 ليصل

إلى موقعه. نقلته الطائرة ذات المحرّكين من برمودا إلى جزر الأوزور حيث تزوّدت بالوقود وتابعت إلى طرابلس الغرب عاصمة ليبيا حيث باتت ليلة في القاعدة الأمريكيّة هناك. ثمّ باتت ليلة أخرى في قاعدة الظهران السّعوديّة. أعطته المحطّتان الأخيرتان الفرصة للمرة الأولى ليشاهد العالم العربي ويسمع النّاس من حوله يتكلمون العربيّة. وفي اليوم الرّابع نقلته طائرة أخرى من النوع نفسه إلى مركزه في أريتريا.

يقع مركز التّنصّت قرب خط الاستواء على ارتفاع سبعة آلاف وثلاثمئة قدم. وتعتبر تلك المحطة من أهمّ مواقع التّنصّت خلال فترة الحرب الباردة. تضّم القاعدة آلافاً عدة من الجنود الأمريكيين والفنيين الذين يعملون لحساب القوات المسلحة ووكالة المخابرات المركزيّة ووكالة الأمن القومي. كانوا يطلقون عليها «جزيرتنا في السّماء» حيث تنتشر أعمدة التقاط الإشارات على مساحة تمتد نحو ألفين وخمسمئة هكتار يُطلق عليها «حقل اللاقطات»، وعملها هو التقاط الإشارات اللاسلكيّة واتّصالات الرّاديو من كل مناطق أفريقيا والشّرق الأوسط. وبسبب موقعها المرتفع كانت القاعدة محطّة نموذجيّة للتّنصت. كانت مهمتها التقاط الاتصالات الدّبلوماسيّة والعسكريّة لمصر والحكومات العربيّة الأخرى. ومن النّاحية العمليّة فإنّ محطة كاغنيو كانت تعمل لمصلحة وكالة الأمن القومي وهي وكالة متخصّصة بالتّنصّت الإلكتروني. ولذلك فإنّ أيمز وكلّ من يعمل هناك اجتازوا عمليّة تحقيق أمني عن خلفيتهم لكي يطّلعوا على الشّفرات السّريّة المهمة.

كان اختيار أيمز للعمل في ميدان جمع الإشارات الأمنيّة بمحض الصّدفة. غير أنّ هذا الاختيار فتح عينيه على عالم المخابرات الذي يعتمد على استخدام التّكنولوجيا الحديثة. كانت أعمدة كاغنيو تلتقط الإشارات وموجات الرّاديو وتقوم بتسجيلها على أشرطة خاصة، يقوم بعدها أشخاص متخصّصون بالاستماع إليها وتحليلها والكشف عن أي شفرات سريّة فيها. يقوم مترجمون للعربيّة والرّوسيّة ومتخصّصون بلغات أخرى بترجمة كل المواد التي يتمّ التقاطها. كان ذلك يجري بسريّة تامّة، غير أنّ واجبات أيمز شخصيًّا كانت من المهام الأدنى. كان واجبه الاشتراك مع شخص آخر اسمه جون ولسن، وهو شابّ من أوكلاهوما، هو

متابعة وتسجيل أدوات الاحتياط التي تحتاج إليها أجهزة الاستقبال والإرسال.

قابل أيمز ولسن للمرة الأولى في صفّ حول تأمين الأدوات الاحتياطية لأجهزة الإرسال والاستقبال في قاعدة عسكريّة في جورجيا. أعلن معلم الصّف أنّ الجندي ولسن سيكون عريف المجموعة. رفع أيمز يده مستفسراً عن الأسباب التي دعت المعلم لاختيار ولسن. ردّ المعلم أنّه حصل على أعلى درجة في امتحان الكفاءة. وفي نهاية فترة الدّرس دعا كلاًّ من ولسن وأيمز أن يأتيا إلى مقدّمة الصّف وأخبر الأخير أنّ درجته كانت أدنى بنقطتين عن درجة ولسن. من الواضح أنّ أيمز كان شديد الطموح، لكنّه أصبح وولسن منذ ذلك الحين صديقين حميمين.

خلال وجوده في كاغنيو، سكن أيمز في غرفة في الطابق الثاني مع عشرة أفراد آخرين. كان سريره بالقرب من سرير ولسن. «كان أقرب إليّ من أخي». حسب ما ذكر ولسن. كانا يمضيان يومهما معاً ويستحمّان في الوقت نفسه ويذهبان إلى قاعة الطعام سويّة ويجلسان خلف طاولتين متقابلتين. كان أيمز الذي نشأ وتربّى في فيلادلفيا شغوفاً بقراءة الصّحف التي يستلمها ولسن عن طريق البريد من عائلته في أوكلاهوما. كانت الحياة في القاعدة بسيطة ومسترخية، وكان يقوم على خدمة الجنود العشرة ولدان من أريتريا، حيث كانا يرتّبان الأسرّة ويقومان بتنظيف الغرف وصبغ أحذية الجنود وتلميعها.

كانت محطة كاغنيو كمعسكر صيفي وسط قرى أريتريا الفقيرة البائسة. كانت توجد فيها كنيسة صغيرة ومخزن تموين ومطعم صغير يقدّم الوجبات الخفيفة ودائرة بريد. أمّا قاعة الطعام فقد كانت تقدّم وجبات رديئة. عندما يكون الجنود في فترة الاستراحة فبإمكانهم أنْ يشتروا علب الجعة مقابل عشرة سنتات للعلبة من نادي الواحة. أمّا قاعة سينما روزفلت التي تضمّ ثلاثمئة وعشرين مقعداً فقد كانت تعرض أفلاماً راقية. كانت هناك أيضاً قاعة للعب البولينغ وساحة للعب البيسبول وحوض سباحة داخلي. وخلال عطلة نهاية الأسبوع يذهب بعضهم ممن ليس لديهم واجبات خلال ذلك الوقت إلى ساحل البحر الأحمر للرّاحة والاستجمام طوال اليوم. كان السّاحل يبعد عن المحطة نحو ساعة بالسيارة. كان أيمز نجم كرة السّلة في القاعدة وحصل عام 1957 على

جائزة أفضل لاعب. يتذكّر ولسن أنّ أيمز كان يلعب في كلّ مباراة وكأنّ السّلة هي الشيء الوحيد الذي يشغل باله. لعب أيمز بصحبة الفريق مباراة مع فريق قاعدة الظهران، فكانت تلك هي ثاني زيارة له لأرض السّعوديّة.

تميّزت الحياة في القاعدة بالرّتابة، وكان الجنود الشّباب يعملون لساعات طويلة. وفي ساعات إجازتهم كانوا يذهبون إلى حانات أسمرة يشربون ويرتادون مواخيرها، كان أيمز يقضي وقت الرّاحة في القاعدة. يتذكّر ولسن أنّ أيمز كان يفضّل البقاء في القاعدة يقرأ الكتب أو يلعب كرة السّلة. كما كان يمضي بعض الوقت أحياناً في قاعة الرّياضة يرفع الأثقال. لم يكن ميّالاً للشّرب أو لعب الورق إسوة بالآخرين.

كان بوب شابًّا جادًّا، بل أكثر جدّيّة من معظم الأفراد في القاعدة. لقد غيّرت قاعدة كاغنيو حياته بسبل كثيرة. التقى هناك قسًّا كاثوليكيًّا أقنعه أن يتحوّل إلى الكاثوليكيّة. تتذكّر أخته نانسي أنّ أمها أخبرتها ذات يوم أنّ أخاها قد أصبح كاثوليكيًّا، وهو أمر أصاب الأخت بالعجب. غير أنّ نانسي نفسها وأختها بات قد تحوّلتا إلى الكاثوليكيّة أيضاً فيما بعد. كان بوب يعرف أنّ أمّه هذه قد نشأت على الكاثوليكيّة وأنّ جدّه لأمّه المولود في إيطاليا وجدّته المولودة في أيرلندا كانا من أتباع تلك الكنيسة. ولذلك فإنّ ذلك الإيمان كان يسري في دمه. أضف إلى ذلك إن الكنيسة كانت تلائمه كما لاءمت حياته المهنيّة في المستقبل. خلال مرّات ذهابه القليلة إلى أسمرة كان يذهب إلى كنيسة القدّيس جوزف، وهي كنيسة بناها الإيطاليّون عام 1922 على طراز البناء في بلادهم. كان على صديقه ولسن أنْ ينتظره لدقائق لكي يكمل مراسم اعترافه في المحراب المخصّص لذلك.

لم يكن العاملون في محطة كاغنيو يلبسون الزّي العسكري الكامل طوال الوقت، إذ كانت المحطة مركزاً عسكريًّا التّعليمات فيه غير مشدّدة إزاء هذا الموضوع. لكنّ أيمز اختلف عن الآخرين، حيث كان يذهب للعمل دائماً بكامل قيافته العسكريّة، حسب ما يتذكّر ولسن. كان دائم الاهتمام بنظافة بذلته وكيّها، إلا السّدارة التي يصعب المحافظة على شكلها إذا ما غُسِلت.

إلا أنّه من جهة أخرى، لم يأخذ تعليمات الجيش الأمريكي مأخذ الجدّ.

ففـي أحـد الأيـام كان علـى الأفـراد أنْ يكونـوا على أكمل ما يكونـوا من ناحية الهندام والقيافة لأنّهم سيشـاركون في عرض عسـكري في أسـمرة بمناسـبة عيد ميلاد الإمبراطور هيلا سيلاسـي، وأنّ الإمبراطور نفسـه سـيحضر العرض. قبل أن يركب الجميع الحافلات التي سـتنقلهم إلى العرض، اصطفّوا ليقوم الضّابط بإجـراء تفتيـش القيافـة. توقـف حيـث يقف ولسـن وكال المديح لـه. وفي تلك اللحظة انطلق صوت مسـموع ينمّ عن السّـخرية إلى حدٍّ جعل ولسـن يعتقد بأنّه سيتمّ توبيخهما على ذلك.

تمتع بوب بشـخصيّة قويّة، لكن كانت هناك دلائل تظهر أنّه سـريع التّأثر. في أحد الأيام، كان يجلس في نادي الواحة عندما حضر شخص ادّعى أنّه يجيد التّنويم المغناطيسي لتسلية الحاضرين. وحدث أنْ اختار ذلك الرّجل بوب ليقوم بتنويمه أمام الجميع. أصيب الحضور بالدّهشـة وتعجّبوا حين اسـتطاع أنْ ينوّمه فعلاً ويجعله يركب درّاجة خياليّة على المسرح. «لم يخطر ببالي أنّ بوب سيسلم أمره لتلك الدّرجة». حسب قول ولسن.

كمـا حـدث شـيء آخـر خلال وجوده في القاعدة. ففي شـهر ديسـمبر من عـام 1957 قـام أحـد محلّلي الشّـفرة في شـعبة العمليّات السّـريّة بنوع من شـبه تمـرّد احتجاجـاً علـى قـرار قائـد القاعدة الجديـد بإجراء تفتيـش القيافة كلّ يوم صباحاً. أيده بعض الرّجال وعبّروا عن امتعاضهم لأنّه مطلوب منهم عمل ذلك وهـم متعبـون إثـر نوبات عمل ليليّة طويلة. «بعد مرور أسـبوع على ذلك القرار السّخيف» حسب قول جورج ماثياس، الذي كان يعمل هناك، «تمرّد الجنود على ذلك الإجراء. ادّعى مشـغّلو عمليات شـفرة مورس السّـريّة أنّه توجد تشويشـات كثيرة وأنّهم لم يستطيعوا العثور على المحطات التي كان يجب عليهم مراقبتها. فـي الحقيقـة، وصـل الأمر إلى توقّف العمل تمامـاً». كان ذلك عملاً تخريبيًّا لا يُصدّق ولا مثيل له في السّلوك العسكري. وبعد حوالى أسبوع أدركت القيادة في وكالة الأمن القومي حقيقة ما جرى، فبعثت مجموعة من الضبّاط الجدد ليحلوا محل قائد محطة كاغنيو.

اقتـرح القـسّ بعـد تلـك الحادثـة تنظيم رحلة إلى الأراضي المقدّسـة لرفع معنويّـات الأفـراد. يقـول ولسـن: «أقنعنـي بـوب بالمشـاركة وما زلـت مديناً له

بالفضل الكبير. أمضينا بعض الأيّام نتجوّل في مدينة القدس وكنائسها القديمة وأزقتها الملتوية المزدحمة. زرنا كنيسة القيامة وباحة المسجد الأقصى وقبّة الصّخرة وكنيسة المهد في بيت لحم. وفي طريق العودة توقفت الطائرة في القاهرة فذهبنا جميعاً إلى أهرام الجيزة حيث امتطيت أنا وبوب الجمال». لم تستمر الرّحلة أكثر من أسبوع لكن يبدو أنّها تركت أثرها على الشّاب أيمز.

خلال اقتراب مدّة خدمته في القاعدة على نهايتها، أخذ بوب يتعلّم العربيّة. كان ذلك اختياراً غريباً: «قبل أن نترك أفريقيا»، حسب ما يتذكّر ولسن. «بدأ بوب يتعلم العربيّة، ولا أدري إنْ كان أحد ما يقوم بمساعدته. لكنني أتذكره جيّداً وهو يجلس عند الطاولة يدرّب نفسه على كتابة الحروف العربيّة». لقد استمع للعربيّة خلال زيارته للظهران وطرابلس والقدس والقاهرة. وبالتّأكيد أنّه سمع العربيّة في شوارع أسمرة، فقد كانت هي والتّغرينيّة اللغتان الرّسميّتان في أريتريا بين عامي 1952 و1956. ربّما كان ذلك حافزاً له على تعلم العربيّة، وهي من أصعب اللغات بالنّسبة إلى من يتكلم الإنكليزية. لقد كان ذلك قراراً مصيريًّا بالنّسبة إليه.

طار أيمز عائداً إلى الولايات المتّحدة بعد أن أمضى ثلاثة عشر شهراً وثلاثة أيام في محطة كاغنيو، فقد انتهت مدّة خدمته الإلزاميّة البالغة عامين. لم يفصح عن أي رغبة للاستمرار في الخدمة العسكريّة. وهو لم يعد ذلك الولد القادم من حارة عمّاليّة في فيلادلفيا. لقد زار جزءاً من العالم، وتركت الحياة التي عاشها هناك أثرها عليه، وربّما زرعت في ذهنه فكرة أنْ يبحث عن عمل في وزارة الخارجيّة. ترك أيمز الخدمة العسكريّة بتاريخ 7 نوفمبر من عام 1958، ونال ميدالية في حسن السّلوك والتّصرّف.

لدى عودته إلى فيلادلفيا، حصل بوب على عمل في شركة آل ستيت للتّأمين. وفي المساء كان يدرس لإعداد نفسه لأداء امتحان الالتحاق بوزارة الخارجيّة. لقد أخبر والديه أنّه: «لن يمضي حياته في مكتب يجلس خلف طاولة، وأنّه يحبّ السّفر ليكتشف العالم». كان مركز الشّركة في عمارة غمبل في مركز مدينة فيلادلفيا. كان عمله في قسم «مصادرة» السيّارات والممتلكات التي يعجز أصحابها عن دفع مستحقات التأمين عليها. غير أنّ موظف الشّركة

الطويل القامة الوسيم كان له حضوره واستطاع دائماً أن ينجز مهمّاته. بعد أن تناول غداءه في أحد أيام فصل الرّبيع من عام 1959 كان يحثّ الخطى عائداً إلى مكتبه، فلاحظ فتاة شقراء جميلة زرقاء العينين ماضية بالاتجاه نفسه. عرف أنّها تعمل سكرتيرة في الشّركة. خطرت في ذهنه فكرة أنّها جميلة جدًّا لا يمكنه أن يفوز بها، ومن المؤكّد أنّ هناك كثيراً من الرّجال الذين يتمنّونها، ومن يعرف لربّما تعرّف كثير منهم إليها.

وُلدت إيفون بلِيكلي بتاريخ 21 حزيران من عام 1937 في مدينة سنتياغو في ولاية كاليفورنيا، حيث كان مقر عمل والدها في القاعدة البحريّة. تنقلت البنت إلى مناطق قواعد بحرية متعدّدة حسب متطلبات عمل والدها. أكملت دراستها الثانويّة في مدينة غروتن في ولاية كونيتيكت عام 1955. وبدلاً من الالتحاق بالجامعة ذهبت إلى مدرسة كاثرن غبز لأعمال السّكرتاريّة في مدينة بوسطن. تعتبر «بنات غبز» سكرتيرات من الدّرجة الأولى وكنّ يتميّزن بلبس القبّعات والقفازات البيضاء. تتذكر إيفون أنّ قضيّة الحصول على عمل بعد التّخرّج من غبز كانت مسألة مضمونة. تخرّجت عام 1956 والتحقت بوالديها في مدينة هونولولو حيث انتقل والدها للعمل في قاعدة پيرل هاربر المعروفة. حصلت الشّابّة على عمل في شركة لشحن البضائع لمدة عامين، ثمّ نُقل والدها مرّة أخرى إلى القاعدة البحريّة في فيلادلفيا.

كانت إيفون تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، وقد لاحظت أيمز من قبل بعد أنْ سمعت الشائعات في مكتب الشّركة عن موظف وسيم فارع الطول ما زال أعزب. قالت: «كنت في طريقي إلى المكتب عندما لاحظت رجلاً طويل القامة، وقلت لنفسي وقتها إنّه لا يعنيني في شيء، فلا بُدّ أنْ يكون له عدد من الصّديقات». ولكن ذات يوم وجدا نفسيهما يسيران جنباً إلى جنب متوجّهين نحو موقف الحافلة في شارع چستنت. قدّم بوب نفسه إليها: «وكان أول ما ذكره لها أنّه يحبّ العربيّة». أخبرها أنّه يحبّ أنْ يعمل في الشّرق الأوسط. لاحظت إيفون أنّه ليس وسيماً فقط، بل له ذهن متفتّح على العالم. لاحظت أنّه يدخّن الغليون، وحتى في لحظات عدم التّدخين كان يطبق فكّيه على غليونه.

اصطحبها في أوّل موعد لهما بتاريخ 11 أبريل 1959 إلى السّينما، غير

أنّها علّقت فيما بعد أنّ بوب لم يكن يحبّ الذهاب إلى المطاعم والسينما والنّوادي لتمضية الوقت. بتاريخ 30 من شهر يوليو تمّت الخطوبة بينهما. «كان والداه سعيدان للغاية، إلاّ أنّ والدي إيفون كانا متردّدين في البداية لأنّ بوب كاثوليكي، وهي تربّت وفق تعاليم كنيسة والديها اللوثريّة. في الحقيقة، عندما تقاعد والدها من البحريّة دخل في أبرشية الكنيسة المذكورة وأصبح كاهناً. كانت عائلة بليكلي عائلة لوثريّة جادّة.

أضف إلى ذلك أنّه يوجد فارق طبقي. فوالدها روبرت غرام بليكلي مولود في منطقة سان بارندينو في كاليفورنيا ونشأ في أوهايو. ينحدر والداه من أصل أيرلندي وإسكوتلندي. عمل خلال الحرب العالميّة الثانية في البحريّة، في قسم الغوّاصات، وهو من أخطر أنواع الخدمة البحريّة. لقد أمضى الرّجل حياته المهنيّة في تلك الخدمة حتى سنّ التّقاعد، وكان قد ترقّى إلى رتبة قائد بحريّة عام 1960. كان رجلاً عليّ المقام جدًّا بالمقارنة بوالد بوب العامل من حارة روكسبورو، حيث لا مركز ولا مناصب، سوى أنّ الشّاب كان لاعباً في فريق كرة السّلة في الجامعة. غير أنّ بوب كان فتى ساحراً أحبّ إيفون حبًّا شديداً.

كتب بوب لفتاته شيئاً من الشّعر ما زالت تحتفظ به.

هناك أشياء عزيزة كثيرة أريد أن أقولها لك
لكنّني لن أقدر على ذلك حتّى لو مرّ مليون عام
بودّي أنْ أخبرك عندما تكونين إلى جانبي
كيف تملئين حياتي مسرّة وفخراً
ولكن لا توجد كلمات كافية لوصف الكوكب
وما من عبارة تستطيع أن تفي حقّك وصفاً
وبعد كلّ ما قيل وما جرى
بودّي أن أقول لك هذه الكلمات:
أحبّك الآن وسأحبّك أكثر
وأعدك أن أكون مخلصاً
مع حبّي

بوب

كانت إيفون شابّة فائقة الجمال ذات شعر أشقر طويل وعينين زرقاوين، ولها وجنتان بارزتان ورثتهما عن أجداد أمها النّرويجيين. علّق أحد أصدقاء بوب مرّة أنّ إيفون تشبه إلى درجة كبيرة الممثلة النّرويجيّة المعروفة لت أولمن. كانت عندما تمشي تتحرّك بكبرياء وأناقة، وتعرف كيف تختار ثيابها وبدلاتها الجذابة ولكن من دون إفراط. كانت فائقة الأدب ومثالاً لابنة ضابط البحريّة، دون دجل أو تظاهر.

تزوّج الحبيبان بتاريخ 30 أبريل من عام 1960 في الكنيسة اللوثرية، «وهو الأمر الذي أدى إلى استبعاده من الكنيسة الكاثوليكيّة،» كما تتذكّر إيفون. لقد تقبّل الأمر ولم يكن الأمر بالنّسبة إليه مشكلة. كان عليه أن يختار بين الكنيسة الكاثوليكيّة أو إيفون، فاختارها على الكنيسة. ولم يكن ذلك القرار صعباً.

بعد زواجهما دخل بوب امتحان وزارة الخارجيّة وعلم بسرعة أنّه لم ينجح فيه. لكنّه كان مصمّماً على العمل في الشّرق الأوسط، فقرّر أن يقدّم طلباً للانضمام إلى وكالة المخابرات المركزيّة. وفي أواخر شهر حزيران سافر هو وإيفون بالقطار إلى نيويورك حيث جرت مقابلته الأولى. وفي نيويورك ذهب الزّوجان لمشاهدة فيلم ألفرد هتشكوك سايكو. في أواسط شهر أغسطس أدركت إيفون أنّها حامل.

الفصل الثاني

الإعداد والتّدريب

في أواخر السّتّينيات عرضت الوكالة عملاً على أيمز فقبله وعُيّن براتب سنوي مقداره خمسة آلاف دولار. كان ذلك المبلغ كبيراً بالنّسبة إلى شاب من حارة روكسبورو في فيلادلفيا. انتقل بوب وزوجته إيفون إلى العاصمة واشنطن بعد عطلة رأس السّنة مباشرة، بعد أنْ استأجرا شقة صغيرة مقابل مئة وخمسين دولاراً شهرياً في الجادة رقم 28 في منطقة آرلنغتن بفرجينيا. وصلا إلى هناك بسيّارة فيات إيطالية حمراء اللون كانا أطلقا عليها اسم «علبة الطماطم».

كانت التّعليمات ألاّ يُخبر أحداً عن عمله، بمن فيهم زوجته، ولكنّ الحقيقة هي أنّ أغلب مستخدمي الوكالة يخبرون زوجاتهم. كانت إيفون على علم بحقيقة الأمر، إلاّ أنّ الأقرباء الآخرين كانت لديهم فكرة غير واضحة عن سبب انتقالهما إلى واشنطن. حين عُيّن كلير جورج، الذي أصبح فيما بعد زميلاً لبوب، في الوكالة كتب إلى أمه قبل سنوات «أمّي العزيزة، حصلت على عمل مقابل راتب سنويّ قدره أربعة آلاف وخمسمئة دولار لأكون في خدمة العم سام. لا أدري بالضّبط ما هو عملي ولا أعرف أين ومتى وكيف ولماذا. ولذلك فعليك أنْ تفكّري بالموضوع وتذكري أنّ ولدك المولود عام 1955 يسلك طريقاً غريباً وربّما مؤلماً عليه أنْ يتبعه». ربّما أخبر بوب والديه عن طبيعة عمله بعد أنْ زارهما ضبّاط الوكالة ليحققوا في خلفيته وفي ماضيه، معهما ومع بعض الجيران الآخرين. أخبرت هذن وزوجها أختي بوب أنّه التحق بالوكالة. تقول نانسي «مبدئياً، لم أكن أتصوره يعمل لصالح الوكالة. فذلك ليس بالأخ الذي أعرفه. لم يبدُ لي أنّ بوب هو الشّخص الذي يحبّ أنْ يعرّض نفسه للخطر. ولكن فيما بعد قلنا جميعاً لأنفسنا إن ذلك هو العمل المثالي له. فهو شخص انعزالي يحتفظ لنفسه بالأسرار».

كان وقتاً رائعاً أنْ يكون الشّخص في واشنطن لأنّ جون كنيدي على وشك

أنْ يصبح رئيساً رسميًّا للبلاد. كان بوب وإيفون مسجّلين عضوين في الحزب الجمهوري. ولكن بعد المناظرة التّلفزيونيّة بين كنيدي ومنافسه نكسون قرّرا أنْ يصوّتا لصالح المرشّح الدّيمقراطي. قالت إيفون: «كان أداء نكسون في تلك المناظرة سيّئاً. كنت أميل إلى أنْ أصوّت لصالح الحزب الجمهوري. ولكنّي لم أصوّت إطلاقاً على أساس الولاء للحزب فقط». أمّا بوب فلم يتحدّث مع زوجته في أمور السّياسة، فله آراء محافظة جدًّا حول المرأة، وأنّ مكانها الطبيعي في رأيه هو البيت.

في فصل الشّتاء التحق أيمز ببرنامج تدريب الضّبّاط الجُدد ونُسّب إلى تدريب قسم العمليات السّريّة رقم 11 الذي يستمر سنة كاملة. تأسست الوكالة عام 1947 وكانت تلك السّنة هي السّنة الحادية عشرة التي يُطبّق فيها ذلك البرنامج. كان معه في الصّف خمسة وأربعون رجلاً وامرأة واحدة فقط(*).

تمّ تنسيب الجميع إلى إدارة التّخطيط التي تغيّر اسمها الآن إلى الخدمات السّريّة الوطنيّة. كانت إدارة التخطيط فرع الوكالة المتخصّص بجمع المعلومات بطريقة سريّة. وحين يجتاز المتدرب برنامج DP الذي يستمر عامين يصبح ضابطاً ويُنسّب في العادة للعمل في إحدى القنصليّات أو السّفارات الأمريكيّة تحت غطاء دبلوماسي. وحين يُدرج تحت اسم ضابط احتياط في الخدمة الخارجيّة، فإنّ مسؤولية شخص كهذا هي تجنيد المخبرين وجمع المعلومات الاستخباراتية من المصادر الأجنبيّة. إنّ منهج تدريب العمليات رقم 11 يعلّم المساهمين أصول المهنة، وكيف يمكن أنْ يلاحظوا ويقيّموا المخبرين المتوقّعين وكيفيّة تجنيدهم وتدريبهم. كان عجب أيمز كبيراً لتمضية الوقت: «جلوساً خلف طاولة». لم يكن الأمر أكثر من بيروقراطيّة. كان على المتدرّبين أوّلاً أنْ يحفظوا عن ظهر قلب صفحة من الأسماء السّريّة لمختلف أقسام الوكالة وعمل كلّ قسم منها. كانت الصّفوف تُعقد في بنايات مطلية باللون الأبيض وقديمة تبدو وكأنّها مباني ثكنات

(*) كان اسمها هاريت أيسوم، وهي شابّة ذات حضور بارز طولها حوالى ست أقدام. تخرّجت في جامعة تفت في كليّة فلاچر للعلوم السّياسيّة. أنهت أيسوم برنامج التّدريب السّنوي، لكنّ الوكالة لم تعيّنها في قسم العمليّات السّريّة. قدّمت أيسوم استقالتها من الوكالة والتحقت بوزارة الخارجيّة، حيث أصبحت سفيرة بعد مرور سنوات عدّة.

من مخلفات الحرب العالميّة الثانية، وكانوا يقولون عنها إنّها «مؤقتة». وبعد سنوات في مطلع الستينيات كانت الوكالة لا تزال تستخدم تلك البنايات الواقعة في شارع أوهايو بالقرب من نهر بوتوماك. كان باستطاعة الفرد أن يرى الأرض من خلال الشّقوق الموجودة في أرضية الصّفوف الخشبيّة. تلقى المتدرّبون محاضرات من قبل رؤساء أقسام الوكالة، حيث حاول كلّ منهم أنْ يكون أشد حماساً ممن سبقه في امتداح فضائل قسمه وخبراته الضّروريّة التي لولاها لما تمكنت الوكالة من أداء واجباتها بشكل فعّال. ونظراً لأن بنايات الصّفوف تقع قرب مطار واشنطن فقد كانت توجد قطعة من الورق المقوّى معلّقة في مؤخرة الصّفوف تذكّر المتحدّثين أنْ يتوقفوا عن الكلام في حالة إقلاع الطائرات وهبوطها. وفوق ذلك، كان هدير الطائرات يهزّ شبابيك الصّفوف القديمة.

في عام 1961 ومع بزوغ فجر رئاسة جون كنيدي وما أطلق عليه مرحلة التّخوم الجديدة، توسّعت الوكالة وأصبحت أكثر بيروقراطية وبلغ عدد منتسبيها نحو ستة عشر ألف منتسب. كانت على وشك أن تنتقل إلى مقرّها الجديد في لانغلي في فرجينيا، وكان مديرها آنذاك ألن دالاس، المحامي المخضرم في وول ستريت والمدير السّابق لدائرة الخدمات الاستراتيجية OSS. وشغل أيضاً منصبي رئيس نشاطات الاستخبارات ومستشار الرّئيس لشؤون الأمن القومي. لقد تعب المنتسبون في حينها من تكرار القول إن دالاس يلبس «ثلاث قبّعات» إلى حدّ أنّ البعض قلّده بسخرية ولبس قبعة حين قدومه للصّف ولبس أخرى حين غادره. لم يبدُ أنّ أحداً انتبه لتلك السّخرية اللاذعة. وفي أحد الأيّام قوبل أحد المتحدّثين بأصوات الاستهجان حين ذكر أنّه «يرتدي قبّعتين». حصل المتدّربون من قسم العمليّات رقم 11 على شهرة لأنهم لم يعودوا يتحمّلون مثل تلك الادّعاءات الفارغة. اظهروا الاستياء في إحدى المرّات لأحد المحاضرين وهو يقول: «سنحمل سارية العلم حتى النّهاية، وسنرى في النّهاية الكلّ وقوفاً تحيّة له». وفي مناسبة أخرى جلسوا صامتين حين وبّخهم أحد الضّباط ونهاهم: «ألاّ يسدّوا مسار المخابرات بتعليقات مترفة منمّقة تافهة».

لكنّ المتدرّبين أظهروا كثيراً من الاهتمام لأربعة أو خمسة من المحاضرين القادمين من مدرسة الوكالة حول الشّيوعيّة العالميّة. كانوا ممّن يدخنون

السّيكار ومثقفين يشربون الخمر، وكلهم يحملون الدّكتوراه في العلوم السّياسيّة والتّاريخ. أخبروا المتدّربين أنّ من واجبهم أنْ يثقفوا أنفسهم حول تعقيدات الحركة الشّيوعيّة. تحدّثوا عن الاختلافات الأيديولوجيّة والشّخصيّات التي تقود الانقسامات في تلك الحركة. أصيب أيمز ورفاقه بالعجب حين علموا أنّ الشّيوعيّة ليست صورة واحدة. هناك قواعد في مهمّة المخابرات وهناك قواعد لا بُدّ من كسرها. عيّنت الوكالة بعد سنوات عدداً من المحللين النّفسيين لوضع صورة العنصر السّريّ الجيّد وصفاته. وكان منْ بين أهم المواصفات هو تمتّعه بدرجة كبيرة من الغموض.

تعرّف أيمز بسرعة إلى عدد من الأصدقاء الجدد وكان أحدهم من مدينة فيلادلفيا. من النّاحية الاجتماعيّة انقسم المتدرّبون قسمين، المتزوّجين والعزّاب. «كانت عادة حفلات الكوكتيل على أشدّها وكنّا جميعاً من روّادها». كما يتذكّر أحد زملاء أيمز. كان تناول المشروبات الكحوليّة القويّة في تلك الحفلات شائعاً، وكان يمكن تناولها خلال تناول الوجبات، ولكن ليس قبلها.

في أواخر شهر مارس من عام 1961، نُقل أيمز إلى أحد «حقول الوكالة» وهو معسكر پيري الواقع على نهر يورك في فرجينيا قرب وليمزبرغ. نُسّب أوّلاً إلى قسم الانضباط العسكري الذي يتولّى حراسة مدخل المعسكر، الذي يُعتبر قاعدة عسكريّة. من المعروف أنّ المعسكر يُعتبر مكاناً للتّدريبات العسكريّة التّجريبيّة للقوّات المسلحة، وكان الجميع يشير إليه باسم «الحقل». كان المتدربّون يقيمون في أكواخ كوونست في غرف منفردة، لكنّهم يشتركون في استعمال الحمّامات والمرافق الصّحيّة. يرتدي المتدرّبون لدى الوصول إلى المعسكر القمصان والبنطلونات القصيرة الكاكية، ويذهبون إلى حفلة كوكتيل يقيمها قائد المعسكر على شرفهم، ولا يلتقون به بعد ذلك. كان صوت البوق يعلن التّعداد الصّباحي والمسائي وينقل عبر مكبّرات الصّوت. بُنيت قاعة الاجتماعات في المعسكر على شكل مسرح روماني في أسفله منصّة للمتحدّث، وأُطلق عليها اسم «الحفرة». يتناول الجميع وجباتهم في قاعة الطعام المركزيّة، وبعد العشاء يذهب بعضهم إلى نادي الضّبّاط حيث يمكنهم شرب الجعة الباردة.

توجد في النّادي طاولة بلياردو وأخرى للعب كرة الطاولة وتلفزيون. كما توجد قاعة صغيرة لعرض الأفلام مقابل عشرة سنتات. كان نوعاً من النّوادي القديمة.

اشترك أيمز والآخرون خلال الأسابيع الاثنين والعشرين التالية في تدريبات عسكريّة على مختلف أنواع الأسلحة وكذلك التّفجيرات. وفي ساحة العرض، تدرّبوا على استعمال البنادق الرّوسيّة AK 47 ونموذج مبكر من M16 والمسدّسات وغيرها من الأسلحة. كانت التّدريبات تشمل إطلاق النّار من وضعية ثابتة ومن سيّارات متحرّكة في ساعات الليل والنّهار. شمل التّدريب كذلك القتال باستعمال الزّوارق والاشتباك بالأيدي وبالسّلاح الأبيض. كان عليهم أنْ يجتازوا مناطق مغطاة بالأسلاك الشّائكة وعدداً من الحواجز الطبيعيّة ويقوموا بحفر مواضع وتأمينها والدّفاع عنها. «ازداد احترامي للحدود التي يمكن الدّفاع عنها وتلك التي تسقط في أيدي العدوّ»، كما يتذكّر أحد المتدرّبين. كما تلقى المتدرّبون دروساً حول كيفيّة التّعامل مع المتفجّرات. «علمت للمرّة الأولى في حياتي أنّ السّماد الزّراعي يمكن أنْ يُستخدم في تصنيع المتفجّرات»، حسب ما ذكر المتدرّب هنري ميلر جونز. «لقد قاموا بتفجير حظيرة للحيوانات باستعمال السّماد الزّراعي». تعلمّ المتدرّبون كيفيّة قراءة الخرائط وقاموا بمسيرات طويلة غير مريحة في الغابات ليلاً. كانت تدريبات مجهدة لكنّها لا ترقى إلى تدريبات مشاة البحريّة. بعد ست عشرة سنة ذهب متدرّب شاب إلى المكان نفسه فكتب يقول: «كان تدريبنا يشبه تدريبات فرق OSS التي ساهمت في القتال خلال الحرب العالميّة الثانية»، كما كتب روبرت بائر في مذكّراته المنشورة بعنوان لم أرَ شيئاً شرّيراً: إن مهمّة ذلك المعسكر كانت إعداد منتسبي الوكالة، وليس إعداد جنود للقتال في ساحات الوغى. وبقدر فهمه لما كان يجري، فإنّ سبب تلك التّدريبات هو إنتاج «روح رفقة السّلاح» في نفوس الضّباط الجُدد وتذكيرهم بأنّهم يختلفون عن أولئك الذين يشغلون مكاتب وزارة الخارجيّة.

بعد فترة قصيرة من الوصول إلى الحقل، وبالذات صباح يوم 17 أبريل من عام 1961 طُلب من الجميع أنْ يحضروا إلى الحفرة وتمّ إشعارهم بأن وحدة من الثوّار الكوبيين وبمساعدة من المخابرات المركزيّة قد نزلت في ساحل خليج الخنازير. كما تمّ إشعار الجميع بتطور العمليّة خلال الأيّام التي تلت ذلك.

«مبدئياً، صفّقنا فرحاً»، كما يقول أحد زملاء أيمز من المتدرّبين. «لكنّ حماسنا تحـوّل إلـى صمـت عندمـا تبيّنت لنا حـدود الكارثة، فأصيـب الجميع بالجزع». كشـف بن راميز، وهو أحد مشـاة البحريّة من أصل مكسـيكي أمريكي، أنّه قبل أشـهر عدّة من ذلك قد أرسِـل في مهمة قصيرة للوكالة في ميامي. كانت مهمّته هي المسـاعدة في تدريب بعض الثوّار الكوبيين. أصيب راميرز بالإحباط حين أدرك أنّ كثيـراً مـن الرّجـال الخيّرين الذين درّبهم قد سـقطوا قتلى خلال عمليّة الغزو. لم يكنْ هناك شعور بالذنب، بل حزن عميق.

بعـد أسـابيع عـدّة حضـر المفتّـش العـّام للوكالـة ليمـن كركپاترك ليشـرح للمتدرّبيـن حقيقـة مـا جـرى. كان المذكـور من كبـار ضبّاط الوكالـة قد أصيب بمرض الپوليو خلال عمله في بانكوك عام 1952، وما زال يجلس على كرسيّ متحـرّك. تحـدّث كركپاتـرك بشـكل تفصيلـي عـن عمليّـة غزو خليـج الخنازير. وعندما فرغ من كلامه أخبر الحضور أنّه سـيعود إلى نادي الضّبّاط بعد العشـاء وسيكون مستعدًّا للتّحدث إليهم والإجابة عن كل أسئلتهم. مكث كركپاترك حتّى ساعة متأخّرة من ذلك المساء وهو يجيب عن أسئلة الحاضرين. لم يوجّه لوماً للرّئيس كنيدي ولا للوكالة لفشل عمليّة الغزو، التي وصفها بأنّها أعدّت ونُفّذت بشكل مهني، لكنّها انتهت نهاية مفجعة. أخبر الحاضرين أنّه سيرأس لجنة تحقيق لمعرفة أسباب فشل واحدة من أشهر المغامرات المحرجة للوكالة. ترك وجود كركپاترك لساعات طويلة انطباعاً جيّداً في نفوس أيمز وزملائه.

انتقد تقرير لجنة كركپاترك، الذي أميط اللثام عنه فيما بعد، بشكل لاذع مخططي عملية خليج الخنازير وألقى باللائمة خاصّة على عاتق ريچارد بيسل وتريسـي بارنز. فصل كنيدي الأوّل في مطلع عام 1962، وحلّ محلّه ريچارد هلمـز كنائـب لمديـر العمليّـات السّـريّة. كما فُصِل رئيـس الوكالة ألن دالاس فـي شـهر نوفمبـر من عام 1961، وعيّـن محلّه جون مكّون، وهو رجل أعمال جمهوري. وقبل أن يترك دالاس مقرّ عمله قام بجمع تسـع عشـرة نسـخة من تقريـر كركپاتـرك وقـام بإتلافها. النّسـخة الوحيدة المتبقيّة ظلّـت طي الكتمان لمـا يقـارب أربعيـن عامـاً. في عام 1966 عندما أصبح هلمز مديراً للوكالة قام بفصل بارنز.

بعـد ثلاثـة أسـابيع مـن فشـل العمليـة: مُنح أيمـز إجازة قصيـرة ليذهب لزيـارة إيفـون التـي كانت على وشـك أن تلد طفلتها الأولـى. بتاريخ 11 مايو مـن عـام 1961 ولـدت الطفلـة كاثرن، وبعد أيـام قليلة، كان عليه أنْ يعود إلى المعسكر. لم يخبر زوجته بما كان يعمل هناك، واكتفى بالقول إنّه يتلقى نوعاً من التّدريب.

إثـر عودتـه مـن زيارتـه القصيرة لطفلتـه المولودة حديثا إلـى الحقل أصبح أيمز على علم تامّ بمهمة المعسـكر الرّئيسـيّة وهي معرفة كيفيّة تجنيد المُخبرين والتّعامل معهم. قد يبدو التّدريب العسكري الذي تلقاه من قبل فائقاً، ولكنّه ليس بنافع له في أداء مهامّه في المسـتقبل. توجّه هو وزملاؤه صباح أحد الأيام إلى الحفرة حيث تسـلّم كلّ منهم نسـخة من كتاب ضخم بعنوان سـيناريو لمشـاكل حيّة. طُلِـب منهـم أنْ يتخيّلـوا أنّ كلاًّ منهم يعمل في مكتب للوكالة في بلد ما. أعطـى الكتـاب اسـماً مفترضـاً لذلـك البلد ونبـذة تاريخيّة ومعلومـات جغرافيّة والعملة المستعملة ومعلومات ثقافيّة ومعلومات عن الحكومة وكلّ شيء يمكن أنْ يواجهه ضابط الوكالة في ذلك البلد. تمّت تسمية أعضاء الحكومة وأعضاء الأحزاب المعارضة.، وتمّ تزويد معلومات تفصيليّة شخصيّة عن كلّ من هؤلاء. كما تمّت تسمية الضّبّاط الكبار ومسؤولي المخابرات أيضاً. طُلِب من المتدرّبين أنْ يحفظوا تلك المعلومات عن ظهر قلب. يقول أحد المتدرّبين: «إنّ سـيناريو المشاكل الحيّة أصبح حقيقة واضحة بالنّسبة إلينا، وأنّ الدّرجة التي يستطيع كلّ منّا أن يغمر نفسه بها ذات علاقة كبيرة بأدائنا في الحقل».

تـمّ تقسـيم المتدرّبيـن إلى خمس أو سـت مجموعات يقـود كلاًّ منها أحد مسـؤولي التّدريب ويكون دوره بمثابة مدير مكتب الوكالة في ذلك البلد، وأنّ المجموعـة ضبـاط للوكالـة يعملـون تحت إمرته. أُنيطت بـكل فرد مهمة واحدة بالـذّات، والشـيء المُتوقـع مـن الضابـط أنْ يعمـل لوحده وبشـكل مسـتقلّ عن الآخرين. أعطي كلّ واحد اسماً افتراضياً هو John O. Thorne كي يُستعمل في المراسـلات الرّسـميّة. أمّا المتدرّبة الوحيدة فقد سُـمّيت Jane O. Thorne. أدرك المتدرّبون أن JOT كانت تعني ضابطاً صغيراً تحت التّدريب.

كتب أحد زملاء أيمز من مجموعة JOT معلقاً على تلك التّدريبات:

> بالرّغم من أنّنا أصبحنا نعرف الشّخصيّات في مختلف السّيناريوهات ونعرف قصص حياتهم وأسرارهم، إلا أنّنا لم نقابل إطلاقاً أحداً منهم. ولكن أيًّا يكن الأمر، فقد قابلنا بعضهم ممن كانوا أقلّ درجة ممن كان لهم مجال للاتصال بهم أو بمن يعملون مع بعض الوزراء الحكوميين وموظفي دوائر الدّولة. اتصلنا أوّلا بمخبرينا. كنّا نلتقي بهم حين يتغير الضّباط المسؤولون ويحل آخرون محلهم، أو في لقاءات حين يُعاد تفعيل خطط سابقة، مع كلّ ما تتطلبه من الإشارات وكلمات السّر. إنّ كل ذلك تطلب معرفة المخبرين معرفة تامّة، وهو ما زاد من استخدامنا لأسس وتقنيات العمليّات السّريّة، والتي تتركّز على البروتوكولات التي أصبحت جزءاً من حياتنا، وهو ما نسمّيه «أصول المهنة».

قيل للمتدرّبين إنّ أصعب مهمة في عملهم هي تجنيد المخبرين، ولا يتمتع كثير من منتسبي الوكالة بتلك الموهبة. وسبب ذلك أنّ التّجنيد صعب جدّا، ويحدث أحياناً بشكل غير متوقع. فهو يشبه عملية رقص بطيئة وتمرين على عزل ولاءات الأفراد وتحويلها من قضيّة إلى قضيّة أخرى. يحدث هذا بشكل نادر حين يستطيع الضابط المتدرّب جعل القضيّة طبيعيّة وتتطابق مع ما يريد الشخص المستهدف أنْ يخبر من يجنّده بذلك. في بعض الحالات نجد أنّ المخبرين يريدون حقاً أنْ يصبحوا مخبرين، وأغلبهم يأتون إلينا طوعاً، بمعنى أنّهم يعرضون علينا خدماتهم. وقد تحصل عمليّة التّجنيد عن طريق الإعجاب بثقافة ضابط الوكالة. بمعنى أنّ الضابط يظهر تعاطفه ويحاول معرفة وجهات نظر الشّخص المستهدف. وقد يدعوه للعشاء، ويمنحه عادة بعض المحفّزات المشجّعة. وهكذا يقود شيء إلى شيء آخر. وفي النّهاية، لا بُدّ من الحصول على توقيع الشّخص المُستهدف على اتّفاق مكتوب. وهذه رقصة سايكولوجية. ففي اللحظة التي يُعطي فيها المخبر المُستهدف آراء أو يدلي بمعلومات مقابل بعض المردود المالي أو غيره، تبدأ عندئذ اللعبة. غير أنّ الجانب الآخر من العمليّة، كما يقول أحد المتدرّبين مع أيمز وعمل فيما بعد معه، «هو ضمير الشّخص وإحساسه بما يفعل. قد يبوح بذلك أحياناً وقد يخفيه في حالات أخرى. يحاول أغلب النّاس أنْ يبرّروا أيّ شيء يجعلهم لا يشعرون بالذنب

مهما كانت الأدلة موضوعيّة. غير أنّ بعضهم الآخر قد يشعر بالذنب لأيّ سبب آخر. ويمكن معالجة الحالتين لصالحنا».

يجتمع أفراد JOT مع «مخبريهم» في لقاءات سريّة خارج حدود الحقل، عادة في المطاعم أو الحانات أو الأسواق القريبة من مدينتي وليمزبرغ ورتشموند. كان يُخطط لكلّ لقاء تخطيطاً كاملاً. يجب أن يكون الضّابط المتدرّب متأكّدا أنّه ليس تحت المراقبة عندما يلتقي بالمخبر. تعلم أيمز كيف يعدّ للقاء في مكان آمن وأنّه والمخبر غير مُراقبَين. تعلم المتدرّبون كيف يتمّ الاتصال بالمخبرين عن طريق ترك «تعليمات أو معلومات» في شقّ شجرة أو حفرة قريبة منها، أو تحت بلاطة في أرضية الغرفة. كما تعلّموا كيف يخططون لاجتماعات سريّة في بيوت آمنة. تعلم المتدرّبون أنّ عمليّة التّجنيد تتطلب كثيراً من الوثائق المكتوبة عن كلّ مخبر. تتفاوت المكافأة المالية التي يحصل عليها المخبرون من مئات الدّولارات في الشّهر إلى ستة أرقام في بعض القضايا المهمة غير الاعتيادية. ومن الطبيعي أنْ يُفتح للمخبر حساب في بنك، عادة في الولايات المتّحدة. وفي بعض الحالات يُمنح المُخبرون صك تأمين على الحياة. ويُطلب من المخبر أنْ يوقع على أنّ ما يتقاضاه لا يخضع لاستقطاعات ضرائب الدّخل أو الضّمان الاجتماعي طوال فترة عمله. تُحفظ نسخة من ذلك الإشعار في مركز الوكالة في لانغلي تحسّباً لوقوع شيء ما. وعكس ذلك المُخبرون من حاملي الجنسيّة الأمريكيّة أو البطاقة الخضراء، إذ تخضع المكافأة لتلكما الضّريبتين.

في فترة متأخّرة يقوم المتدرّبون الذي يلعبون دور المُخبرين مع الضّبّاط المتدرّبين بعملية تقييم لكلّ منهم. تعلم أيمز أنّه بعد كل لقاء مع مخبر أجنبي وجب عليه أنْ يكتب «تقريراً» عن كيفيّة ترتيب اللقاء وماذا قيل خلاله وما هي المعلومات ذات القيمة الاستخباراتيّة التي حصل عليها. إنّ ترتيب تلك اللقاءات وتقييمها تتطلب تخطيطاً ودقة وكأن الفرد يقوم بعمليّة مخبريّة، وإلا ستكون تلك عمليّة غير علميّة. إنّ أصعب قسم في تلك العلاقات الإنسانيّة هو التّعرّف إلى الشّخص. لقد تعلّم أنّ العلاقة بينه وبين المُخبر يجب أن يسودها الغموض وأحياناً الخديعة. وكقاعدة عامّة فإنّ المخبر يعرف فقط الاسم المستعار لضابط الوكالة حين يتّصل به. ومع ذلك فإنّ العلاقة بينهما هي علاقة حقيقيّة. يجب

أن يشعر المخبر أنّ الضّابط المسؤول عنه يتعاطف مع ظروفه وقضيته وحياته. يجب أن يكون هناك مستوى من الثقة يجعل المخبر يعتمد اعتمادا كليًّا على ضابط الاتّصال به من حيث سلامته وحسن أحواله.

إنّ بناء علاقة جديدة ليس بالأمر السّهل. وربّما ما يماثله صعوبة هو تنسيب المخبر إلى ضابط وكالة آخر. إنّ العلاقة بين المُخبر المأجور والضّابط المشرف عليه ليست بذات جدوى إذا لم يكن ممكناً المحافظة على استمرار العلاقة مع ضابط آخر. غير أنّ نقل المخبر لعهدة ضابط آخر يتطلب معرفة تامّة في سيرة ذلك المخبر. يتذكّر أحد المتدرّبين «في نهاية الأسبوع الثاني والعشرين من التّدريب، طلب منّا نقل كلّ مخبر إلى ضابط آخر، أو إعادة الارتباط به بعد طول انقطاع. لم يتم التّوصّل إلى حلول ناجعة لكلتا المسألتين، وأعطانا هذا درساً لما قد تكون عليه الحياة المهنيّة. إنّ العمليّات السّريّة نادرا ما تنتهي إلى نتيجة ناجحة منتظمة ومقنعة».

حقق أيمز نجاحاً كبيراً في تلك التّدريبات وحصل على المرتبة الأولى بين 46 متدرّبا كانوا مسجّلين في مساق العمليات رقم JOTs 11 ونال سمعة طيبة لهدوئه ورباطة جأشه وقدرته الحسّيّة على حلّ المشكلات. لكنّ سمعته شابها شيء من الخلل خلال تدريبات الحقل الليليّة التي كانت بمثابة اختبار نهائيّ. عند مغيب الشّمس في أحد الأيّام أعطي كلّ من المتدرّبين مصباحاً يدويًّا وبوصلة وطلب منهم أن يجدوا طريقهم في غابة كثيفة لمسافة تمتدّ عدّة أميال. ولكي يُحال دون استخدام الطرق بدلاً من التّحرّك بين الأشجار، أُبلِغوا بأنّ الانضباط العسكري سيبعث سيّارات جيب على شكل دوريّات متحرّكة وأنّهم سيكونون مزوّدين بمسدّسات ورشاشات تطلق قذائف صوتيّة على المخالفين. اتفق عدد من المتدربين بأن يقلبوا الطاولة على مدرّبيهم وقرّروا أن يلقوا القبض على رجال الدّوريّة ويستولوا على أسلحتهم ويستعملوا سيّاراتهم للوصول إلى الأهداف المطلوبة. بعد أشهر من التّدريبات المنهكة كان يُفترض أن يكون ذلك تمريناً نهائيًّا لعملهم كرجال عصابات متمرّدة.

حين تحرّكت الحافلة لتنقلهم إلى أماكن انطلاقهم قال أيمز بصوت مسموع: «أشعر أنّ قوّتي تعادل قوّة عشرة رجال لأنّ قلبي طاهر». كان غريباً أن يتبجّح

بذلك لكنّ المتآمرين معه كانوا متحمّسين لتنفيذ خطّتهم. بدأت الحافلة تتوقف عند كل خمسين ياردة لينزل منها واحد من المتدرّبين ويتوجّه إلى عمق الغابة كما كان مطلوباً. صاح أحدهم: «يسقط فيدل!» وصاح متدرّب من أصل أيرلندي «البسي حمّالة صدر، يا أرن!» وصرخ أيمز بالفرنسيّة ما معناه: «ما ألذّ الجنس الفموي!» يتذكّر أحد المتدرّبين قائلاً: «فوجئنا أنّ كلاماً من هذا القبيل يصدر عن أيمز، لكنّ كلّ من كان داخل الحافلة انفجر ضحكاً».

تمّت خطّة التّمرّد على أكمل ما يُرام. ذهب معظم المتدرّبين يتلمّسون طريقهم وسط الغابة المظلمة، كما طلب منهم، غير أنّ أيمز وزمرته نصبوا كميناً لسيّارة الجيب الأولى. حين اقتربت ألقى أحدهم بنفسه على الطريق متظاهراً بأنّه مصاب. وعندما توقفت الجيب قفز منها عدد من رجال الانضباط ليتبيّنوا حقيقة الأمر، ففاجأهم أيمز ومن معه من الخلف وجرّدوهم من سلاحهم وأخذوهم أسرى ودفعوا بالجيب بين الأشجار. وحدث الشيء نفسه لعدد آخر من سيّارات الجيب ورجال الدّوريّة الذين كانوا فيها. بعد ساعات حضر أيمز وزمرته إلى نقطة التّجمّع النّهائيّة، وهم يقودون السيّارات بصحبة أسراهم من حرس الانضباط، وهم مستغرقون في الضّحك.

أمل المشاركون في تلك العملية أنْ يقابل فعلهم بالاستحسان لحسن التّخطيط وجودة التّنفيذ، لكنّهم كانوا على خطأ جسيم. فالوكالة مؤسسة بيروقراطيّة. وفي الوقت الذي أبدى فيه بعض المدرّبين غبطتهم بشكل غير علني، فإنّ قيادة الحقل كانت تغلي حنقاً. يتذكّر أحد المتدرّبين فيقول: «جمعونا ووجّهوا لنا نقداً لاذعاً. لقد كانت تلك مناسبة أرادوا منّا جميعاً أنْ نتذكّرها بشكل جيّد. بدلاً من التّخرّج ضبّاطاً صدرت الأوامر بأنْ يُعاد تدريبنا ثانية». رغم التّأنيب الشّديد اللهجة، فإنّ ما حدث تلك الليلة شاع وانتشر في مكاتب المكتب الرّئيسي للوكالة وأروقته في لانغلي. أصبحت العضويّة في فرقة العمليّات رقم 11 وسام شرف خصوصاً بين أولئك الذين يخططون العمليّات السّريّة وينفذونها. ومع أنّ تخرّج أيمز قد تأخّر عن موعده، ففي النّهاية لم تؤثر عمليّة التّمرد أو تلحق الأذى بوظيفته.

بعد التّخرج من الحقل كان المجال أمام المتدرّبين مفتوحاً أنْ يتطوّعوا

لمزيد من التّدريبات العسكريّة في مركز التّدريبات على حرب الغابات في ثكنة شيرمن في منطقة قناة بناما. لم يتطوع أحد للذهاب إلى هناك سوى أيمز. تضمّنت تدريبات حرب الغابات مزيداً من التّدريب على الأسلحة والقفز بالمظلات والقيام بخمس قفزات من طائرات C47. أمّا الاختبار النّهائي فتضمّن ثلاثة أيّام من التّدريب الفردي، حيث يُنقل المتدرّب بالمروحية إلى أعماق الغابة مزوّداً بسكين وبوصلة فقط. يُطلب منه الوصول إلى مدينة معيّنة. كان التّدريب هناك صعباً، لكنّ أيمز اجتاز ذلك بنجاح باهر. قام بآخر قفزة له بالمظلة في شهر أكتوبر وتخرّج بتاريخ 22 نوفمبر من عام 1961.

تمّ تعيين أغلب زملائه في الاتّحاد السوفيتي وأوروبا الغربيّة. كان بعضهم قد التحق قبل ذلك بمدرسة عسكريّة لتعلم اللغة الرّوسيّة. وبطبيعة الحال، كان الاتّحاد السوفيتي هو هدف الوكالة الرّئيسي لجمع المعلومات الاستخباراتيّة وتجنيد المخبرين، لكنّ أيمز كان قد أعلن من قبل أنّه مهتمّ بالشّرق الأوسط. الكلّ يعرف أنّه بدأ دراسته العربيّة وأنّه يرغب في دراسة مزيد منها. كان من الطبيعي أن يُنسّب للعمل في قسم الشّرق الأدنى الذي كان يرأسه ضابط أسطوري في الوكالة اسمه جيمس كرچفيلد (1917-2003) الذي يُعرف أنّه واحد من «بارونات» الوكالة. وصف كرچفيلد عمليّات الوكالة في المنطقة خلال فترة الخمسينات بأنّها «فترة رعاة البقر». كان مصمّماً أنْ يُحدث درجة عالية من المعرفة والتّعقيد على عمليّات الوكالة في المنطقة(*). في مطلع الحرب العالميّة الثانية، كان لدى الأمريكيين قليل من المعرفة المهنيّة والخبرة عن العالم العربي. يقول دوان كلارج وهو ضابط متمرّس في العمليّات السّريّة وأصبح فيما بعد أحد المدراء الذين عمل أيمز بإمرتهم: كانت واشنطن تعتمد بشكل كبير على المعلومات التي تحصل عليها من البعثات التّبشيريّة والعاملين في ميدان الصّناعة النّفطيّة.

(*) الجدير بالذكر أنّ كرچفيلد هذا قد قام بتوفير المساعدة والدّعم للقيام بانقلاب على الزّعيم العراقي عبد الكريم قاسم وقتله والمجيء بحزب البعث إلى السّلطة. وهو الأمر الذي مهّد لبروز صدّام حسين واستيلائه عليها بعد خمس سنوات.

كان رجال الوكالة في الشّرق الأوسط خلال فترة شخصيّات كبيرة ومتميّزة. ومع أنّه كان مفروضاً بهم أنْ يكونوا ضباطاً سريين، فإنّ العديد منهم قد خلق لنفسه شخصيّة تشبه الشّخصيّات المسرحيّة. فمثلاً آرچي روزفلت وابن عمّه كرمت روزفلت (الذي خطط للانقلاب على الدّكتور مصدّق وعودة شاه إيران إلى الحكم - المترجم) ومايلز كوپلاند ولبور غرين إيفلاند وجيمس رسل بارك قد امضوا سنوات عدّة يجوبون الأزقة الخلفيّة لبيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وطهران، وكانوا معروفين من قبل العاملين في الميدان الصّحافي. وذات مرة ذكر ولتن وين مراسل مجلة تايمز ساخرا أنّ كوپلاند: «هو الشّخص الوحيد الذي يستعمل الوكالة كغطاء». في الحقيقة، إنّ كوپلاند هذا اعتبر قضيّة المخابرات لعبةً رياضيّةً وألّف كتاباً بعنوان لعبة الأمم: أخلاقيّة القوّة السّياسية. وحدث الشيء نفسه بالنّسبة إلى إيفلاند، الذي ذكر هو الآخر عن تاريخه الاستخباراتي وألّف كتاباً بعنوان حبال من الرّمل، تحدّث فيه عن دوره في دفع الجنرالات السّوريين للقيام بسلسلة من الانقلابات العسكريّة. والحق يُقال إنّ أولئك الضّبّاط السّريين الذين كانوا يظهرون وكأنهم يلعبون بشكل افتراضي لعبة المغامرة كانوا على قدرٍ عالٍ من الكفاءة في أعمالهم.

لم يمتلك أيّ من هؤلاء معرفة عميقة بتاريخ العالم العربي وثقافته، وأمضوا حياتهم المهنيّة يمدّون أيادي العون للملوك والعسكريين المحافظين لإبقاء الوضع على حاله. وأكثر من ذلك، فإنّ هؤلاء المتخصّصين بالشّرق الأوسط لم يكلّفوا أنفسهم عناء تعلّم اللغة العربيّة، وإنّ قليلاً من الذين ادّعوا ذلك مثل ري كلوز وأخيه آرثر كلوز ووليم أدي، عمل آباؤهم في البعثات التّبشيريّة الأمريكيّة، وقد تعلّموا العربيّة عندما كانوا أطفالاً واقتصر تعلّمهم على فترة قصيرة.

في الوقت الذي التحق فيه أيمز بقسم الشّرق الأدنى عام 1961، كان يُعتقد أنّ القسم المذكور هو «جناح النّخبة» في الوكالة. السّبب في ذلك أنّ تعلم العربيّة ليس سهلاً وأنّ القليل من الضّبّاط الذين يستمرون في تعلمها هم من النّوع الذي يكرّس حياته لمهنته. يذكر پيتر آرنست وهو أحد الضّباط المتمرّسين في خدمة الوكالة في أوروبا والشّرق الأوسط لمدة خمسة وعشرين عاماً «أنّ الأفراد يذهبون إلى هناك ويبقون في أماكنهم». في نهاية عام 1961 علم أيمز

أنّه سيتمّ تعيينه في الخارج فانكبّ يدرس العربيّة لمدة ستة أشهر. وفي مطلع صيف عام 1962 تمّ تعيينه في الظهران. يمكنُ القول إنّه موقع صعب، لكنّ أيمز كان بالغ السّعادة. كان عمره وقتئذ ثمانية وعشرين عاماً.

عند تأسيس الوكالة عام 1947 كان ثلث منتسبيها من العاملين السّابقين في دائرة OSS، التي تمّ حلها بعد الحرب. كان أغلب رجال OSS من أبناء الطبقة العليا وخريجي أفضل الجامعات من قبيل ييل وهارفرد وكان بعض منهم خبراء في سوق المال في وول ستريت، أو أنّ آبائهم عملوا هناك. كان رئيس الدّائرة المذكورة وليم دونافن، الذي كان محامياً في وول ستريت، وجنّد بعض زملائه للعمل في تلك الدّائرة خلال الحرب العالميّة الثانية. أقنع دونافن وغيره من رجال السّياسة الخارجيّة لفترة ما بعد الحرب مثل محامي عائلة روكفلر، جون مكّلري، الرّئيس هاري ترومن بتأسيس وكالة مدنيّة للمخابرات المركزيّة. كان في ذهنهم أنّ الوكالة ستعيّن شباباً لهم خلفيّات شبيهة بخلفيّات من كانوا في دائرة OSS. ولذلك فإنّ الجيل الأوّل ضمّ أشخاصاً مثل ألن دالاس ووليم بندي وجون بروس وكرمت روزفلت ودزموند فيتزجيرالد وتريس بارنز وفرانك وايزنر وريچرد بيسيل ومايك بيورك. وهم جميعاً من الذين وجّهوا انتباههم بشكلٍ كليّ أو شبه كليّ نحو ما هو خارج عن ذواتهم، ومن المؤمنين «باللعبة الكبرى» للمخابرات بحماس لا يشوبه الخوف. كان أكثرهم خريجي مدرسة غروتن الإعدادية للمتميّزين في ولاية كنتيكت الذين واصلوا دراستهم في الجامعات الكبرى من قبيل ييل وهارفرد وپرنستن. ومن التحق منهم في جامعة ييل انضم دون شكّ إلى الجمعيّة الماسونيّة التي مركزها هناك. فهم لا يؤمنون فقط بأمريكا بكل ثقة، بل يعتقدون أنّهم سيفرضون إرادتها في الخارج عن طريق الاستعمال الحاذق لعمليّات «الخنجر والمعطف» المصحوبة باستعمال بعض الأموال. استطاعوا بنجاح خلال أربعينيات القرن الماضي وخمسينياته من قلب نظامي الحكم في غواتيمالا وإيران عن طريق عمليّات سريّة مثيرة.

لم يكن هؤلاء من بين الأشخاص الذين عرفهم بوب أيمز وتربّى معهم في فيلادلفيا، إطلاقاً. فهو لم يكنْ من أبناء الطبقة النافذة، لكنّه كان ذكيًّا وطموحاً.

وبالرّغم من ابتعاده عن المظاهر، فإنّه لم يؤمن بقيم المؤسسة التي تربّوا عليها. كما أنّ جون مكّلري ينحدر من عائلة فقيرة. فأبوه حلاق، ونشأ في بيئة عمّاليّة في فيلادلفيا في الجادّة رقم 20 في شمال المدينة، ليس بعيداً عن البيت الذي سكنه جدّه لأبيه. حصل مكّلري على زمالة ودرس في كليّة آمهرست، ثمّ واصل الدّراسة في كليّة القانون في هارفرد. ترقّى في صفوف المؤسسة رغم أصوله المتواضعة، وكان معروفاً بواقعيّته. كان المخبرون الذين جنّدهم يشعرون بالاطمئنان لتمتّعه بتلك الصّفة.

يختلف أيمز عن مكّلري لأنّه لنْ يكون قادراً على تولي المركز القويّ الذي تولاّه الأخير. غير أنّه يتمتّع بالصفات المتواضعة جدًّا نفسها. وبالمناسبة، فإنّ أحد رجال الوكالة الكبار في عام 1962 وهو ريچرد هلمز، نشأ ليس بعيداً عن فيلادلفيا. لم يكن هلمز قد قابل الضّابط الجديد أيمز لكنّ الأخير كان بالتّأكيد يعرفه ويعرف أنّه رئيسه الأعلى. من النّتائج التي نجمت عن فشل عمليّة خليج الخنازير هو خسارة ريچرد بيسل لمنصبه. هو واحد من أبناء الذوات وخسر منصبه كنائب مدير تخطيط العمليّات، وحلّ محله ريچرد هلمز في مطلع عام 1962، وأصبح رئيس العمليّات السّريّة في الوكالة.

كان هلمز واضحاً في حذره من قيام الوكالة بعمليّات عسكريّة. لقد علمته التّجربة أنّ جمع الاستخبارات مسألة أهمّ وأنّ العمليّات السّريّة المعروفة سلفاً ليست ذات مردود إيجابي لجمع المعلومات. كانت لديه فلسفة متكاملة حول المخابرات، ويبدو أنّ أيمز قد تأثّر بها تأثّراً كبيراً. وبعد مرور سنوات قليلة أصبح من أصدقائه وحوارييّه. قام هلمز بدفع أيمز وترقيته لمناصب أعلى في الوكالة. وأصبح جليّا أنّ الأخير كان ضابطاً واعداً يحظى برعاية المتنفّذ هلمز. «كان هلمز وأيمز متشابهين إلى درجة كبيرة». على حدّ قول أحد ضبّاط المخابرات السّابقين لندسي شرود. «كانا رجلين لطيفين بكل ما للكلمة من معنى، يعطيان للياقة والذوق قيمة عالية. لم يكونا من المرتزقة الذين غالباً ما يُستخدمون في تنفيذ العمليّات».

كان دك هلمز شخصاً غامضاً بالنّسبة إلى الكثير من الأشخاص الذين عملوا معه. كان اسمه السّريّ في الوكالة فلاچر نايت، وربّما يمكن اعتباره من

أنصار المدرسة القديمة في الجاسوسيّة. كان له حضور أرستقراطي متحفّظ. وهو يختلف عن أيمز بكونه ينحدر من أسرة متنفّذة ونشأ في مدينة مترفة نوعاً ما من الناحية الاقتصادية. كان أبوه مديراً تنفيذيًّا لشركة الكوّا المتخصّصة بصناعة الألمنيوم. وُلد هلمز عام 1913 ونشأ في مدينة ساوث أورنج في ولاية نيوجرزي. أرسلته عائلته إلى أوروبا عندما كان في المرحلة الثانويّة ليمضي سنتين، الأولى في مدرسة Le Rosey في سويسرا، وقضى السّنة الثانية في مدرسة جمنيزيم في مدينة فرايبرغ في ألمانيا، فتمكّن من إجادة اللغتين الفرنسيّة والألمانيّة إجادة تامّة. في عام 1935 تخرّج في كليّة وليامز، وهي كليّة متميّزة في ولاية ماساتشوستيس. حصل بعد التّخرّج على عمل في ألمانيا كمراسل لوكالة الأسيوشيتد پرس، فغطى عام 1936 دورة الألعاب الأولمبيّة الصّيفيّة. وفي خريف ذلك العام وجد نفسه مع بعض الصّحفيين الآخرين يجرون مقابلة مع أدولف هتلر في قلعة نورمبرغ.

عاد هلمز إلى الولايات المتّحدة بعد أنْ أمضى عامين في أوروبا، يحدوه الأمل بأنّه سيمتلك صحيفة في يوم ما. اعدّ نفسه لذلك بقبول عمل كمدير للإعلانات في صحيفة إنديانا پولس تايمز. وفي الوقت الذي بدأ يتعلم فيه كيفيّة إدارة الصّحف، هاجمت اليابان پرل هاربر، فسارع للالتحاق بالبحريّة. نُقِل بعد سنة إلى دائرة OSS فخضع أوّلاً لتدريب عسكري في أحد حقول المنظمة. كان تدريبه مشابهاً لما تدرّب عليه أيمز في أحد حقول الوكالة في ولاية مريلاند، حيث اشتمل على تدريبات على الأسلحة والقتال بالسّلاح الأبيض وأساليب جمع المعلومات المخابراتيّة. هو أيضاً طويل القامة ويتمتّع بلياقة بدنيّة ممتازة. غير أنّه مع مرور الوقت أدرك أنّ ما تعلّمه في ذلك الحقل لا علاقة له بميدان عمله في الجاسوسيّة. لم يُطلق النّار مرّة واحدة ولم يستعمل سكيناً لقتل أحدٍ ما. وكما يذكر توماس پاورز، الذي كتب سيرة حياته فيما بعد تحت عنوان الرّجل الذي حفظ الأسرار حيث قال: «يظهر من الخارج أنّ الجاسوسيّة والعمليّات السّريّة قد تبدوان شيئاً واحداً، لكنّ الحقيقة هي أنّ كلاًّ منهما لها روح مختلفة. فالمجموعة العسكريّة التي تقوم بالعمليّات السّريّة غالباً ما تجلب الانتباه إلى الجانب الذي تقف معه، وبالتّالي إلى نفسها... لكنّ الجاسوسيّة إذا ما تمّت

بالطـرق الأصوليّـة، فلـن تُعلـن عن نفسـها. والمعلومات التي تحصـل عليها أو تسـرقها تظلّ طيّ الكتمان. فالجاسـوس موظف مدني موثوق به، والجاسـوس الأفضل هو الذي لا يفصح عن شيء إطلاقاً».

لقـد تعلـم هلمـز تلـك المبادئ عندمـا كان يدير عمليّـات OSS في الدّول الإسكندنافيّة التي استهدفت جمع المعلومات من مخبرين لهم اتّصالات بألمانيا وقت الحرب. لم تكن تلك عمليّات عسكريّة سريّة، بل جمع وتصنيف معلومات يتـمّ «شـراؤها» مـن رجال أعمال وصحفيين وموظفيـن مدنيين من الطبقة الدّنيا. كان «الكلام» هو أهمّ عنصر في تلك العمليّات.

كتب پاورز عن هلمز: «إنّ أصدقاءه قالوا عنه إنّه عمل وفق مبدأين. أوّلهما أنّ المخابرات السّريّة مهمة وثانيهما أنّ العمليّات العسكريّة ليست بذات شأن». كما أنّ الأفراد هم الذين يمكنهم سرقة الوثائق السّريّة، وليس الأجهزة والمكائن. ولكن حتّى الوثائق الحكوميّة تكون أحياناً عديمة الفائدة. كتب كِم فلپي العميل المعروف للمخابرات السـوفيتية الذي عمل لصالح المخابرات البريطانيّة وأنهى حياته المهنيّة في موسكو، «إنّ الوثائق ليست مهمّة بحدّ ذاتها، لكنّها ذات جاذبيّة تغري القارئ أنْ يعطيها وزناً أكثر ممّا تسـتحقه. إنّ سـاعة من الحديث الجدّي مـع مخبـر موثـوق بـه أكثـر قيمة من أيّ عدد مـن الوثائق الأصليّـة». ثمّ أضاف فلپي بسرعة «طبعاً، من الأفضل أنْ نحصل على النّوعين معاً». ولكنْ إذا كانت معلومـات المخبريـن أساسـية، فإنّهـا تقوم على مبدأ فن إجـراء المحادثة، وهذه مهارة بالغة التّعقيد.

حـاول هلمـز بعـد الحـرب ولفترة قصيـرة أنّ يعود إلى الميـدان الصّحفي، لكنّه أدرك أنّه لا يملك الأموال اللازمة ليؤسّس صحيفة. كان بحاجة إلى عمل. ولذلـك فإنّـه عنـد تأسـيس الوكالـة عـام 1947 انضمّ إليها وحصـل على منصب ضابط كبير في مكتب العمليّات الخاصّة. وفي عمر 33 سنة، كان يدير شبكة من المخبرين في ألمانيا والنّمسـا وسويسـرا. خاض مع بداية الحرب الباردة صراعاً بيروقراطيًّا داخل الوكالة، وهو يدافع عن رأيه بأنّ الجاسوسيّة والعمل الهادئ في جمع الاسـتخبارات أكثر أهميّة من النّشـاطات السّـريّة التي تشبه الألعاب النّاريّة التي كان يقودها فريق فرانك وايزنر.

كان هلمز سياسيًّا معتدلاً من معادي الشّيوعيّة في فترة الحرب الباردة، ولكن ليس بالتّأكيد لأسباب عقائديّة. كان هادئاً غامضاً داهية وعمليًّا في الوقت نفسه. عندما سُئل في أحد الأيّام «ما هي المواصفات التي يجب أنْ يتميّز بها مدير مكتب الوكالة؟». أعطى ردّه الغامض: «أنْ يقوم بواجبه خير قيام حتّى يتمّ تغييره لسببٍ من الأسباب». كان يتحاشى المناقشات التي تقود إلى «فوضى الادّعاء بالأخلاقيّة». وفي تلك المناسبات النّادرة حين يقترح أحد الحاضرين اغتيال مخبر انحرف عن مهمّته، كان هلمز من أوّل المعترضين. كان يعتقد أنّ اللجوء إلى العنف أسلوب غير عملي وغير فعّال ومكلف. إنّ العمليّات السّريّة العنيفة عادة ما تجد أخبارها في الصّحف. وهذا ما يجلب كثيراً من الانتباه للوكالة. أعتقد أنّ مثل ذلك السّلوك سيزيد من صعوبة جمع المعلومات السّريّة. ومن جهة أخرى، يعتقد هلمز أنّه يعمل في مهنة قذرة. كان يحبّ القول: «لسنا أعضاء في فرقة كشّافة، ولو أردنا أنْ نكون أعضاء في فرقة كشّافة لفعلنا ذلك». لقد نفّذ هو بنفسه وخطّط لعدد من العمليّات، لكنّه دائماً كان الرّجل الوحيد في الغرفة الذي يطرح أصعب الأسئلة، التي غالباً ما تضطرّ زملائه أنْ يخفّفوا من حدّة العمليّات وشدّتها، وأنْ يكونوا شديدي الحذر ويحتاطوا تخفّياً خلال تنفيذها. وهذا ما جعل حضوره الاجتماعات مدعاة للعصبية عند البعض.

خسر هلمز عدداً من المعارك البيروقراطيّة في الخمسينيات، وغالباً ما أثّر ذلك على مهنته. فمثلاً، كان من المستحيل تجاهل حجم المعلومات التي حصل عليها فريق رچرد بيسّل عندما بعثوا بطائرات التّجسّس U2 إلى الأجواء السوفيتية. كانت صور المعسكرات والأهداف، أفضل بكثير من تلك التي «زوّدنا بها أفضل مخبرينا السوفيت وهما پيوتر پوپوف وأولغ پنكوفزكي»، حسب اعتراف هلمز نفسه، الذي أضاف يقول: «وهي صور باهتة وغير دقيقة». ولذلك فإنّه لم يُصَبْ بالعجب عندما تجاوزه ألن دالاس في التّرقية وعيّن بيسّل في خريف عام 1958 ليكون نائباً لمدير الوكالة في شؤون التّخطيط. وكما يوضح هلمز الأمر «لقد سيطر جامعو المعلومات عن طريق استعمال التّكنولوجيا على الموقف، مقابل أولئك الذين يؤكّدون على العنصر البشري في عمليّة التّجسّس. كانوا يقولون: «أعطونا الأموال، واتركوا الأمر لنا». يبدو الأمر جذاباً. فلماذا نخاطر بتجنيد

المخبريـن وعندنـا مـن التّكنولوجيا التي تعطينا جواباً لكل ما نسـأل عنه؟ وهذه هي المغالطة بعينها... فالتّكنولوجيا لا يمكن أنْ تتنبأ بنوايا الإنسان». هو يعرف أنّ رقّاص السّاعة سيعود ثانية إلى موقعه.

كان غزو خليج الخنازير الفاشل هو النّقطة الفاصلة. فأولويّات هلمز أصبحت أولويات الوكالة، على الأقّل خلال العشرين سنة القادمة. ثمّ عاد رقّاص السّاعة يتحرّك نحو المسار الآخر، أي «تقليل الاعتماد على العنصر البشري في عمليّة الاستخبارات HUMINT» والاعتماد بدلاً من ذلك على التّكنولوجيا والعمليّات العسكريّة السّريّة في فترة رئاسة رونالد ريغان ومدير الوكالة وليم كيسي.

الفصل الثالث

العمل في قاعدة الظهران

عُيّن أيمز بوظيفة ضابط مخابرات للوكالة في عام 1962 في قاعدة الظهران في السّعوديّة. حصل في ذلك الوقت تغيّر في «اتّجاه» الوكالة للتّأكيد على تعيين ضبّاط يهتمّون بتطوير المصادر البشريّة. وهو اتّجاه يؤكّد على الكتمان والتّحفّظ والسّريّة. يجب أنْ يتمتع الضّابط بالصّبر والكياسة والسّيطرة على النّفس وعدم التّسرّع في عمليّة تجنيد المخبرين. كما يجب عليه أنْ يسير وفق منهج يسجّل كل التّفصيلات عن كلّ محادثة تدور خلال اللقاءات التي تجري مع المخبرين المرتقبين. أضف إلى ذلك، أنّ الضّابط يجب أنْ يكون لديه حسّ وقدرة على ملاحظة الأشياء من حوله ومراقبتها. كان أيمز يتمتّع بكلّ تلك الصّفات.

يقول ديفد لونغ، وهو محلّل استخبارات في وزارة الخارجيّة الذي قابل أيمز في الستينيات في مدينة جدّة: «إنّ بوب شخص راق جدّا، غير أنانيّ ولا يخاف التّعبير عن رأيه، مثاليّ مع شيء من السّخريّة. هو شابّ من الطراز القديم، ذكيّ ذو خُلُق عالٍ وقدرة على حلّ المشاكل». وحسب قول هاري سمپسن، الضّابط برتبة عالية في الوكالة والذي كان يعرف أيمز في ذلك الوقت: «إنّه أفضل ضابط مخابرات قابلته في حياتي. اعتقد أنّه يمتلك شخصيّة جذابة». ثمّ أضاف قائلاً: «كان قادراً أنْ يظهر تعاطفه مع أيّ شخص إذا وجد في ذلك مصلحة تتعلق بعمله. كان شخصاً ذا حضور يفرض نفسه بفعل طول قامته وبنيته العضليّة».

طار بوب وزوجته إيفون وطفلتهما كاثرن إلى الظهران في مطلع صيف عام 1962. عندما غادروا الطائرة أحسّوا جميعاً بالحرارة والرّياح الرّطبة تلفح وجوههم. تبلغ درجة الحرارة في الصّيف 120 درجة فهرنهايت، فالظهران «فرن عربيّ» وقت الصّيف. حملتهم سيّارة إلى مجمّع القنصليّة الذي يقع على بعد

أربعة أميال عن المطار. بُني ذلك المجمّع في الفترة 1947-1951 على مساحة تبلغ خمسة وأربعين هكتاراً، وبلغت كلفة بنائه ستمئة ألف دولار. يحتوي المجمّع على دوائر القنصليّة ومقرّ القنصل العام الذي يتألف من طابقين وحوالى اثني عشر منزلاً مبنيًّا من الحجر. كان للمجمّع مولّد كهرباء وخزّان ماء وخزّان لمياه الصّرف الصّحي، وكان محاطاً بسياج يبلغ ارتفاعه أربع أقدام لمنع الجمال والماعز العائدة للبدو الرّحّل الذين قد ينصبون خيامهم أحياناً قريباً من المجمّع، وكانت حراسته مناطة بخمسة جنود من مشاة البحريّة. كان يسكن المجمّع خمسة وثلاثون أمريكيًّا بينهم ثمانية من وزارة الخارجية وسكرتيرات وفنيّو إشارات الشّفرة وعوائلهم.

كان بوب أحد ضابطين للوكالة، برفقة رئيسه روبرت كالسن الذي خدم سابقاً في دمشق وبيروت. لم تكنْ الظهران ذات أهميّة كبيرة بالنّسبة للوكالة. ولذلك سُمّيت قاعدة وليس محطة. كان لقب كالسن مدير القاعدة COB. كان للوكالة آنئذ محطة في جدّة لأنّ السّعوديين رفضوا بناء أي سفارة في العاصمة الرّياض. فالمدينة تقع في قلب نجد، التي تعتبر موطن العائلة السّعوديّة المالكة. ولم يسمح السّعوديّون للأجانب بالسّكن هناك حتى فترة السبعينيات.

سُجّل اسم أيمز في دليل هاتف القنصليّة باعتباره ملحقاً تجاريًّا، كما سُجّل كالسن كمستشار سياسيّ للقنصل. وبعد مرور عام أو بعض عام نُقِل الأخير وحلّ محله هارُلد يونغ. كانت مهمّة الضّابطين في قاعدة الظهران هي جمع المخابرات السّياسيّة عن السّعوديّة والإمارات في الساحل الشّرقي لشبه الجزيرة العربيّة، والتي تضمّ الآن دولة الإمارات العربيّة المتّحدة. غير أنّ الهدف الأهمّ هو جمع المخابرات عن كلّ شيء قد يؤثر على وصول أمريكا إلى منابع النّفط العربيّة هناك وعلاقاتها الخاصّة مع أسرة آل سعود. وكبقيّة ضبّاط الوكالة، كان لأيمز اسم سرّي يُستعمل في كل المراسلات والبرقيات التي تُبعث إلى مركز الوكالة في لانغلي، وهو أورن بيدنكويف. كان ضبّاط الوكالة يستعملون في العادة أسماءهم المستعارة حين يشيرون بعضهم إلى بعض عن طريق الكتابة أو الكلام. لكنّ الاسم الألماني المستعار عصيّ على اللفظ، ولذلك أعطاه زملاؤه اسم رامز بدلاً من بيدنكويف. غير أنّ الجميع يعرف من المّرسل عندما

تصل برقية موقعة باسم بيدنكويف. وبطبيعة الحال فإنّ الاتصالات كانت تمتاز بالإيجاز والشّمول، إضافة إلى أنّها قد تكون لاذعة أحياناً.

كان موقع مكتب الوكالة في القاعدة مقابلاً للبناء الذي يشغله القنصل العام. وطبعاً لم يوجد فاصل ولا حتّى أقفال للأبواب. كانت سكرتيرة القاعدة أمريكيّة من أصل لبناني سليطة اللسان، اسمها مارثا شيرر. كانت طاولتها جنب طاولة أيمز الذي وجد صعوبة في التّحرك بين الطاولتين. أمّا كالسن الذي سبق وعمل في مشاة البحريّة وشارك في عمليّات قتاليّة ميدانيّة، فقد كان مكتبه في غرفة مجاورة مظلمة مبنيّة من الحجر. غير أنّ طبيعة عمل الرّجلين تطلبت منهما أنْ يقضيا معظم وقتهما خارج المبنى.

إنّ محطة الظهران أشدّ عزلة من محطة كاغنيو في أريتريا، لكنّ بوب كان محظوظاً من النّاحية المهنيّة إذ كان سيعمل بإمرة ضابط آخر. وهنا كان تحت إشراف رئيس محترف بشكل دائم وتعرّض لكل متطلبات المهنة وأشكالها فتعلّمها جميعاً. ولو كان أُرسل إلى محطة كبيرة، لكان عليه أنْ يتخصّص في جانب معيّن، وتكون فرصته لتعلم الأشياء مباشرة أقلّ. يضع مركز الوكالة أحياناً عينه على ضابط جديد يتوسّم فيه الذكاء والمثابرة فيبعثه إلى قاعدة صغيرة. وهذا ما حدث فعلاً للضّابط الجديد أيمز الذي وصل إلى الظهران وبقي فيها مدة أربع سنوات متتالية.

سكن بوب وأسرته في البيت رقم 8، وهو بيت صغير فيه ثلاث غرف نوم مبنيّ من الحجر وله شرفة أماميّة زجاجيّة. كنت أنا أسكن في البيت المقابل، فقد كان والدي موظفاً في الخارجيّة الأمريكيّة وتمّ نقله إلى الظهران بعد سنة من وصول بوب. ولذلك فإنّه وإيفون كانا جارينا لمدّة ثلاث سنوات حيث أمضيت سنوات عمري الإحدى عشرة والاثنتي عشرة والثلاث عشرة هناك. أتذكّره جيّداً، رجلاً وسيماً طويل القامة له زوجة جميلة جدًّا وطفلة صغيرة، ولم تكن عندي فكرة أنّه ضابط في الوكالة.

كان أثاث بيتهم قديماً كأثاث بيتنا عمره عشر سنوات. كانت لدينا ثلاجة وطبّاخ يعمل بالغاز. لم تكن توجد أقفال على الأبواب، وقال موظف القنصليّة الإداري حينها أنّه لا توجد جريمة في المملكة. كتبت حينها شيئاً عن ذلك

الوضع هذا نصّه:

> كل ما تستطيع مشاهدته صحراء على مدى البصر، توجد تلال يطلقون عليها اسم (جبال) ومناطق فيها قليل من النّباتات والزّروع الخفيضة هنا وهناك. والشيء الأخضر الوحيد في المجمّع كان عدداً من أشجار اليوكالبتوس الهزيلة، وعدداً من أشجار النّخيل التي غُرست في العام الماضي على جانبي الطريق الممتدّ بين القنصليّة ومقر إقامة القنصل. تقف أمام البيت المذكور نخلة باسقة طولها حوالى ثلاثين قدماً وهي تمثل شعار السّعودية الوطني. وتنتشر هنا وهناك أعداد من شجيرات البوغنافيلا الأمريكيّة التي أعطت للمنطقة الباهتة بعض اللون في فصل الشّتاء. كان لهب الغاز مستمراً ليل نهار في منطقة الجبيل القريبة، وكانت رائحة الكبريت المتميّزة تملأ الجو.

الحياة في قاعدة الظهران صعبة، والمُبرّر الرّئيسي لوجود القنصليّة هناك، أنّه على بعد ميل منها يوجد حيّ أمريكي يضمّ ستة آلاف شخص يعملون في صناعة النفط. كانت مساحة الحي حوالى الميل المربع تحيط به الأسلاك الشائكة العالية. وفي داخل تلك الأسوار توجد «قطعة من تكساس». تتكوّن البيوت من طابق واحد وذات سقوف عالية على طراز بناء البيوت في ولاية تكساس، وتفصل بينها ساحات يتفاوت لونها بين الأخضر والبُنّي. كانت هناك مدرسة ومخزن للبقالة وحوض سباحة ودار للسّينما ونادٍ للبولنغ وملعب لكرة البيسبول يقع على شارع كنغ. عندما شاهدت ماري أدي زوجة ضابط الوكالة وقبلها OSS بل أدي، ذلك الحيّ كتبت تقول «إنّ الظهران قطعة من أمريكا».

كان ذلك مركز شركة النّفط العربيّة الأمريكيّة أرامكو، وهي تضمّ اتّحاداً مكوّناً من أربع شركات. اكتُشِف النّفط لأوّل مرّة في السّعوديّة في منطقةِ الجبيل في الظهران في شهر مارس من عام 1938. وبعد خمسة وعشرين عاماً من ذلك التّاريخ ما زالت الآبار تنتج ملايين البراميل، وأنّ البئر رقم 7 وحده ينتج ألف برميل يوميًّا. في الستينيات كانت أرامكو تزوّد الأسواق الأوروبية والأمريكيّة بملايين البراميل من النفط يوميًّا. حافظ منتسبو الشّركة المذكورة على عزلتهم،

وهو أمر انتقدهم أيمز عليه باعتباره شيئاً غير معقول. أُصيب أيمز بالدّهشة عندما قابل أحدهم بعد اغتيال كنيدي فقال له «تعازينا لكم باغتيال رئيسكم». علم بخبر الجريمة في منتصف الليل بتوقيت الظهران. عادت إيفون للنّوم، لكنّ زوجها بقي ساهراً يقطع غرفة الاستقبال جيئة وذهاباً. لم تكنْ لإيفون صديقات سوى بعض النّسوة من زوجات المسؤولين الآخرين، لكنّها لم تشكُ إطلاقاً، فحياتها تدور حول زوجها وطفلتها وشؤون بيتها.

أحبّ بوب الحياة في شبه الجزيرة العربيّة. في بعض الأمسيات عندما تكون الرّطوبة عالية، كان يقطع الشّارع متوجّها إلى ملعب كرة السّلة ليلعب مع حرس القنصليّة وبعض موظفيها. كما كوّن فريقاً سمّاه دببة الظهران فاز في مبارياته مع كل فرق أرامكو. كما عمل في الوقت نفسه على تحسين كفاءته في اللغة العربيّة بأخذ دروس خصوصيّة. وفي رحلة له بصحبة نائب القنصل الجديد رالف أومان عبّر عن افتتانه بحياة القبائل البدويّة. يتذكّر أومان أنّ بوب قد ذكر أنّه اختط لحياته طريقاً بين البدو ومعهم، وأنّه قد يبقى في شبه الجزيرة العربيّة لثلاثين عاماً حتّى يُحال على التّقاعد. كان يأمل العمل في جدّة والكويت ومسقط واليمن. في إحدى المرّات أمضى هو وأومان يومهما يتأملان بقايا الفخار المكسور في موقع أثري اسمه قرّه الذي يعود تاريخه إلى عام 650 قبل الميلاد وإلى عام 300 بعد الميلاد، قرب خليج سيهات وسلوى ويبعد حوالى خمسين ميلاً من واحة الهفوف. لم يجدا شيئاً جديراً بأن يأخذاه معهما، لكنّ أومان يتذكّر بوضوح المحاضرة المرتجلة التي سمعها منه حول تاريخ المنطقة. أشار إليه بأنهّما يقفان في المكان نفسه الذي وقف فيه مؤسّس المملكة عند توقيع معاهدة العقير. وأوضح له أنّ معاهدة 1922 قد أرست الحدود بين السّعوديّة وجيرانها إلى الشّمال.

يتذكّر أومان أنّه ذهِل لمعرفة أيمز الواسعة بالمنطقة. من الواضح أنّ ضابط الوكالة الشّاب قد قرأ الكثير. «لقد أحبّه السّعوديّون لأنّه شخص رائع في محادثاته مع الآخرين. كان طويلاً ووسيماً ومحترماً يتكلم بصوت هادئ مع ابتسامة ساحرة وعينين متألقتين تأسران من يتحدّث إليه. كان عريض المنكبين بشكل يجعلانه كأنّه يطوف حول الرّجال السّعوديين الذين حوله، وليس معروفاً

عنهم أنّهم قصار القامة. كان دائماً يبادرهم الحديث بالقول: «يا شيخ فلان...» كانـوا يشـعرون أنّـه شـخص بالـغ الرّقـة. خلال الأشـهر الأولى مـن وجوده في الظهـران، طلـب مـن أحد السّـعوديين العاملين في أرامكـو أنْ يعلمه كيف يتتبّع أثر الجمال في الصّحراء. دفعته رحلات من هذا القبيل إلى قلب الصّحراء إلى تحمّل المشـاق، غير أنّه وجد فيها إثراء لمعرفته بحياة البدو. كتب أحد زملائه مـن الوكالـة قائـلاً: «العـرب الذين لـم يكونوا يعرفونه أظهروا لـه الاحترام لكبر حجمـه. وعندمـا أصبحـوا يعرفونـه فإنّهـم أحبّـوه لطبعه المـرح ومعرفته بطرائق حياتهم ولطيبة قلبه».

خلال شـهر رمضان، كان موظفو القنصليّة الثّمانية يدعَون إلى وجبة عشـاء كبيرة مسـاء كلّ يوم خميس في قصر حاكم المنطقة الشّـرقيّة الأمير ابن جلوي، الذي قاتل والده جنباً إلى جنب مع مؤسّس المملكة، عبد العزيز بن سعود، في معركة قلعة مصمك في الرّياض. ما زال سيف والد الأمير مغروزاً في باب القلعة تذكيراً بمشـاركته في معركة توحيد المملكة تحت حكم آل سـعود. غير أنّه في تلك الأمسيات كان حريصاً على تقديم القهوة العربيّة للدّبلوماسيين الأمريكيين في ديوانيّته الخاصّة قبل أنْ ينضمّوا لبقيّة الضّيوف. «كنّا ندخل الدّيوانيّة حسب الرّتبـة،» كمـا يتذكّـر أومـان. «وعليه، كنت وأيمز آخر مـن يدخل، هو قبلي وأنا بعده. كنت دائماً أحاول أنْ أعدّ نفسي لمصافحة الأمير لأنّه يصافح بقوّة. وعندما يأتي دور أيمز كان الأمير يمسكه بكلتا يديه، ويتحدّث معه بشكل شخصي حديثاً يبدو أنّ كليهما كان يستمتع به، خاصّة حين يتحدّثان عن موسم ولادة الجمال وجني البلح في منطقة الإحساء».

بعـد أن يشـربوا القهـوة، ينتقـل الضّيـوف الأمريكيّـون إلى خيمـة لينضمّوا إلـى حوالـى مئـة شـخص آخـر ضيوفاً لـدى الأميـر. كان الأمريكيّـون يتوزّعون للجلوس حول موائد دائريّة ذات قوائم قصيرة يجلس حول كلّ منها اثنا عشـر شـخصاً. يتوسـط كلّ مائدة صحن يبلغ قطره أربع أقدام مملوء بكميّة هائلة من الأرز المخلوط بالتّمر أو الزّبيب وفوقه خروف أو معزاة مشـويّة محمّرة. «كان السّـعوديون يتزاحمـون علـى الطاولـة التـي يجلس عندها أيمز، لأنّـه كان يتكلم العربيّة معهم بطلاقة. كان يروي لهم النّكات ويستمتع بأكل الطعام معهم ومثلهم،

مستعملاً يديه، ويضحك ويمرح ويظهر سروره أنّه معهم مستمتعاً بصحبتهم».

في مرّات نادرة دعت إيفون وبوب بعض الأصدقاء للعشاء، لكنّهما لم يميلا إلى الحفلات الكبيرة. فبيتهما صغير وبوب ضخم. يتذكّر أومان: «كان حضوره طاغياً، ولكن بطريقة وديّة جدًّا. كان نفسه مضيافاً رائعاً، رحّب بنا دائماً إلى بيته. والآن تعود بي الذكرى بعد مرور هذه السّنوات وكيف كان يتصرّف وكأنّه بدوي كريم يرحب بالضّيوف إلى خيمته ويعاملهم بطريقة الكرم العربي التّقليديّة بحيث يجعلهم يشعرون بالرّاحة والأمن في خيمته. ولا عجب، فقد كان متميزاً في كلّ ما عمله».

لم يمضِ أيمز وقتاً كثيراً مع الأمريكيين، خاصّة أولئك العاملين في شركة أرامكو. كان ضابطاً في الوكالة وكانت مهمّته إقامة العلاقات مع السّعوديين. الاستثناء من تلك القاعدة هي علاقته بأحد العاملين في الشّركة في قسم العلاقات الحكوميّة رونالد أروين متز، الذي عمل سابقاً في دائرة OSS والوكالة فيما بعد. كان هو الآخر طويل القامة اجتماعياً ضحكته صادرة من القلب وله خلفيّة مثيرة. قفز بالمظلة خلال الحرب العالميّة خلف خطوط الأعداء في الصّين. بعد أنْ وضعت الحرب أوزارها، وجد نفسه يتحدّث اللغة الصّينيّة بطلاقة. وحاله كحال منتسبي OSS سارع للالتحاق بالوكالة التي بعثته إلى بيروت ليتعلم اللغة العربيّة في الجامعة الأمريكيّة. بعد تخرّجه وحصوله على شهادة الماجستير متخصّصاً في شؤون الشّرق الأوسط عام 1954، عيّنته شركة أرامكو وبعثته إلى الرّياض ليكون موظف الارتباط بالملك سعود الابن الأكبر لمؤسّس المملكة، الذي توفي في العام السّابق. فُسِح له المجال أن يتّصل بالملك متى شاء. في منتصف الخمسينيات أصبح متز أحد ندماء الملك في جلساته المسائيّة ومقرّباً ربّما أكثر ممّن يثق به من الأجانب. عندما كان رون يذهب إلى زيارة الملك كان الأخير يستقبله في ديوانه الخاصّ. يجلب الخدم أقداح الشّاي الأسود المحلاة جدًّا بالسّكّر، وبعد لحظات يُصرفون ويُنحّى الشّاي جانباً.

كانت سياسة واشنطن في ذلك الوقت، كما هي عليه الآن، تقوم على مساندة العائلة المالكة. ولذلك فإنّ علاقة متز بالملك كانت نافعة جدًّا من حيث الحصول على المعلومات السّريّة حول ما يجري داخل القصر الملكي

والمملكة بشكل عام. ومما لا شك فيه أنّ الملك أطلع متز على تعقيدات العلاقات القبليّة، وساعده على تحسين كفاءته في اللغة العربيّة. كانت العلاقة بينهما وديّة ومثمرة. وخلال وجوده مع متز، أصبح بإمكان أيمز أنْ يطلع على تعقيدات سياسة القصر.

أمضى أيمز كثيراً من وقته يجوب في سيّارته الصّحارى. كان يحبّ أن يتوقف عند مخيّمات البدوّ الرّحل ليتحدّث معهم. أخبر فيما بعد ضابط آخر اسمه هنري ملز جونز أنّه كان يُدعى أحياناً إلى مآدب عشاء تشريفيّة في خيام البدو السّوداء، حيث يجلسون على السّجّاد الفارسي يتناولون الخراف المحمرة على النّار المفتوحة. كانوا يكرمونه كعادتهم في منحه شرف أن يأكل عيني الخروف المحمر، وهو شيء لم يكن بوب يحبّه لكنّه داوم على فعله تعبيراً عن تقديره لهم.

إنّ اهتمام بوب بشخصيّة البدو لم يكن فقط مردّه إعجابه بهم وبثقافتهم وعاداتهم ونمط حياتهم فقط، بل هدف أيضا إلى تأمين علاقات معهم للحصول على ثقتهم لكي يطلعوه على المعلومات التي تخصّ نمو حركة القوميّة العربيّة والحركات المتمرّدة الأخرى في المنطقة.

في أحد الأيام الأخيرة من عام 1964 طلب القنصل العام جاك هورنر حضور أيمز إلى مكتبه بصحبة نائب القنصل الجديد البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً باترك ثيروس. أخبرهما أنّه قد تلقّى دعوة من الأمير سعود بن جلوي لحضور مراسم إعدام أحد المدانين بالسّيف علناً في ساحة المدينة العامّة. قال إنّه ليس على مزاج ليحضر مراسم الإعدام، وطلب منهما أنْ يذهبا نيابة عنه. «اعتقد بوب أنّها فرصة لا تعوّض لإقامة بعض الاتصالات المحليّة،» كما يتذكّر ثيروس، الذي أضاف قائلاً: «في الحقيقة كان متحمّساً جدًّا لحضور تلك المراسم».

في اليوم المقرّر استقلا سيّارة القنصليّة وقطعا مسافة تسعة أميال للوصول إلى السّاحة المركزيّة في مدينة الدّمام، حيث تجمّع حشد كبير من النّاس. كان رجال الحرس الوطني المدجّجين بالسّلاح يطوّقون السّاحة. أحضِر الشّخص المُدان الذي كانت جريمته قتل ولد صغير من إحدى العائلات المعروفة بعد أنْ اعتدى عليه. كانت عائلتا الضّحيّة والمدان حاضرتين، وكان الجو مشحوناً

بالغضب لشناعة الجريمة. حضر الأمير ابن جلوي بنفسه المراسم. وخلافاً لما كان يجري عادة من تنفيذ الحكم من قبل سيّاف، أمر الأمير أن يُعطى السّيف لأخ الضّحية الأكبر ليضرب عنق الرّجل المدان. تقدّم الأخ صوبه، وبدلا من ضرب عنقه، غرز السّيف في ظهره بشكل متعمّد فجرحه جرحاً بالغاً. انطلقت صيحات الغضب والاحتجاج من عائلة الرّجل الجريح، وأسرع رجال الحرس لضبط النّظام. في تلك اللحظات همس أيمز بأذن رفيقه وقال بهدوء: «أعتقد أنّه يجب أنْ نغادر المكان الآن». سارعا في مغادرة السّاحة عن طريق أحد الأزقة القريبة. وبعد لحظات سمعا صوت إطلاقة ربّما صوّبها أحد رجال الحرس إلى رأس المُدان فأرداه قتيلاً. يتذكّر ثيروس أنّ أيمز لم يظهر أيّ إحساس أو يعبّر عن رأي وهو يشاهد ذلك المشهد. حافظ على هدوئه المعهود، لأن تلك هي الطريقة لتحقيق العدالة في ذلك البلد.

قضى ثيروس وقتاً طويلاً بصحبة أيمز. كان منصبه في القنصليّة أول عمل له في الخارجيّة الأمريكيّة. كان يعرف أنّه ضابط في الوكالة لأنّه كان يُقدّم بتلك الصّفة خلال اجتماعات القنصليّة الأسبوعيّة. كانت القنصليّة صغيرة وكل شخص يعرف عمل الآخر. كانت مهمّة ثيروس هي وضع أختام التأشيرة على جوازات طالبيها. غير أنّه وأيمز كانا الوحيدين من منتسبي القنصليّة اللذين يسافران إلى البحرين بشكل منتظم. كان أيمز يذهب للبحرين للاجتماع برجال المخابرات البريطانيّة هناك لتبادل المعلومات. يكون ثيروس أحياناً بصحبته، غير أنّ مهمّته تختلف وتقتصر على ملء حقيبة سفر بزجاجات الشراب ليأتي بها إلى السّعوديّة. كانت سلطات المطار هناك تعرف جيّداً ماذا في حقيبة الدّبلوماسي الأمريكي، لكن كانت لديها تعليمات بالتّغاضي عن عمليّات «التّهريب الدّبلوماسي» من صنف كهذا.

في صيف عام 1965 طُلب من ثيروس السّفر إلى البحرين لجلب مزيدٍ من زجاجات الشراب، لأنّ القنصل العام كان ينوي إقامة حفلة كبيرة بمناسبة احتفالات عيد استقلال البلاد التي تجري بتاريخ 4 يوليو من كلّ عام. بعد أنّ حطّت الطائرة في مطار الظهران، حمل حمّال الحقيبة الثقيلة، ثمّ أسقطها فتردّدت في أروقة المطار أصوات الزجاجات وهي تتكسّر، وامتلأ الجو برائحة الشراب.

طُلِب من ثيروس أنْ يترك الحقيبة هناك ويعود مساء لاستلامها عندما لا يكون هناك ناس فضوليّون كثيرون. كان طول ثيروس لا يتجاوز خمس أقدام وثمانية إنشات ووزنه حوالى مئة وخمسة وستون رطلاً. وهو الأمر الذي اضطره أن يُقنع بوب لاصطحابه مساء. حين وصلا إلى المطار في حدود السّاعة العاشرة وجدا الحقيبة المشكوك فيها وقد وُضعت في المخزن. يتذكّر ثيروس أنّ «بوب شابّ طويل القامة مفتول العضلات يزيد وزنه عن مئتي رطل. ولذلك أمسك بالحقيبة وألقاها على كتفه بسهولة، لكنّه عاد فوضعها على الأرض. يبدو أنّه أحسّ بألم في أسفل ظهره. بقي ذلك الألم ملازماً له في السّنوات القادمة».

رغم الألم الذي نتج عن تلك الحادثة، أصبح بوب وثيروس صديقين حميمين. يتذكّر الأخير: «إنّ لبوب القدرة على استخلاص الجانب المضحك المسلي في كلّ موقف، مهما كان سيئاً». لم تكن إيفون أو بوب يميلان إلى دعوة الآخرين إلى بيتهما، الذي تحوّل بسرعة إلى حضانة للأطفال. ففي يوم 13 من شهر يونيو عام 1963 وضعت إيفون طفلة سمّاها أدريان. وُلدت الطفلة في المستشفى المحليّ بمدينة الخُبر، وهي مدينة تبعد بضعة أميال عن مجمّع القنصليّة. وبعد مرور عام آخر كانت إيفون حاملاً من جديد. وُلدت البنت كرستن في المستشفى نفسه بتاريخ 6 فبراير من عام 1965. توجد الآن ثلاث بنات صغيرات في البيت رقم 8. لم يكنْ هناك مجال لدعوة أحد لتناول العشاء. «لكنّ إيفون قرّرت أنّه لا بأس أنْ أكون الطفل الآخر للعائلة، ممّن يجب إطعامه»، حسب قول ثيروس. «كنت أزورهما باستمرار وأبقى أحياناً لرعاية البنات عندما يودّان الذهاب إلى مكان ما. كانت عائلة محبوبة ومتماسكة جدًّا».

في صيف عام 1966 حزمت إيفون وبوب أمتعتهما في الظهران وشحناها إلى بيروت، حيث كان مقرّرا له أن يدرس العربيّة بشكل مكثف لمدة عام كامل هناك. وفي الوقت نفسه منحت أرامكو بوب منصباً براتب عال جدًّا إذا ما قرّر الالتحاق بها. غير أنّه فضّل البقاء في عمله مع الوكالة، لأنّه يعتقد أنّ طبيعة عمله هي الخدمة العامّة. أمضى بوب وإيفون إجازة ذلك الصّيف في الولايات المتّحدة لزيارة الأهل والأقرباء في بوسطن وفيلادلفيا. وفي شهر سبتمبر وصلا إلى بيروت وسكنا والبنات في شقة جميلة غرب بيروت، تبعد قليلاً عن شارع

الكورنيش ومنطقة رأس بيروت المعروفة. كانت تلك المنطقة مركزاً لأناس كثيرين ذوي ثقافات متعدّدة من الطبقة الوسطى بينهم المسيحيون والدّروز والمسلمون، كما أنّه في عام 1966 كان لا يزال في بيروت آلاف عدّة من اليهود اللبنانيين. تقع في المنطقة أيضاً الجامعة الأمريكيّة التي أسّست قبل حوالى قرن. كان بجوارها كثير من محلات بيع الأزياء الشهيرة والمقاهي والحانات وقاعات السينما التي تعرض أفلاماً باللغات الفرنسيّة والعربيّة والإنكليزيّة. شُغِل بوب بدراسة العربيّة خلال أيام الأسبوع. وفي العطلة كان يصطحب زوجته وبناته إلى نادٍ ريفي في الجبل شرق بيروت. عندما لا يذهبون إلى هناك، كان يمضي العطلة في مطالعة الكتب عن تاريخ الشّرق الأوسط وسير الرّجال المهمّين. كان يحصل على تلك الكتب بأثمان زهيدة جدّا من مكتبة الخيّاط، وهي أقدم مكتبة لبيع الكتب قريبة من الجامعة على جادّة بلس.

لدى وصول بوب إلى بيروت اصطحبه أحد زملائه إلى حانة داخل فندق السان جورج، وهو الفندق الرّئيسي في المدينة خلال فترة الخمسينيات والستينيات وحتّى السبعينيات. كان هو المكان الذي تنزل فيه الشّخصيّات الأجنبيّة البارزة، وكانت حانته النبع الذي يرتوي منه الدّبلوماسيّون والصّحفيّون ووكلاء المخابرات المختلفة في المدينة. يحيط البحر الأبيض المتوسط بالفندق من ثلاث جهات. ومن هناك يمكن للمرء أن يشاهد البحر أو رؤوس الجبال المغطاة بالثلوج شرقاً. استخدم الفندق مئتين وخمسة وثمانين شخصاً لخدمة نزلاء مئة وعشر غرف. تقول جين برتولي، مديرة الفندق حينها: «كنت أشعر أنّ نزلاء فندقي يديرون شؤون الشّرق الأوسط، بل العالم أجمع أحياناً». كان يتردد عليه رجال الأعمال والمال مثل جون مكّلوي وبول غتي ودانيل لودوغ عندما يحضرون إلى بيروت لمتابعة صفقاتهم. كما أنّ صحفيين مثل جو أسلوب من محطة NBC وكذلك جون چانسلر كانا مقيمين دائمين هناك. كما أنّ جاسوس الاتّحاد السوفيتي الشّهير، البريطاني كِم فلبي كان يترع هناك أقداح الشراب قبل فراره إلى موسكو بتاريخ 23 يناير من عام 1963. كتب فيما بعد في مذكّراته: «إنّ بيروت واحدة من أكثر المراكز نشاطاً وحيويّة للتّهريب والجاسوسيّة في العالم». لقد عشق المدينة وحنّ إليها. يتذكّر الصّحفي أنتوني براون مراسل صحيفة

الدّيلي ميل البريطانيّة: «كلّ شيء وكلّ شخص يمرّ بها». وكحال بقيّة المراسلين الصّحفيين، استعملت لورن جنكنز عنوان حانة الفندق لاستلام رسائلها.

كان منصور بريدي بوّاب الفندق لفترة طويلة، وهو مسيحي ماروني «يعرف كلّ شخص»، حسب ما أفادت به جنكنز. يصل إلى الفندق عند منتصف النّهار صحفي له علاقات متعدّدة اسمه محمد خليل أبو ريشة(*) ويُسمى أبا سعيد. يتردّد هذا الرّجل على الفندق ليوطد علاقاته مع الصّحفيين الآخرين وهم يتناولون وجبة الغداء. عمل أبو سعيد في وقت سابق في صحيفة النيويورك تايمز، وبحلول عام 1966 تحوّل للعمل في مجلة تايم. عرف أبو سعيد كل المتردّدين على الفندق، بمن فيهم مدير مكتب وكالة المخابرات الأمريكيّة ومدير مركز المخابرات المصريّة. كانت فترة استطاع فيها الصّحفيون من قبيل أبي سعيد تبادل المعلومات مع المخابرات المختلفة مقابل معرفة القليل مما يجري خلف الجدران ليبعثه إلى مجلة تايم. وبمرور الوقت انتشرت إشاعات أنّه يعمل لصالح المخابرات الأمريكيّة، وهو أمر أنكره أبو سعيد على الدّوام. من الواضح أنّه كان يميل إلى الجانب الأمريكي، وما من شكّ أنّه زوّد الوكالة بما يحصل عليه من المعلومات. «يبدو لي أنّه لم يكن مجنّدا للوكالة»، حسب ما كتب ولبر كرين إيفلاند، أحد ناشطي الوكالة في الشّرق الأوسط خلال فترة الخمسينيات: «إنّه فقط يعتقد أنّ الأمريكيين أصدقاء للعرب».

كان ابنه سعيد أبو ريشة يعمل مراسلاً لمحطة إذاعة أوروبا الحرّة، وألّف فيما بعد عدداً من الكتب التي تطرّقت إلى تاريخ المنطقة. ألّف عام 1989 كتاباً عن فندق السان جورج وحانته، قال فيه: «بالنّسبة إلينا نحن الذين عايشنا حانة الفندق في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، لم تعد الحياة كما كانت عليه إطلاقاً. ستكون ذكريات تلك الحانة ماثلة في أذهاننا، طوال حياتنا الخاوية الآن ووجودنا أين كُنّا».

(*) بعد سنوات عدّة، ادعى أحد ضباط الوكالة وهو آرچي روزفلت أنّه جنّد أبا ريشة عميلاً للوكالة في أواخر الأربعينيات، وأنّ اسمه الحركي هو PENTAD. هذا وقد أيّد هذه الرّواية الابن سعيد أبو ريشه في حديث له مع الصّحفيّة النّرويجيّة كرستن تفيت، حين قال إن والده قد أسرّ إليه قبيل وفاته بأنّه كان فعلاً عميلاً لوكالة المخابرات المركزيّة.

رغم أنّ أيمز يعرف بالتأكيد بعض من يتردّد على حانة الفندق بشكل منتظم، لكنّه لم يكن واحداً منهم. لم يلتقِ بأبي ريشه. كان يكرّس وقته عام 1966 لدراسة اللغة العربيّة، ولم يعمل على تجنيد أحد. لكنّه لم يكنْ قطعاً من روّاد الحانة. فضّل أن يقضي وقته إمّا بممارسة التحدث باللغة العربيّة في أسواق بيروت أو مساعدة زوجته للاهتمام ببناته الصّغيرات.

الفصل الرّابع

ما بين عدن وبيروت

بحلول ربيع عام 1967، أُبلِغ أيمز بنقله إلى صنعاء عاصمة اليمن الشّمالي. ونظراً لأنّ البلاد كانت تتلظّى بسعير حرب أهليّة طاحنة، لم يكن من المتوقع أنْ تصاحبه إيفون والبنات. ثمّ اندلعت حرب 5 حزيران. قبل شهر من قيام الحرب ومع تزايد التّوتر، بعثت إسرائيل تقرير مخابراتها إلى الرّئيس جونسن، أعلمته فيه أنّها ربّما ستُهزَم أمام العرب. وخلال ست ساعات فقط وضع محللو الوكالة الكبار تقييماً ورد فيه: «إنّ إسرائيل قادرة على دحر الجيوش العربيّة مجتمعة خلال أسبوعين، بغض النّظر عمّن سيبدأ الحرب». اعتقد دك هلمز أنّ الإسرائيليين حاولوا دفع الرّئيس الأمريكي لكي يعطيهم الضّوء الأخضر للقيام بهجوم استباقي، وبالتّالي يخوّل الجيش الأمريكي فتح أبواب مخازن السّلاح أمامهم. طلب جونسن عندها من هلمز الحذر ومراجعة التّقييم. قام المحللون بواجبهم وأرسلوا تقريراً مفاده أنّ إسرائيل ستكسب الحرب خلال أسبوع واحد فقط. وكما حدث فإنّ تقرير الوكالة المذكور كان بفرق يوم واحد. استطاعت القوّات الإسرائيليّة خلال ستة أيام احتلال القدس الشّرقيّة والضّفة الغربيّة وسيناء بكاملها(*).

كانت حرب حزيران هزيمة للعالم العربي بأكمله، وخاصّة جمال عبد النّاصر وشعاراته العربيّة القوميّة العلمانيّة. لقد كانت عاراً لحق بجيل كامل من العرب المتعلّقين بالوهم. من جهة أخرى، قوّضت نفوذ الولايات المتّحدة في الشّرق الأوسط ونجم عنها مغادرة أربعة وعشرين ألف مواطن أمريكي من الذين كانوا يعملون في المنطقة. ضجّت شوارع القاهرة ودمشق وبيروت بالمظاهرات الصّاخبة المعادية لأمريكا، وقطعت مصر ومعظم الدّول العربيّة علاقاتها مع الولايات المتّحدة. عندها ألغي تنسيب أيمز إلى صنعاء، وطُلِب منه التّوجّه إلى

(*) هضبة الجولان السّوريّة – المترجم.

عدن بدلاً من ذلك. كانت عدن وقتها محميّة بريطانيّة في جنوب اليمن.

عادت إيفون للحمل للمرّة الرّابعة، وفي ذلك الصّيف أكمل بوب دراسة برنامج اللغة العربيّة المكثف لمدة تسعة أشهر. أمضت العائلة صيفها ما بين واشنطن العاصمة وبوسطن حيث ولدت الطفلة كِرن بتاريخ 30 أغسطس. حضر بوب من العاصمة لمشاهدة طفلته الرّابعة المولودة حديثاً. وفي مطلع سبتمبر طار إلى عدن، التي كانت هي الأخرى ساحة حرب لأسباب وجيهة.

قبل توجّهه إلى عدن كان مطلوباً منه أن يجتاز اختباراً روتينيًّا، كاشف الكذب polygraph. اعتقد أنّ ذلك الإجراء مضيعة للوقت، فقال للشّخص المسؤول عن الجهاز في النّهاية: «لماذا لم تسألني سؤالاً واحداً ذا معنى، هل استطعت تجنيد عميل أجنبي؟ ونكون بذلك قد انتهينا». لم يكن الرّجل سعيداً بتلك التّعليقات. طار أيمز إلى لندن في أواخر سبتمبر وأمضى ليلتين في فندق كمبرلاند القريب من ساحة هايد پارك. اختار ذلك الفندق عن عمد لأنّه ليس بعيداً عن متجر كتب فرانسس إدواردز، المعروف ببيع الكتب القديمة والذي تأسّس عام 1855. وجد هناك عدداً من الكتب التي أحبّ اقتنائها، لكنّه كتب إلى زوجته: «لم يكن عندي ما يكفي من النّقود لكي أشتريها». إلا أنّه عبّر عن أسفه لذلك. «كلما فكّرت في الخرائط الجيّدة التي فيها، أزداد غضباً من نفسي. ولكن ما هو الجديد؟ يمكنكِ أنّ تسمّيني \السيّد متردّد». كان بحكم تنشئته الفقيرة شديد الحرص في قضيّة صرف المال.

في مساء الاثنين الموافق 2 أكتوبر 1967 غادر لندن إلى القاعدة الأمريكيّة في طرابلس عاصمة ليبيا، ومنها إلى نيروبي، وأخيراً نزل في عدن قرابة السّاعة التاسعة والربع صباحاً. فوجئ عندما لاحظ أنّ الطائرة حين توقفت، أحاطت بها ثلّة من الجنود البريطانيين وأصابعهم على الزّناد، وحامت مروحية فوق المنطقة زيادة في الأمن. ونظراً لأنّه يحمل الجواز الأخضر الدّبلوماسي، فإنّه اجتاز بسرعة قسم الجمارك، وقابله عند باب الخروج القنصل العام وليم إيغلتن وموظف آخر من القنصليّة. حين غادروا المطار لاحظ وجود جنود الفرقة البريطانيّة الخاصّة المعروفين بقبّعاتهم المتميّزة والمتسلّحين برشاشات وهم

يتموضعون خلف ستائر من الأكياس التّرابية. كتب لزوجته: «الجنود منتشرون في كلّ مكان، وهو شيء مروّع». كانت الشّوارع شبه خالية من المارّة والجدران مغطاة بمختلف أنواع اللافتات والشّعارات السياسيّة. بُنيت عدن على منطقة صخريّة بركانيّة، وكانت جدران بيوتها الملوّنة المتميزّة المبنيّة على شكل قلاع تنتشر عليها آثار الطلقات النّاريّة. استطاع أيمز أن يرى عن بعد مياه الميناء الفيروزيّة. ذهب الجميع إلى مبنى القنصليّة القريب من الميناء، وتعرّف هناك إلى مدير محطة الوكالة آرثر مارتن نينر، وهو أيضاً من نخبة شمال شرق الولايات المتّحدة. كان يرتدي بذلة قطنيّة مخططة وقميصاً ويطوق عنقه بربطة من ماركة بروس برذرز. تزّوج من امرأة ألمانية فائقة الجمال قبل توجهه إلى عدن. كان منصبه العلني ضابطاً للشؤون السياسيّة، أمّا أيمز فبدأ العمل تحت غطاء ملحق تجاري. كان واحداً من سبعة رجال في تلك القنصليّة.

بعد أسابيع من وصول أيمز إلى عدن، لاحظ دِك رون، وهو ضابط صغير للوكالة هناك، أنّه عندما كان عائداً إلى شقته تبعه شخص مجهول. خاف أنْ يُختطف أو يُقتل، فأسرع الخطى نحو شقته. في اليوم التالي أمر نينر رجاله أن يسلحوا أنفسهم بمسدسات براوننغ من عيار 9 ملم، غير أنّ بوب قرّر ألاّ يفعل ذلك. كتب إلى زوجته يقول: «لو أرادوا استهداف أحد، فالعادة هنا إطلاق النّار عليه من الخلف وهو لا يدري. أيّ نفع سيجني من يحمل مسدس براوننغ من عيار 9 ملم؟».

شاهد بتاريخ 14 أكتوبر من عام 1967 للمرة الأولى في حياته معركة شوارع. كانت تلك هي الذكرى الرّابعة لتأسيس جبهة التّحرير الوطني التي قادت الانتفاضة ضدّ الوجود البريطاني. أعلن الإضراب العام، وفي حوالى السّاعة التاسعة والنصف صباحاً، سمع صوت إطلاق رشّاش. نظر من شبّاكه فلاحظ عدداً من الجنود البريطانيين يركضون بحثاً عن مخبأ. «شاهدت أحدهم يقع على الأرض جريحاً على مسافة ليست بعيدة عن شقتي. استمر إطلاق النّار كثيفاً، واستغرق الوقت خمس دقائق قبل أنْ يتمكن رفاقه من سحبه نحوهم». كان على البريطانيين أن يجلبوا مدرّعات للسّيطرة على الموقف ووقف إطلاق النّار. وعندما انتهت المعركة بعد ساعات كانت حصيلتها مقتل أحد العرب وجرح

أربعة من الجنود.

بعد أيّام لقي قبطان سفينة هولندية رست في الميناء حتفه في الشارع عندما كان متوجّهاً إلى مكان ما. تصدّى له رجل بعد أنْ اجتاز بوّابة القنصليّة الأمريكيّة وأطلق عليه النّار من الخلف فخرّ صريعاً على الرّصيف، بينما اختفى الجاني في أحد الأزقة. كان ذلك القبطان الهولندي أوّل ضحية مدني غير بريطاني منذ اندلاع الثّورة. وبعد أسبوع تقريباً، أصيب ضابط بريطاني كبير من مكتب الحاكم العام بجرح بليغ عندما كان يرقى درجات مدخل فندق الهلال، حين تعرّض لإطلاق نار من سيّارة مسرعة. في نهاية أكتوبر كتب بوب: «الوضع في عدن يزداد سوءاً يوماً تلو الآخر». أصبحت حركات الأجانب مقيّدة بشكل أكثر بعد تلك الهجمات الجريئة. يتذكّر هنري جونز ملر الاستعدادات الأمنيّة التي كان عليه أن يقوم بها كلّ صباح في طريقه إلى القنصليّة. «طلب منّي نينز أنْ يكون مسدّسي في يدي جاهزاً للإطلاق، وأنْ افتح بوّابة السّياج الذي يحيط ببناء الشّقق الأربع التي تواجه الشّارع العام الممتدّ بين منطقتي المعلّى وترشين. وحين أقوم بذلك يتعيّن على زملائي من ساكني الشّقق أنْ يقوم أحدهم بقيادة السيّارة من موقفها أمام البناية التي تقع خلفي، ويتركوا باب السيّارة الخلفي مفتوحاً. وحين تجتاز السيّارة البوّابة كان يجب أن أقفز لأجلس في المقعد الخلفي، ونسرع في الذهاب إلى مكتب القنصليّة الذي يبعد حوالى ثلاث دقائق مشياً». وصل ملر إلى عدن بعد مرور شهر من وصول أيمز إليها، وكان قد نُسب لفترة مؤقتة مدتها ثلاثة أشهر. أكمل تدريباته في حقل الوكالة، وكانت تلك هي أوّل مرّة يسافر فيها إلى خارج أمريكا باستثناء أوروبا: «كنت لا أزال جديداً على المهنة، وهو الأمر الذي جعل أيمز يضعني تحت جناحيه. أمّا نينز فلم يقدّم لي أيّ عون». حسب ما يتذكّر جونز ملر.

كانت عدن وقتها ساحة حرب أهلية بين ثلاثة أطراف. أمّا البريطانيّون فقد كانوا يقاتلون حركة تمرّد قامت بها **جبهة التّحرير الوطني** NFL وجبهة **تحرير اليمن الجنوبي المحتلّ** FLOSY. كانت الجبهتان منهمكتين في صراع دمويّ فيما بينهما. كانت FLOSY تقوم بحرب عصابات وتتلقى الدّعم من مصر عبد الناصر. أمّا NFL فقد كانت منظمة يساريّة وُلدت من **حركة القوميين العرب** ANM. خلال

الوقت الذي قضاه في الظهران، كان أيمز على معرفة بالحركة المذكورة، غير أنّ NFL كانت شيئاً مختلفاً تماماً. تلقى بعض كوادرها التّدريب في موسكو. وفي السّنة الماضية أعلنت الجبهة مسؤولياتها عن اغتيال عدد من الأجانب المدنيين. كما تمّ اغتيال عدد من زوجات البريطانيين على يد قنّاص كان يتربّص بهن من بعيد عند مضيق المعلّى، حيث كان يسكن عدد من العائلات البريطانيّة في البنايات العالية. أطلق على ذلك الشّارع «طريق الموت». سيطر الثّوّار على حافّة حارة كريتر، وهو الأمر الذي مكّنهم أن يروا المدينة من ارتفاع يبلغ ألف قدم. ومن ذلك المكان العالي، كانوا يصوّبون مدافع الهاون وقاذفات الصّواريخ بشكل عشوائي على المدينة التي تربض تحت أقدامهم. إنّ الحارة بشوارعها الضّيقة وأزقتها المتعرّجة خاصّة في الحي العربي، كان ممنوعا على أيّ أجنبي الاقتراب منها.

في مثل ظروف كهذه، كان ممثلو الإمبراطوريّة الغاربة يتشبّثون فقط بمواقعهم، وهم يحاولون التّفاوض من أجل انسحاب منظّم يعقبه تسليم السّلطة. تمّ إغلاق قناة السّويس نتيجة حرب حزيران فتدّنت بذلك أهمية موقع ميناء عدن، قدر تعلق الأمر بمصالح بريطانيا الحربيّة. في الشّهر الذي تمّ فيه إجلاء عائلات المسؤولين البريطانيين، أعلن الحاكم العسكري السّير همفري تريفيليان أنّه ينوي سحب كل القوّات البريطانيّة بحلول شهر يناير من عام 1968.

ولذا فإنّه في الوقت الذي وصل فيه أيمز إلى عدن، كان الحيّ الأوروبي في المدينة مهجوراً. حصل خلال أسبوع من وصوله على دار مؤثثة فيها ثلاث غرف في خور مكسّر، وتطلّ على بحر العرب. كما توجد غرفتان للخدم تقعان فوق مرأب السيّارة. أدرك أنّه ليس من المجدي أن ينتقل إلى البيت قبل وصول إيفون والبنات، فأمضى الشّهر الأول في غرفة في فندق، الذي يشغل عمارة عالية حديثة ويوجد في الطابق العلوي منه مطعم فاخر ذو جوانب زجاجيّة. لم يعجبه السّكن هناك. أضف إلى ذلك، أنّ الفندق هو المورد الذي يتقاطر عليه نينر وغيره من منتسبي القنصليّة لتناول الشراب، وهذا ليس من اهتمامات أيمز. كتب لإيفون: «إنّه شيء جيّد أنّني لا أميل إلى الشّرب، لأنّه يبدو أنّ ذلك هو هواية الآخرين لقتل الوقت». كان لا يزال يدخّن الغليون، غير أنّه اكتشف في

عدن نوعاً جديداً من المتعة المحرّمة وهي سيكار هافانا. «أراهنك أنّك تودّين لو كنت جالسةً معي في مكتبي هذه اللحظة. أنا أدخّن الآن سيكار هافانا».

في أواخر الخريف أصبح هو ودك روان صديقين. في الحقيقة، كان أقرب صديق له في عدن، وقرّرا أنْ يستأجرا شقة صغيرة قريبة من القنصليّة. كتب لزوجته يقول: «لم يكن يعنيه من أموري شيئاً، سوى أنّني اشترطت عليه عدم دخول البنات إلى تلك الشّقة». في رسالة أخرى كتب: «باستثناء جوّ الإرهاب الذي يطغى أحياناً، فإنّني أصارحك القول إنّني أحبّ عدن. وأنا متأكّد أنّك ستحبّينها أيضاً. توجد سواحل جميلة وعدد من النّوادي وأشياء أخرى يمكن ممارستها لو كان الوضع طبيعيًّا». كانت عدن خلال القرن الماضي مركزاً للتّزوّد بالفحم، خاصّة بالنّسبة إلى السفن القادمة من الهند المتوجّهة إلى أوروبا عن طريق قناة السّويس. كان الحيّ الأوروبي في المدينة نظيفاً نسبيًّا وتوجد فيه كل الأشياء التي يجلبها الحكم الكولونيالي معه مثل نادي غولد موهر السّاحلي قرب الميناء، والسّوق الحرّة وعدد لا بأس به من الفنادق والحانات.

«لم يكن بوب من نوعِ الأصدقاء الذين يخرجون للشّرب»، كما يتذكّر أحد زملائه. «قد يكون أحياناً فظًّا، لكنّه لا يتحمّل السّخفاء». لم تجرِ الأمور بين أيمز ورئيسه نينر على خير ما يُرام، فمدير المحطة قد يكون أحياناً متهوّراً. كان من أصل ألماني كزوجته، وملتزماً بالنّظام بدقّة. وكان شعور عدم المحبّة بينهما متبادلاً، وصفه أحد العاملين بأنّه: «علاقة رديئة».

غير أنّ بوب لم يكن يعنيه رأي رئيسه، ولم يحاول إطلاقاً استمالته. فبدلاً من التّردّد على فندق الصّخرة لتناول الشراب بصحبته، كان يقضي وقته إمّا في المطالعة وإما في التّجوّل في أسواق المدينة. يذهب عادة إلى مكتبه عند السّاعة السابعة والنصف صباحاً ويمضي ساعتين في كتابة بعض التّقارير، ينطلق بعدها في جولاته في الأسواق، حيث كان يجلس ويتحدّث مع التّجّار لعدة ساعات. «أكثرهم لطفاء للغاية»، كما كتب لزوجته. «حين يعرفون أنّني أمريكي وأتحدّث معهم بالعربيّة... كانوا يستمتعون بذلك. فالسّوق مكان للمتعة والانشراح، وستحبّين ذلك».

في عطلة نهاية الأسبوع ذهب ليمارس السّباحة في نادي غولد موهر

السّاحلي، وهو مؤسّسة كولونياليّة بريطانيّة ترحب بحضور الأمريكيين والأوروبيين وتمنع العرب من الانضمام إليهم أو الدخول. يتذكّر هنري ملر جونز أنّهما كانا واقفين في الماء، أشار أيمز إلى الشّبكة التي وُضِعت عند مدخل الخليج لمنع أسماك القرش من الاقتراب من السابحين. «نصحني أنْ أبتعد عن تجمّعات الغربيين والأمريكيين وحثّني على الاختلاط بالنّاس المحليين والعرب الآخرين على أمل الحصول على معلومات نافعة أو قيّمة. تلك كانت نصيحة مهنيّة جيّدة. لكنّني اعتقد أنّ بوب يعتبر الحياة الاجتماعية في التّجمّعات الغربيّة لا تتفق مع ذوقه. يعتقد أنّ معاشرتهم مملّة يسودها النّفاق وربّما اجتماعيّة أكثر من حدود المعقول. لم ينضم إلى نادي غولد موهر السّاحلي، لكنّه اشترى لنفسه ولعائلته بطاقة عضويّة في نادٍ آخر أقلّ فخامة هو النّادي الإيطالي السّاحلي. يضمّ هذا النّادي في عضويته دبلوماسيين من المعسكر الشّيوعي ومن بلدان العالم الثالث.

بطبيعة الحال، كان البريطانيّون يسيطرون على المشهد الاجتماعي في عدن. ورغم أنّه كان رقيقاً يظهر الاحترام، فإنّ أيمز لم يحبّ البريطانيين. كانوا يمثلون القوّة الكولونياليّة وبرأيه فإنّهم عديمو الحسّاسيّة تجاه عادات العرب وتقاليدهم وتنقصهم المعلومات حول سياسات اليمن وتاريخه. خلال زيارته للسّوق كان يلاحظ رشّاشاتهم وقد نُصبت خلف حواجز الأكياس التّرابيّة عند كلّ تقاطع. كانوا يسيّرون دوريّات في الأزقة. «الجنود البريطانيّون متغطرسون ويضايقون السّكان العرب باستمرار»، كما كتب في إحدى المرّات. «ولا عجب أنّ الجميع هنا يكرهونهم».

في أوقات فراغه، كان يطالع أيّ شيء عن تاريخ اليمن تقع يداه عليه. «إنّني مستاء جدًّا لأنه لا توجد مكتبات لبيع الكتب العربيّة في عدن»، حسب ما كتب لزوجته. «أنت تعرفين أنّني أود تصفّحها». أعجب بشكل خاص بما كتبه وندل فيليبس (1921-1975). كتب هذا المستكشف الأمريكيّ المغامر عن رحلاته في جنوب شبه الجزيرة العربيّة في الخمسينيات. من أشهر كتبه **قتبان وسبأ: استكشاف المملكة القديمة وطرق قوافل التّوابل**. طُبع الكتاب عام 1955. علّم نفسه علم الآثار القديمة وكان مغامراً يشبه شخصيّة من فيلم إنديانا جونز في عام 1951-1955، وأقنع إمام اليمن أنْ يقوم بإجراء التّنقيبات في مدينة مأرب،

التـي يُعتقـد أنّهـا كانت عاصمة ملكة سـبأ. هاجمت ثلـة من البدو مخيّمه خلال حفر معبد القمر الدّائري، لكنّه اسـتطاع النّجاة بنفسـه ليؤلف الكتاب المذكور. وفي الوقت نفسـه حصل على موافقات للتّنقيب عن النّفط في مسـقط وعمان. وفي الستينيات بلغت ثروته حوالى مئة وعشرين مليون دولار. قال عنه زميل له كان مستكشفاً من نوعه، إنّه «لورنس العرب الأمريكي»(*).

لقد جذبت الحياة والعمل في شبه الجزيرة العربيّة أيمز مثلما جذبت الرّحّالة فيلبس، وهي دليل على تأثره برومانسيّة من نوع ما. إلاّ أنّها لم تكن رومانسيّة سـطحيّة من النّوع الذي انتقده إدوارد سـعيد. كان على وعي تماماً باللاعقلانيّة والعقـم والتّظاهـر بالشّـجاعة واللغـة المنمّقة السّـائدة في المنطقـة»، كما لاحظ صديقه هنري ملر جونز. إلاّ أنّه كان مسـتعرباً ذا فضول حقيقي ومشـاعر وديّة تجاه الحضارة العربيّة، خاصّة الثّقافة السّائدة في شبه الجزيرة العربيّة. كان يتفاخر بزيادة معرفته، ولم يتردّد في الابتعاد عن أولئك الذين أعتقد أنّهم جهلة. في أحد الأيّام وصلت برقيّة من محطة الوكالة في صنعاء فيها أخبار مثيرة تفيد أنّ طيّارين سوفيت يقومون الآن بالدّفاع عن أجواء اليمن لمساعدة النّظام الجمهوري الذي قام في ذلك البلد. كانت دلائلهم تشير إلى أنّ طائرة ميغ قد أسقطت وتمّ استعادة جثمان ملاحها، فوُجد أنّه أحمر الشّعر، فلا بُدّ أن يكون روسيًّا. عندما قرأ أيمز نصّ البرقيّة غرق في الضّحك، لأنّ الطيّار ذا الشّعر الأحمر مسلم قد يكون عاد لتوه بعد أداء فريضة الحجّ كبقيّة الآلاف من النّاس وأنّه قد صبغ شعره بالحنّاء. كان الطيّار مصريًّا ولم يكن روسيًّا. بعث أيمز برقيّة إلى مركز الوكالة في لانغلي يشرح الموضوع. عندما اطلع محللو الوكالة على برقيته قرّروا أنْ يهملوا البرقية الواردة من صنعاء(**).

رافق أيمز القنصل العام إيغلتن بتاريخ 28 أكتوبر في رحلة إلى سلطنة عمان ومسقط. «هذه واحدة من السّلطنات المعزولة التي رغبت دوماً في زيارتها»، كما

(*) هذه مقارنة ظالمة لأنّ لورنس البريطاني لم يجنِ الأموال بملايين الدّولارات مثله – المترجم.

(**) الحجيج عادة ما يحلقون شعر رؤوسهم عند أداء المناسك، وقد يصبغ البعض لحاهم بالحنّاء – المترجم.

كتب لزوجته. استقلا طائرة عسكريّة نقلتهما إلى صلالة، حيث يقيم السّلطان سعيد بن تيمور في قصر من الطّين. أخبر أيمز أحد أصدقائه فيما بعد أنّ المكان بدا وكأنّه مأخوذ من رواية السّير رچرد برتن ليالي العرب. كما كتب لزوجته يقول: «أعتقد أنّك ستحبّين مسقط وصلالة أيضاً، النّاس هنا طيّبون يفيضون بالكرم العربي.. في التّلال الجرداء خلف صلالة يمكنك أنْ تجدي نباتات البخور. هي المكان الوحيد في العالم الذي يوجد فيه مثل هذا النّبات. وهناك ظفار وهي البلاد التي جاء منها الرّجال الحكماء. حصلت على بعض البخور وسأبعث به إلى البيت في أقرب وقت، ربّما في فترة الأعياد».

لا شكّ أنّ السّلطان يمثل القرون الوسطى. «اجتمعنا مع السّلطان وابنه قابوس، وهما رجلان ساحران». غير أنّه أضاف أنّ السّلطان والإمبراطور هيلا سيلاسي في الحبشة، ربّما يكونان آخر حاكمين مطلقين في العالم. «لا يمكن القيام بأيّ شيء دون موافقة السّلطان». بعد اللقاء انفرد به الابن البالغ سبعة وعشرون عاماً وأخذه لزيارة حدائق القصر ثمّ تناول وجبة غداء. أسرّ له قابوس بأنّ والده قد وضعه رهن الإقامة الجبريّة، إثر تخرجه في أكاديمية ساندهرست العسكريّة البريطانيّة. فوجئ أيمز بأنّ الابن سُمح له فقط بقراءة بعض الكتب والاستماع إلى قليل من الأسطوانات الموسيقيّة، وكان يتعيّن عليه أن يطلب السّماح من والده ليقابله. من الواضح أنّ هذا الموقف لا يمكن تبريره، فتوقع أنّ «السّلطان سيخضع لإرادة التّغيير في يوم ما». لكن من المخزي، أنّ السّلطان الذي يعتبر نفسه أباً لرعيّته، قد يطيح به رجال لا يؤمنون باحترام العائلة والتّقاليد العربيّة، ويفضّلون عليه مبادئ عبد النّاصر العشرة. ها إنّي أعود ثانية للرّومانسيّة. أعلم علم اليقين أنّ التّقدّم لا يمكن أنْ يتوقّف، ولكنْ من المؤسف أنّ التّقدّم في العالم العربي يكون عادة مصحوباً بالويلات».

كان على حقّ عندما اعتقد أنّ حكم السّلطان لن يدوم. فبعد ثلاث سنوات، قام قابوس بن سعيد بانقلاب داخل القصر واستولى على السّلطة خلفاً لوالده. في الحقيقة لقد وضع السّلطنة على أعتاب التّحديث، فقد بنى المدارس وعبّد الطرق وغيرها من سبل بناء الدّولة الحديثة. ومع ذلك فإنّه احتفظ لنفسه بالحكم المطلق.

كانت عدن من أخطر الأماكن التي يمكن أنْ يسكنها الفرد عام 1967. فحالما عـاد أيمـز إلـى المدينـة بتاريخ 1 نوفمبر، ضربـت المدينة موجة من الاغتيالات. اغتيل إذاعي من ألمانيا من مسافة قريبة عندما كان خارجاً من دائرة بريد منطقة التّواهـي. ألقـي القبـض على الجانـي، وأصيب الجميع بالذهـول حينما تبيّن أنّه إذاعـي يمنـي معـروف يعمل في إحدى محطات الرّاديو. «لقد ألقوا القبض على القاتل»، كما كتب أيمز «ويبدو أنّه الشّخص المسؤول عن كلّ الاغتيالات التي جـرت منـذ فتـرة قصيرة... ومن بين الذين اغتالهـم إذاعي بريطاني، كان قد درّبه وعلمه أصول المهنة. كيف يمكن أنّ تفسّري سلوك شخص من هذا القبيل؟». يبدو أنّ الجاني كان عضواً في جبهة التّحرير الوطنيّة NLF منذ وقت طويل. لكنّ استهدافه لشخصيّات أجنبيّة غير بريطانيّة وصحفي ألماني كانا أمراً يُنذر بالسّوء. كتب «غمر المدينة هدوء شـامل، فلا ناس ولا سـيّارات في الشّـوارع، وأقفلت الحوانيت أبوابها. يبدو أنّنا في عين العاصفة».

بعد أيام قليلة، أعلن البريطانيّون فجأة أنّ قواتهم العسـكرية سـتغادر عدن فـي نهايـة نوفمبـر، وأعطـى ذلك لهم فترة شـهر أو شـهرين للتّخطيـط. لقد قرّر البريطانيّـون أنّـه ليـس من مصلحتهم تقديم مزيـدٍ من الضّحايا. أدى ذلك القرار إلـى انـدلاع الخلافـات بين قوّات NFL وFLOSY. «تدور حرب أهليّة على بعد خمسة أميال مني». ثمّ أضاف «على الأقل، كان هناك مئة قتيل وحوالى ثلاثمئة جريح، عدا كثيرٍ ممن اختطفوا أو اغتيلوا. سـيطرت NFL على المناطق الرّيفيّة خارج عدن، وكذلك بعض الأحياء داخلها مثل التّواهي ورأس الميناء والمعلّى. أصبحـت تلـك الضواحي تحت سـيطرة الجبهة بعـد إبادة أعضاء جبهة FLOSY الموجوديـن فيهـا». وكمـا كان متوقعـاً سـيطرت NFL علـى الموقـف «ورفعـت أعلامها في كل مكان، ويبدو أنّ البريطانيين سيسلمونهم الحكم... ملأت روح الانتصـار الأجـواء. فـي الحقيقـة لقـد ذهبت إلى السّـوق اليوم واشـتريت بعض الحاجيات وأمضيت هناك حوالى سـاعتين. كما أنّي توقفت عند صالون حلاقة لأحلق شعري».

في وسـط تلك الفوضى التي خلّفتها الحرب الأهليّة والاغتيالات وغياب

الأمن بشكل عام، كان أيمز يفكّر في وضعه المالي الخاصّ، وله الحقّ في ذلك. فحسابه في أحد البنوك الأمريكيّة فيه حوالى ألف دولار. كان يوصي إيفون، وإنْ كان بتمنّع قائلاً: «إنّني أخشى أنّه يجب أن نلغي بعض الخطط لأنّه لا يتوفّر لدينا المال... لذلك أوصيك أن تقتصدي بالنفقات». كان بوب يعيش في عدن بالاعتماد على مخصّصاته اليّوميّة. أمّا راتبه فيذهب بكامله للعائلة. ولكن مع وجود زوجة وأربعة أطفال، كان من الصّعب تدبير الأمور الماليّة. كان حريصاً على ما يصرف ولم يكن مديناً لأيّ جهة.

كره بوب الابتعاد عن زوجته وبناته، فكان يعدّ الأيّام للقائهنّ. وبحدود تاريخ 22 أكتوبر من عام 1967، وبسبب إفاداته ومتطلبات سفره، كان قادراً أن يقضي معهنّ عشرين يوماً فقط كل مئة وواحد وأربعين يوماً. كتب لزوجته يقول: «من المؤكّد أنّ الصّغيرات سيعتقدن أنّني رجل غريب عندما نلتقي». كان يحتفظ على طاولته بصور بناته وهنّ باسمات، لكنّه استمر يتساءل: «ما فائدة الصّور؟». كانت رسائله تبدأ بالقول: «عزيزتي بوني (كان يسمّيها كذلك) والصّغيرات»، وكان ينتهي دائماً بعبارة «ليحفظكنّ الرّبّ جميعاً». كان ينتظر بشوق اليوم الذي سيكون فيه مع عائلته حتّى أنّه سأل إيفون ذات يوم «هل أنت مستعدّة لطفل خامس؟». لكنّه من جهة أخرى قلق على سلامتهنّ «أحبّكنّ وأنتنّ على بالي جميعاً... ليس باستطاعتي أنْ آتي بكنّ إلى هنا، حتّى أتأكّد من استتباب الأمن». وعندما اقترب موسم الأعياد كتب لها يقول: «احضنيهن نيابة عنّي، وأخبريهنّ أنّ بابا موجود حقيقة، كحقيقة وجود سانتا كلوز».

راقب أيمز انسحاب القوّات البريطانيّة على ظهر حاملة الطائرات HMS Albion، وكان سعيداً أن يراها ترحل عن عدن. أعلِن الاستقلال الرّسمي للبلد بتاريخ 29 نوفمبر، فاندفعت الجماهير نحو الشّوارع تحتفل وأقيمت أقواس النّصر المغطاة بسعف النّخيل وأعلام جبهة التّحرير الوطنيّة بألوانها الأحمر والأبيض والأسود. كانت شاحنات النقل المفتوحة تحمل الثّوار وهم يلوّحون ببنادقهم ويردّدون شعارات معادية للبريطانيين. حضر المراسم حوالى خمسين ألف مواطن ليستمعوا إلى خطاب الرّئيس الجديد قحطان الشّعبي وغيره من قادة

الجبهة وهم يلقون الخطب الحماسيّة. كتب أيمز «يبدو أنّ الحكومة الجديدة يساريّة الاتجاه، ويشعر كثيرون أنّ الشّيوعيين قد اخترقوها. من المؤكّد أنّ الصّحافة الشّيوعيّة تلقى معاملة ممتازة. ومن جهة أخرى، أضاف أيمز «يبدو أنّ الرّئيس الجديد مخلص ومثابر على العمل».

وقف أيمز السّاعات الطويلة تحت الشّمس الحارقة وهو يدوّن ملاحظاته عن خطب الرّئيس وأعضاء الحكومة. ومن المدهش أنّه الوحيد بين منتسبي القنصليّة الذي يعرف اللغة العربيّة، إلى الحدّ الذي مكّنه أنْ يستمع للخطباء ويدوّن ما يقولون. كتب لإيفون «خلال الأيّام الثلاثة الماضية كنت أعيش على العربيّة وأتنفّسها». كان القنصل العام إيغلتن وغيره من أعضاء السّلك الخارجي يعتمدون عليه اعتماداً كليًّا، وهو أمر أزعجه كثيراً. كتب ثانية يشكو «بعد ستّين يوماً من العمل المتواصل أشعر أنّني متعب وقلق قليلاً. أشعر أنّ خشونة لساني تحيّرني أحياناً، وهناك قليل من الكفاءة والتّنظيم بين منتسبي الخارجيّة هنا. وإنّني لقيت منهم ما فيه الكفاية». كان منزعجاً بشكل خاصّ من زملائه الذين يسألونه عمّا قيل في العربيّة ويركضون مسرعين إلى مكتب القنصل العام «لينقلوا إليه أخبارهم»، دون ذكر اسمه. اعتقد أيمز أن ذلك السّلوك «محزن حقاً... وإنني كمواطن أمريكي يدفع الضّرائب أشعر أنّ ما يُنفق على هؤلاء من الرّواتب والمخصّصات المالية شيء لا يستحقونه».

كما اعتقد أيمز أنّ موظفي القنصليّة ليس عندهم تعاطف ومشاركة مشاعر لما يحدث في عدن. «أعتقد أنّ قضيّة الاستقلال شيء مفرح وأنت ترى حماس الشّعب وانشراحه بعد مئة وثمانية وثلاثين عاماً من التّسلط البريطاني. هذا أمر يجب أنْ ينتقل كالعدوى... ولكن عندما رجعت إلى القنصليّة شعرت بالانكفاء هنا». مشاعر الحريّة والاستقلال التي تعمّ الشّارع قد ضاعت بين الأفراد المتذلّلين الذين يشكلون جهاز القنصليّة.

خلال فترة الانتقال القصيرة، أصبح عمل أيمز ملحقا صحفيًا، وهو الأمر الذي مكّنه من حضور المؤتمرات الصّحفيّة لمسؤولي الحكومة، وأن يختلط بالمراسلين الأجانب الذين تدفّقوا على عدن، عاصمة الدّولة الجديدة. كان من بين الذين قابلهم ونستن بردَت مراسل محطة CBS ودانا آدم شمِت مراسل

النيويورك تايمز. وجد أنّ الأشخاص الذين يعملون في حقل الإعلام «لطفاء محبوبون». كما أنيطت به مهمة مترجم للقنصل العام إيغلتن عندما اجتمع من مسؤولي الجبهة. «إنّ عربيّتي تتحسّن رغم أنّ صبري ينفد وقدرتي على الاحتمال تضعف بشكل متسارع». اعتقد أيمز «أنّ القنصليّة مؤسّسة تسودها الفوضى، وأنّ فرع الوكالة فيها ليس أفضل من غيره. وأنتِ تعلمين كيف أهتمّ بقضايا التّنظيم والدّقة المتناهية».

عادت الحياة في عدن إلى طبيعتها في الأسابيع التّالية. «بدأ النّاس يطلون برؤوسهم ولكن بحذر»، كما جاء في تقريره. «لكنّهم يدركون الآن أنْ لا أحد سيُطلق النّار عليهم». عاد يذهب إلى السّوق بشكل متكرّر واشترى لزوجته عقداً من اللؤلؤ يليق بعنقها الجميل. ورغم حرصه على ما يُصرف، اشترى لنفسه جهاز تسجيل من نوع آيكا الفاخر. كتب لها وهو يشعر بالذنب ولكن مبرّراً، «لقد حصلت عليه مقابل مئتين وخمسين دولاراً، وسعره في الولايات المتّحدة ستمئة وعشرة دولارات. كما تعلمين لا يزال في حسابنا في المصرف حوالى سبعمئة وخمسين دولاراً. أرجو ألاّ تغضبي منّي، أنا الذي أوصيك دائماً بالاقتصاد بالنّفقات، وكما تعلمين أنّ البذخ شيء جيّد للرّوح». لقد أراد الحصول على ذلك الجهاز لكي يستمع للموسيقى التي يحبّها، وهو في غرفته. كانت حركته لأسابيع محصورة بين الشّقة والقنصليّة، «أضحت اتّصالاتنا محدودة جدًّا». كان يودّ الخروج ليقوم بالعمل الذي يحبّه والاختلاط بالنّاس. كتب يقول، «حتى الآن لم أوطّد علاقتي بأصدقاء عرب، والسّبب هو أنّهم هنا محافظون بطبيعتهم، وليسوا متأكّدين كيف تشعر الحكومة إزاء إقامة علاقات مع الأمريكيين». الآن وقد انتهت احتفالات الاستقلال، كان يتوق لأن يضيع في عالم المجهول الذي يستمتع به.

بدأت حكومة الجبهة تعيد النّظام والأمن تدريجيًا، وأصبح مأموناً له ولزملائه أنْ يسافروا إلى المناطق الرّيفيّة. ذهب إلى مدينة لحج، وهي مدينة إلى الشّمال من عدن وتتطلّب يوماً للسّفر بالسيّارة. استمتع بقطع المناطق الوعرة ومرّ بسيّارته بين القلاع العربيّة القديمة وقوافل الجمال والقرى المترّبة المبنيّة

من الطين. وفي مناسبة أخرى سافر إلى حضرموت، المحافظة الغريبة المعزولة جدًّا في أقصى شرق اليمن الجنوبي، وهي أرض أجداد أسامة بن لادن.

نادراً ما وُجِد أيمز في مبنى القنصليّة. ورغم المخاطر في الشّوارع، أمضى معظم وقته وهو يحاول بناء علاقات مع النّاس مستخدماً صفته الرّسميّة كملحق تجاري. «ذهبت إلى كلّ الأحياء في عدن ودخلت الأماكن التي لم أجرؤ على دخولها من قبل». كان لباسه متواضعاً يتألّف من قميص پولو وبنطال أزرق وحذاء راعي بقر. عندما يمشي في الشّارع بارزاً بقامته الطويلة البالغة ست أقدام وثلاثة إنشات، كانت بُنية جسمه موضع إعجاب العرب، وكان على علم بذلك. انتشرت الأخبار عن أمريكي طويل القامة متعاطف يسهل التّحدّث معه. يقول هنري ملر جونز: «لا أتذكّر أنّه كانت لديه قائمة طويلة من المخبرين الذين يدفع لهم الأموال. لم يكن من النّوع المتحمّس لتجنيد المخبرين كيفما شاء. كان من النّوع الذي يبني علاقات شخصيّة ذات معنى مع أشخاص مهمّين لهم قيمة عالية. وإذا شعر بأنّه يمكن أن يأتي بهم تدريجاً إلى الموقف الذي يدفع لهم فيه الأموال بالمقابل، فإنّه يفعل ذلك. إنّ معرفته بالمنطقة وثقافة أهلها هي التي مكّنته من الحصول على معلومات هامّة من أولئك الأفراد، بدلاً من الصّبغة الرّسميّة للحصول على الأموال مقابل الخدمات. كان يهتمّ بالقضايا بدلاً من الاهتمام بالشّكليّات. أعجِب ستيفن بك، موظف الخارجيّة الجديد الذي وصل إلى عدن عام 1968، بكفاءة أيمز باللغة العربيّة ومعرفته بالسّياسات القبليّة المعقّدة في اليمن. «كنت أقول إنّ بوب نسي الكثير عن اليمن، لكنّ ذلك كان أكثر ممّا تعلمناه جميعاً عن تلك البلاد».

تردّد أيمز خلال وجوده في عدن على كنيسة القدّيس أنطوان الكاثوليكيّة، لأنّه كاثوليكي أصلاً، وحضر القدّاس. بُنيت الكنيسة المذكورة عام 1839 عندما احتلّ البريطانيّون عدن وجعلوها محميّة تابعة للإمبراطوريّة. كما قامت الكنيسة الفرنسيسكانيّة ببناء كنيسة أخرى لأتباعها في منطقة الميناء. كانت الكنيسة الكاثوليكيّة تدير عدداً من المدارس في المدينة. تعرّف أيمز بسهولة على بعض قساوسة الكنيسة، كان من بينهم الأب أمبروسه البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً، والذي غالباً ما تناول العشاء بصحبة أيمز. وصفه الأخير بأنّه «رجل

متواضع جدّا يعرف كثيراً من النّكات، ويبدو أنّه يمكن أن يكون أيّ شيء ما عدا كونه قسًّا.» يأتي الأب أمبروسه من نفس مجموعة القساوسة الذين تعرّف إليهم أيمز في أسمرة قبل عشر سنوات.

إذا كنت تريد أن تكون مندمجاً في المجتمع اليمني، فلا بُدّ أنْ تتعوّد على مضغ القات، الذي يكون على شكل أوراق خضراء مخدّرة يمضغها اليمنيّون خلال ساعات ما بعد الظهيرة وهم يحتسون الشاي الأسود الحلو المذاق. يؤثّر القات في الشّخص فيجعله مهذاراً. وهو المخدّر المثالي لأيّ ضابط مخابرات ينوي تجنيد العملاء. ربّما يكون أيمز قد التقى عبد الفتاح إسماعيل خلال جلسة أو جلسات لمضغ القات في «ديوانيّة» شخص ما. وُلد إسماعيل عام 1939 في شمال اليمن وواصل دراسته في عدن عندما التحق بكليّة التّكنولوجيا. بعد التّخرّج عمل في التّدريس فترة قصيرة ثمّ انخرط في نشاطات اتّحاد العمّال. كان عقائديّا قرأ الكتب الماركسيّة. حين التقى به أيمز كان عمره ثمانية وعشرين عاماً. قبل أربع سنوات كان إسماعيل من القادة الذين أسّسوا جبهة التّحرير الوطنية NLF. أخبر أيمز بعد سنوات مدير الوكالة وليم كيسي أنّه صادق ذلك الشّاب الثّوري، أو على الأقلّ أنّه حصل على ثقته. كانت الحرب الأهليّة قد وضعت أوزارها أخيراً وسيغادر البريطانيّون البلاد قريباً. ويبدو من الواضح أنّ جنوب اليمن سيصبح جمهوريّة. في الحقيقة، إنّها بلاد متخلّفة تسودها الأميّة ومتشبّعة بالتّقاليد الإسلاميّة وتتنازعها الخصومات القبليّة الدّموية. أخبر إسماعيل أيمز أنّه ينوي أنْ يغيّر كلّ شيء. ألقى كيسي خطاباً عام 1985 قال فيه:

> أخبر عبد الفتاح إسماعيل بوب عن تجربته في مدرسة الكومسومول التي أسّسها السوفيت لتدريب الشّباب الثّوريين... شرح عبد الفتاح أنّه تعلم في موسكو بأنّه سيحتاج إلى عشرين عاماً، بمعنى تربية جيل كامل لتثبيت ثورته. وعليه أن يقتلع ويغيّر في النّهاية أدران التّقاليد الاجتماعية البالية. وهذا يعني التّقليل من تأثير الدّين وإبعاد الشّباب عن تأثير عوائلهم على أنْ تتكفل الدّولة تعليمهم وتربيتهم. لقد تعلم أنّه لكي يمكنه قيادة الجماهير، عليه أنْ يؤلّف لجاناً شعبيّة في كلّ حارة... وأنْ يبني جهازاً قويّاً للمخابرات.

كان أيمز مستمعاً صبوراً، وسبق أن أعلم زملاءه بغضبه من سلوك الجنود الهنود في الجيش البريطاني. فليس مُستغرباً أن يعبّر لشخص كإسماعيل عن تعاطفه معه في صراعه ضدّ الاستعمار. بحلول شهر ديسمبر كان قد التقى كثيراً من وزراء الحكومة الجديدة. «كان أكثرهم بمثل سنّي. يجب أنْ أعترف بأنّني مأخوذ بإخلاصهم ورغبتهم في وضع بلدهم على طريق التّقدّم، ولربّما يكون هذا أكثر من أيّ عامل آخر، قد أعطاني الثّقة بالدّولة الجديدة». عُيّن إسماعيل وزيراً للثقافة في حكومة الجبهة، غير أنّ الجناح اليميني فيها ألقى القبض عليه وأبعده إلى المنفى في شهر مارس من عام 1968. لكنّه تمكّن في صيف عام 1969من قيادة «حركة تصحيحيّة» داخل الجبهة، أو بالأحرى انقلاباً داخلياً وأصبح السكرتير العام للجبهة وعضواً في المجلس الرّئاسي. وفي منصب كهذا أصبح فعليًّا قائد البلاد(*).

ذكر كيسي ما يلي: «أخبرني أيمز أنّه من خلال تقييمه للوضع فيما بعد أنّ عبد الفتاح إسماعيل، وبمساعدة من السوفيت، عمل كلّ الذي تعلمه. لقد أنشأ حركة تمرّد شيوعي وقادها من أجل استقلال بلاده. قتل أو ابعد إلى المنفى أعضاء الحركة المؤمنين بالدّيمقراطيّة، واستمرّ يعمل لتثبيت أركان نظام شيوعي».

عرف زملاؤه في لانغلي أنّ أيمز استطاع أن يجنّد للمستقبل رئيس دولة. إنّ التّعرّف إلى النّاس المهمّين هو تعريف لمهارة التّجسّس الجيدة. كلّ شيء يدور حول التّقرّب من الأشخاص الأقوياء ذوي النّفوذ. من الصّعب حتّى الآن معرفة ماذا حصّل أيمز أو واشنطن من توطيد تلك العلاقة. كما أنّه من الصّعب معرفة ماذا حصّل إسماعيل منها. لربّما كان ذلك الشّاب الثّوري يشعر بالقوّة إلى الحدّ الذي جعله يثق بضابط الوكالة، ولكنّ أيمز حصل على فرصة أنْ يفهم عقليّة شخص أصبح لاعباً كبيراً في سياسة بلده. لم يعنِه في شيء أنّ إسماعيل كان خصماً عقائديًّا. لم يكن يعنيه أنْ تكون له سيطرة على مصدر معلوماته. إلاّ أنّه، أيْ إسماعيل، أصبح بمثابة نافذة يطلّ منها على ذلك العالم الغريب الذي اسمه اليمن. اعتقد أيمز أنّ حكومته كانت تريد معرفة ما الذي دفع إسماعيل ورفاقه

(*) أصبح عبد الفتّاح إسماعيل الشّخص المتنفّذ في سياسة اليمن الجنوبي لما يقرب من عقدين. وفي شهر يناير من عام 1986 اغتيل غدراً خلال خصام جرى في اجتماع المكتب السّياسي للحزب.

أنْ يقوموا بثورة ضدّ البريطانيين. تقوم الجاسوسيّة الجيّدة على إظهار التّعاطف.

كتب أحد زملائه في عدن «لو كان أيمز شخصاً عامًا، لكان وقف شامخاً بحذاء راعي البقر الأمريكي كما وقف البطل لويس لاموغ. لكنّه ينتمي أكثر إلى عالم جون لوكاغ، مجهولاً متّسماً بالتّفهّم العاطفي واسع المعرفة قويّ الاندفاع ناقداً متميّزاً، يفهم الطبيعة الإنسانيّة وتعقيداتها كما يفهمها القسّ أو رجل الشّرطة. كان يميل إلى العزلة أكثر منه إلى السّريّة، لكن الأخيرة من صفاته أيضاً».

في أحد الأيام وبينما كان يسبح في نادي غولد موهر السّاحلي، سبح باتجاهه ثلاثة شبّان عرب من النّادي المجاور. سأل أحدهم موظفاً في القنصليّة كان يسبح هناك كيف يمكنه أنْ يتّصل «بالسيّد بوب». قال الموظف: «بالتّأكيد، تجده في مبنى كالتكس». شكر أيمز ذلك الموظف فيما بعد.

أصبح ذلك الشّاب أحد مصادره. وُلد باسل رائد الكبيسي في العراق وحصل على الشّهادة الجامعيّة الأوليّة من كليّة آدمز الحكوميّة في كولورادو، والماجستير من جامعة هورد في العاصمة الأمريكيّة، وشهادة الدكتوراه من الجامعة الأمريكيّة في المدينة نفسها. كتب أطروحته عام 1971 عن حركة القوميين العرب *ANM* بين الأعوام ١٩٥١–١٩٧١: من جماعة ضغط إلى حزب اشتراكي. تتناول الأطروحة التي كُتبت في مئة وسبع وستين صفحة أصل الحركة، وهي المنظمة نفسها التي طلب مركز الوكالة من أيمز أنْ يراقبها خلال وجوده في الظهران في مطلع الستينيات. في عام 1969 وُلدت من رحمها الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين PFLP. زار الكبيسي عدن خلال الفترة 1967–1968 لمقابلة بعض الأشخاص في عدن لكتابة أطروحته. في شهر يوليو من عام 1967 مثلاً، قابل قحطان الشّعبي عضو حركة القوميين العرب الذي أصبح فيما بعد رئيساً لجمهورية اليمن الجنوبيّة الدّيمقراطيّة. كما قابل جورج حبش، الذي كان وقتها طالبا في كليّة الطبّ ومن المؤسّسين الكبار في حركة ANM وأصبح قائداً لجبهة PFLP. كما قابل نايف حواتمه قائد الجبهة الدّيمقراطيّة لتحرير فلسطين DFLP، وحظي بمقابلة وديع حدّاد الذي أصبح العقل المدبّر لعمليات جبهة PFLP لاختطاف الطائرات في مطلع السبعينيات.

ينتمي الكبيسي إلى أسرة سنّيّة غنيّة في بغداد. أكمل دراسته الثانويّة هناك

والتحـق بالجامعـة الأمريكيّـة في بيروت لدراسـة العلوم السّياسـيّة، حيث تعرّف على جورج حبش وانضمّ إلى حركة القوميين العرب. أدّت نشـاطاته السّياسـيّة إلى فصله من الجامعة فتوجّه إلى الولايات المتّحدة وأكمل السّـنة الأخيرة من دراسة المرحلة الجامعيّة في كليّة آدمز في كولورادو. بعد تخرّجه عام 1956 عاد إلى العراق حيث عمل في وزارة الخارجيّة. لكن اتّجاهاته السّياسـيّة خلقت له بعض المصاعب. في منتصف السـتينيات هرب من العراق واتّجه إلى الولايات المتّحـدة ثانيـة حيـث التحق في جامعة هورد لدراسـة الماجسـتير. خلال مرحلة الدّراسة العليا، أصبح باسل ناشطاً بارزاً في جهود حركة القوميين العرب لتجنيد الطلبة العرب من أجل قضيّة الوحدة العربيّة. عاد إلى الشّرق الأوسط إثر الحرب العربيّة الإسـرائيليّة في شـهر حزيران من عام 1967 لمقابلة الشّـخصيّات المهمة في الحركة.

لا نعرف بالضّبط دوافع الكبيسي للاتصال بأيمز في عدن، لكنّنا على يقين أن الأخيـر اعتبـر ذلـك الأكاديمي العراقي مصـدراً لا يُقدّر بثمن لمعلومات عن جيل عربي جديد متطرّف. «كان أيمز يجيد تجنيد الوكلاء»، حسب قول ضابط سـابق في الوكالة. «لأنّه يعرف كيف يوازن بين اهتمامات الشّـخص المسـتهدف واهتماماتـه هـو. إنّـه يجعـل المقابـل يعتقـد (أنْ نتحـدّث معـاً أمر فيـه مصلحة لكلينا)». قد يكون الكبيسي أحد مصادر معلومات أيمز وليس عميلاً تلقى أجراً بصفـة رسـميّة. نعـرف أنّهمـا تقابلا وعـرف أحدهما الآخر في عـدن. ربّما كان الكبيسي سعيداً بمن يرغب الاستماع إلى ما كان يتعلّمه خلال بحثه عن حركة القوميين العرب. «كان بوب مستمعاً جيّداً». حسب قول موظف الخارجيّة الذي دلّ الكبيسي على كيفيّة الاتّصال بأيمز.

ولأن الكبيسـي قد درس في الولايات المتّحدة، فمن المفترض أنْ يجعله ذلك منفتحاً للتّحدّث مع مسـؤول أمريكي. فهو لا شـكّ يعرف بوضوح الوضع فـي الولايـات المتّحـدة، وربّما كان يرمي مسـاعدة أمريـكا، وبالذات عن طريق أيمـز للتّعـرّف علـى الطموحـات العربيّة. كمـا أنّنا نعرف من وثاق سـريّة للغاية من وزارة الخارجيّة البريطانيّة عن مذكّرة تتحدّث عن الكبيسي وأنّه كان مصدر معلومـات لهـا عـام 1963 عن حركة القوميين العـرب. ولذلك فإنّ للرّجل خبرة

في التّعاطي مع المخابرات الأجنبيّة. لا شكّ أنّ مشاعر الكيبسي الواضحة تجاه تلك الحركة والقضيّة الفلسطينيّة قد فتحت له الأبواب لدخول دوائر المثقفين العرب اليساريين. وفي الوقت نفسه فإنّ اهتمام أيمز بتاريخ الحركة وتعاطفه مع القضيّة الفلسطينيّة، قد زادت من انجذاب الكيبسي نحو أمريكا. كان هو وأيمز يناسب أحدهما الآخر.

والآن، وبعد أنْ غادر البريطانيّون عدن وأصبحت اليمن الجنوبيّة جمهوريّة، أصبح الوضع آمناً بالنّسبة إلى البنات وأمّهنّ أنْ يحضرن إلى عدن. غير أنّ بوب قد أرغم على أن يقضي الأعياد في عدن وحيداً. تمكّن من حضور قدّاس منتصف الليل في الكنيسة، فكتب يقول: «مضى الوقت هناك ببطء وكان خالياً من روح العيد الحقيقيّة. لربّما كان أسوأ عيد مرّ بي في حياتي». ربّما كان ذلك بسبب الهديّة الوحيدة التي تلقاها من صديق وكانت عبارة عن غليون صُنع في تركيا. في صباح اليوم التّالي كتب لإيفون كلمات أغنية ساخرة معدّلة مأخوذة أصلاً من مجموعة أغاني أعياد الميلاد التي كتبها كلارك مور في القرن التّاسع عشر. غير أنّ كلمات أغنية أيمز تدور حول عدن وكيف أنّ سانت نيكولا كان يعمل مخبراً لصالح الوكالة:

كانت الليلة التي سبقت العيد هادئة، وخلال المدينة
لم تُسمع طلقات بنادق، ولم تُقذف قنابل يدويّة
كان الرّجال يحرسون نقاط التّفتيش، والأمن على أشدّه
لن يستطيع المخبر ولا غزالاته الليلة أن يمروا بمركبة الجليد
عبر شوارع المدينة المقفرة

ذكر في القصيدة أنّ العرب المسلحين أوقفوا مركبة المخبر وصادروا بنادق ألعاب الأطفال وصاح أحدهم: «ألقوا القبض على العميل وغزالاته ومركبته حتّى إشعار آخر، وضاعفوا الحراسة خلال الأعياد.. إلخ». جلست إيفون في بيت والديها في مدينة نوروود في ولاية ماساتشوستيس وهي تغصّ بالضّحك عندما قرأت قصيدة زوجها. وأخيراً، صدرت الموافقات لالتحاق العائلة بالأب في عدن. وصلن في شهر يناير من عام 1968 إلى البيت الكبير في منطقة خور

مكسّر، الذي كان بوب قد استأجره من قبل. تتذكّر إيفون مدينة عدن فتقول: «كانت مدينة بعيدة عن الترف، لكنّني أحببتها. شعرت وكأنّي في بيتي في هذا الجزء من الشّرق الأوسط. بيروت مدينة كبيرة، ولست ممّن يحب المدن الكبيرة. ومع ذلك شعرت بأنّي غير مقيّدة في عدن». كانت تقود سيّارتها لأخذ البنات إلى نادي غولد موهر السّاحلي وتتسوّق باستمرار في السّوق الحرّة في منطقة الميناء. كانت لديها امرأة لطبخ وجبات الطعام، ظهر فيما بعد أنّها مصابة بالسّل، الذي انتقلت عدواه إلى إحدى البنات. كما استخدمت إيفون مربيّة أثيوبية لمساعدتها في العناية بالبنات. كان بوب يقضي يومه في العمل. أمّا ساعات المساء فكان يقضيها مع عائلته. تقول إيفون: «لم يذكر شيئاً عمّا يقوم به من المهام، وهذا ما جعل الحياة اعتياديّة بالنّسبة إلينا».

رغم أنّه كان في عدن في فترة الستينيات كضابط للوكالة، فإنّ أيمز لم يكن بمعزل عن الوضع الثّقافي العام في بلاده. اعتبر نفسه جمهوريًّا محافظاً، وأحبّ الموسيقى الشّعبيّة خاصّة أغاني فرقة بيچ بويز. كما أنّه كان يستمع لأغاني پتولا كلارك وغلن كامبل. غير أنّ موسيقى الفرقة المذكورة كانت ما يفضله، وكان بإمكانه أنْ يغنّي بعض أغانيها الكلاسيكيّة. في الوقت نفسه كان كثير المزاح ويجعل البنات يقهقهن بصوتٍ عال وهو يتحدّث إليهن مقلّداً صوت «البطة دونالد دك». كان يفعل ذلك أحياناً بشكل مفاجئ، فتنطلق الضّحكات العالية. في إحدى الأمسيات وبينما كانوا يجلسون حول الطاولة للعشاء، بدأ يعلّم البنات خدعة كيفيّة فصل الأصابع. كانت المربيّة الأثيوبيّة تطعم الصغيرة كِرن عندما انتبهت لما كان يفعل. فتحت عينيها عجباً ورمت الملعقة نحو السّقف وفرّت هاربة من الغرفة، وهي تصرخ بأعلى صوتها خوفاً من أعمال السّاحر. كتب بوب يقول: «ضحكت البنات بشكل هستيري، وكانت تلك نهاية العشاء ذلك المساء».

كانت أعمارهن تتراوح بين أربعة أشهر وست سنوات، وتطلبت رعايتهن معظم ساعات النّهار. كانت إيفون تغلي ملابسهن الدّاخليّة في قدر على طبّاخ نفطي. كانت لديها غسّالة ولكن لم تكن توجد مجفّفة. في الصّباح تلبس البنات الثلاث الكبيرات الملابس المدرسيّة الموحّدة وينطلقن إلى المدرسة التي تديرها الرّاهبات. في أواخر نوفمبر عام 1968 طارت إيفون وهي حامل إلى مستشفى

في أسمرة وتركت بوب مع البنات. فالمؤسّسات الطبيّة في محطة كاغينو أفضل من أيّ مستشفى ولادة في عدن. كتب لها بوب «من فضلك عجّلي بالوضع وعودي لنا بسرعة. التّمارين الرّياضيّة ستسهل عليك الولادة». جرت مراهنات بين الأجانب من معارفهما، إنْ كانت إيفون ستلد بنتاً أخرى أم صبيًّا. بتاريخ 3 ديسمبر كتب بوب يقول: «إنّ الرّهان جارٍ على قدم وساق وأعتقدُ أنّ نصف سكّان عدن ينتظرون الأخبار». بعد ستة أيام وُلد الابن أندرو تومس أيمز.

غادر مارش نينر عدن في أواخر تلك السّنة، وحلّ أيمز محله مديرا للمحطة. يُعتبر ذلك ترقية مهمّة بالنّسبة إلى شخص يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً. كما رُفّع دك روان لمنصب نائب مدير المحطة. لم تكن كفاءته في اللغة العربيّة بمثل مستوى كفاءة أيمز، لكنّه كان مواظباً على تحسينها. أصبحا فريق عمل جيّداً. كان عمل روان سابقاً في صنعاء وانحصرت مهمّته في جمع المعلومات عن الأسلحة السوفيتيّة الواردة إلى اليمن. أمضى الكثير من الوقت وهو مستلقٍ تحت الدّبابات السوفيتيّة وغيرها من المعدّات العسكريّة يسجّل أرقام تصنيعها، لكي يكون بإمكان المحللين في لانغلي أنْ يضعوا قوائم بأنواع الأسلحة والمعدّات التي تُشحن إلى اليمن وأعدادها. كان عملاً محفوفاً بالمخاطر. وفي أحد الأيّام تمّ اختطافه من قبل القبائل عندما كان مسافراً بين صنعاء والحُديدة، ودفعت الحكومة الأمريكيّة مبلغاً كبيراً من المال لتأمين إطلاق سراحه. أحبّ روان اليمن رغم تلك التّجربة، وكان له ولأيمز اهتمام كبير بتاريخ الشّرق الأوسط وعملا سويّة لفترة سنتين.

تحوّلت العلاقة السّياسيّة نتيجة نشوء الدّولة الجديدة وتطلبت فتح سفارة بدلاً من القنصليّة. غير أنّ تلك العلاقة مع الحكومة الجديدة لم تكن سهلة. ولو استعدنا الأحداث لوجدنا أنّه كان أمراً غريباً أنْ وافقوا على رفع العلاقة القنصليّة إلى درجة سفارة أصلاً، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار طبيعة النّظام الجديد وتطرّفه الفكري. غير أنّه وبتاريخ 24 أكتوبر من عام 1969 قطعت اليمن الجنوبيّة علاقاتها مع الولايات المتّحدة بعد أنْ ندّدت بقرار إدارة نيكسون تزويد إسرائيل بمقاتلات فانتوم. طُلب من مسؤول الشّؤون السّياسيّة وليم إيغلتن مغادرة البلاد خلال أربع وعشرين ساعة، وأعطي منتسبو السّفارة البالغ عددهم سبعة عشر شخصاً

وعوائلهم مهلة ثمانٍ وأربعين ساعة. تقول إيفون، «وصلت إلى بيتنا ضابطة شرطة وظلت تنتظر واقفة في المطبخ حتّى أكملنا حزم حقائبنا. ثمّ اصطحبنا جنود مسلحون إلى المطار». بتاريخ 26 أكتوبر من عام 1969 استقل بوب وإيفون وأطفالهما الخمسة طائرة نقلتهم إلى أسمرة.

بعد أيّام قليلة طار بوب إلى العاصمة واشنطن ليقدّم شخصيًّا تقريره عمّا جرى لمكتب الوكالة في لانغلي، وترك الأطفال وأمّهم وقطّتهم في الفندق في أسمرة. عندما حلّت الأعياد كانوا لا يزالون هناك. وأخيراً، وبعد عشرة أسابيع طويلة في الفندق، أمّنت الوكالة نقل العائلة إلى القاعدة العسكريّة في محطة كاغنيو، حيث أصبح بإمكان الجميع أنْ يتناولوا وجباتهم في مطعم القاعدة. مكثت العائلة هناك حتّى فصل الرّبيع من عام 1970 حين استلم أيمز أمراً بنقل عائلته إلى بيروت. وفي الوقت نفسه كان بوب قد أمضى معظم العام الماضي متنقلاً بين واشنطن وبيروت وأسمرة. شعرت إيفون بالارتياح عندما انتقلت في منتصف شهر مايو هي وأطفالها من السّكن في قاعدة عسكرية في إفريقيا إلى السّكن في شقّة جميلة في شارع كاليفورنيا، إلى الغرب قليلاً من مبنى الجامعة الأمريكيّة. تطلّ نوافذ الشّقة على فنار منطقة رأس بيروت. التحقت البنات بمدرسة الجالية الأمريكيّة التي تقع على مسافة قريبة من الشّقة. تقول إيفون: «كنت ادعهن يذهبن بأنفسهنّ، لأنّ كل شيء آمن هنا». ذهبت العائلة في بعض الأمسيات إلى مطعم العم سام لتناول العشاء. كان يرتاده كثير من طلبة الجامعة الأمريكيّة ويقع عند تقاطع شارع جان دارك مع شارع بلس.

لم تكن بيروت خالية من المخاطر تماماً قبل فترة قيام الحرب الأهليّة. كانت عائلة درزيّة تسكن في شقة مقابلة لشقة عائلة إيفون. سمعت في أحد الأيام ضجيجاً، فاتجهت ناحية النافذة وشاهدت فتاة تصرخ وهي تحاول تخليص نفسها من قبضة أخيها. وبعد لحظات سمعت طلقات نارية فدفعها زوجها بعيداً عن النافذة. وعندما عادا ونظرا من جديد شاهدا جثة الفتاة هامدة وسط الشّارع. لقد قتلها أخوها لأنّها «لوّثت» شرف العائلة لوقوعها في غرام شخص ما. وصلت بعد دقائق سيّارة أجرة نقلت القاتل إلى مكان غير معلوم. بعد أن تمّ نقل جثمان

الفتاة الضّحيّة كانت بقع الدّم لا تزال تغطي أرضية الشّارع. أخبرت إيفون البنات في اليوم التّالي أنّ شاحنة محمّلة بعصير الطماطم قد انقلبت وسط الشّارع.

سأل ضابط في الوكالة اسمه سام وايمن في أحد الأيّام أيمز كيف يجد الوقت لمطالعة الكتب. فردّ: «إنّني أخلق الوقت. ساعة واحدة على الأقلّ في اليوم». كان وايمن من بين الذين يعرفون العربيّة، وفي أحد الأوقات، كان لدى دائرة العمليّات في الوكالة اثنا عشر أو ثلاثة عشر ضابطاً ممّن يتكلّمون العربيّة. عمل والد وايمن ضابط مخابرات عسكريّة في القاهرة حين وُلد سام الذي أمضى شطراً من طفولته هناك بعد الحرب العالميّة الثانية. درس سام في جامعة جورجتاون، وحصل على الماجستير متخصّصاً في الشّرق الأوسط من جامعة كولومبيا. ثمّ أمضى عامين يدرس العربيّة في جامعة بغداد. وعليه فمن النّاحية الأكاديميّة يكون قد أمضى وقتاً أطول من أيمز في تعلّم العربيّة، لكنّ الأخير كان أكثر طلاقة فيها. يتذكّر وايمن أنّه وأيمز كانا يلعبان معاً لعبة الكلمات المتقاطعة بالعربيّة، ويستمعان لأغاني المطربة فيروز. ولا يزال يحتفظ بدفتر ملاحظات صديقه عن تصريف الأفعال العربيّة. وفي نهاية الدّفتر توجد قائمة بالكلمات التي ترجمها أيمز إلى العربيّة وكتبها بخطّه الجميل المنمّق.

عمل أيمز بإمرة مدير المحطة جين برغستولر، الذي يُعتبر من جيل الرّوّاد في الوكالة. خدم في برلين ثمّ تولّى بعد ذلك إدارة مكتب الوكالة في باريس. أعجب أيمز به واعتقد أنّهما كوّنا فريق عمل جيّداً في محطة بيروت. كان زميله من أيام عدن هنري ملر جونز يسكن في بيروت أيضاً. درس ملر العربيّة في بيروت لمدّة عام، ثمّ صدرت الأوامر بنقله إلى دمشق ليتولّى تجنيد العملاء هناك. كانت تلك مهمّة شاقة لأنّ سورية بلد مغلق أمام نشاط الوكالة. كانت أيضاً خطيرة، لأنّه كان مطلوباً منه أن يجمع المعلومات حول النّشاطات السوفيتيّة في الشّرق الأوسط. سخر أيمز من تلك المهمّة، واعتقد أنّ السوفيت كانوا بلا شكّ هدفاً ثانويًّا في مكان كبيروت.

سكن في الشّارع نفسه في منطقة رأس بيروت ضابط آخر اسمه رچرد زاغورين الذي كتب يقول: «كنت أخشى قدرة بوب اللغويّة رغم أنّي درست العربيّة أيضاً. أعرف أنّه يفهم العالم العربي جيّداً، فهو شخص يعرف حقاً متطلّبات

مهنته. «التحق زاغورين بمدرسة اللغة في بيروت، وعندما اندلعت حرب حزيران انضم للعمل في الوكالة، وكان أوّل عمل له إتلاف بعض الوثائق السّريّة، حسب طلب مدير المحطة. انضم إلى الوكالة لأنّ أحد معارفه المسمّى بل برومل كان يعمل في دائرة العمليّات وتخصّص بالشّرق الأوسط. أعجب زاغورين بشخصيّة برومل، ولذلك عندما سُئل عند انضمامه أيّ قسم يفضّل أجاب «الشّرق الأدنى»، وعُيّن في القسم الذي طلبه. كتب يقول: «كانت بيروت في تلك الأيام مدينة رائعة وكان جوّ العمل فيها ممتازاً. كنتُ وكأنّني مشارك في البرنامج التلفزيوني غلبرت وسوليفن. بإمكانك أنْ تفعل ما تشاء، ولا يمكن أن تقوم بشيء يوقعك في مشكلة من نوعٍ ما. وفوق ذلك، كان فريقنا يضم أشخاصاً موهوبين».

شغلت محطة الوكالة الطابق الأعلى من جهة اليسار من مبنى الوزارة الذي بُني على شكل حذوة حصان. «كنا، نحن ضباط الوكالة نعمل في (حظيرة الثيران). كنّا نعمل بشكل متواصل، وكان بيننا عدد من المطلقين. كانت مهامنا تنحصر في مراقبة الدّول العربيّة ونشاطات المسؤولين السوفيت. كان الاسم السّريّ لهؤلاء REDTOP. لكننا أطلقنا عليهم اسم Realflops».

صادق أيمز ضابطاً آخر في محطة بيروت، وهو شخصيّة زئبقيّة اسمه هنري مكدرموت الثالث. كان يُعرف باسم Green Wog. لربّما جاءت تلك التّسميّة من أصله الأيرلندي ولأنّه يطلق على العرب اسم Wogs. وهذا الاسم مختصر Worthy Oriental Gentlemen ويُطلق تهكّماً على الهنود أو ما يُسمّى British Rajs الذين يحاولون تقليد الأرستقراطيّة البريطانيّة. لكنّ مكدرموت يقسم بإصرار أنّه يحبّ العرب وأطلق ذلك عليهم لتعاطفه معهم. نشأ مكدرموت في أسرة كان والده فيها يسيء معاملته، وقد يكون ذلك وراء حبّه لاحتساء الشراب. أطلق عليه أحد الضّبّاط ساخراً لقب الأيرلندي المحترف. ومع ذلك حاز إعجاب زملائه لجرأته وشجاعته. ذهب في إحدى المرّات إلى مركز الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين PFLP وقدّم نفسه كأحد أعضاء الجيش الجمهوري الأيرلندي. نجحت الخطة لبعض الوقت وحصل على معلومات مكّنت الوكالة من إحباط محاولة اختطاف طائرة. وصل مكدرموت إلى لبنان عام 1965. وبخلاف سنة قضاها في العراق، فإنّه أمضى بقيّة الوقت في بيروت. كان يجيد العربيّة ويتمتع

بروح الفكاهة وتناول الطعام والشّراب مع الأصدقاء. كتب عنه هنري ملر جونز الذي تعرّف إليه في بيروت «هنري شجاع موهوب وجريء. لم يتردّد في الإقدام على المخاطر، وساعدته شخصيّته الأيرلنديّة الجذابة على ذلك». عمل مع أيمز في استهداف الشّخصيّات الفلسطينيّة وجمع المعلومات عنها. يضيف ملر جونز قائلاً: «تطلّب ذلك شجاعة فائقة. كان بوب شجاعاً جريئاً حاسماً حازماً، فضّل أنّ من يعمل معه يكون مثله. وكان هنري ذلك الشّريك».

كوّن أيمز ومكدرموت صداقة غير متوقعة، فقد كانت شخصيّتاهما متناقضتين تماماً، باستثناء أنّ كليهما كاثوليكيّ، ويترددان على القدّاس في كنيسة سانت فرانسس الكاثوليكيّة في شارع الحمرا. من جهة أخرى، كان أيمز يستمتع بصحبة تلك الشّخصيّة الزّئبقيّة المداومة على الشّرب. تقول بتي زوجة مكدرموت في ذلك الوقت: «كانا صديقين قريبين أحدهما من الآخر. لقد أحبّ هنري أيمز قدر ما استطاع واحترمه كثيراً. كما أطلق عليه اسم الحوت الأبيض لضخامة جسمه».

سكن مكدرموتفي شقة قريبة من فنار رأس بيروت، وكانت لورن جنكنز مديرة مكتب نيويورك تايمز جارته في بيروت بين الأعوام 1970–1973. «كان شخصيّة متميّزة يعجبه أن يرمي السّكاكين نحو لوح خشبي. كان يدقّ على بابي أحياناً في ساعات متأخّرة من الليل وهو يحمل بيده زجاجة شراب. حاول أن يدفعني للإسراف في الشّرب ليحصل منّي على معلومات. ولكن كانت لي قدرة على تحمّل الشراب أكثر منه، ولذلك غالباً «ما قلبت الطاولة عليه» وحصلت منه على معلومات عن الوكالة. كان الضّابط الوحيد الذي حاول تجنيدي للعمل لصالح الوكالة».

كانت بيروت بين عامي 1970–1971 مدينة صاخبة تعجّ بالحياة ويأتي إليها النّاس من كل أنحاء العالم. كانت مسرحاً لنشاط كثير من وكالات المخابرات الدّوليّة. كتب زاغورين «تلك كانت فترة حصلت فيها على معلومات من ضابط سوفيتي، وفي الأيّام التي تلت ذلك شعرت بالتّهديد. ولذلك اتّفقت مع بوب أن تكون بيننا إشارة إذا ما حاولوا اختطافي لكي يهبّ لإنقاذي. كان مسلحاً ومستعدًّا».

في أواخر عام 1969 وبعد الإجلاء من عدن، قابل أيمز شابًّا لبنانيًّا عمره

سبعة وعشرون عاماً كان قد قضى المرحلة الجامعيّة في كليّة في وسط غرب الولايات المتّحدة اسمه مصطفى زين. وكما يقول أحد زملاء أيمز أنّ زين بالنسبة إليه مثل سانخو پانزا خلال السّنوات الأربع عشرة القادمة. التقيا في بيروت في فندق بدفرد، حيث كان زين يسكن ويدير أعماله. كان يتكلم الإنكليزيّة، غير أنّ أيمز كان يقاطعه أحياناً بذكر حِكَم وأقوال عربيّة مأثورة. كانت تلك طريقته لإثبات وجهة نظره وللتأكيد لمعارفه من العرب أنّه يكنّ الإعجاب للغتهم.

أمضى مصطفى طفولته في لبنان، وهو ينحدر من أسرة لبنانيّة جنوبيّة متوسطة الحال. كان أبوه مالكاً أراضي وبساتين في الجنوب. وُلد بتاريخ 22 يناير من عام 1942 في مدينة صور السّاحليّة، وكان الشّيعة في حينها الطبقة المسحوقة. كانوا فلاحين وعمالاً لا يملكون الأرض التي يزرعونها ولا البساتين التي يهتمون بها. كانت تعود ملكيتها بشكل واسع إلى المسيحيين الموارنة، وملاّك الأراضي من المسلمين السّنّة. ومع ذلك، كانت ظروف تنشئة مصطفى مختلفة. فقد وُلد لأسرة ثريّة وكان واحداً بين ثمانية أبناء وثلاث بنات وُلدوا جميعاً في بيت الأسرة. امتلك والده محل بقالة لبيع المواد الغذائيّة والحاجات المنزليّة، وكان يمتلك بساتين تنتج الزّيتون والتّين والبرتقال التي تُنقل لتُباع في بيروت. جمع أعمامه ثروة طائلة من تجارة الألماس في سيراليون، وكانت جدّته لأمّه من أغنى النّساء في صور وكانت تسكن في قصر قديم. أحبّها مصطفى كثيراً. ورغم أنّها كانت أميّة فإنّها كانت متديّنة وورعة تقوم بأعمال خيريّة. كان مصطفى يقرأ عليها القرآن ويساعدها في مشاريعها الخيريّة. وثقت به تلك الجدّة منذ كان في التّاسعة من عمره وسلمته مبالغ كبيرة من المال ليشتري أكياس الطحين والأرز والسّكّر ليوزّعها على مساكن العوائل الفقيرة في مدينة صور مساء كلّ خميس.

وخلافاً لما كان عليه أقرانه، فقد تعلّم مصطفى الإنكليزيّة في معهد جيرارد، وهو مدرسة داخليّة أمريكية أسّست في صيدا عام 1881 من قبل الكنيسة الإنجليكانيّة المتّحدة. في عام 1959 اختير مصطفى ليقضي السّنة الأخيرة من المرحلة الثّانويّة في مدرسة في ناپرفل في ولاية إلينوي ويسكن مع عائلة أمريكية. تقع المدينة على مسافة ثلاثين ميلاً إلى الجنوب الغربي من شيكاغو.

كان عدد سكّانها عام 1960 يبلغ اثني عشر ألفاً وتسعمئة وثلاث وثلاثين نسمة، وهو الأمر الذي أتاح للشّاب أن يتعرّف إلى الحياة في مدينة أمريكية صغيرة. «أصبح بوب وجون بكمن بمنزلة الوالدين لي»، كما يقول زين، و«أنّ ابنتيهما وابنهما أصبحوا بمنزلة الأختين والأخ لي، حتّى هذا اليوم». كان مصطفى قريباً بشكل خاصّ إلى الأمّ، وهي سيّدة من أتباع الكنيسة العلميّة Christian Scientist. لم يكن تديّن العائلة سبباً لنفوره منها، بل على العكس، «أعجِبت كثيراً بمبادئ المسيحيّة السّائدة في المجتمع». وقع مصطفى في حبّ كلّ ما هو أمريكيّ. «لقد كانت تلك السّنة هي التي شعرت فيها بأنّني أصبحت مزدوج الجنسيّة». حسب قوله.

إثر تخرّجه من مدرسة نابرفل الثانويّة التحق زين بكليّة نورث سنترال في المدينة نفسها. وهي كليّة خاصّة صغيرة تركّز على دراسة اللغات والعلوم والفلسفة، أسّستها الكنيسة البروتستانتيّة عام 1861. كان خلال التحاقه بالكليّة يعمل في الصيف نادلاً في مطاعم الدّرجة الأولى. تعاقد فيما بعد بالاشتراك مع ثلاثة من زملائه لتنظيف الأقسام الدّاخليّة في الكليّة. كان منذ ذلك الحين يمتلك الرّوح التّجاريّة التي جعلته رجل أعمال ناجحاً ووسيطاً في نشاطات المخابرات. حين تخرّج عام 1964 في الكليّة كان قد وفّر مبلغ اثني عشر ألف دولار، وانتقل إلى نيويورك ليعمل في مركز منظمة الطلبة العرب.

لقد جعلته الحياة في أمريكا يحبّ السّياسة. وبحكم كونه شيعيًّا، فقد تعاطف مع اللاجئين الفلسطينيين، فقد كانوا هم أيضا لا يملكون أرضاً مثل الشّيعة في لبنان، وليس لهم صوت في قضاياهم بين القوى السّياسيّة. في العام 1964 انتُخب نائباً لرئيس منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحّدة وكندا. كان شابًّا وسيماً ذا شعر أسود داكن وعينين متميّزتين. تحدّث الإنكليزيّة بطلاقة، مع أثر قليل من لكنة الشّرق الأوسط، وكان ذا شخصيّة لطيفة منفتحة(*). أتاح له

(*) باعتباره طالباً ناشطاً في الولايات المتّحدة، تعرّف زين على عدد من الفلسطينيين بينهم نبيل شعث، الذي أصبح فيما بعد وزيراً في حكومة السّلطة الفلسطينيّة. كما تعرّف إلى أشخاص آخرين مثل عمرو موسى الذي أصبح سياسيّا مصريًّا معروفا. وتعرّف إلى مصريّ آخر هو أسامة الباز الذي شغل مناصب عالية في الدّبلوماسيّة المصريّة.

مركـزه فـي المنظمـة المذكورة أنْ يتعرّف بشـكل طبيعي إلى المنظمات المماثلة الأخـرى، مثـل **الاتحـاد الوطنـي لطلبـة الولايـات المتّحـدة**، الذي رعـت **وكالة المخابرات المركزيّة** برنامجه منذ تأسيسـه حتّى الوقت الذي كشـفت فيه مجلة رامپـارت تلـك العلاقـة عام 1967. لقد أسّسـت الوكالة المذكـورة منظمة الطلبة الأمريكيين لتكون وسيلتها للتّغلغل في منظمات الطلبة الأجانب، باعتبارها أرضاً صالحة لتجنيد العملاء. كان لزين صديق أمريكي اسـمه رچرد شـتيرنز(*)، وكان نائبـاً لرئيـس منظمـة الطلبة الأمريكيين. من الواضح أنّ الوكالة قد أحيطت علماً بنشـاطات زيـن. ومـن المثير للدّهشـة أنّه حين كشـفت المجلـة المذكورة علاقة الوكالـة بمنظمـة الطلبـة الأمريكيين، لـم يقلق أمر التّمويل هذا الشّـاب اللبناني. من الجدير بالذكّر أنّه أخبر بعض أصدقائه في القاهرة فيما بعد، أنّ المخابرات السوفيتيّة كانت تقوم بنشاطات مماثلة.

«كان زيـن لاعبـاً مهمّـا فـي الوسـط الطلابي العربي»، حسـب مـا صرّح به عميل آخر تعرّف إليه فيما بعد. «قام بتأسيس شبكة من خلال اتّصالاته بالطلبة العرب. وكان ذكيًّا جدًّا ومثقفاً للغاية ومؤيّداً للأمريكيين بحقّ، وله ذوق جميل في الأعمال الفنيّة. وكانت زوجتي مولعة به كثيراً».

فـي عـام 1964 دخـل زيـن في خلاف علني حـول صورة كانت في الجناح الأردنـي فـي المعـرض العالمـي فـي نيويـورك. تظهـر الصّـورة المذكـورة حالة اللاجئين الفلسـطينيين في المخيّمات في الأردن. ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أنّ المسؤولين في الجناح الإسرائيلي قدّموا بسرعة احتجاجاً إلى روبرت موزس، مدير المعرض. اشـتكوا أنّ الصّورة في الجناح الأردني «ليسـت إلاّ دعاية ضدّ إسـرائيل وشـعبها»، وطلبوا من مدير المعرض رفعها حالاً. وحين لم يسـتجبْ، تقاطر حوالى أربعين يهوديًّا أمريكيًّا على الجناح الأردني وبدأوا يردّدون شعارات معادية وأشبعوا المسؤولين الأردنيين شتماً وكلاماً فاحشاً. وقف زين يشاهد ما يجري، ثمّ قام من لحظته بإرسـال برقيّة إلى موزس باعتباره نائب رئيس اتّحاد الطلبة العرب في الولايات المتّحدة معبّرا عن ذهوله من سلوك أولئك المحتجّين.

(*) أصبح رك شتيرنز صديقاً لبل كلينتن عندما كانا طالبين في أوكسفورد، وعيّنه الرّئيس كلينتن فيما بعد قاضياً اتّحاديًّا في محكمة بوسطن عام 1993.

كتب يقول: «إنّ مثل هذه العمل وغيره قد استنفد صبرنا، نحن الطلبة العرب في أمريكا. وهذا ما يجعلنا نتساءل أحياناً هل نحن نعيش في أمريكا أم في إسرائيل؟» رجا زين من مدير المعرض أنْ يكون ذا ذهن متفتّح و«أن تتفهّم رغبتي الحقيقيّة لبناء الجسور وردم هوّة غياب التّفاهم بين الشّعبين الأمريكي والعربي». وهكذا أصبح من النّاحية الواقعيّة «مدافعاً عن قضيّة».

في أواخر عام 1964 انتقل إلى القاهرة والتحق بكليّة الطب. غير أنّه ترك الدّراسة بعد سنة وتفرّغ للعمل في ميداني السّياسة والتّجارة. تعرّف في تلك السّنة إلى عدد من الشّخصيّات المعروفة، والتُقِطت له صورة مع الملك حسين في العام نفسه، وفي شهر أبريل حظي بمقابلة الرّئيس المصري عبد النّاصر. حصل في عام 1968، عندما كان عمره ستة وعشرين عاماً، على منصب «مستشار خاص» لحاكم أبي ظبي الشّيخ زايد بن سلطان آل نهيّان. أصبح زين المستشار الاستراتيجي للشّيخ ومترجمه حين يجتمع مع الأمريكيين والبريطانيين. وهما القوّتان المتنافستان على قيادة الإمارات العربيّة على السّاحل الشّرقي لشبه الجزيرة ورسم مستقبلها. ونظراً للعلاقة التّاريخيّة بينه وبين تمويل الوكالة للمنظمات الطلابيّة قبل سنوات، فليس من المدهش أنّ زين تلقى مكالمة هاتفيّة عام 1968 من زائر أمريكي. عرّف الرّجل نفسه بأنّه ألن مكتيغو ويعمل في السّلك الخارجي ومقرّه في الظهران. أخبره أنّه الملحق التّجاري في القنصليّة الأمريكيّة، وهو المنصب نفسه الذي شغله أيمز قبل عامين. كان يودّ التّحدّث إلى زين، ولذلك دعاه أن يزوره في مكتبه في القصر في أبي ظبي. تحدّث حين التقيا لبعض الوقت وقدّم له مكتيغو نسخة من كتاب جون كنيدي لمحات من الشّجاعة. ثمّ كشف له أنّه حقيقة ضابط في الوكالة ويحبّ أنْ يُقيم علاقة اتّصال مع زين. استمع الشّابّ اللبناني بهدوء وأخبر زائره بأنّه متعاطف معه. وكان ذلك كلّ الذي قيل. غير أنّ مكتيغو ذكر له أنّه في المرّة القادمة حين يكون في بيروت، فعليه أنْ يتّصل بشاب أمريكي اسمه بوب أيمز.

التقى زين أيمز في بيروت في أواخر عام 1969، أي بعد أيمز الثاني من عدن. كان أيمز يرتدي بذلة رماديّة وينتعل حذاء الكاوبوي المتميّز. حيّا زين بابتسامة عريضة، وبدأ حديثه برواية بعض النّكات اللبنانيّة. يتذكّر زين قائلاً:

«افتتح اللقاء بإخباري أنّه يعرف تفاصيل حياتي». لقد قرأ ملف الوكالة عن الشّاب اللبناني، ويعرف دوره في منظمة الطلبة العرب في نيويورك، ويعرف فحوى البرقية التي بعثها إلى روبرت موزس عام 1964 التي تظهر أنّ مصطفى قادر على أخذ المبادرة في الوصول إلى أشخاص مهمّين، بل أيضاً له رغبة صادقة في «مدّ الجسور» بين شعبه وأمريكا. اتّسم حديثهما بالصّراحة. أخبره زين أنّه «يعرف من هو، وأنّ ذلك أمر لا يزعجه إطلاقاً». لكنّه عبّر عن خيبة أمله لتحالف واشنطن مع «السّفاحين والطغاة المستبدّين». استمر في شكواه قائلاً: «إنّ أمريكا تلقي بالعرب الوطنيين في أحضان السوفيت، وأنّهم يلجأون إليهم مضطرّين»، وبالطبع، تحدّث عن مأساة الفلسطينيين. استمع بوب بصبر وأمضى معظم الوقت صامتاً.

يعرف من خلال تدريبه أنّ تجنيد المخبرين عمل شاقّ، والفشل وارد إنْ لم يُظهر الشّخص استعداداً للتّعاون. شعر أيمز أنّ زين يريد أن يعمل لصالح أمريكا لأنّه اعتقد أنّ من مصلحة شعبه أنْ يوطّد علاقات قويّة وصداقة مع الولايات المتّحدة. «هل هناك شخص أسهل للتّجنيد منّي؟» كما قال فؤاد، وهو أحد شخصيّات الرّواية التي كتبها ديفيد أغناتيوس عام 1987 بعنوان **المخبرون الأبرياء**. يقول بطل الجاسوسيّة الذكّي في الرّواية «لقد عرضت أنا أنْ أكون مخبراً». تجري أحداث الرّواية في بيروت في فترة السبعينيات، وشخصيّة البطل مبنيّة على حياة مصطفى زين. لكنّ زين يرفض ذلك بإصرار، ويقول إنّه لم يعمل مخبراً في الوكالة، وكان دوره مختلفاً تماماً(*).

أمضى زين في بيروت حياة مهنيّة ناجحة كمستشار اقتصادي. شملت قائمة عملائه بعض الشّركات العالميّة الكبيرة مثل ستي سرفس للنّفط وشركة سوما وشركة الأخوة سلمون وشركة الفولاذ الأمريكيّة وشركة كايزر وشركة نرثروب.

(*) بعد سنوات أدلى أحد مسؤولي الوكالة بشهادة أمام إحدى المحاكم الفدراليّة قال فيها: «إنّ مصطفى زين لم يستلم قطعا أموالاً لقاء جهوده. إنّ الأساس في تعاون السيّد زين مع الوكالة قام على رغبته أنْ تتفهّم الولايات المتّحدة وتتعاطف مع وجهات النّظر العربيّة والفلسطينيّة حول الوضع في الشّرق الأوسط». وقد تأكّد ذلك في رسالة إلكترونية للمؤلف بتاريخ 4 أغسطس عام 2012، والدّعوى أمام المحكمة الفدرالية مصطفى م. زين ضد الولايات المتحدة رقم 99-244c بتاريخ 23 مارس لعام 2002، الصفحة رقم 5.

في وقت ما من عام 1969، اقترح أيمز على المكشوف أنّ مصالحهما مشتركة، وربّما من الأفضل أنْ يعملا سويّة، ولا شيء أكثر من ذلك. اعتقد زين دائماً أنّ العلاقة بينهما تقوم ببساطة على الصّداقة والقيم المشتركة. «لم يكن إطلاقاً مخبراً (مدفوع الأجر)»، حسب تأكيد سام وايمن، مسؤول الوكالة الذي عمل فيما بعد مع زين. «كان مخبراً عقائديًّا، تطوّع بمحض إرادته أو سمح لنفسه أنْ يُجنّد. لم يتعامل إطلاقاً مع شخص لا يحبّه أو لا يكنّ له الاحترام. غير أنّه كان مستعدًّا لعمل أيّ شيء لأولئك الذين يحبّهم ويحترمهم. إنّ أولئك الذين حقّقوا نجاحاً معه قد عرفوا تلك الحقيقة». كان زين هو الأفضل، ولم يكن شخصاً يمكن «شراؤه»، ولم يقبل تلقي أوامر من الأمريكيين. كان شخصاً مستقلاً بذاته، لكنّه كان مستعدًّا لعمل أيّ شيء لدفع العلاقة بين أمريكا وشعبه. اعتقد بوب أنّه شخص مثالي، ولذلك لم تكن هناك حاجة أنْ يُدفع له مقابل خدماته. وكما شرح مصطفى، فيما بعد: «عندما قابلت بوب في بيروت أقسمنا بعد أشهر عدة أنْ نلتزم بالحقيقة أحدنا تجاه الآخر في عالم يسوده الكذب». في عالم الجاسوسيّة، هذه العلاقة نادرة. لقد كانت علاقة شراكة.

أخبر أيمز صديقه زين أنّه «أكفأ» عربي قادر على بناء الجسور رغم الاختلافات السّياسيّة والثقافيّة بين أمريكا والعالم العربي. فهو يعرف أمريكا من خلال سنوات الدّراسة التي قضاها فيها، وطبعاً يعرف عالمه العربي. إنّه يمكن أن يكون شخصيّة زليغ العربي. تماما كشخصيّة لنرد زَليغ، التي خلقها السّينمائي المعروف وودي ألن. فهو موجود في كلّ مكان ويعرف كلّ شخص. (تحتوي سيرة حياة زين التي كتبها بنفسه بعنوان الخداع مع أقصى درجات التحيّز ولم تُطبع بعد، على صور له مع الملك حسين والرّئيس عبد النّاصر والوزير الهندي كرشنا وشيخ الشارقة وياسر عرفات وباربرا والترز)، وغيرهم من الشّخصيّات الأخرى.

طلب بوب من زين أن يقدّمه من فترة لأخرى لأحد الأفراد من حلقة أصدقائه. وفي العادة يمكن أن يُطلق على زين في هذه الصّورة «من يسهّل الاتصال بالمخبرين»، حسب قول جاك أوكونل، ضابط الوكالة المتقاعد الذي شغل منصب مدير محطة عمّان. فبالنّسبة إليه اعتبر زين وسيلة للحصول على

مخبرين. «تجنّد مخبراً رئيسيًّا لأنّه يعرف كلّ شخص في المدينة... وتريد منه أنْ يكون لك شريكاً للتّوصل إلى مخبرين. ربّما تدفع له عشرة آلاف دولار سنويًّا أو ألف دولار في الشّهر، تعويضاً لوقته وإخلاصه». كان زين يقوم بمثل هذا الدّور خير قيام، لكنّه رفض أنْ يستلم أجوراً لقاء جهوده، كما رفض أنْ يوقّع أيّ عقد مع الوكالة لهذا الغرض.

ذكر أحد ضبّاط الوكالة ممّن عملوا مع زين «كنت معجباً جدًّا بمصطفى». لكنّه كان يعرف أنّ زين يتمتّع «بشخصيّة تميل إلى الاستحواذ». لقد تمسّك بتقاليد مجتمعه العربي، وكان لباسه حديثاً من غير مغالاة. تردّد على نوادي بيروت وكازينوهاتها، رغم أنّه نادراً ما تناول الشراب. كان في إحدى المرّات على علاقة شخصيّة مع أجمل وأشهر راقصة في حينها، ولم يكن يعنيه ما يقول الآخرون. كان يتمتّع بروح سامية وكان سيماً وساحراً. ولكن كان في ذاته جانب جدّيّ، أقرب إلى الفلسفة. في مطلع عام 1963 عندما كان طالباً في ولاية إلينوي، بدأ يدرس الصّوفيّة(*).

عرف زين أنّ أيمز متزوّج وله عدد من الأطفال. قدّمه الأخير لزوجته في بداية صداقتهما، فأصبح مصطفى صديقاً مقرّباً للعائلة. (من الجدير بالذكر أنّه بعد عقود عدّة عندما تزوّج أحد أولاد بوب، دعته إيفون لحضور الحفل، لكنّ مصطفى لم يستطع الحضور). لم يكن بوب وأيمز زميلين تجمعهما المهنة، لقد كانا صديقين. تلك كانت طريقة أيمز في تجنيد المخبرين عن طريق الصّداقة. «لم يكن بوب ماهراً في تجنيد المخبرين»، حسب قول جورج كول، وهو موظف كبير سابق. «إن قليلاً من الأشخاص يسلكون ذلك المسار. لم يرَ بوب حاجة لتجنيد الأفراد بشكل رسمي. فقد كانت مصادقتهم تفي بالغرض».

غير أنّ الحقيقة هي أنّ زين كان قادراً على تقديم أكثر ممّا يقدّمه الصّديق. كان يعرف كيف يقيم صداقات جديدة. كان عمليًّا وبالغ الشّجاعة(**). يتذكّر أحد

(*) حركة تقوم على الإيمان بأنّ المعرفة المباشرة بالله، أو بالحقيقة الرّوحيّة، يمكن أنْ تتمّ للمرء عن طريق التّأمّل أو الرّؤيا أو النّور الباطني، وبطريقة تختلف عن الإدراك الحسّي العادي والتّفكير المنطقي – المترجم.

(**) تمّ اختطاف زين من قبل أحمد أبو يونس، عضو الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين PFLP. وهو ضابط مخابرات شرس، قام بالتّحقيق مع زين لمدة عشرة أيّام في زنزانة مظلمة رطبة في مخيّم شاتيلا

ضبّاط الوكالة فيقول: «كان شجاعاً وجريئاً، شاهدته يتصرّف على ذلك النّحو في مواقف خطيرة وهو ينتقل بتحدٍّ من نقطة تفتيش إلى نقطة أخرى». بدأ أيمز يشير إلى زين في برقياته المرسلة إلى لانغلي باسم «النّبي» بسبب ذكائه، ولكن أيضاً لأنّه يعرف أنّ مصطفى كان يحب كتاب جبران خليل جبران الشّهير. كان يدعوه أحياناً المحفّز وهو اصطلاح صوفي. ولكي يكون محفّزاً «يتعيّن على الفرد أنْ يكون في هذا العالم، وفي الوقت نفسه ليس جزءاً منه». وبدون هذا المحفّز ما كان للأمريكيين والفلسطينيين أنْ يلتقوا معاً.

للاجئين الفلسطينيين. كان لزين القدرة العقليّة على أنْ يقنع أحد حرّاسه بنقل رسالة مشفّرة لصديق، فجرت عمليّة ناجحة لتحريره. تمّ إعدام أحمد أبو يونس عام 1981 من قِبَل جبهة PFLP.

الفصل الخامس

الأمير الأحمر

أخذ أيمز يقضي وقتاً طويلاً برفقة مصطفى زين في بيروت. في أحد الأيّام من عام 1969 وعندما كانا يتحدّثان عن مختلف الشّخصيّات في منظمة التّحرير الفلسطينيّة PLO، أشار زين إلى أنّه قد عاود الاتصال بشاب فلسطيني مقرّب من ياسر عرفات، الذي عُرف باسم «الخِتيار» رغم أنّه في سنّ الأربعين. أمّا الصّديق فاسمه علي حسن سلامة ويبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، وهو عضو في مجلس فتح الثوري وعمل منذ عام 1968 مع جهاز الأمن الثوري لفتح. بعبارة أخرى، كان سلامة قد شهد ميلاد مكتب المخابرات الجديد ورعاه وأطلق عليه فيما بعد اسم القوّة 17. حظي بهذا الاسم لأنّ رقم 17 كان فرع التلفون الخاصّ بذلك الجهاز في مقر منظمة فتح في بيروت. حاول منذ البداية أن يجعل من القوّة 17 جهازاً استخباراتيًا مهنيًا. بعد أن تولّى المسؤوليّة بقليل، سمع أنّ أحد رجاله قد اتّهم رجلاً آخر بأنّه جاسوس إسرائيلي لسبب بسيط هو أنّ الأخير يجيد العبريّة ويقرأ الصّحف الإسرائيليّة. اعترض سلامة على ذلك الاتّهام، وقال بأنّه يتوجّب على الجميع أن يتعلموا العبريّة ويتحدّثوها بطلاقة، ثمّ قام بفصل الضّابط الذي وجّه الاتّهام لصاحبه.

كان سلامة فلسطينيًا منفتحاً، قال زين عنه أنّه تجاوز كل القيود الاجتماعية العربيّة بروحه العصريّة. ورغم كونه متزوّجا فإنّه كان زير نساء، وغالباً ما كانت إحداهنّ تتوسّد ذراعه. «كان يشبه الممثل مارلون براندو في عزّ شبابه، بقامته الشامخة التي تزيد عن ست أقدام»، حسب ما يتذكّر زين. كان علي حسن ثوريًا من جيل الستينيات، ولم يكن ذلك يعني أنّه ماركسي. وكغيره من الثوريين الفلسطينيين، كان يحمل السّلاح ويؤمن بشرعية الصّراع للعودة إلى أرض الأجداد في فلسطين. جال شوارع المدينة بسيّارة فارهة وتردّد على أفضل مطاعم بيروت. كان من أسرة ثريّة، وأطلقت المخابرات الإسرائيليّة عليه لقباً أرستقراطيًا

هو الأمير الأحمر. أثارت تلك التّسمية اهتمام أيمز وفضوله.

في تلك المرحلة قام أيمز بمحاولة جريئة حين أخبر زين بأنّ الرّئيس الأمريكي نيكسون قد كلفه: «بأنْ يجد طريقة لبناء اتّصال بين الولايات المتّحدة ومنظمة التّحرير... وأنّه، أي أيمز، قد اختير لتلك المهمّة». كانت قصّته لطيفة غير محتملة، لكنّها كانت متكاملة. ليس هناك وثائق رسميّة علنيّة في مكتبة الرّئيس نيكسون تقترح أنّه قد عُهد لأيمز، الضابط ذي الرّتبة المتدنية في الوكالة والبالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، أنْ يفتح قنوات خلفيّة للاتّصال بمنظمة التّحرير. لكنّ أيمز اختلق القصة ليوحي لزين ويؤكّد على أهميّة التّعاون بينهما. طلب منه أنْ يسافر إلى عمّان ليقابل صديقه سلامة، فسافر صاحبنا في اليوم التّالي.

أخبر زين أيمز أنّه صديق مقرّب من علي حسن سلامة، قابله قبل خمس سنوات في القاهرة في عام 1964. قام رئيس اتحاد طلبة فلسطين هناك بتعريفهما أحدهما إلى الآخر قبل سفر سلامة إلى أوروبا للقاء عشيقة إيطالية له هناك. «كان الشّاب مثل المغناطيس، وله سحر وجاذبيّة لا تقدر النّساء على مقاومتها»، كما يتذكّر زين. توطّدت عرى الصّداقة بين الشّابّين منذ اللحظات الأولى. «كان يزور شقتي بانتظام، وأمضى كثيراً من الليالي في غرفة الضّيوف». عندما رجع من زيارته لإيطاليا، أخبر مصطفى أنّه قرّر الانتقال إلى الكويت للانضمام إلى منظمة التّحرير في ذلك البلد. تمّت مقابلة سلامة من قبل خالد الحسن رئيس فرع المنظمة في الكويت، وأحد مؤسّسيها، وكان الأخير مسروراً بلقاء سلامة لأنّه يعرف جيّداً تاريخ عائلة ذلك الشّابّ. استمرت الاتّصالات بين مصطفى وعلي بعد انتقال الأخير إلى الكويت. حضر لزيارة صديقه زين أثناء عمله مستشاراً في أبي ظبي. وفي إحدى المرّات أهدى صديقه سلامة ساعة سويسريّة فاخرة من البلاتينيوم وضعها على رسغه طيلة حياته.

وُلد علي حسن سلامة في بغداد عام 1942 حيث لجأت عائلته إليها من فلسطين حين سعت سلطات الانتداب البريطاني لاعتقال والده، الشّيخ حسن سلامة. وُلد الشّيخ المذكور عام 1911 لعائلة من الفلاحين فقيرة في قرية القولة

قـرب اللـدّ. وعندمـا بلـغ من العمر ثلاثة وعشـرين عاماً، أصبح الشـاب مطلوباً مـن قبـل قـوات الانتداب البريطاني. في العام 1934 انضم إلى حركة عبد القادر الحسـيني السّـريّة الجهـاد المقـدس المناوئة للانتداب. خلال الثـورة العربيّة بين الأعوام 1936–1939 قاد كتيبة من المليشـيا الفلسـطينيّة في قاطع اللدّ – الرّملة. وفـي عـام 1938 نفّـذ غـارة ونسـف خط السّـكك الـذي يصل بين اللـدّ وحيفا. تصف وثائق الانتداب البريطاني الصّادرة من مكتب التّحقيقات الجنائيّة سـلامة الأب فـي ذلـك الوقـت بأنّه رئيس عصابة. كمـا أنّ منظمة الهاغانا، وهي الذراع العسـكري للحركـة الصّهيونيّـة، فتحـت له ملفـاً صوّرته فيه بأنّـه إرهابي ومجرم عتيد. ورد في الملف المذكور «حوّل سـلامة مدينة الرّملة إلى مركز للفوضى، حيث يُقتل النّاس وسط المدينة في وضح النّهار». هل كان رئيس عصابة أم قائد مقاومة؟ حظي سلامة برعاية مفتي القدس الأكبر. وعندما غادر المفتي فلسطين عام 1939 تبعه سلامة إلى منفاه في بغداد، حيث تلقى هناك تدريباً عسكريًّا بين عامي 1939–1940، سارع بعدها للالتحاق بالمفتي عندما سافر إلى ألمانيا، حيث أصبح مسـاعده الرّئيسـي. بالنّسـبة إلى الحركة الفلسطينيّة خلال الحرب العالمية الثانيّـة، أصبحـت تلـك الزّيـارة قصـة كلاسـيكيّة. كان النّازيّـون أعـداء أعدائهم المتمثلين بالإمبراطورية البريطانيّة ومستوطنات الاحتلال الصّهيونيّة. ولذلك فإنّ القائد الفلسطيني في ذلك الوقت مفتي القدس الأكبر الحاج أمين الحسيني اعتبر النّازيين حلفاء استراتيجيين(*). أثبتت تلك الزّيارة خطأً تكتيكيًّا فظيعاً، ليس فقط لأنّ ألمانيا خسرت الحرب، ولكن لما أنزلته باليهود. إنّ فظاعة الأعمال اليهودية عنت أنّ المفتي كان حليفاً، رغم أنّه في حقيقة الأمر لم يكن له أيّ تأثير. لكنّ تلك الزّيارة أصبحت وصمة في جبين القضية الفلسـطينيّة، وكأنّ حسـن سـلامة قد شارك فيها شخصيًّا، فأصبح بقدرة قادر عميلاً سريًّا للمخابرات الألمانيّة.

قابـل الحـاج أمين الحسـيني الزّعيـم الألماني هتلر في شـهر ديسـمبر عام 1941، واقتـرح عليـه أن تقـوم وحـدة من المظليين الألمان والفلسـطينيين بإنزال في فلسطين وتقوم بتحريض المواطنين على الثورة ضدّ البريطانيين. لفّ النّسيان تلك الفكرة حتى شارفت الحرب العالميّة الثانيّة على نهايتها، حين وُضعت قيد

(*) قام الزعماء الأيرلنديّون في حينها بخطوة مماثلة، وكانت لهم المبرّرات نفسها – المترجم.

التّنفيذ وسُمّيت بعمليّة الأطلس لتقوم بالضّبط بما اقترحه المفتي. يشير أحد المصادر إلى أنّ المفتي الحسيني قد أقنع الألمان أنّ يزوّدوا وحدة الفدائيين المظليّة بكمية من السّموم لوضعها في شبكة تزويد البيوت بمياه الشّرب.

في مساء 6 أكتوبر من عام 1944، قامت وحدة مؤلفة من خمسة مظليين بالهبوط من طائرة صغيرة في وادي جرش. كان حسن سلامة أحد أولئك الخمسة، وقام ضابط الأس أس الكولونيل كرت وايلند بقيادة المجموعة. نشأ وايلند في محيط قرية سارادنا خارج يافا. وهو من عائلة مسيحيّة پروتستانتيّة قادها إيمانها للهجرة إلى فلسطين في أواخر القرن التّاسع عشر. سافر وايلند عام 1936 إلى ألمانيا والتحق بالحزب النّازي. ومن الطبيعي أنّه كان يعرف فلسطين جيّداً ويتكلم العربيّة بطلاقة، ولذلك فإنّه كان كفؤاً بشكل ممتاز لقيادة العمليّة. غير أنّ عمليّة الأطلس كانت مهمّة مستحيلة أساساً. بدأت الأمور تزداد سوءاً منذ اللحظة التي قفز فيها المظليّون من طائرتهم الصّغيرة التي كانت مزوّدة بمحرّك تجريبي. كان من المفترض أن تنقل المظليين ليهبطوا في شمال جرش. لكنّ الطائرة كانت تطير على ارتفاع عال جدًّا، ولذلك فإنّ وايلند واثنين من وحدته حملتهم الرّيح فهبطوا في جنوب جرش، في حين هبط سلامة والمظلي الخامس في حقل أبعد إلى الجنوب. أمّا إمداداتهم التي احتوت على ألفي ليرة ذهبيّة وبنادق وخرائط وجهاز راديو، وكما يقال عشرة صناديق كارتونيّة فيها قناني السّموم، فقد تناثرت على مساحة واسعة.

فشلت عمليّة الإنزال بالكامل. تلقى رجال الشّرطة البريطانيون تقارير أنّ السّكان قد عثروا على ليرات ذهبيّة، وأُرسلت الدّوريّات لتمشيط كل نواحي جرش. التجأ وايلند ومرافقاه إلى أحد الكهوف في المنطقة، إلا أنّ الشّرطة اهتدت إلى مكانهم وألقت القبض عليهم. أمّا سلامة ورفيقه فقد تمكّنا من الهرب باتّجاه القدس. يبدو أنّ سلامة قد أصيب برضّ في كاحله خلال عمليّة الإنزال. ومع ذلك تمكّن من السّير حتى وصل إلى قريته القولة قرب اللدّ، حيث قام طبيب بمعالجته. رغم أنّ البريطانيين قد وضعوا مكافأة لاعتقاله أو قتله، لكنّهم لم يتمكّنوا من ذلك.

بتاريخ 29 نوفمبر من عام 1947 وافقت الهيئة العامّة للأمم المتّحدة على

قرار يقضي بإنهاء الانتداب في فلسطين في منتصف شهر مايو من عام 1948. وفي ذلك اليوم ستُقسّم فلسطين إلى دولتين إحداهما يهوديّة والأخرى فلسطينيّة. احتفل اليهود في فلسطين طيلة تلك الليلة، غير أنّه في صباح اليوم التّالي قام الفدائيّون الفلسطينيّون بإطلاق النّار وإلقاء القنابل على حافلة تنقل يهوداً متّجهين إلى القدس فقتل منهم ستة. وُجهت الاتّهامات بأنّ الهجوم قادته وحدة فدائيّة بقيادة سلامة. وفي الأسبوع التّالي قاد ثلاثمئة من رجاله في هجوم على حيّ هاتيكفا في ضواحي تل أبيب الشّرقيّة. قُتل في ذلك الهجوم ستون من رجاله واضطر الآخرون للانسحاب. توصّل سلامة إلى قناعة بأنّ رجاله غير قادرين على مواجهة عصابات الهاغانا وجهاً لوجه. ولذلك تحوّل إلى تكتيك آخر هو مهاجمة العربات اليهودية في الطرق العامة، وكانت تلك استراتيجية دمويّة.

أخذ حسن سلامة ينسّق عملياته مع عبد القادر الحسيني، وهو قائد فلسطيني آخر للفدائيين، وابن عم المفتي الأكبر. حاول عبد القادر أن يسيطر على مدينة القدس، وكانت الخطة أنْ يتولى حسن سلامة قطع كل الطرق المؤدّية إليها. خلال الأشهر الستة الأولى من عام 1948 أصبحت قوة كتيبة سلامة تضم ربّما خمسمئة فدائي، أطلق عليهم «مقاتلو البحر الأبيض المتوسّط». كانوا يقومون بزرع القنابل على الطرقات. بتاريخ 22 يناير من عام 1948 انفجرت سيارة للشرطة اليهوديّة وقتل سبعة من الأفراد عندما مرّت قرب جثة مفخّخة لكلب ميت على قارعة الطريق. وفي أواخر مارس عام 1948 تباهى سلامة أمام أحد مراسلي الأسيوشيتد برس في مقرّه بأنّه يعدّ العدّة لمهاجمة تل أبيب. كان مركز عمليّاته في بناية وسط بيّارات البرتقال خارج الرّملة. في ليلة 4 أبريل من عام 1948 تمّ تفجير تلك البناية المكوّنة من أربعة طوابق، فقتل حوالى عشرين من أنصاره. لكنّ سلامة نفسه لم يُصب بأيّ أذى. وفي ذلك الوقت أصبح معروفاً أنّه وعبد القادر الحسيني هما أكبر قائدين عسكريين للفدائيين. بتاريخ 8 أبريل من ذلك العام تصدّت وحدة إسرائيليّة للأخير وتمكّنت من اغتياله خارج قرية القسطل.

بتاريخ 30 مايو من عام 1948 تمكّنت وحدة من عصابة أرغون العسكريّة بقيادة مناحم بيغن من مهاجمة قرية رأس التّين الاستراتيجية، كون آبارها تزوّد مدينة القدس بمياه الشّرب. وبعد معركة استمرّت أكثر من ساعتين، بسطت

تلك الوحدة العسكريّة سيطرتها على القرية، بما فيها قلعة الصّليبيين التاريخيّة Antipatris. في اليوم التّالي، قاد سلامة ثلاثمئة من رجاله في محاولة لاسترجاع القرية. وبعد مقتل أحد عشر عضواً من عصابة أرغون وجرح عدد آخر، انسحب اليهود من المنطقة. وأطلقوا خلال انسحابهم عدداً من قنابل الهاون للتّغطية، فانفجرت إحداها وسط مجموعة من الفدائيين المتطوعين. قتل ابن عم سلامة وجُرح ابن أخيه، كما أصابته شظية في صدره فجرحته جرحاً بالغاً. بتاريخ 2 حزيران من عام 1948 توّفي في مستشفى الرّملة. كان عمره سبعة وثلاثون عاماً فقط، وكان فقده انتكاسة عميقة لحركة المقاومة الفلسطينيّة في وجه الدّولة الإسرائيليّة الجديدة.

كان عمر علي ست سنوات حين مات والده، فنشأ وهو يستمع لقصص العائلة عن بطولة والده واستشهاده. لقد تربّى الولد الصّغير لأن ينظر إلى والده باعتباره بطلاً أسطوريًّا فلسطينيًّا وشهيداً من أجل قضيّة. رغم علاقته المزعومة بالخطة الفاشلة لتسميم مياه الشّرب في تل أبيب، فقد كان مثالاً للجرأة والشّجاعة. «يجب أنْ نتذكر قائدين فلسطينيين هما عبد القادر الحسيني وحسن سلامة. بالرّغم من القساوة التي أظهراها وإلحاق الأذى باليهود المدنيين، فإنّهما كانا دائماً في مقدّمة جنودهما ولقيا حتفهما في ساحات الوغى». حسب ما قال أحد مؤرّخي عصابة الهاغانا.

كان سلامة وطنيًّا فلسطينيًّا وقائداً فدائيًّا في الوقت نفسه، قتل المدنيين باسم القضيّة الفلسطينيّة. يقول زملاؤه إنّه فقط قاتل الإرهاب بالإرهاب. كان جريئاً وشجاعاً لا يهاب الموت، وقد ورث ابنه كلّ تلك الصّفات.

أمضى علي حسن سنوات طفولته في بيروت، وقامت الأمّ بتربيته وأختيه، جهاد ونضال، وعاشوا جميعاً في شقة جميلة في منطقة للطبقة الوسطى في حي الأشرفيّة. كانوا لاجئين فلسطينيين فقد نسفت السّلطات العسكريّة الإسرائيليّة منزل العائلة في قرية القولة ومسحته تماماً. لكنّ الأسرة في بيروت لم تسكن في مخيّم اللاجئين. درس علي في المقاصد وهي مدرسة خاصّة، وفي عام 1956 عندما كان عمره أربعة عشر عاماً التحق بمدرسة داخليّة في بير زيت في الضّفة الغربيّة. كانت والدته تذكّره دائماً بمكانة والده، «كان لأمّي تأثير كبير عليّ

ووضعت عبأً ثقيلاً على كاهلي»، حسب قوله لأحد المراسلين اللبنانيين خلال المقابلة الوحيدة له مع وسائل الإعلام. فقد علي اثني عشر شخصاً من أفراد عائلته من أبناء الأعمام والأخوال في حرب 1948. «كانت تنشئتي سياسيّة»، حسب قوله. «لقد عشت القضيّة الفلسطينيّة في وقت عندما كانت تدور في حلقة قاسية. كان هناك أناس من دون قيادة. كانوا مشرّدين وكنت واحداً من أولئك المشرّدين المطرودين من أرضهم... إنّ المشكلة التي واجهتها، أنّ العائلة تنظر إلى الكفاح المسلح باعتباره جزء من تراث الشّعب الفلسطيني. المشكلة أنّه لم تكن هناك قضيّة للكفاح من أجلها. كان للقضيّة تاريخ ولكن لم يكن لها وجود. كانت والدتي تريدني أنْ أكون حسن سلامة الآخر في وقت كان فيه أغلب الفلسطينيين يريدون عيش حياة طبيعيّة... كنت على علم بحقيقة أنّني ابن حسن سلامة، وأنّه يجب أنْ أعيش لأكون بمستوى تلك المنزلة، حتّى وإنْ لم يخبرني أحد كيف يتوجب على ابن حسن سلامة أنْ يعيش حياته». حاول لعدّة سنوات أنْ يعيش الحياة كما يُحبّها. «كنت أريد أنْ أكون نفسي»، كما قال. «إنّ حقيقة كوني يجب أنْ أعيش صورة أبي، قد خلقت لي مشكلة».

في العام 1958 انتقلت العائلة إلى القاهرة، حيث درس الهندسة وتخرّج عام 1963. كان الانتقال من بيروت ممكناً بسبب دعوة تلقتها العائلة من الرّئيس عبد النّاصر. لقد سمع أنّ عائلة الشّهيد الفلسطيني المعروف تعيش ظروفاً قاسية، فأمر ناصر أنّ يُمنح الابن وأختاه بعثات لإكمال دراستهم في القاهرة على حساب الدّولة. التحق علي بعد إكمال دراسته في القاهرة بجامعة ألمانية لأغراض الدّراسة العليا حيث تعلم الألمانيّة بكفاءة عالية وأصبح ذا ذوق في اختيار الملابس وارتياد المطاعم الجيّدة، وكذلك العلاقات النّسائيّة. وبالرغم من ذلك، فإنّ انجذابه نحو السّياسة لم يخفت أو يضعف. في شهر مايو من عام 1964 حضر مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني الأوّل الذي عُقد في القدس الشّرقيّة. ويكون بذلك قد شهد مولد منظمة التّحرير الفلسطينيّة. انضمّ بعد ذلك بقليل لحركة فتح تحت قيادة ياسر عرفات. وهي منظمة فدائيّة فلسطينيّة علمانيّة. لقد وجد علي سلامة قضيّته أخيراً. وكما يتذكّر «أصبحت متعلقا جدّا بفتح. لقد وجدت ضالتي».

بعد أنْ أمضى سنة في القاهرة أرسله عرفات إلى الكويت ليكون مسؤولاً عن قسم التعبئة الشعبية في المنظمة. وباعتباره مسؤول اتّحاد طلبة فلسطين - فرع الكويت، أصبحت مهمّته تنحصر في تجنيد المتطوّعين للانضمام إلى حركة فتح. في العام 1966 زار مصطفى زين في أبي ظبي وأمضى معه أسبوعاً ضيفاً في بيته. عندما اندلعت حرب حزيران عام 1967 سارع علي سلامة بالذهاب إلى عمّان معتقداً أنّه سينضم للقتال. لكنّ الحرب انتهت بسرعة مذهلة. عيّنه عرفات بعد ذلك في الجهاز الأمني الثوري لحركة فتح المسمى رصد، الذي كان بداية جهاز مخابرات المنظمة. في العام 1968 أرسل سلامة إلى القاهرة ليتلقى تدريباً حول مهام الاستخبارات على يد المصريين. تخصّص سلامة في الاستخبارات المضادّة وكانت مهمّته تصنيف ملفات المتطوّعين والتّمعن في دراستها لفرز أولئك الفلسطينيين الذين يمكن أنْ يكونوا يعملون لصالح المخابرات الإسرائيليّة داخل فتح. كان عملاً كريهاً، لكنّ سلامة أجاده إجادة تامّة، فلقد كان متأنيًّا وصبوراً في تحقيقاته(*).

أحبّ عرفات سلامة، رغم حياة الإسراف التي يعيشها، وطبعاً كان في حساباته ماضي العائلة واعتباره ابن شهيد فلسطيني معروف. أضف إلى ذلك، أنّ الشّابّ تزوّج إحدى بنات أسرة فلسطينيّة معروفة اسمها نشروان شريف، التي تنحدر عائلتها الثريّة من مدينة حيفا، حيث تبلغ قيمة ممتلكاتها ملايين من الدّولارات. التقى علي ونشروان في القاهرة فأحبّ أحدهما الآخر. كانت نشروان فتاة ذكيّة جذابة حاصلة على شهادة جامعيّة في الأدب الفرنسي.

عرف بوب ما يكفي من المعلومات التّفصيليّة عن علي سلامة ما جعله هدفاً مهمًّا للتّجنيد. ولذلك فإنّه شجّع مصطفى أنْ يتّصل بصديقه. بعد ذلك بقليل التقى زين وسلامة في مطعم فيصل في شارع بلس مقابل الشّارع الذي

(*) أنيطت به أيضاً مهمة الاتصال والتّنسيق مع «الرّفاق» الآخرين من أعضاء المنظمات الثوريّة مثل جماعة بادر - ماينهوف الألمانيّة، وهي منظمة إرهابية كانت تمارس نشاطاتها في أوروبا. في عام 1970 كان عدد من أعضاء تلك المنظمة وغيرهم من الجماعات غير الألمانيّة يتلقون تدريباً في معسكر فتح في الأردن. غير أنّ بعض الألمان أساءوا التّصرّف، فأمر علي حسن سلامة بإعادتهم فورا إلى أوروبا.

تقع عليه البوّابة الرّئيسيّة للجامعة الأمريكيّة في بيروت. كان سلامة ذكيًّا قدر وسامته، وعرف مباشرة أنّ لزين أصدقاء أمريكيين خاصّين. واستناداً لما ذكره زين فإنّه قبل أشهر عدّة «نبّهني سلامة بأنْ أتوقع طلباً أمريكيًّا لترتيب اتّصال مع منظمة التّحرير الفلسطينيّة». رغب سلامة أنْ يبدأ اتّصالاً مع «مسؤول» أمريكي، لكنّه لم يستطع أن يقابله علناً. ولذلك فإنّ أيمز نقل له رسالة عبر زين عن خطة للقائه على النّحو التّالي. سيلتقي زين مع سلامة في مقهى ستراند عند تقاطع شارعي الحمراء مع جان دارك. سيأتي أيمز في ساعة محدّدة، وحين يقترب من طاولتهما، فإنّ زين سيعطي إشارة إلى أنّ الشخص القادم هو الشّخص المطلوب. سيردّ سلامة بوضع يده على كتف زين. كانت تلك الخطة ترمي إلى أنْ يفهم أيمز أنّ سلامة يعرف حقاً مع من يتعامل وأنّه مستعد أن يشارك في اللعبة. لن يتبادلا الكلام ولكن ربّما سيتبادلان النّظرات. ففي هذا الموقف العام سيكونان غريبين عابرين في شارع الحمراء. ولكن في المستقبل سيكونان قادرين على معرفة أحدهما الآخر. لقد خطط أيمز أنْ تكون تلك هي الخطوة الأولى، وهي خطة تهدف إلى سلامة علي حسن الشّخصيّة.

قام ديفد أغناطيوس بتصوير ذلك اللقاء في روايته عن هاتين الشّخصيتين. احضر كلّ من أيمز وسلامة أفراد حراستهما الخاصّة. اصطحب سلامة عددا من أفراد القوّة 17 وهم يرتدون ملابس مدنيّة وانتشروا في أرجاء مختلفة من المقهى. كما نشر أيمز مرافقيه حول المكان. وكما ورد في الخطة، تقدّم أيمز نحو الطاولة التي يجلس عندها سلامة في مقهى ستراند. وبدلاً من المرور بصمت كما كان متّفقاً عليه، توقف فجأة، فقام سلامة ومدّ يده للمصافحة. «ألقى نظرة على أيمز ثمّ أشار إليّ وقال هذا عميلي». كما يتذكّر زين.

بعد ذلك بفترة قصيرة، رتّب أيمز وزين للقاء سريًّا في بيت آمن للوكالة، في الحقيقة شقة في بيروت. أخبر عنصر من منظمة التحرير الكاتب أغناطيوس أنّ أيمز أخبر سلامة أنّه مكلف رسميًّا من قبل مجلس الأمن القومي أنْ يفتح قنوات للاتّصال بالمنظمة. وخلاصة ما قاله: «أنتم العرب، تدّعون أنّ وجهات نظركم لا تلقى أذناً صاغية في واشنطن، وهذه فرصتكم. الرّئيس الأمريكي مستعدّ للاستماع». كانت تلك صورة مزخرفة للموقف. سينقل أيمز ما سيجري

في اللقاء الأوّل، وسيطلب الإذن بتطوير العلاقة.

علم رچرد هلمز مدير الوكالة باتّصالات أيمز في نهاية شهر يناير من عام 1970، عندما حضر اجتماعا لمجلس الأمن القومي في الجناح الغربي من البيت الأبيض. شمل الحضور الرّئيس نيكسون ورئيس الوزراء البريطاني هارولد ولسن كان على لائحة الاجتماع مناقشة التّحدّيات السّياسيّة التي تواجه العاهل الأردني، الملك حسين. قدّم البريطانيّون تقريراً مخابراتياً يُشير إلى أنّ عرفات قد نقل إلى أحد مساعدي الملك عرضاً بأنْ يصبح رئيس وزراء في الحكومة القادمة. من الواضح أنّ منظمة التّحرير كانت على وشك أن تطيح بالملك. وطبقاً لما نقله أغناطيوس، الذي تحدّث مع مصدر قريب من هلمز عندما كان يعدّ لكتابة روايته المشار إليها، عاد هلمز إلى مقرّ الوكالة وهو مقتنع أنّها تحتاج أنْ تحسّن مصادر معلوماتها من داخل منظمة التّحرير. وبعد الاستفسار من عدد من المسؤولين الكبار في قسم إدارة العمليّات، تمّ إخباره عن العلاقة المتوقعة مع ضابط كبير في حركة فتح.

وهكذا أحيط هلمز علماً باتّصال أيمز وسلامة خلال فترة لم تتجاوز أكثر من ستة أسابيع. ولكن متى ذهب إلى الرّئيس نيكسون وأخبره عن وجود قناة اتّصال خلفيّة، فأمر غير معلوم. لم تكنْ علاقته بالرّئيس وثيقة، فهما لم يلتقيا بشكل منتظم. أغلب الظنّ أنّه تريّث حتّى ساعة حصوله على معلومات قيّمة عن لقاءات أيمز وسلامة، لكنّه لم يكن قادراً على الانتظار طويلاً بسبب حساسيّة الموقف. فمنظمة التّحرير الفلسطينيّة كانت تُعتبر منظمة إرهابيّة، ولذلك فإنّه كان محظوراً على أيّ شخص الاتّصال بها أو إقامة علاقة معها. ومن جهة أخرى، اعتبرت الوكالة منظمة التحرير هدفاً طبيعيًّا لاستهدافها بغية تجنيد العملاء من بين صفوفها. ولذلك، فإنّ أيمز لم يرتكب إثماً حين اتّصل بسلامة. فهم هلمز أنّ أيمز يقوم بعمله كضابط عمليّات سريّة، فلقاؤه مع الضابط الفلسطيني قد تكون خطوة لتجنيده. غير أنّ القضيّة تتّخذ طابعاً آخر إذا لم يكنْ قصد أيمز أنْ يجنّده، بل فتح علاقة اتّصال متبادل. إنّ ذلك يمكن أن يكون ديناميت سياسيًّا لو تسرّبت الأخبار عنه. عرف هلمز الرّئيس نيكسون جيّدا، وربّما مستشاره للأمن القومي، هنري كيسنجر، وأنّه يجب أن يصادق على العمليّة ويشعر بمردودها الإيجابي

المتوقع في مقابل مخاطر كشفها. لربّما تمّ جلب نيكسون وكيسنجر معاً داخل الحلقة في صيف عام 1970، أي بعد ستة أشهر من بداية الاتّصالات. وهذا يعني أنّ الوكالة حصلت على تقارير استخباراتيّة قيل أنّ مصدرها شخص قريب من عرفات دون تسمية سلامة. لكنّها أشارت بجلاء إلى مصدر المعلومات التي وُضعت على طاولة الرّئيس، ربّما من خلال التّقارير الموجزة التي تقدّمها الوكالة له صباح كلّ يوم. ولذلك فإنّ تفاخر أيمز أمام سلامة لم يكن مُبالغاً فيه. إنّ الرّئيس الأمريكي مستعدّ للاستماع.

تميّزت العلاقة بين الاثنين بالبساطة والهدوء. تتذكّر إيفون: «أنّ بوب دعا سلامة إلى شقتنا ذات مرة، لكنّني لم أقابله». كانا ثنائياً غريباً، لا يوجد شيء مشترك بينهما على المستوى الشّخصي. يلبس أيمز ملابس عاديّة، بنطلونات كاكية رخيصة وقمصان پولو فضفاضة وسترة رياضيّة رماديّة اللون. لا شيء غير اعتياديّ، باستثناء حذاء الكاوبوي. يقترب في السّنّ من ستة وثلاثين عاماً، وبدأ يظهر له كرش صغير. كان شعره قصيراً. وأهمّ من كلّ ذلك، هو زوج مخلص لزوجته، فقد تزوّجا قبل عشر سنوات، ويحبّ أطفاله حبًّا جمًّا. يكره بوب تبذير المال ونادراً ما تناول مشروباً. لا تهوّر في حياة بوب أيمز.

من جهة أخرى، كان علي سلامة يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، ويبدو مظهره كنجم سينمائي أو موسيقي من فرقة روك أندرول. كان يحبّ أن يلبس السّواد، وعادة ما يكون قميصاً ضيّقاً مفتوح الأزرار لكشف شعر الصّدر وسترة جلديّة وبنطلوناً أسود ضيّقاً. كان شعره الأسود المتموج كثيفاً يمشّطه إلى الخلف ليكشف عن جبهة عريضة. كان سالفاه طويلان كثيفان يشبهان سوالف الإنكليز في القرن التّاسع عشر. كانت عضلات بطنه صلدة لأنّه يمارس رياضة الكاراتيه يوميًّا في قاعة الرّياضة في فندق كونتيننتال. وربّما حصل على الحزام الأسود من الدّرجة الرّابعة أو الخامسة. «كان يتحرّك كالنّمر» حسب ما يتذكّر فرانك أندرسن، الضّابط الذي عمل برفقة أيمز. تكلم الإنكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة بطلاقة. كان يهوى الاستماع للموسيقى الأمريكيّة وألفس پرسلي هو مطربه المفضّل، خاصّة أغنيته Love me tender. أُشيع أنّ درجة ذكائه كانت 180 بموجب المقاييس المعروفة. لم يكن شخصاً عصبيًّا، لكنّه قد يكون أحياناً متناقضاً مع نفسه. كان

يدخّن باستمرار. ورغم أنّه متزوّج وأب لولدين، فإنّه عاشر وبشكل علني عدداً من النّساء. «حين يأتي إلى الغرفة»، كما تقول زوجة أحد ضبّاط الوكالة، «فإنّ الأنفاس تحتبس لدى دخوله. كان يشبه مارلون براندو في عزّ شبابه». كان على علم بالشائعات عن علاقاته النّسائيّة وطابع حياته وتصرّفاته، لكنّه لم يعر ذلك اهتماماً. قال في إحدى المرّات لأحد المراسلين: «يتوقع النّاس من الثوري أن يكون ذا مظهر مزرٍ وشعر كثّ وملابس خرقة. وهذا انطباع خاطئ.. وكما نقول في العربيّة: صيت غنى ولا صيت فقر».

كان أيمز وسلامة على النّقيض تماماً. ومع ذلك فعندما التقيا بدأت بينهما علاقة صداقة حقيقيّة. يتندّر علي بأنّ لقاءاته مع أيمز قد حسّنت من لغته الإنكليزيّة. ومن النّاحية المهنيّة، أصبح كلّ منهما يمثل الجانب المهمّ في حياة الآخر، حسب قول أندرسن. أمّا زين، الذي اعتُمِد عليه كثيراً، فقد كان يقوم بترتيب اللقاءات بين الجانبين. يقول أندرسن: «إنّ مصطفى كان دائم الحضور وأنّه حظي بإعجاب الاثنين». لقد خلق زين لنفسه في مقاهي بيروت ومجتمعاتها شخصيّة لطيفة ثوريّة لبنانيّة يساريّة تتعاطف مع القضيّة الفلسطينيّة. يبدو أنّه كان يعرف الجميع هناك.

تطوّرت العلاقة الخاصّة بين أيمز وسلامة في صيف عام 1970 إلى درجة أنّ الشّاب الفلسطيني أصبح مصدراً أساسيّا للمعلومات عن الوضع الشّديد الغليان الذي قاد إلى أزمة الأردن. كان لا يزال مصدراً وليس عميلاً. غير أنّ الوكالة قد تعطي لمثل هؤلاء أسماء سريّة لتسهيل توزيع المعلومات بشكل واسع بين فروع الوكالة دون الإفصاح عن هويّة الشّخص وتعريض سلامته للخطر. أعطي سلامة اسماً سريًّا هو MJTRUST/2. القاعدة تقتضي أنْ تُكتب الحروف بشكل كبير مع حرفين في البداية يرمزان إلى بلد الشّخص. في ذلك الوقت، كان الحرفان MJ يرمزان إلى فلسطين. والاسم الذي يعطى للفرد يُطرح عادة من قبل ضابط الوكالة المُجنِّد. في هذه الحالة ولأهميّة الأمر، أعطى بوب اسم TRUST لصديقه دليلاً على ثقته به. أمّا رقم /2 فهو دليل على وجود شخص آخر يعمل لصالح الوكالة داخل المنظّمة. «كانت منظمة التحرير حبيبة المثقفين

العـرب والشّـارع العربـي»، كمـا يتذكّـر هيوم هـوران، الذي عمـل حينها موظفاً سياسـيًّا رئيسـيًّا فـي السّـفارة الأمريكيّـة في عمّـان. «كان الملك حسـين معزولاً بشـكل غير اعتيادي. وهناك تسـاؤل في واشـنطن إنْ كان الملك سـيكون قادراً على الاستمرار مع وجود فلسطينيين يشكّلون نصف سكّان المملكة... كان كلّ شـخص عربـي لـم يبلـغ العشـرين من العمر يعتقـد أنّ الملـك أداة طيّعة في يد الصّهيونيّة والاستعمار الغربي».

في مطلع عام 1970 أوضح السّفير الأمريكي هاري سمّز للرّئيس نيكسون ومستشاره لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر بصراحة «أنّ أيام الملك معدودة. لا أعتقد أن الملك يسيطر على الموقف، وحتّى لو حاول ذلك فليس من المؤكّد أنّه سـينجح». اتّفق كيسـنجر أنّ الملك في موقف لا يُحسـد عليه، وأنّه يخشـى سقوطه وإذا جرى ذلك «فإنّه سيحدث تغييراً متطرّفاً في الشّرق الأوسط بكامله». وفـي الوقـت نفسـه، عبّـر عـن شـكوكه بأنّ إسـرائيل ستسـمح لمنظمـة التّحرير بالاستيلاء على السّلطة في الأردن.

غيـر أنّ الحقائـق علـى الأرض كانـت تشـير إلـى أنّ النّظـام الهاشـمي غير قـادر علـى الاسـتمرار. وبحلـول شـهر حزيران من عـام 1970 كانت الفوضى قد كشّـرت عن أنيابها. لقد ارتكب الفدائيّون والقوات الأردنيّة جرائم مشينة. ففي ذلـك الشّـهر تمّـت مهاجمـة الموكب الملكي في شـوارع عمّان، وشـارك الملك شخصيًّا في المعركة للتّصدي للمهاجمين. وفي اليوم الأوّل من سبتمبر من عام 1970 نجـا الملـك بأعجوبـة من محاولة اغتيال. أخبـر رئيس محطة الوكالة جاك أوكونل (1921-2010) الملك بصراحة أنّ الوقت قد حان لتقويض نفوذ مليشيات الفلسـطينيين واسـتعادة السّيطرة على الشّـوارع من أيدي الفدائيين. «في الحقيقة، كنت الوحيد الذي اعتقد أنّ الملك وجيشه سيسيطران على الموقف في النّهاية»، كمـا كتـب فـي مذكّراته. «كانت الحكومة الأمريكيّة منقسـمة إلى قسـمين. كانت للخارجيّة نظرة متشائمة، وكان رأي الوكالة منقسماً بين رأيي وأنا في عمّان ورأي بوب أيمز، وهو نجم صاعد في سماء الوكالة وموقعه في بيروت. وهو على صلة برئيس استخبارات عرفات، علي حسن سلامة. لقد كنت أنا وأيمز خصمين».

وصـل أوكونـل إلـى عمّان عـام 1958 عندما بُعث إليها ليحذر الملك من أنّ

جيشه يخطط للانقلاب عليه، ولعب دورا كبيراً في إفشال ذلك المخطط، فحصل على شكر الملك وامتنانه. في عام 1963، عاد مجدداً إلى عمّان ليكون مدير محطة الوكالة فيها، وأصبح بسرعة أقرب من يثق به الملك من الأجانب. كان أوكونل على ثقة «بالملك القصير المقدام» واعتقد أنّ قوّات البدو في جيشه ستقف إلى جانبه لكي يبقى على العرش، بغض النّظر عن رغبات أكثريّة سكّان البلاد.

صدّق أيمز ما قاله سلامة عن قدرة المنظمة على منازلة القوّات الهاشميّة. وأكثر من ذلك، اعتقد أيمز أنّ الفلسطينيين سيكسبون المعركة لأنّ المنظمة تحظى بالتّأييد الشّعبي وقوّة الشّارع. «كان بوب ضدّ الحكم الهاشمي بشكل علني، ومتردّداً إزاء إسرائيل»، على حدّ قول ديوي كلارج، الذي شغل فيما بعد منصباً عالياً في عمليّات الوكالة في العالم العربي. كان لأيمز وأوكونل آراء متعارضة تماماً طرحاها بشكل شفوي أو من خلال برقيّاتهما إلى مركز الوكالة في لانغلي. اعتقد أوكونل أنّ أيمز «يسحب خطأ تفسيراته وتجربته الشّخصيّة في حرب المدن اعتماداً على ما عاشه في عدن، حيث استطاع المتمرّدون اليمنيّون طرد القوّات البريطانيّة من منطقة ميناء عدن عام 1969.» أشار أوكونل إلى أنّ البريطانيين كانوا أجانب في عدن، في حين أنّ الجيش الأردني يقاتل على أرضه. اختلف أيمز مع ذلك التّفسير اعتماداً على حقائق تاريخيّة فحواها أنّ الملك حسين والأسرة الهاشميّة وقوات البدو الموالية لها هم أجانب، وموطنهم الأصلي هو الحجاز، وقد جاءوا إلى الأردن في أعقاب الحرب العالميّة الأولى. ذكّر أيمز زميله أوكونل أنّ المستعمرين البريطانيين قد فرضوا الحكم الهاشمي على الشّعب الفلسطيني، وأن الفلسطينيين هم أصحاب الأرض ويتمتعون بذكاء وشرعية سياسيتين. ردّ أوكونل ساخراً أنّ تلك نقطة مهمة وهي حصيلة تحليلات أيمز الفكريّة. أضاف أنّ القوّة هي ما سيحسم الموقف. فالملك يمتلك مئة وخمسين دبابة وكثيراً من المدافع. يقول غراهام فولر، وهو ضابط آخر في العمليّات السّريّة، «إنّ بوب ذو بصيرة. وكغيره من الضّباط ذوي البصيرة على صواب فيما يتعلق بالمنظور البعيد، وعلى خطأ على المدى القريب».

في الوقت الذي كانت فيه الحرب الأهليّة تحوم في الجوّ، كان للمنظمة خمسة وعشرون ألفاً من المقاتلين بين صفوف ميليشياتها المختلفة. لكنّهم

وزّعوا طوال ذلك الصّيف الآلاف من قطع السّلاح على الشّباب في المخيّمات. ويُقدّر أنّ عدد الأفراد الذين كانوا يتجوّلون وهم يلوّحون بأسلحتهم حوالى أربعين ألفاً فلسطينيًّا. بالمقابل كان عدد أفراد جيش الملك حسين حوالى ستين ألفاً من الجنود، إلاّ أنّ نصفهم وربّما بعض الضّبّاط من أصل فلسطيني. شعر الملك أنّه يستطيع الاعتماد على نصف ذلك العدد. لكنّ أوكونل كان مصيباً في قضيّة واحدة، وهي أنّ الضّبّاط البدو كانوا مسؤولين عن الوحدات المدرّعة وباستطاعتهم أنْ يثبتوا جدارتهم في أي معركة مع الفدائيين.

من الطريف أنّ المؤسّستين العسكريّة والسّياسيّة في إسرائيل كانتا تناقشان الموضوع نفسه الذي اختلف حوله أيمز وأوكونل. كانت الشّخصيّات السّياسيّة العليا في الدّولة منقسمة فيما بينها إنْ كان من مصلحة إسرائيل أنْ يظلّ الملك متربّعاً على عرشه أم لا. فقادة مثل غولدا مائير وإيغال آلون وأبا إيبان وإسحق رابين، اعتقدوا أنّ الملك سيعقد في يومٍ ما صفقة سلام منفردة مع إسرائيل. أمّا المجموعة الأخرى فقد لخّص مردخاي غور، القائد الإسرائيلي المسؤول عن الجبهة السّوريّة - اللبنانيّة موقفها على النّحو التّالي، «إنّ الرأي المعارض يؤيّد تغيير الوضع في الأردن ليصبح دولة فلسطينيّة. لقد اقترحوا السّماح للفدائيين بأنْ يحقّقوا أهدافهم ويسيطروا على كامل الأردن. لقد رأوا أنّ في ذلك حلاً نموذجيًّا للقضيّة الفلسطينيّة». قدّم هذه الأطروحة كلّ من عزرا وايزمن وموشيه دايان وشيمون بيريز، وكذلك الجنرال أِرل شَرون.

ادّعى كيسنجر أنّه لم يكنْ على علم بخبايا النّقاش الإسرائيلي. ولكن في وسط الأزمة، وبالذات بتاريخ 20 سبتمبر 1970، أخبر أحد مساعديه، «لا أعتقد أنّ الإسرائيليين يهمّهم في شيء لو تمّت الإطاحة بالملك، لأنّهم سوف يكونون في حِلّ من مشكلة الضّفة الغربيّة». لقد قرأ قبل أيام قليلة مذكّرة رسميّة عن حديث لوزير خارجيّة إسرائيل أبا إيبان فحواها أنّ منْ مصلحة إسرائيل أنْ ينتهي وجود النّظام الهاشمي.

> أخبر الوزير أبا إيبان السّفير الأمريكي يوست في اجتماع الأمم المتّحدة بتاريخ 3 سبتمبر أنّ إسرائيل ترجّح بقاء حسين على عرشه: «لكنّ العالم لنْ يصل إلى نهايته لو غادر الملك المشهد السّياسي». قال إيبان إنّ

الفلسطينيين سيكونون أكثر مسؤولية لو وُضعت في أعناقهم إدارة شؤون الدّولة اليوميّة. وعلى المدى البعيد هناك في الأردن ميل للاعتراف بأنّ الفلسطينيين يمثلون سبعين بالمئة من مجموع سكّان البلاد أصلاً. أضاف السّفير يوست، أنّ إيبان يرى أنّه يتوجّب على إسرائيل، عاجلاً أم آجلاً، أنْ تجد ترتيباً لأوضاع الفلسطينيين، ولربّما على المدى البعيد يكون من الأفضل للإسرائيليين أنْ يستولي الفلسطينيّون على الدّولة الأردنيّة.

لقد قرأ كيسنجر تلك المذكّرة ووضع توقيعه عليها للحفظ، لكن من الواضح أنه لم يعطِ تحليلات أبا إيبان أيّ وزن. بعد سنوات، أصرّ في حديثه مع المفكّر البريطاني نيغل أشتن «أنّ أي محاولة من جانب الإسرائيليين لإضعاف موقف حسين كانت ستخلق لهم أزمة مع واشنطن». في الغالب، أدرك بحسه الفطري أنّ متطلبات الحرب الباردة بالنّسبة إلى أمريكا في الشّرق الأوسط تعني مساندة الأنظمة الموالية المعاديّة للشّيوعيّة وللنّاصريّة. إنّ مساندة الملك أفضل سياسيًّا من حلّ المشكلة الفلسطينيّة، رغم كونها أحد العناصر الرّئيسيّة لخلق المشاكل لأمريكا. اعتقد أيمز أنّ تلك سياسة قصيرة النّظر، واعتقد أوكونل أنّ أيمز واقع تحت تأثير «الأمير الأحمر».

اعتقد بعضهم أنّ أيمز يجاهر بشكل متحيّز عن تأييده للفلسطينيين. غير أنّ الحقيقة تشير إلى أنّ أغلبيّة ضباط الوكالة الذين أمضوا وقتاً طويلاً في المنطقة يتعاطفون مع الواقع المزري الذي يعيشه اللاجئون الفلسطينيّون. «إنّ كثيرين منّا نحن الذين عرفوا شيئاً عن المشكلة الفلسطينيّة»، حسب ما ذكر جورج كيف، الذي عمل لثلاثة عقود في الوكالة، «إنّك لا تستطيع إلاّ أنْ تتعاطف معهم... عندما يسألني النّاس ماذا أقرأ عن المشكلة العربيّة الإسرائيليّة أخبرهم أنّني أقرأ كتاب العهد القديم». حتّى أوكونل تعاطف معهم، لكنّه كانت تربطه علاقة شخصيّة بالملك الأردني وأحبّه بشكل مخلص.

تزايدت الأزمة في الأردن حدّة بتاريخ 6 سبتمبر من عام 1970 عندما تمّ اختطاف عدد من الطائرات المدنيّة. قام فدائيّو الجبهة الشّعبية لتحرير فلسطين بمحاولة اختطاف أربع طائرات في يوم واحد. كانت إحداها پان أمريكان الضّخمة

التي أُجبِرت على الهبوط في مطار القاهرة. وعلى بعد مئات الأقدام من مدرج الهبوط أشعل قائد العمليّة صاعقاً وأعطى طاقم الطائرة والرّكاب مهلة ثماني دقائق لمغادرة الطائرة. وعندما هبطت الطائرة وتوقفت فتح القبطان الأبواب فتقافز الرّكّاب والطاقم بعدهم فراراً. وبعد ثلاث دقائق انفجرت الطائرة التي يبلغ ثمنها خمسة وعشرين مليون دولار على مدرج المطار والتهمتها النّيران، وكانت معجزة أنّه لم يُصب أحد بأذى. غير أنّ محاولة اختطاف طائرة العال الإسرائيليّة، التي كانت في طريقها من أمستردام إلى نيويورك، أُفشلت حين تدخّل أفراد الحرس السّريّ الموجودون فيها بين الرّكاب، واضطرت الطائرة للهبوط في لندن. قتِل أحد الخاطفين وهو أمريكي اسمه پاترك أرغولو. أمّا شريكته في العمليّة، الفلسطينيّةُ ليلى خالد فقد اعتقلها رجال الشّرطة البريطانيّون. وأمّا الطائرتان الأخريان فقد أُجبِرتا على التّوجّه والهبوط على مدرج مطار المفرق القديم المهجور منذ الحرب العالميّة الثانية، والواقع في منطقة صحراويّة إلى الشّمال من عمّان. أجبِر مئات الرّكاب وطاقما الطائرتين اللتين خطفهما فدائيو الجبهة على المكوث في داخلهما. وبعد ثلاثة أيّام اختُطِفت طائرة أخرى لتلتحق بالطائرتين الرّابضتين في الصّحراء، فبلغ عدد المخطوفين أربعمئة وستة وعشرين شخصاً. طوّق المئات من رجال الجيش الأردني بمدرعاتهم المكان لمنع أيّ أحد من مغادرة المنطقة أو القدوم إليها.

كانت عمليّة الاختطاف المزدوج هذه قد وُضِعت بشكل ذكيّ وتفصيلي لتكون كمسرحيّة أعدّت لتركيز انتباه العالم على المشكلة الفلسطينيّة. طالبت الجبهة الشّعبيّة بإطلاق سراح أكثر من ثلاثة آلاف معتقل في السّجون الإسرائيليّة مقابل إطلاق سراح الرّكّاب المُختطفين. قبل سنة تقريباً من تنفيذ تلك العمليّات، أصرّت رئيسة الوزراء الإسرائيلية غولدا مائير أنّه عندما تأسّست إسرائيل عام 1948 «لم يكنْ هناك فلسطينيّون... لم يكنْ لهم أيّ وجود». لم يعدْ ممكناً بعد كلّ ما جرى أنْ يجرأ أحدٌ بعد اليوم على ترديد ما قالته مائير. وكما ذكر والتر كرنكاي المذيع التلفزيوني المشهور في نشرة الأخبار المسائيّة ذلك اليوم: «قام الفدائيّون الفلسطينيّون بمحاولات جريئة منسّقة خلقت أزمة جديدة يوم الأحد. وبفعلهم هذا، حققوا ما كانوا يصبون إليه. لقد ألقوا في أحضان العالم مشكلة

قال الدّبلوماسيّون أنّه لا وجود لها، وهو الادّعاء الكاذب الذي عرقل عمليّة اتّخاذ أي خطوات لتحقيق السّلام في الشّرق الأوسط».

استمرّ الموقف المؤلم للمدنيين الأبرياء في مدرج مطار المفرق الصّحراوي لمدة عشرة أيّام. شعر الملك أنّه لحقت به إهانة، خاصّة بعدما طلب منه مدير الوكالة في عمّان جاك أوكونل أنْ يتحرّك على جناح السّرعة ويطلب من وحدات جيشه الموالية أنْ تبدأ هجومها. وأخيراً وفي يوم 16 سبتمبر من عام 1970، أعلن الملك الأحكام العرفيّة في البلاد. وفي مساء ذلك اليوم تحرّكت خمسون دبّابة إلى مواقع تطلّ على المخيّمات الرّئيسيّة للفلسطينيين في عمّان. أخبر الملك السّفير الأمريكي دين براون أنّه سيغامر بكل ما لديه، فإمّا الانتصار وإما النّهاية.

ومع فجر صباح اليوم التالي بدأت المدفعيّة والدّبابات بإنزال حممها على مواقع الفدائيين في مخيّم جبل الحسين وعلى مخيّمي الوحدات والحسيني المكتظة بالسّكان. كان القصف كثيفاً عشوائيّا لم يستثنِ أحداً وضرب المناطق السّكنيّة المكتظة. «كان القصف سيّئاً للغاية»، حسب قول أحد موظفي السّفارة الأمريكيّة هيوم هوران. «لم يرغب الأردنيّون في إرسال الجنود المشاة ليقاتلوا الفدائيين في الأزقّة الضّيقة التي يعرفونها جيّداً. لقد شعروا أنّ المعطيات الجغرافية ليست في صالحهم، ولذلك فإنّهم بدأوا هجومهم بإرسال المدرّعات وتقدّم المشاة خلفها. كان يمكن مشاهدة الدّبابات تتقدّم نحو البنايات، ثم تتوقف لتنزل حممها فتتهاوى تلك البنايات، ويتبع ذلك هروب بعض الفلسطينيين فتلاحقهم الدّبابات بإطلاق النار من الرّشاشات، ويتقدّم الجنود للإجهاز على من تبقى، فكانت النّتيجة مذبحة دمويّة. كما أسقطت الطائرات الأردنيّة القنابل الفسفوريّة وقنابل النابالم الحارقة على كافة المخيّمات. ومن إحدى التّحصينات المحفورة تحت الأرض أطلق عرفات وعده، «سيستمر القتال حتّى نستطيع القضاء على النّظام العسكري الأردني الفاشي». كان سلامة يقف إلى جانبه. فقد هرع إلى عمّان عندما بدأ القتال.

استطاع الفدائيّون أنْ يصمدوا في مواقعهم الحصينة لمدة عشرة أيّام، حتّى أنّهم رفضوا عرضاً لوقف إطلاق النّار. كانوا متواجدين في أكثر من ثلاثمئة وستين موقعاً حفروها تحت الأرض في مناطق المخيّمات. كانت أغلب المناطق

الشّمالية من الأردن خاضعة لسيطرة المنظمة، لكنّ ذلك لم يدمْ. كما أنّ التّهديد الأمريكي والإسرائيلي قد حال دون تدخّل السّوريين وتوفير غطاء جوّي لأيّة مدرّعات سوريّة تتجه جنوباً. لقد بعث الملك حسين رسالة طلب إغاثة إلى واشنطن اقترح فيها «أنْ تخبر إسرائيل بضرب القوّات السّوريّة من الجوّ حتّى لا تتقدّم لنصرة الفلسطينيين». وفي النّهاية لم تكن هناك حاجة إلى تدخّل الإسرائيليين. لقد تقدّمت قوّات الملك شمالاً فانسحب السّوريّون، وهو الأمر الذي تسبّب في انهيار مقاومة فدائيي منظمة التحرير. وفي عمّان طلب الملك من مدفعيّته أن تضاعف من قصفها لمخيّمات اللاجئين، فكانت الحصيلة مقتل حوالى ثلاثة آلاف وأربعمئة شخص من الفدائيين والمدنيين. تمّ دفن الكثير منهم في مقابر جماعيّة. يعترف هوراني «بوقوع جرائم حرب. والسّبب أنّ الأمور تُركت على غاربها، ولم تتمّ الاستجابة لمطالب المقاتلين. وفي النّهاية نالت الجماعة الخيّرة النّصر»، حسب رأيه.

من المؤكّد أنّ عرفات وسلامة لم ينظرا للأمور نفس تلك النظرة. في نهاية شهر سبتمبر اضطرّ الفلسطينيّون لقبول مشروع وقف إطلاق النار الذي سعى إليه عبد النّاصر. وافقت الجبهة الشّعبيّة من جانبها على إطلاق سراح ما تبقى من رهائن الطائرات، وانسحب الفدائيّون من عمّان. أصبح سلامة مسؤولاً عن إجلاء عرفات من عمّان. كانت فكرته أنْ يتنكّر بملابس خليجيّة ويسافر مع الوفد الخليجي الذي حضر للتّوسّط باسم الجامعة العربيّة. وقام هو بالأمر عينه، واستطاعا أن ينضمّا إلى عضويّة وفد من أربعة عشر شخصاً ممّن حضروا للإشراف على وقف إطلاق النّار. وصل عرفات بسلام إلى القاهرة حيث قابل الرّئيس عبد النّاصر ووقّع على وثيقة وقف إطلاق النّار.

في خريف ذلك العام، عيّن الملك حسين رئيساً جديداً للوزراء اسمه وصفي التّلّ، الذي ينحدر من أسرة عربيّة تسكن في منطقة إربد في شمال الأردن. كان الرّجل معروفاً بمواقفه المتشدّدة والمعادية لمنظمة التّحرير. كان في مقدّمة برنامج حكومته الجديدة تخليص الأردن من المنظمة إلى الأبد. في شهر يوليو من عام 1971 أمر التّلّ وحدات الجيش الأردني بمعاودة الهجوم على الفدائيين. وبعد أربعة أيّام من القصف والناپالم تمّ قتل وجرح حوالى

ألف من مقاتلي المنظمة، وألقي القبض على ثلاثمئة فدائي بعد استسلامهم. كما قام رجال الأمن الخاصّ بأمر من الملك باعتقال حوالى عشرين ألفاً من المواطنين المدنيين، وصدرت الأوامر بإبعاد عرفات وكل مسؤولي منظمته والمنظمات الأخرى إلى بيروت. ومنذ تلك اللحظة أصبح الأردن بلداً للأردنيين والفلسطينيين «المتأردنين».

كان لوقع هزيمة منظمة التّحرير في الأردن تأثير مدمّر على نفسيّة سلامة. «لقد تركت فينا جميعاً أثراً عميقاً»، وفق ما صرّح به سلامة للصّحفيّة ناديا السّلطي ستيفن، وهي مراسلة لصحيفة أسبوعيّة تصدر في بيروت باللغة الإنكليزيّة اسمها منذَي مورننغ في شهر نيسان عام 1976. «أنا واحد من أولئك الذين ما زالوا لا يصدّقون كيف أُجلينا من هناك».

يعتقد بعض الناس أنّ شهر أيلول عام 1970 كان شهر نكبة أخرى للفلسطينيين، وشهراً محزناً لكلّ العرب في كلّ مكان. ففي مساء يوم 28 منه في ذلك العام، وبعد ساعات من تحقيق وقف إطلاق نار مؤقت بين المنظمة والملك، أُعلن عن وفاة الزّعيم العربي جمال عبد الناصر إثر نوبة قلبيّة حادّة. كان له من العمر اثنان وخمسون عاماً فقط. جلس أيمز في بيروت وهو يراقب عشرات الآلاف من المواطنين الحزانى وهم يتقاطرون إلى شوارع بيروت يبكون ويصرخون عالياً باسم عبد النّاصر. أحرق بعضهم إطارات السيّارات في الشّوارع، وأطلق بعضهم الآخر زخّات رصاص من بنادق الكلاشنكوف في الهواء. شاهد العرب على شاشات التّلفزيون ما يقرب من أربعة ملايين مصري أو خمسة ملايين يبكون حداداً وهم يسيرون خلف موكب جنازة توديعيّة بطول ستة أميال. كان عبد النّاصر شخصيّة ذات هموم كبيرة، وزعيماً شعبيًّا حاول بصدق أنْ يُحسّن حياة الفلاحين المصريين الفقراء. إلاّ أنّه في الوقت نفسه بنى دولة قليلة الكفاءة وأحياناً متعثّرة. لم يكن دكتاتوراً، إلاّ أنّه لم يكنْ ديمقراطيًّا بكل ما للكلمة من معنى. لم يكن فاسداً على المستوى الشّخصي، وهو القائد الوحيد في العالم العربي الذي كان بإمكانه أن يدّعي أنّه يمثل الرّغبة العامّة للشّعب. حاول أكثر منْ رئيس أمريكي إطاحته، وأنّه أعتقد شخصيًّا أنّ الوكالة

قـد خططـت لذلـك بالتّعاون مع خصومه السّياسـيين في داخل البلاد وخارجها. ومـع ذلـك فـإنّ أيمـز تأثّر بما كان يجري حولـه، فكتب قصيدة رثى فيها الزّعيم الرّاحل. قال فيها:

مات عبد النّاصر اليوم
انطفأ المصباح، وشارفت فترة بكاملها على النّهاية
وقف العالم ساكناً، ونزلت به موجة حزن
بكاه الشّعب اليوم
توقّف تدفّق النّهر، فتبدّد الحلم
مات عبد النّاصر اليوم
فبكاه الشّعب

كان أيمز مثاليًّا، وكما تشـير قصيدته أعلاه فإنّه شـعر بتعاطف مع الملايين التي لبست أثواب الحداد.

ظلت أخبار لقاء أيمز مع علي حسن سلامة سريّة للغاية في أروقة مكتب الوكالة في لانغلي، غير أنّ كيسـنجر صرّح علنا أنّ الولايات المتّحدة لا يمكن أنْ تضفـي أيّ قـدر مـن الشّـرعيّة على منظمة إرهابيّة. ولكـنْ في داخل الوكالة، اعتُبرت علاقة أيمز الجديدة انقلاباً في غاية الأهميّة. كان سلامة ينقل معلومات مخابراتيّة تصل إلى مكاتب أعضاء مجلس الأمن القومي. ويكون أيمز بهذا قد حقـق مـا وعـد به مصطفى زين بأنّ للفلسـطينيين الآن قنـاة توصلهم إلى مكتب الرّئيس الأمريكي. عرف هلمز بالقنوات الخلفيّة بين أيمز وسلامة وأقرّها، وشكا مدير الوكالة فيما بعد إلى فرانك أندرسن أنّه «كان تحت ضغط كبير من نيكسون وكيسنجر كي يحصل على معلومات أفضل عن عرفات ومنظمة فتح». كان أيمز هو من أتى له بتلك المعلومات.

غير أنّ بعض رؤساء أيمز المباشرين لم يكونوا سعداء لأنّ العلاقة اقتصرت على الاستحصال على المعلومات وليست تجنيداً رسميًّا. «كان المركز في لانغلي يريد أن يكون سلامة عميلاً رسميًّا»، حسب ما قاله بروس رِدل، ضابط الوكالة الـذي قـرأ الملف المكوّن من خمسـة عشـر جـزءاً والذي احتـوى على برقيّات

ومذكّرات حول القضيّة. «كلّ الذين لهم علاقة بالموضوع شعروا أنّ الوضع غير اعتيادي. أثار البعض تساؤلات حول إنشاء علاقة مع منظمة إرهابيّة. طبعاً، كان هلمز، مدير الوكالة، يعرف ذلك. ولكنّ هذا الأمر تخطى الحدود حتّى وصل إلى نيكسون نفسه. اضطرّ هلمز أنْ يطلع الرّئيس نيكسون لأنّه خشي افتضاح الأمر».

اعتقد رِدل وكثير من ضبّاط الوكالة أنّ هلمز وقف بقوّة لمساندة أيمز. لكنّ صانعي السّياسة، في الحقيقة كيسنجر والرّئيس نيكسون، كانت مشاعرهما ما بين الحماسة والبرودة. فمن جهة كانا يريدان تلك المعلومات الاستخباراتيّة، وحتّى فتح القنوات الخلفيّة لأغراض نفعيّة تضمن الاتّصال بشخص مهمّ وفاعل في الميدان. لكنّ صانعي السّياسة فضّلوا بشكل كبير أنْ تكون العلاقة تحت السّيطرة مع عميل مدفوع الأجر، وليس شخصاً مستقلاً مثل سلامة.

لفّت الموضوع طبقات وطبقات من الغموض. «هناك كثير من المعلومات التي كانت في الحقيقة وجهات نظر»، كما يقول هنري ملرجونز. «وهي في النّهاية تقرّر قيمة المعلومات بشكل عام، بغضّ النّظر عمّا إذا كان المُخبر قد وقّع عقداً رسميًّا مع الوكالة أم لا».

كانت تلك هي طبيعة اللعبة. ومن الصّعب جدًّا أنْ نعرف كيف نحدّد تلك العلاقة - اللعبة. أصرّ بعض الضّبّاط فيما بعد أنّه كان يتعيّن على أيمز أنْ يحوّل سلامة إلى مخبر رسمي. لكنّ قليلاً من أولئك الذين علموا بالموضوع، اعتقدوا أنّها كانت علاقة اتّصال. «في بعض الأحيان تولّد انطباع بأنّ سلامة، ربّما أخبر عرفات أنّه استطاع تجنيد ضابط من الوكالة»، حسب اعتقاد رِدل. «وربّما عرف أيمز بذلك. لقد علم بوجود نوع من الاستياء داخل دوائر فتح ضد صداقة سلامة مع ضابط الوكالة. قد يكون سلامة احتاج أنْ يُخبر رفاقه تلك الرّواية كي يحمي نفسه».

حدث في أواخر عام 1970 نقاش داخل الوكالة عمّا يمكن عمله مع سلامة. كان ديفد هنري بلي هو رئيس فرع الشّرق الأوسط وغرب آسيا في قسم العمليّات السّريّة. يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً ومتخصّصاً في شؤون جنوب آسيا. حصل على شهادة المحاماة من جامعة هارفرد ويُعتبر إدارياً

مُحترمـاً. كان أيضـا كاثوليكيًّـا متمسّـكاً يعلق قلادة القدّيسـة فاطمة حول رقبته. نظر بلي في ملف سلامة وقرّر أنّه قد حان الوقت كي تجري محاولة لتجنيده. اعترض أيمز وقال إنّها فكرة غير حميدة. يتذكّر جون مورس، وهو ضابط آخر في ذلك القسـم: «سـيقول بوب إنّه ليس عنده أيّة مشـكلة لتجنيد سـلامة، لكنّ الواقع هو أن تعمل ما يمكن عمله». اعتقد أيمز أنّه لا يمكن تجنيد سلامة. ذكر غراهام فِلر، وهو ضابط آخر: «إنّ أفضل مصادري لم يمكن تجنيدهم رسميًّا». لقد أحسّ أيمز منذ البداية أنّ صاحبه كان يبلغ عرفات بكل ما يدور بينهما خلال اللقاءات. لقد شرح له إنّ المنظمة تحتاج طريقة إلى الاتّصال بواشنطن، التي لا تسمح لدبلوماسييها أنْ يتصلوا بالمنظمة. وعليه فإنّ أفضل خيار هو إقامة علاقة قنوات خلفيّة من خلال الوكالة. وافق «الخِتيار» على ذلك. كان يقود حركة كفاح وطني وأمِل أن تعامله أمريكا وتقدّره حقّ قدره. ومن وجهة نظر أيمز، فإنّ علاقته بسـلامة علاقة مفيدة وذات مردود، كما لو كانت تجنيداً فعليًّا. وأكثر من ذلك فهـي تشـبه طريقـاً ذا اتجاهيـن. حـاول أيمز أن يؤثر على صاحبـه لكي تتصرّف منظمة التحرير وكأنّها حزب سياسـي أكثر من كونها منظمة فدائيّة. أمّا سـلامة، فقد كان يريد التأثير على واشنطن من خلال أيمز لكي تقتنع أنّ سياستها بتجاهل القضيّـة الفلسـطينيّة غيـر عمليّـة. «كانت مطامح علي أنْ يحـوّل قنوات الاتّصال الخلفيـة إلـى علاقـة دبلوماسـيّة حقيقيّة»، كما يتصوّر فرانك أندرسـن. «لقد أراد من تلك العلاقة أن تتطوّر إلى حدّ الاعتراف بمنظمة التّحرير الفلسطينيّة. ولكن من جانبنا، أردنا أنْ نلبس تلك العلاقة صفة عمليّة مخابراتيّة. في الوقت نفسه، كان علـي يريـد أن يظهرهـا لرفاقه أنّها عمليّة دبلوماسـيّة وليسـت مخابراتيّة. في النّهاية منحنا نحن صبغة دبلوماسيّة أكثر، وأعطى هو معلومات مخابراتيّة أكثر».

لا شـكّ فيه أنّ أيمز وسـلامة تبادلا في بعض الأوقات بعض المعلومات المخابراتيّـة البحتـة، وهـي من النّوع الـذي يمكن أن يكون قد أنقذ حياة الكثير. «أتذكر بوضوح وأنا اقرأ ملف سـلامة MJTRUST/2،» حسـب قول چالس ألن، وهـو ضابـط محنّـك فـي قسـم العمليّـات. «كانـت المعلومات جيّدة بشـكل لا يُصدّق». من الواضح أنّ أيمز يشاركه الرأي في ذلك. ولذلك فإنّه عندما ضغط عليه ديفد بلي أن يتّخذ الخطوة لتحويل سلامة إلى عميل مدفوع الأجر، عارضه

بشدّة. دافع عن وجهة نظرة بأنّ العلاقة يجب ألاّ تُهدر لكي تتبجّح الوكالة بأنّها استطاعت تجنيد أحد مساعدي عرفات. يقول چالس ويفرلي، الذي كان على إطلاع بسريّة تلكما النّظرتين: «اعتقد أنّ تلك المحاولة خطأ». كما وقف سام وايمن، هو الآخر إلى جانب وجهة نظر أيمز قائلاً: «إنّها محاولة لم تكن مناسبة ولا معنى لها. كانت وجهة نظري تميل إلى أنّه ليس من الضّروري تجنيد سلامة رسميّا. كنّا نحصل على كلّ ما نريد من المعلومات».

لم يكنْ خلاف من هذا القبيل أمراً جديداً على الوكالة. «العميل لا يعني دائما أن يكون مدفوع الأجر». حسب قول هليل كاتز، الموظّف الكبير السّابق في جهاز الموساد الإسرائيلي. «لو كنت سمعت بالموضوع لكنت هنأت أيمز على أداءه، فتلك أفضل طريقة للحصول على العملاء. وكقضيّة مبدأ، يجب أن تسمح للوكيل أنْ يمتلك سبباً جيّداً لتبرير ما يقوم به. فهو في أغلب الأحيان يطمئن نفسه أنّه يقدّم خدمات جليلة لشعبه. ومن مصلحة كافّة الأطراف أنْ يحافظوا على قدر من الغموض. اترك الرّجل ينعم ببعض الكبرياء».

لم تجد ممانعة أيمز ووايمن وواڤرلي نفعا، إذْ إنّ ديفد بلي كان مصمّما فكلّف ضابطاً آخر اسمه فرانك كاسن أنّ يقوم بمحاولة التّجنيد. أدّى أيمز واجبه لتسهيل المهمّة فأخبر مصطفى زين (كذبا – المترجم) أنّ واشنطن وافقت على بدء حوار مع منظمة التّحرير الفلسطينيّة. سيجري اجتماع سرّي في إيطاليا، «سيبدأ ضابط للوكالة بتحريك الكرة» وسيقوم أيمز باستلامها في بيروت فيما بعد. سلّم أيمز صديقه اللبناني زين ورقة كُتبت عليها تعليمات حول مقابلة كاسن في روما. طلب من مصطفى أن يسافر إلى روما وسيلتقي في السّاعة الرّابعة من بعد ظهر يوم 16 ديسمبر من عام 1970 مكالمة تلفونيّة وهو في غرفته في الفندق. سيقول المُتحدّث: «إنّ جون وزوجته في روما، وهما يأملان اللقاء بك...» وبعد ساعة تماما كان على مصطفى أنْ يذهب إلى باحة مدخل فندق هلتُن حاملاً معطفاً على ذراعه. سيحمل جون صحيفة إيطالية مطويّة. كان عليه أن يجلس عند طاولة في زاوية الباحة. سيتقدّم جون منه ويقول: «اعتقد أنّني التقيت بك سابقا في فندق سميراميس». يجب أن يردّ عليه مصطفى بالقول: «اعتقد أنّ ذلك كان في فندق شبرد». وهما فندقان مشهوران في القاهرة.

قام زين ما طُلب منه. سافر بجواز دبلوماسي صادر من الشارقة، فوصل إلى روما بتاريخ 16 ديسمبر عام 1970. التقى مع «جون» الذي كان في الحقيقة فرانك كاسن نفسه. قام الاثنان بحجز شقتين متجاورتين في فندق كانيليري هلتُن للفترة 18–21 ديسمبر. لعب زين دور رجل عربي ثريّ. وصل سلامة إلى روما برفقة 23 من حرسه الخاصّ، الذين حرصوا ألاّ يظهروا بشكل علني. شرح زين لصديقه سلامة الذي كان لديه انطباع بأنّه سيقابل مسؤولاً كبيراً في الوكالة، مخوّلا أن يفتح حوارا مع منظمة التّحرير. كان ذلك بعد مرور اشهر قليلة على الكارثة في الأردن. كان في باله الكثير من المواضيع للمناقشة. قدّم زين سلامة إلى كاسن، وهو شخص طويل نحيل يعتمر قبّعة Fedora. عمل كاسن سابقاً مدير محطة الوكالة في دمشق وعمّان. وهو ضابط معروف بشدّة الاحتشام. وصفه أحد زملائه «بأنّه نموذج المحترف الملتزم بالقواعد».

أخبر كاسن زين بأنّه يحبّ الحديث مع سلامة على انفراد، فعرف زين ماذا سيحدث. الحقيقة أنّه قبل بدء الاجتماع كان زين قد حذر سلامة بالقول: «إنّه سيحاول تجنيدك. تمالك أعصابك وتصرّف ببرود. استمع لما سيقول لك، ثمّ انسحب بكل أدب». عمل سلامة بوصيّة صاحبه. يقول پيتر تيلر، وهو مراسل إذاعي بريطاني أجرى مقابلة طويلة مع زين ذكر فيها، «لم يجر الاجتماع على خير ما يُرام. عُرض على سلامة راتباً شهرياً قدره 300 ألف دولار من أجل تنسيق نشاطات منظمته مع الوكالة». ذكر تيلر في كتابه الذي نُشر عام 1993 بعنوان «ولايات الرّعب» بأنّه لم تكن هناك حقائب محشوّة بالدّولارات. كان فقط عرضاً شفويًّا. وبعد أنّ طرح فكرته، شعر كاسن بالارتياح من هدوء مزاج سلامة. وعندما هبّ الأخير واقفا ليغادر المكان، اقترح كاسن أنْ يلتقيا في اليوم التّالي لتناول وجبة طعام فاخرة في أحد مطاعم روما الغالية.

في اليوم التّالي، اجتمع الرّجال الثلاثة لتناول الغداء معا. حين استأذن سلامة وانسحب لقضاء حاجته، التفت زين إلى كاسن وقال له: «أخبرني علي بكل شيء. قال لي إنّكم مستعدّون أنْ تدفعوا للمنظمة 35 مليون دولار سنويّا وستعترفون بها. لقد أرسل رسالة مشفّرة إلى عرفات ينقل إليه العرض، وأنّ رئيس المنظمة ممتنّ جدًّا».

شعر كاسن بالذهول وغادر المطعم على عجل، بعد أنْ أدرك أنّ علي سلامة وصديقه زين كانا «يلعبان» عليه. عرف أنّ محاولة التّجنيد قد فشلت فأبرق إلى لانغلي بذلك. ادّعى أنّ سلامة رفض بعناد التّعاون مع الوكالة لمقاومة الإرهاب. كانت تلك كذبة، لكنّها تبرير يفسّر سبب فشل المحاولة. أعطى كاسن الوكالة الانطباع بأنّ سلامة متطرّف وديماغوجي. من جانبه كان سلامة مستاء جدّا من تلك المحاولة، ويذكر ويفرلي: «لقد تطلّب الأمر وقتاً طويلاً لكي تعود العلاقة إلى سابق عهدها». على حدّ قوله.

في بيروت حاول أيمز وزين أنْ يعيدا المياه إلى مجاريها، علما بأنّ أيمز قد شعر بخيبة أمل كبيرة نتيجة إخفاق روما الذي ترتّب على عدم الاستماع لنصائحه. كتب له يقول: «أنت وأنا ربّما حاولنا أنْ نستبق الزّمن لتحقيق هذا الإنجاز». كما أنّه كان منزعجاً جدّا من «سوء الفهم والأكاذيب»، التي جاء بها كاسن عن سلامة. «منذ قرأت ملفّات هذه القضيّة بإمكاني القول إنّه لسوء الحظ أنّ أكاذيب قد قيلت». كما يبدو أنّه خشي على سلامة صديقه سلامة. استلم الأخير بعد زيارة روما طرداً بريديًّا مُرسلا له شخصيًّا. يقول زين: «أخبرنا بوب أنْ نلتزم جانب الحذر خاصّة من وصول طرود مفخّخة». يتلقى سلامة بريده عادة من خلال مكتب المنظمة. غير أنّه في أحد الأيام في مطلع عام 1971 وصل مظروف ثقيل إلى شقته في شارع فردان. وضعه سلامة في جهاز الكشف. ولو كان فتحه لكان انفجر في وجهه واحرقه وربّما قتله. كانت بالتأكيد محاولة الموساد الأولى لاغتيال علي حسن سلامة(*).

شاهد أيمز صديقه سلامة من وقت لآخر خلال الأشهر السّتة القادمة، واجتمعا قبل نقله إلى مقر الوكالة في واشنطن في شهر حزيران من عام 1971. وكان وقت اختفى فيه سلامة من المشهد. يقول زين إنّ صديقه فقد بعض

(*) كان لجهاز الموساد الإسرائيلي عنصر ماهر في إعداد الرّسائل الملغومة. وهو العنصر نفسه الذي وضع متفجّرة في داخل كتاب أرسله إلى بسّام أبو شريف بتاريخ 25 يوليو من عام 1972، فانفجرت في وجهه. كان يُرمز لهذا العنصر بالحرف Q، وكان مسؤولاً عن أكثر من 30 متفجّرة أرسلت عن طريق البريد.

اعتباره داخل المنظمة إثر لقاء روما الفاشل. جعله عرفات مسؤولاً عن العلاقة الفلسطينيّة - الأمريكيّة، التي يبدو أنّها قد تجمّدت في مكانها. كان أيمز على علم بأنّ نجم صديقه قد خبا نتيجة علاقته بالوكالة. كتب إلى زين فقال: «أنا على علم بأنّه عاني تلك الانتكاسة بسبب اتصالاته معي. إنّه رجل متقدّم على زمنه. لقد بدأنا حقًّا شيئاً جيّداً. اعتقد أنّ التّاريخ سينصفه ويثبت أنّه لو كان النّاس أكثر تعقلا وأكثر أمانة مع أنفسهم، لكان بالإمكان تجاوز الكثير من المآسي».

بعد أسبوعين كتب إلى زين ثانية. كانت لهجة الرّسالة تظهر بوضوح أنّه يريد أنْ يبقي علاقته معه محاولا إقناعه بأنّهما لم يخسرا كلّ شيء. لم تكن رسالة من ضابط في الوكالة يُملي فيها تعليماته على عميل. كانت رسالة إقناع من صديق لصديقه. «أسعدني جداً أنّني سمعت منك وعرفت أنّك ما زلت وسط دوّامة الأشياء». ثمّ أضاف، «الحياة هنا في واشنطن مملّة بالمقارنة مع الحياة في بيروت، وأعني هنا السّياسة والبيروقراطيّة. بصراحة، لكم افتقد نشاطاتنا، ولكم أودّ أنْ تعود الأيّام ثانية».

كان زين لا يزال يعمل مستشارا لحاكم أبو ظبي، إلاّ أنّه كان يخطّط للعودة إلى بيروت. قال أيمز لصديقه زين أنّه يشعر أنّه مدين له بالكثير ويودّ مساعدته بكلّ ما يمكنه. «مهما اخترت، فإنّي آمل أنْ يستمرّ التّواصل فيما بيننا. وإذا كنت بحاجة إلى مساعدة منّي، فأرجو أنْ تخبرني بذلك. أنا لا أحب أنّ أكون مديناً، وإنّي مدين لك بالكثير». اخبره أنّه يخطّط لجولة لزيارة بيروت وعمّان في نهاية شهر أكتوبر واقترح عليه أنْ يلتقيا في البحرين. «لديّ الكثير ممّا أودّ مناقشته عندما نجتمع فيما بعد». ثمّ أضاف قائلاً، «وكما تعرف فإنّ الكثير لا يمكن تدوينه على الورق. أنا أعرف أنّك تدرك ذلك».

لم يكنْ زين هو الآخر وكيلا للمخابرات، رغم أنّ أيمز يعرف أنّه هو من يعتمد عليه. أضف إلى ذلك أنّ زين هو قناة التّواصل التي لا يُستغنى عنها مع علي سلامة. «بقدر تعلّق الأمر بصديقنا، أرجو أنْ تُخبره حين تلتقي به أنّنا هنا نحاول أنْ نوازن الأشياء، وأنّنا حققنا بعض النّجاح. لديّ بعض الأخبار التي أودّ منك أنْ توصلها إليه، وهي تتعلق بكيفيّة ردّ اعتباره الذي فقده بسبب علاقته معنا. أنا مدين له أيضاً، وبلا شكّ أرغب بإيفاء ذلك الدّين». وقع بوب رسالته باسم

«منير». كان ذلك هو الاسم الصّوفي الذي يحبّه مصطفى، والذي أطلقه على صديقه الأمريكي. كما أنّه كتب عنوان بيته على المظروف، واسم المُرسل RCA.

بعد حوالى ثلاثة أسابيع، وبتاريخ 14 سبتمبر من عام 1971 كتب للمرة الثالثة لصديقه زين حول إمكانيّة ترتيب لقاء مع سلامة. كان متحمّساً لاستئناف محادثاته معه. لكنّه يعرف أنّه لو تسرّبت الأخبار سيؤدي ذلك إلى إلحاق مزيد من الضّرر بسمعة سلامة في المنظمة. كتب يقول: «بالنّسبة إلى صديقنا، فأعتقد أنّه من الواضح أنْ نناقش أنا وأنت أيّ لقاء قبل الموافقة على موعده، إنْ قرّرنا أنْ نلتقي. أنا شخصيًّا أشعر بأنّ اجتماعاً كهذا سيكون نافعاً للغاية، لأنّنا نرغب في إزالة سوء الفهم الذي حصل والذي سبّب لكل الأطراف، وخاصّة أنت، مشاكل كثيرة. والآن وقد عاد إلى موقعه الملائم، فإنّنا لا نريد تكرار أخطاء الماضي».

عانت مكانة سلامة من انتكاسة حقيقيّة في المنظمة في ربيع عام 1971 وصيفه. كان له فيها بعض الخصوم في مقدّمتهم أبو إياد (صلاح خلف)، الرّجل الثاني ومعلم له في فترة عمّان. ولكنْ بعد كارثة الأردن، وجّه البعض النّقد لسوء المعلومات المخابراتيّة عن نوايا الملك وقدراته. عمل سلامة في وقت من الأوقات تحت إمرة أبو إياد. ولكن بعد سبتمبر أصبح ظلّا لعرفات. لم يعجب أبو إياد النّفوذ المتصاعد لسلامة وسهولة وصوله لرئيس المنظمة. في ربيع 1971 كان يبحث عن أيّ عذر لتوجيه اللوم إليه. وُضع مفهوم إخفاق إدارة العلاقات الخلفيّة مع الوكالة على عاتقه وأثّر في مكانته. ثمّ أراد أبو إياد استغلال حادث إطلاق نار في أوروبا بتاريخ 6 فبراير من عام 1972 اشترك فيه رجال سلامة من القوّة 17 وأدّى لمقتل خمسة عناصر. ذهب أبو إياد إلى عرفات وشكا له أنّ سلامة قد خرج عن طوعه، فأمر بإجراء تحقيق داخلي وأعطى سلامة إجازة لمدّة ثلاثة أشهر لحين استكمال التّحقيق في ذلك الحادث. استغلّ سلامة تلك الإجازة فسافر لزيارة لندن وعدد من المدن الأوروبيّة مستعملا جوازاً دبلوماسيًّا جزائريًّا. ولدى رجوعه إلى بيروت وجد أنّ اللجنة توصّلت إلى تبرئته، وأنّ الرّجال الخمسة الذين تمّت تصفيتهم كانوا فعلا عملاء ومخبرين للموساد. وكما فهم أيمز من مصادره الخاصّة فإنّ صديقه قد أعيد إلى قيادة القوّة 17 في خريف

عام 1971. أصبحت تلك القضية جزءاً مهماً من سجلّ حياة سلامة المهنيّة، لأنّ أبو إياد، خلال فترة إجازة سلامة قد أسّس حركة داخل المنظمة أطلق عليها اسم أيلول الأسود. ولذلك فإنّ له العذر بأنّه لم يكنْ موجوداً، وليس بين مَنْ فكّروا بتأسيسها أو إخراجها للوجود.

وجدت منظمة التّحرير الفلسطينيّة نفسها اثر حرب الأردن عند مفترق طرق عصيّة. فالهزيمة ألحقت شعوراً بالخيبة بين صفوف رجال فتح من الفدائيين، لكنّها في الوقت نفسه أعطت زخماً سياسيًّا كبيراً للجناح المتطرّف إلى اليسار من عرفات. جعلت عمليّات خطف الطائرات المثيرة للإعجاب التي قام بها أنصار الجبهة الشّعبيّة بقيادة جورج حبش، القضيّة الفلسطينيّة قضيّة عالميّة. غير أنّ أنصار «الخِتيار» من الشّباب بدأوا يطالبون بإستراتيجية جديدة، واحتاج عرفات أنْ يحقّق نصراً من نوع ما لكي لا يُنحّى جانباً. اقترح عليه مساعده أبو إياد أنْ يزيد من حدّة العنف، وكان عرفات حائراً بين مختلف الأطراف، فبدأ نقاش حام. أوضح خالد الحسن، الذي كان بمثابة وزير خارجيّة المنظمة، للصّحفي البريطاني ألن هارت فيما بعد: «كنت ضد استخدام (ورقة) العنف، ولكن عليّ أن أخبرك شيئاً آخر. إنّ رفاقنا في فتح الذين مالوا إلى العنف لم تكن لهم عقليّة إجراميّة. إنّهم وطنيّون مصمّمون على أداء واجبهم بالطّريقة التي يرونها. يجب أنْ أقول إنّهم كانوا على خطأ. قلت لهم ذلك في حينه، لكنّني في الوقت نفسه أعرف دوافعهم. فمن وجهة نظرهم، وهم كانوا على حقّ، أنّ العالم قد أدار ظهره للفلسطينيين، وقال لهم لا يعنينا أمركم في شيء وليس لنا اهتمام بكم حتّى تهدّدوا مصالحنا. وردًّا على ذلك، فإنّ أعضاء فتح الذين تحوّلوا إلى العنف، ردّوا بأنهم سيلعبون (اللعبة) كما يريدها العالم، وسيجعلونه يهتمّ بقضيتهم».

خوّل عرفات بهدوء أبو إياد أنْ يؤسّس حركة سريّة تنقل ساحة الحرب إلى العواصم الغربيّة، وأنْ يكرّس جهوده للانتقام من النّظام الهاشمي. كان أبو إياد صديقاً قديماً له، فانطلق هذا وأسس ذراعاً سريّا سمّاها أيلول الأسود، إشارة إلى الدّماء التي سالت في مخيّمات اللاجئين في الأردن. يُعتقد أنّه كان الأب الرّوحي وقائد تلك الجماعة. يُقال إنّ أيلول الأسود كان «حالة عقليّة أكثر من

كونـه تنظيمـاً للعنـف». مـن الطبيعي أنّ هـذه الجماعة اعتمـدت على مخابرات المنظمة وتمويلها.

ربّما اعتقد عرفات أنّه سيستعمل ذلك للمساومة والابتزاز، وأنّ باستطاعته أنّ يبدأ عمليّات العنف أو يوقفها متى شاء بسهولة. لكنّ الأمر كان أكثر تعقيداً من تلك النّظرة. قابل الصّحفي ألن هارت أحد أعضاء أيلول الأسود الذي كان اسمه المستعار بن بلة. سأله الصّحفي عن موقف عرفات من العمليّات، فقال بن بلة. «في ذلك الوقت، لم يكنْ باستطاعته أنْ يعارض بشكل علني لأنّه يعرف أنّ ما نقوم به يحظى بتأييد غالبيّة القيادة والأعضاء في المنظمة والنّاس في الشّارع. كانت طريقتنا هي الطريقة المطلوبة. ولكنْ في الاجتماعات الخاصّة كان يستغّل كلّ مناسبة ليخبرنـا أنّ مـا نقـوم به خطأ. أتذكّر أنّه قـال في إحدى المرّات بأنّنا مخطئـون بنقـل سـاحة قتالنـا إلى أوروبا. ربّما كنّـا مجانين، ولكن اخبرني أنت، أليس من الجنون أنْ نبقى هنا في بيروت ننتظر الطائرات الإسـرائيليّة لكي تغير على مواقعنا كلّ يوم فنخسـر عشـرة مقاتلين أو أكثر، دون أنْ ندفع قضيّتنا إلى الأمام؟ أليس ذلك جنون بحدّ ذاته؟».

لا شـكّ أنّ سـلامة كان على علم بتلك المشـاعر. وباعتباره رئيسـا للقوّة 17 كان مسـؤولاً عـن تأميـن الحراسـة الشّـخصيّة لعرفات. لكـنّ القوّة 17 كانت أيضـا جهـاز مخابـرات المنظمـة الخـاص. وبحكم ذلك كان يُخبـر أبو إياد بكل مـا يجـري، رغـم علاقة الأخير بعرفات. وإذا كان أبو إياد الأب الرّوحي لأيلول الأسـود، فإنّ عضوا كبيراً آخر في المنظمة اسـمه أبو داود كان القائد الميداني التّكتيكـي لتلـك الجماعـة. يجب الإشـارة إلى أنّ سـلّم القيادة لـم يكنْ واضحاً تماماً. وباعتباره رئيسا لقوّة 17، فمن المؤكّد أنّ سلامة كان على علم بتحركات تلـك الجماعـة وخططهـا. ولكـن وفقاً لما قاله زين فإنّه لم يكنْ لسـلامة يد في عمليّـات أبـو إيـاد. «أخبرتُ علي بأنّه يجب ألاّ يتورّط إطلاقا وتحت أيّ ظرف في سفك دماء المدنيين».

من الواضح أنّ سـلامة كان خصما لأبو إياد. فكلا الرّجلين كانا يتنافسـان على نيل الحظوة عند «الخِتيار». وبناء على معلومات السّلطات الأردنيّة، نشرت جريدة نيويورك تايمز أنّ «علي حسن سلامة هو ضابط مخابرات فتح وهو يُشرف

على نشاطات جماعة أيلول الأسود، وله يدّ في الصّراعات بين قادة الفدائيين السّابقين. نشرت الجريدة صورة مرفقة بتقريرها المذكور وادّعت أنّها صورة سلامة. لكنّ ذلك مجافٍ للحقيقة والقصد منه تشويه سمعة سلامة، علما بأنّ الصّورة لم تكنْ عائدة له.

استهدفت جماعة أيلول الأسود أوّلا رئيس وزراء الأردن وصفي التّلّ. اختار سلامة العناصر الذين قاموا بعمليّة الاغتيال وخطّط لها، حسب ما زعم يزيد صايغ مؤلف كتاب عن تاريخ منظمة التّحرير الفلسطينيّة. ذكر أنّه هو «العقل المدبّر» لتلك المحاولة التي جرت بتاريخ 28 نوفمبر من عام 1971. كان التّلّ متّجها إلى فندق شيراتن في القاهرة عندما هاجمه أربعة أشخاص، وقبل أنْ يتمكّن حرسه من عمل شيء، أطلق عليه عزّة أحمد رباح أربع طلقات من مسافة قريبة فأرداه صريعاً. شهدت زوجته وأشخاص آخرون ذلك الموقف المرعب. ألقى أحد المهاجمين بنفسه قرب جثمان القتيل ولعق بعض دمه. حين القي القبض على المهاجمين كانوا يصرخون، «نحن أيلول الأسود... لقد أخذنا الثأر من خائن».

حدث أن وصل بوب أيمز إلى عمّان في ذلك اليوم، وقبل ساعات من اغتيال وصفي التّلّ. كتب يقول: «إنّ مزاج الأردنيين معكّر ومن الممكن القول إنّ الفلسطينيين اختفوا من شوارع العاصمة الأردنيّة». كان مقرّرا أنْ تكون زيارته قصيرة إلاّ أنها بفعل عمليّة الاغتيال، تحوّلت إلى مهمة للبحث عن حقيقة ما جرى بشكل رسمي. بعد يومين سافر برفقة بعض الدّبلوماسيين الأمريكيين إلى مدينة إربد لتقديم العزاء لعائلة القتيل. كتب أيمز، «كانت رحلة مفيدة استمتعت فيها بشرب القهوة العربية، رغم أنّ المناسبة كانت محزنة... كان شيئاً رائعاً أنْ أكون وسط ذلك الجوّ مرّة أخرى».

في نهاية ذلك الأسبوع قاد سيّارته إلى جسر اللنبي على نهر الأردن متوجّهاً إلى الضّفة الغربيّة المحتلّة التي وقعت في أيدي الإسرائيليين قبل أربع سنوات. ويبدو أنّهم كانوا لا يفوّتون فرصة ليعلنوا عن وجودهم هناك. حين وصل إلى الجسر، وهو نقطة العبور الوحيدة من الأردن إلى المناطق المحتلة، أراد الإسرائيليّون أنْ يضعوا الختم الإسرائيلي على جوازه الدّبلوماسي. في العادة كانوا بقصد تشجيع السّياحة يعطون الزّوّار ختم الفيزا على ورقة منفصلة، لكي

يمكن للفرد أنْ يسافر إلى بقيّة الدّول العربيّة. ولكن هذه المرّة أصر العسكر الإسرائيليّون على وضع ختم الفيزا على جوازه، وحين رفض بإصرار أبقوه هناك في الانتظار. قاموا بتفتيش حقيبته وافرغوا ما في علبة معجون الأسنان وعلبة صبغ الأحذية وأتلفوا الفلم في كامرته عندما عرضوه للضّوء »... ولم يسمحوا لي بإدخال علبتي معجون الحلاقة وتعطير ما تحت الإبطين وصادروهما، لأنّ تلك العلب يمكن أن تكون مفخّخة بالمتفجّرات».

تدخّل احدهم بعد مرور بعض الوقت. شاهد أيمز ضابطا برتبة رائد يتفحّص جوازه ومحفظة نقوده. استرعى انتباهه وجود أوراق عملة يمنيّة، فأدار وجهه نحو أيمز واخبره أنّه هاجر من اليمن عام 1948. يبدو أنّهما قد وجدا أرضيّة واحدة للتّفاهم، وأنّه قد ترك انطباعاً جيّداً لدى ذلك الضّابط. كتب يقول، «تحدّثنا عن اليمن وحرصت أنْ أتكلّم معه بالعربيّة اليمنيّة، فأعاد كل شيء إلى حقيبتي وسمح لي بالعبور ومواصلة سفري».

لدى وصوله إلى القدس، توجّه إلى فندق الجالية الأمريكيّة الذي يقع في القدس الشّرقية في منطقة الشّيخ جرّاح. (في اللهجة المقدسيّة يُطلق عليه اسم فندق الكولونية الأمريكية، ولكنْ في الماضي كان يسمى منزل داود باشا الحسيني - المترجم) بُني الفندق في أواخر القرن التّاسع عشر من الحجر المقدسي الأبيض، وأصبح معلماً من معالم المدينة الاجتماعية السّياسيّة لحقب عديدة. يُعتبر الفندق واحة هادئة منعشة وسط القدس العربيّة. في نهاية الحرب العالميّة الأولى نزل فيه لورنس واتّخذه مسكناً. كما نزلت فيه شخصيّات أخرى مثل لول تومّس وغِرترد بل وجون روكفلر. وحتّى في أعقاب حرب حزيران لعام 1967 كانت قاعاته وحانة الشّرب فيه صالوناً شهيراً في القدس يتردّد عليه الدّبلوماسيّون والصّحفيّون والمثقفون. وفي المساء غالبا ما يختلط عدد من المثقفين الفلسطينيين مع بعضهم البعض في «الصّالون الكبير» يجلسون على المقاعد المريحة تحت سقوفه الدّمشقيّة الطراز المطليّة باللون الذهبي. لقد أحبّ أيمز ذلك الجوّ الشّرقي الطاغي على المكان، كما أحبّه لموقعه غير البعيد عن القنصليّة الأمريكيّة. كما كان قريباً من كاتدرائيّة القدّيس جورج، حيث أصبح صديقه من أيّام الظّهران رونالد متز نائبا لأسقف الكنيسة الإنجليكانيّة في القدس.

لقد ترك متز الوكالة وشركة أرامكو ليتفرغ للعمل في الكنيسة. غير أنّ عمله السّياسي تركّز على مساعدة سكّان القدس الشّرقيّة من الفلسطينيين لكي يتعاملوا مع المشاكل التي فُرضت عليهم والتي يواجهونها تحت الاحتلال الإسرائيلي. ضمّ الإسرائيليّون القدس الشّرقيّة إثر حرب 1967، لكنّ الفلسطينيين والمجتمع الدّولي يعتبرون ذلك الإجراء غير شرعيّ.

بالرّغم من تعاطفه مع الفلسطينيين، اظهر أيمز أحياناً بعض التّعاطف مع الجانب الآخر. ففي القدس زار المدينة القديمة ودخل من بوّابة يافا الحيّ اليهودي، ومشى نحو حائط المبكى. «كان اليوم هو السّبت، ولذلك كان المكان مزدحماً بالنّاس ويجب القول إنّ الموقف مهيب. كان أكثر زوّار الحائط من اليهود الشّرقيين الأرثوذوكس بملابسهم المتميّزة. يشعر الفرد بأنّ هؤلاء النّاس يجب ألاّ يُحرموا من زيارة هذا الموقع، مهما كانت طبيعة الحلّ النّهائي».

لاحظ أيمز أنّ الإسرائيليين قد فرضوا على المدينة القديمة بعض المظاهر الحديثة. كانت أسماء كافة الشّوارع مكتوبة باللغة العبريّة، وكانت النّفايات تُجمع كلّ يوم، وأصبحت المدينة أكثر انتظاماً ممّا كانت عليه عندما كانت تحت السّيطرة الأردنيّة. لكنّ أيمز الرّومانسي «شعر بالحسرة على ضياع الجوّ الشّرقي الأصيل السّاحر الذي كانت عليه المدينة.» كتب لإيفون يقول: «أحبّ الفوضى العفويّة التي كانت عليها المدينة من قبل، شيء يذكّر بزمن المسيح». كما استنكر أيمز ما تقوم به إسرائيل لتغيير هويّة المدينة ببناء مشاريع سكنيّة لإحاطة القدس الشّرقيّة بالأحياء اليهوديّة الحديثة الطّراز. «أستطيع النّظر من شبّاك غرفتي في فندق الجالية الأمريكيّة حيث أقيم فأشاهد العمارات السّكنيّة والشقق التي يشيّدها الإسرائيليّون على التّلال المحيطة بالقدس. وهذا في رأيي ليس صواباً... بالتأكيد يريدون أنْ يخلقوا الانطباع بأنّهم هنا، وهم باقون».

بعد أن التقى ببعض معارفه من الإسرائيليين والفلسطينيين، عاد أيمز إلى واشنطن ليقضي عطلة أعياد الميلاد ورأس السّنة الجديدة مع عائلته.

الفصل السّادس

الدبلوماسيّة السريّة

تـرك بـوب وعائلتـه بيـروت في مطلع صيف عـام 1971، وأقاموا مؤقتاً في بيت في مدينة رستن في شمال فرجينيا، ليس بعيدا عن مقرّ الوكالة. كانت إيفون حاملاً مرّة أخرى. سافروا جميعاً بعد فترة إلى مدينة جاكسن في ولاية مسَسِبي لزيارة والدي إيفون. تقاعد والدها من منصبه كقائد في البحريّة ليصبح كاهناً في الكنيسة اللوثريّة. بعد العودة إلى واشنطن سكنوا في شقّة مؤثثة لبضعة أسابيع، في حين بدأوا يبحثون عن بيت لشرائه. بتاريخ 3 أغسطس اشتروا بيتاً من طابقين مبنيّ من الطّوب والخشب يقع في شارع شورت رج رقم 2304 في رستن. كان البيت يقع في نهاية شارع مغلق في أسفل تلّة صغيرة وتقع خلفه غابة كثيفة. كان أهل البيت يشـاهدون أحياناً بعض الغزلان ترعى قريباً منهم. كانت قيمة البيت 48950 دولارا وفيه أربع غرف نوم وثلاثة حمّامات، وكان صغيرا بالنّسبة لعائلة تتكـوّن مـن سـبعة أفـراد والثّامن في الطريق. كان على الأطفال أنْ يشـتركوا في استخدام الحمّامات، إلا أنْ البيت يُعتبر من بيوت الضّواحي.

وضعت إيفون طفلها السّـادس بتاريخ 21 أغسـطس من ذلك العام، وكان ذكرا أسموه كِفن. بعد قضاء تسع سنوات في الخارج كانت الزّوجة والأمّ سعيدة جـدّا بالعـودة إلـى أمريـكا. عُيّـن بوب في منصـب إداريّ في لانغلـي، وتوفرت للأطفـال فـرص اللعـب خـارج البيت دون رقابة، ولم تكـنْ هناك حاجة لإقفال الأبواب. كان مركز عمله يبعد عن البيت حوالى 20 دقيقة بالسيّارة. لقد أحبّت إيفون أن تعود حياتها طبيعيّة.

تحوّلـت عندمـا كانـت فـي بيروت إلى الكاثوليكيّة، وما من شـكّ أنّ الأمر قد أزعج والديها اللوثريين المُلتزمين. لكنّها فعلت ذلك إرضاءً لبوب الذي كان يتـردّد باسـتمرار علـى القـدّاس الكاثوليكي في المدينة. كمـا تمّ تعميد ثلاثة من الأطفال في الكنيسة الكاثوليكيّة، غير أنّ الثلاثة المتبقين، بما فيم المولود الجديد

كفن فقد تمّ تعميدهم في الكنيسة اللوثريّة. تختلف الحياة في رستن عن تلك التي عاشتها الأسرة في الظهران وعدن وأسمرة وبيروت. بُنيت المدينة عام 1964 على مساحة من الأرض الزّراعيّة تبلغ 7000 هكتار على حافّة العاصمة واشنطن. صمّم المعماريّون بناء ملعب مساحته 10 هكتارات لكل ألف من السّكان، وكانت تتوفّر فيها طرق لركوب الدّرّاجات الهوائيّة و20 حوضاً للسباحة وغيرها من وسائل التّرويح المتاحة للجميع. بُنيت المدينة لتكون مستقلة بمدارسها ودور السّينما فيها والمطاعم ومناطق الأسواق. عندما اشترت الأسرة بيتها كان عدد سكّان المدينة أقلّ من ستة آلاف شخص. وبسبب قربها من المركز في لانغلي، فقد كان غالبية جيرانهم من موظفي الوكالة.

في العادة، كان بوب يترك البيت عادة في السّاعة الثّامنة صباحا، وإذا لم يكن في مهمّة، يعود في السّاعة السّادسة مساء. يجلس قبل العشاء على كرسيّه الهزّاز وينغمس في قراءة كتاب وهو يستمع للموسيقى. كان نادرا ما يشرب، وفي الحفلات كان يكتفي بكأس. تقول إيفون إنّه «لم يكن ميّالا لشرب الكحول». غير أنّها تشرب أحيانا كوكتيلا من الوسكي المخلوط بالفرموث وهي تعدّ العشاء. من النّادر أنْ دعوا أحدا إلى بيتهم. كانت غرفة الاستقبال مفروشة بالسّجاد الفارسي، وعلى إحدى الطاولات توجد أكواب وأوانٍ نحاسيّة عربيّة. كما عُلقت على الجدران لوحات فنيّة تصوّر حياة البدو في الصّحراء. كما أنّهم يمتلكون خزانة ذات أدراج اشتروها في الكويت تعود إلى الرّحالة هاري جون فلبي والد الجاسوس البريطاني كِم فلبي الذي عمل في وكالة M16 وظهر فيما بعد أنّه عميل مزدوج للإتّحاد السّوفيتي ففرّ من بيروت إلى موسكو. كانت رفوف مكتبة أيمز مليئة بالكتب التي تتناول تاريخ الشّرق الأوسط. يقول سام وايمن «كانت لديه مكتبة عامرة تحتوي على مصادر كثيرة عن الشّرق الأوسط، أعجبتني جدّا». كما كانت لديه مجموعة من الكتب الحديثة التي تضمّ مائة كتاب من أهمّ الكتب. نادرا ما قرأ الرّواية، إلاّ أنّه كان مولعاً بالشّعر، وكانت قصيدته المفضّلة بعنوان لو للشاعر روديارد كِبلنغ، التي يقول فيها:

لو كنت تحتفظ برباطة جأشك حين يكون الذين حولك
قد فقدوها وألقوا باللائمة عليك

لو كنت واثقا من نفسك، حين يُشكك بك الرّجال الآخرون
دعهم في غيّهم أيضا:
لو كنت تستطيع الانتظار ولا تتعب منه،
أو حين ينشرون عنك الأكاذيب فلا تقابلهم بالمثل،
وإنْ كرهوك، لا تدع مجالا للكره
ومع ذلك. لا تتظاهر أو تتكلّم وكأنّك تحتكر الحكمة لنفسك

أصبحت قصيدة كِپلنغ هذه شعارا للرواقيّة الفكتوريّة البريطانيّة. لربّما شعر أيمز أنّها تداعب مشاعره الفطريّة المحافظة. كما أنّه أحبّ أنْ يكرّر قول جون جون «ما من أحد يستطيع العيش معزولا بنفسه». يتذكّر چارلز إنغلهارت البالغ من العمر 29 عاما، والذي دُعي للعشاء في بيت أيمز أنّه شاهد الكتب تنتشر في أرجاء الغرفة إلى جانب ألعاب الأطفال المبعثرة هنا وهناك، «كان بوب يقرأ خمسة كتب دفعة واحدة».

في عطلة نهاية الأسبوع، كان يمارس كرة السّلة لوحده قرب مرأب السيّارة، ويمضي السّاعات الطّوال أيام السّبت في متابعة مباريات كرة السّلة، وغيرها من النّشاطات الرّياضيّة الأخرى. كان يحبّ أنْ يصرخ وهو يراقب التلفزيون تشجيعا لهذا الفريق أو ذاك. أصبحت البنات عضوات في فريق السّباحة المحلي، وعندما كبر الأولاد قليلا اخذ يدرّبهم على كرة السّلة. كان أحيانا يتوقف عند مجمّع التّسويق ليشتري لعبة إلكترونيّة ويمضي ساعات طويلة في تركيبها وتشغيلها.

في يوم عيد الميلاد كان يصحو كعادته في وقت مبكر فيحلق ذقنه ويأخذ الكلب في جولته الصّباحية للمشي وقضاء الحاجة. تقول ابنته أدريان: «كان يخطّط لذلك بشكل جيّد، حيث يُمنع الأطفال من النّزول من غرف نومهم قبل أنْ يكون قد أعدّ كلّ شيء لهم ليفتحوا الهدايا. كان يحبّ النّظام، وعندما يقوم الأولاد بعمل يستدعي العقاب كان يلقي الرّعب في قلوبهم وهو يتّجه إلى غرفهم ملوّحاً بحزامه الجلدي». كان والدا من الطراز القديم.

في «يوم العمل» كان بوب يذهب إلى المدرسة التي يرتادها أطفاله ويقدّم نفسه بأنّه موظف في السّلك الخارجي. ولم يكن الأطفال يعرفون أكثر من ذلك. تقول أدريان: «كلّ شيء عرفته عن والدي كان بعد وفاته». كان أحد الجيران

واسـمه رون سـمرز هو الوحيد الذي عرف أنّ أيمز يعمل لصالح الوكالة. قال عنه: «كان هادئا وجارا طيّبا أحبّه الجميع». أهداه أيمز في إحدى المرّات خنجراً يمنيًّا، بعد أنْ عاد من إحدى سفراته إلى ذلك البلد.

في عام 1971 كانت درجته في السّلم الوظيفي GS-13، وهذا يعني أنّ راتبه كان بحدود 20000 دولار وهو ما يعادل الآن 95000 دولار. وهذا راتب محترم للطبقة الوسطى في ذلك الوقت. ولكنْ مع وجود عائلة من ثمانية أفراد، لم يكن هناك مجال لتوفير أيّ شيء. تقول إيفون: «كان بوب لا يحبّ الدّيون. ولذلك فإنّنا عشنا في حدود إمكانياتنا الماليّة. لم نخرج لنتناول العشاء في المطاعم ولم يكن لدينا حساب في المصرف ولم نذهب في عطلة. كان يعهد لي بإدارة أمور البيت، فكنت أقوم بدفع فواتير الكهرباء والتلفزيون وقرض البيت وإدارة ميزانيّة العائلة. كان ما يتوفر لدينا محدودا». قادت سـيّارة شـيفروليه مسـتعملة، أمّا هو فكان يذهب للعمل في سيّارة فيات سپورت اشتراها في بيروت وشحنها عندما انتقلت الأسرة. لقد ثبت أنّها مشكلة. فهي لا يمكن الاعتماد عليها وتصليحها إنْ تعطلت صعب للغاية، وفي النّهاية باعها لجاره سمرز، واشترى سيارة فورد پنتو ذات بابين. وهذا الصّنف أقلّ السّيارات كلفة صُمّم لينافس السيّارات الأوروبيّة الرّخيصة في ذلك الوقت. ومع ذلك فإنّ بوب كان يحلم بامتلاك سيارة بي أم دبليو الألمانيّة.

كانت الحياة في رسـتن اعتياديّة وحتى يمكن القول إنّها رتيبة: «كان حالنا كحال جيراننا». حسب قول إيفون. «أو على الأقلّ كنّا نشعر كذلك». في عطل نهايـة الأسـبوع، كانـت تذهـب للغنـاء مع فرقة تتألف من أربع نسـاء التقت بهن في صالون الحلاقة. ومع ذلك أحبّت تلك الفترة من حياتها، لكنّ ذلك لم يدم.

فـي اواخـر شـهر مايـو من عـام 1972، نُقل بوب إلى صنعـاء للقيام بمهمة مؤقتـة. طـار إلـى باريـس وتوقـف في روما وحطـت طائرته فـي البحرين حيث اجتمع مع زميله في الوكالة وصديقه من أيّام عدن دك رون. أمضى يوما يتبادل المعلومات معه، ثمّ طار إلى بيروت عن طريق الظهران. «يبدو أنّ كافة الطائرات تنطلق في منتصف الليلة وتهبط في الخامسة صباحا. ولذلك لم يكن هناك وقت

كاف للنّوم». اجتمع مع الشّباب في بيروت لمدة أربع ساعات طار بعدها إلى أثينا حيث استقلّ طائرة نقلته إلى أسمرة، فأمضى هناك عدداً من الأيّام قابل خلالها عددا من أصدقائه القدامى. وأخيرا طار إلى تعز فوصل اليمن بتاريخ 25 مايو من عام 1972. كان عليه أنْ يأخذ سيّارة قطعت به مسافة 200 ميلا عبر المناطق الجبليّة الوعرة لكي يصل إلى العاصمة صنعاء التي تقع على ارتفاع 7500 قدما فوق سطح البحر. «الطريق مخيف للغاية، وكان عليهم أنّ يفكّوا أصابعي التي انشدّت إلى مقود السيّارة لأنّني كنت ممسكا به بقوّة طوال تلك الرحلة الشّاقة».

كان عليه أنْ يمكث في صنعاء لمدة شهرين ونصف لينوب عن غراهام فولر، مدير المحطة التي لا تضم أحد سواه. كانت صنعاء مدينة مسوّرة يعود شكلها للقرون الوسطى. بيوتها مبنيّة من الحجر والطوب وترتفع أحيانا إلى أربعة أو خمسة أو ستة طوابق. كانت المنارات العديدة تطغى على سماء المدينة. في عام 1972 كان عدد سكّانها 125000 شخص. يسير الرّجال في أزقّتها الضّيقة وهم يلبسون أثوابا قصيرة (زنّه) ويضعون على وسطهم أحزمة ويلفون رؤوسهم بالشّال (صمّاطه). كلّ شخص يبلغ من العمر 14 عاماً أو أكثر يتمنطق في وسطه خنجرا قصيرا معقوفا ذا حدّين يسمّى (جنبيّه). كان الكثير من الشّباب يحملون على أكتافهم بنادق الكلاشنكوف. في عصر كلّ يوم يجلس الرّجال والنّساء منفصلين في أعلى غرفة في البيت ليشربوا الشّاي الأسود المحلى بالسّكّر ويمضغون القات. إنّ المجتمع في صنعاء أكثر محافظة عمّا هو عليه في عدن. فقبائل اليمن الشّماليّة التّقليديّة هي التي كانت تسيطر على نظام الحكم المحافظ في صنعاء، في الوقت الذي كان فيه الشّخص الذي يعرفه أيمز وهو عبد الفتاح اسماعيل لا يزال رئيسا للنّظام الماركسي في اليمن الجنوبي. كانت الصّدامات المسلحة على الحدود بين البلدين في تصاعد مستمرّ.

كتب بوب لزوجته يقول: «تجري الكثير من الأنشطة هذه الأيّام بشكل غير اعتيادي وأنا في وسطها. يبدو أنّ هناك جهودا حثيثة للتّخلص من الجماعة في عدن، وأنّ التّخطيط لذلك يجري في بيتي». كان عنده مساء 18 حزيران ستة «ضيوف»، وفي الليلة التّالية التحق بهم ثلاثة آخرون. «إنّه شيء غريب

ومتعب. إنّهم يريدون عمل شيء ما الآن». ولكن حين سأل أحد قادتهم إنْ كانوا سيحققون النّجاح، ردّ عليه «نحن عرب». بمعنى «إنّنا سنحاول وإذا فشلنا فإنّ الأمر لا يهمّ. سنعاود المحاولة». كان الرجل واقعياً.

كانت وكالة المخابرات المركزيّة تشجّع اللاجئين السّياسيين من عدن لكي ينظموا صفوفهم ويقوموا بانقلاب ضدّ الحكم اليساري في الجنوب. غير أنّ أيمز كان متشكّكا بذلك. «سمع الكثير من القصص الملطخة بالدّم عمّا يجري في عدن، ولو كان نصفها حقيقيّا فمعناه كارثة. بالرّغم من كلّ نشاطاتهم الإرهابيّة كان عبد الفتاح إسماعيل ورفاقه ماضين في طريقهم، في حين كان المبعدون إلى اليمن الشمالي يجلسون يمضغون القات ويتحدّثون عن جهودهم لقلب نظام الحكم في الجنوب. لا اعتقد أنّ العدنيين سيُغيّرون، والقات يأتي في مقدّمة الأشياء المطلوبة. إنّهم سيقومون بالثّورة إذا تحرّك أحد وهدّد بقطع إمدادات القات».

اشتدت الأزمة بين البلدين ووقع عدد من الصّدامات المسلحة في شهر أكتوبر أعقبها وقف إطلاق نار هش. لا شكّ أنّ الوكالة تحبّ بالتأكيد تغيير النّظام في عدن، وكاد ذلك يتحقق في مطلع الثمانينات إثر محاولة فاشلة، لكنّ اليساريين تمكّنوا من التّشبّث في مواقعهم حتّى سقوط الاتّحاد السوفيتي، حيث تمّ توحيد البلدين تحت قيادة صنعاء.

كره أيمز طقس صنعاء المغبرّ، إذ كتب يقول: «كلّ شيء هنا مغطى بالغبار، وما أحبّه هنا هو النّاس فقط». كان واجبه العلني موظفا في القنصليّة. لم يعمل من قبل في قسم منح التأشيرات، ووجده عملا رتيبا مّملا. «أنْ تعمل هنا سبعة أيام في الأسبوع، وتتحدّث العربيّة طوال ذلك الوقت يستهلك ما فيك من النّشاط بمرور الوقت». أدرك أنّه خلال السّنوات الثلاث الماضية قد تمتّع بإجازة لمدة 15 يوما فقط، وأنّه خلال السّنة التي عاشها في رستن قضى منها 90 يوما في مهام خارجيّة قصيرة الأمد. «لقد حان الوقت أنْ أستريح قليلا، وهذا ما انوي فعله عندما أعود إلى البيت».

كان العمل في اليمن شاقا. سكن خلال إقامته هناك، في بيت فولر الواسع المبني على الطراز اليمني. ورغم جمال فنّ العمارة في البلد، فإنّه بطوله الفارع

ينسى أحيانا ويضرب رأسه في أطر الأبواب الواطئة. كما شكا، «في البيت مشاكل الماء والغبار والكهرباء والغاز. أنا أعيش محاصرا بالمشاكل». لكنّه بالإضافة إلى ذلك، فإنّ «بيت فولر مليء بالكتب والمجلات وأ ارفع هذه الأشياء المبعثرة أمام ناظريّ». كان عليه أنْ يحضّر ماء الشّرب بغليه ثمّ تصفيته، والطبخ باستعمال موقد يعمل بالغاز وتسوّق حاجاته ووضعها في زاوية باردة. كانت وجباته بسيطة تتألف من الخبز العربي وضرب من الطحلب البحري للفطور، وخبز عربي والزّبدة والمربّى وحليب النستلة المجفّف الذي يحصل عليه على شكل مسحوق للغداء. أمّا العشاء فعادة من اللحم المسلوق العصيّ على المضغ والخضروات. كتب في إحدى الأمسيات إلى إيفون يقول: «عملت اليوم وجبة من السپاغتي المعلب والخضروات، فكانت أفضل وجبة أكلتها في صنعاء». كره الطّعام في اليمن الشّمالي المكوّن عادة من اللحم المسلوق والأرز، وفضّل عليه كثيرا الطعام المتنوّع المعروف باستعمال التّوابل في عدن. كما أنّه افتقد عدم توفّر قناني البيرة المصنوعة من خلاصة الجذور والأعشاب.

يصحو عادة في السّاعة 6:30 ويقضي صباحه في محطة الوكالة في السّفارة الأمريكيّة، ثمّ ينتقل عصرا إلى قسم القنصليّة. أمّا ساعات المساء فيقضيها في المطالعة، إنّ لم يخرج أحيانا للقاء بعض مخبريه. كتب مرّة «حسنا، السّاعة الآن 10:30 وقد استطعت قراءة كتاب واحد».

تبدو حياة ضابط الوكالة في مكان كاليمن غريبة، وهي قطعا ليست رائعة أو بهيّة. كتب يقول: «لا أشعر بالملل، لكنّ الوحدة تؤلمني». عاش حياته بتقشّف معتمدا على مخصّصات الإيفاد، لأنّ راتبه بالكامل مقرّر لنفقات العائلة. كتب ثانية متألما، «لست أكثر من رجل يودّ أنْ يكون مع زوجته وأطفاله، لا أنْ يجوب حول العالم متنقلا من مكان لآخر...» ثمّ يذكّر أطفاله، «نعمْ وحقيقة أنا أبوكم».

في محاولة منه لمحاربة عزلته هذه، كان بوب يستمع للأخبار من محطة البي بي سي كلّ صباح. كان أيضا يقرأ صحيفة الأيكونومست التي تصل إلى مكتب السّفارة أسبوعيًا. ومن حين لآخر كان يحصل على نسخة من صحيفة هيرالد تربيون العالمية. «واحد من الأشياء الجيدة في اليمن، أنّك بعيد عن مشكلة الصّراع العربي الفلسطيني الإسرائيلي. لا يأتي أحد على ذكرها إطلاقا».

كان اليمن في مطلع السّبعينات من الأماكن الخطيرة في العالم. لقد انتهت الحرب الأهليّة منذ سنوات قليلة فقط، لكنّ البلاد ما زالت منقسمة بين نظامين، محافظ في الشّمال وراديكاليّ يساريّ في الجنوب، والتّوتّرات على أشدّها. كانت الاغتيالات والاختطاف أمورا شائعة، وكذلك زرع المتفجّرات على الطّرق العامّة. ومن حين لآخر تعدم سلطات عدن عددا من المخرّبين اليمنيين الجنوبيين الذين يُلقى القبض عليهم وهم يزرعون الألغام على الطرق. كانت تجري لهم محاكمات عسكريّة صوريّة قصيرة تقضي عادة بإعدامهم رميا بالرّصاص، ويُنفّذ ذلك في السّاحة العامّة في المدينة. قبل فترة قصيرة لرحلة بوب من صنعاء إلى تعز قتِل شخصان عندما انفجر لغم تحت سيّارتهما. ولذلك فإنّه في اليوم الذي كان سيسافر فيه إلى تعز، «قرّرت أنْ انتظر حتّى السّاعة 7:30 صباحا لأنّه ستكون أمامي سيّارات أخرى على الطريق. تمّت الرّحلة بسلام». لدى نهاية تنسيبه المؤقت، كتب لزوجته متفاخرا بأنّه سافر إلى كلّ أنحاء اليمن، «لقد قطعت كلّ طريق في البلاد، وضربت بذلك رقما قياسيّا».

إضافة إلى مسؤوليته الرّتيبة في القنصليّة، وهي إجراء مقابلة قصيرة مع كلّ طالب تأشيرة، كان عليه في أحد الأيام أن يواجه جمعا كبيرا من هؤلاء بلغ عددهم 200 شخص تجمّعوا خارج السّفارة والكلّ يطلب تأشيرة لدخول الولايات المتّحدة. كان عمله في القنصليّة، كما أسلفنا، تغطية لعمله الحقيقي، لكنّ هذا العمل كان مصدرا جيّدا للمعلومات. كان يمضي ساعات طويلة وهو يطوّر علاقاته ويكتب تقاريره عن المخبرين العاملين معه. كانت مهمّته الأساسيّة هي مراقبة ما كان يجري في عدن، لكنّه وجد الوقت ليكتب عن التّطوّرات السّياسيّة في اليمن الشّمالي. كتب يقول، «قدر تعلق الأمر باليمن، إنّ باستطاعتك أنْ تحصل على ما تحتاج من المعلومات عن طريق الاستفسار فقط». كان يجتمع مع المسؤولين الحكوميين وشيوخ العشائر وأصحاب الدّكاكين في سوق المدينة القديم، فيسألهم ويحظى بالجواب على كلّ ما يريد معرفته. بعد رحلة مضنية إلى قرية كوكبان المعزولة في الجبال والتي تقع على ارتفاع 11300 قدم عن سطح البحر، عاد إلى البيت في المساء ليتلقى سيلا من المكالمات التّلفونيّة. «أرادوا مقابلتي، والوقت متأخر. فكان عليهم الانتظار حتّى اليوم التّالي. أعلم أنّني

سأمضي يوما طويلا في كتابة التّقارير». كتب خلال الشّهرين الأوّلين من فترة تنسيبه المؤقت، أكثر من 25 تقريرا إلى مكتب الوكالة. «ولو كتبتُ عشرة تقارير أخرى أكون قد تجاوزت ما كُتب خلال الأشهر الخمسة السّابقة لوصولي». كان يحبُّ المنافسة.

عاد أيمز إلى أمريكا يوم الأحد الموافق 13 أغسطس من عام 1972 وسط حملة الانتخابات الرّئاسيّة. فاز الرّئيس نيكسون بأغلبيّة كبيرة في شهر نوفمبر من ذلك العام، وقرّر بعد ذلك فصل رچرد هلمز من إدارة الوكالة. فوجئ هلمز بالقرار لكنّه أدرك مؤخّرا أنّ نيكسون خشي أنّه يعرف الكثير عن الفضيحة التي سُمّيت ووترغيت. سأل نيكسون هلمز إنْ كان يرغب التّعيين سفيرا في موسكو، فأخبره أنّ الرّوس سوف لن يرحّبوا بمدير الوكالة السّابق سفيرا مقيما في عاصمتهم. ثمّ أضاف، «ربّما طهران اختيار أفضل». وافق الرّئيس على تلك الفكرة واعتقد أنّها جيّدة. ولذلك فإنّه في مطلع أبريل من عام 1973 وصل هلمز إلى طهران(*).

اصطحب معه واحدا من أكبر خبراء الوكالة في الشؤون الإيرانيّة وهو جورج كيف، الذي وافق أنْ يعمل نائباً لمدير المحطة هناك آرت كالاهان. لكنّ هلمز طلب أيضا اصطحاب بوب أيمز. قال:، «إنّ أيمز وكيف هما أفضل ضابطين لديه». وعليه أحبّ أن يعملا معه في طهران. كان اختيار أيمز أمرا غريبا لأنّه لا يتكلم الفارسيّة، ولم يضع قدما في إيران من قبل. لكنّ أيمز كان شديد الإعجاب برئيسه هلمز، فوافق دون تردّد على مرافقته إلى طهران. وصل هناك في ربيع ذلك العام، وبعد قليل لحقت به إيفون وأطفاله السّتة. كما شُحن كلب العائلة Hansje وهو من نوع الكلاب الهنغاريّة. فُقد الكلب المسكين في قاعة شحن البضائع في لندن، ولكنْ عُثر عليه بعد وقت فوصل بسلام إلى طهران.

(*) قبل أنْ يترك هلمز مكتبه في الطابق السّابع من مبنى مركز الوكالة في لانغلي بتاريخ 2 فبراير من عام 1973، قام بإتلاف كلّ الأشرطة التي سُجّلت فيها مئات المكالمات الهاتفيّة. يمكن مراجعة المصدرين التّاليين:

William Colby, *Cables to Helms*, January 31, 1974, Helms Papers, CIA, Center for Intelligence Studies.

Tim Weiner, *Legacy of Ashes: The History of CIA* (New York: Doubleday, 2007), p. 324.

توقّع أيمز أنْ يمضي على الأقلّ سنتين في طهران، كما هو متوقع في وظائف الوكالة. أمضى وقتا طويلا في السّفر والتّنقل، وفي أواخر شهر مايو كتب هلمز إلى مستشار الرّئيس لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر مقترحا، «أن تخصّص من وقتك بضع دقائق للاستماع إلى تقييم بوب أيمز، ضابط الوكالة معي هنا، ليعرض عليك مشاكل الخليج».

وحتّى إنْ كان في واشنطن أو طهران، استمر أيمز يتابع القضيّة الفلسطينيّة- الإسرائليّة. قام خلال السّنوات القليلة التّالية، برحلات عديدة متنقلا بين واشنطن وطهران وبيروت. بدأت ابتزازات جماعة **أيلول الأسود** الإرهابيّة تدفع القضيّة الفلسطينيّة إلى واجهات الصّحف العالميّة. كان اغتيال وصفي التّل عام 1971 هو البداية فقط. وخلال السّنتين اللتين تلتا ذلك الاغتيال اتّهمت الجماعة بمسؤوليتها في ارتكاب عدد من الهجمات:

- 15 مارس 1971: تخريب مصفاة شركة غلف في روتردام.
- 15 ديسمبر 1971: محاولة اغتيال سفير الأردن في بريطانيا، زيد الرّفاعي.
- 6 فبراير 1972: تصفية خمسة عناصر من الفلسطينيين باعتبارهم عملاء للموساد، في مدينة كولن.
- 8 مايو 1972: اختطاف طائرة شركة Sabena الرحلة رقم 572 إلى مطار اللدّ، حيث اقتحمها رجال الكوماندوس الإسرائيليّون، الذين قتلوا اثنين من اصل أربعة خاطفين من جماعة **أيلول الأسود**. كما قُتل أحد الرّكّاب.
- 4 أغسطس 1972: تدمير مخازن النّفط في تريستا في إيطاليا.
- خريف 1972: اغتيال الملحق الزّراعي الإسرائيلي في بريطانيا آمي شَچوري عن طريق رسالة متفجّرة.
- 28 ديسمبر 1972: السّيطرة على مبنى السّفارة الإسرائيليّة في بانكوك من قبل أربعة عناصر من **أيلول الأسود**. فشلت المحاولة حين أحاط الجيش التايلاندي بالمبنى، واستسلم الفدائيّون.
- يناير 1973: تهريب عدد من صواريخ ارض- جوّ إلى روما. كان اعضاء **أيلول الأسود** على وشك إسقاط طائرة كانت تقلّ رئيسة وزراء إسرائيل

غولدا مائير. تمكّن الموساد من كشف مخطط العمليّة قبل دقائق من تنفيذها.

- 14 مارس 1973: تفخيخ ثلاث سيّارات في مدينة نيويورك لتفجيرها لدى وصول مائير إلى هناك. لم تنفجر القنابل وفرّ عضو جماعة أيلول الأسود خالد الجواري إلى روما. اعتقل هناك عام 1991، فأعيد إلى الولايات المتّحدة فأدين وسُجن لغاية 2009.

لقد اعترف علي حسن سلامة بشكل ما عن مساهمته في بعض تلك الهجمات(*). أوضح لأحد المراسلين بالقول: «لم يكنْ أمامنا خيار سوى ضرب النّظام الأردني، أو على الأقلّ الأشخاص الذين كانوا وراء حوادث سبتمبر 1970... فهذه الأحداث كانت السبب وراء قيام أيلول الأسود، التي قامت بعدد من الهجمات ضدّ النّظام الأردني ورجاله ومؤسساته، سواء أكانت في داخل البلاد أم خارجها. يرتبط اسمي ببعض تلك العمليّات. من الطّبيعي أنْ يفرزوا اسمي، ولذلك فإنّ سلطات عمّان قد وضعت جائزة لمن يقتلني».

توصّل الصّحفي الإسرائيلي الموثوق به آرون كلاين فيما بعد إلى أنّ سلامة كان على الأقلّ مسؤولاً عن خمس عمليّات خارج الشّرق الأوسط وهي (1) تفجير مخزن النّفط في روتردام. (2) محاولة اغتيال السّفير الأردني في لندن. (3) تصفية خمسة فلسطينيين في مدينة كولن ممّن يُعتقد بأنّهم عملاء للموساد، وذلك بتاريخ 6 فبراير 1972. (4) تدمير مخازن النّفط في تريستا. (5) محاولة الهجوم على السّفارة الإسرائيليّة في بانكوك في أواخر شهر ديسمبر 1972.

من الطبيعي أنّ أيمز على إطلاع بالمعلومات التي تتناول منظمة التّحرير الفلسطينيّة، وأنّه خشي أنّ سلامة ورفاقه سينقلون «ثورتهم» إلى أبعد من أوروبا

(*) بعد غزو لبنان عام 1982، عثر الإسرائيليّون على نصوص مكالمات تلفونيّة تدّعي أنّ سلامة قد أخبر عنصرا من أيلول الأسود في روما «أن يخلي الشقة ويضع فيها 14 «كعكة» (صواريخ أرض - جو تطلق من على الكتف). راجع كتاب:
Simon Reeve, *One Day in September*, (New York: Arcade, 2000), p. 172.
فسّر الإسرائيليّون بأنّها ادلة تظهر مشاركة سلامة في مخطط اغتيال غولدا مائير.

وصولاً إلى المناطق الأمريكيّة. كتب في ربيع عام 1972 رسالة طويلة وصريحة إلى زين عبّر فيها عن مخاوفه فقال، «أنا على إطلاع تامّ بنشاطات صاحبنا. وبالرّغم من أنّني لا أقبلها جميعا، فإنّي أتعاطف مع مشاعر منظمته بأنّهم يجب أن يقوموا بها. بغضّ النّظر عمّا يعتقده فإنّنا لا نهدف إلى القضاء على منظمته. وخلافا لما يعتقد إنّنا لا نقوم بعمليّات مثلما تعمل جماعته. إنّه بسبب سوء تفاهم من هذا القبيل، فإنّي أعطي قيمة كبيرة لكلامي معه. لقد كنّا دائما صريحين مع بعضنا البعض، وأنّ تلك المحادثات قد أفادت الطرفين، بالرّغم من أنّها لم تصل إلى المستوى الذي أردناه لها. لا أعتقد أنّه أو أنا بمساعدة منك لم نحاول. لقد حاولنا لكنّ العلّة تكمن في رؤسائنا الذين لا يلينون».

كان أيمز يهدف إرسال تحذيرات شديدة اللهجة.

إنّ واقع الحال يكشف أنّ النّقطة الوحيدة التي تختلف بصددها منظمتانا هي عندما تختار منظمته القيام بعمليّات داخل أراضينا، كما يخططون الآن. أفهم مقدار الإحباط الذي تواجهه منظمته الآن. أنا اعرف أيضا أنّ الكثير من أعضائها يبغون الشّهادة. ولكن على أيّة حال، فإنّ إرسالهم إلى أراضينا لنْ يجعلهم شهداء بل ضحايا قرابين. وأنا أعني ذلك بصدق ودون أيّ التباس. لقد ارتكبت منظمته أخطاء فادحة كثيرة. أنا أعرف أنّه لم تكن له يد في الكثير منها، لأنّه أبعِد بعض الوقت عن مركزه. كما أنّ منظمته الأمّ قد ارتكبت هي الأخرى أخطاء كثيرة... وإنّ إلقاء اللوم على النّاس الآخرين والجماعات الأخرى لنْ يحلّ المشكلة. يجب عليّه أنْ ينظّم شؤون بيته. لقد كان صاحبنا في السّابق قادرا على التّمييز بين لهجة المنظمة الخطابيّة وحقائق الحياة. إنّي آمل ألاّ يفقد تلك القدرة.

حاول أيمز جاهدا وربّما بحماس أنْ يستخدم كامل قوّته لإظهار تعاطفه كي يدفع زين أنْ يقنع سلامة بإعادة التّواصل مع الوكالة. لا بُدّ أنّه افترض أنّ مصطفى سيطلع علي على نصّ تلك الرّسالة. تحتوي الرّسالة على عبارات تملق واضحة، لكنّه فيها أيضا تهديد صريح. إنّه يحاول أنْ يسترضي قائد مخابرات القوّة 17، وهي فئة ترى تل أبيب حليفة واشنطن، أنّها منظمة إرهابيّة. لقد كتب في تلك الرّسالة أشياء كانت ستحدث عاصفة إعلاميّة لو تسرّبت. لكنّه كان يثق بصديقه مصطفى وذلك الفلسطيني المدعو MJTRUST /2.

التّملق: «يجب أنْ يعرف صديقنا أنّه لا يزال له ولقضيّته أصدقاء في مواقع عليا».

التّهديد: «إنّ نشاطاته في أوروبا والتي تمّ توثيقها كافة، وخططه لتنفيذ عمليّات على أراضينا والتي نعرفها معرفة كاملة، سنقابلها وسنضرب بقوّة وسنكشفها لإحراج منظمته. هذه هي النّقاط التي نختلف عليها».

الرّجاء: «لو عمل على تحقيق أهدافه المباشرة، فلن تكون هناك مشاكل أو مصادمات. أتمنّى مخلصا أنْ تُتاح لنا الفرصة للحديث عن هذه الأمور. لقد حدثت أشياء كثيرة خلال السّنة الماضية، وأنّ حديثا جيّدا صريحا وطويلا سيضع الكثير من الأمور في نصابها».

معلومات تنظيميّة: «أعرف أنّ صديقنا لا يستطيع السّفر كثيرا، خاصّة إلى أوروبا، وأنا أعرف الأسباب. باستطاعتي أن ارتّب له سفرا آمنا إلى أيّة منطقة في أوروبا، لو أحبّ ذلك. ليس من الحكمة أنْ أسافر إلى بيروت لأنّ الكثيرين سيعرفون ذلك، وهو أمر سيلحق الضّرر في عملنا نحن الاثنين في هذا الوقت».

وأخيرا تحذير شخصي: «بلغ تحيّاتي لصديقنا واخبره أنّني اقترح عليه أنْ ينقل عائلته من بيروت، إنْ لم يكنْ قد فعل ذلك».

من الواضح أنّ أيمز على علم بخطط **الموساد** لاستهداف سلامة. فهم مصطفى مباشرة أنّ بوب يحذر «صديقهما» ويقترحَ انتقاله من شقته في شارع فردان. وفي ذلك الرّبيع، اطلع مصطفى سلامة على ما ذكره أيمز في رسالته بتاريخ 26 مارس عام 1972. كما أنّه اطلع عرفات عليها، فسخر من التّهديد واتّهم أنّ أيمز يعطي معلومات غير دقيقة لتخويف المنظمة. ردّ مصطفى على ذلك الاتهام بالقول: «إنّ بوب لا يُخبرني أيّة أكاذيب». كما أنّ سلامة تجاهل تحذير صديقه وبقي في شقّته في ذلك الشّارع.

لذلك قرّر مصطفى أنْ يقوم هو باتّخاذ بعض الإجراءات نيابة عن صديقه. ذهب في إحدى الأمسيات إلى فندق كومودور، حيث يلتقي الكثير من المراسلين الأجانب في بيروت، ويتبادلون القصص وهم يتناولون شرابهم. تعود ملكيّة الفندق إلى عائلة فلسطينيّة معروفة بتقديم المساعدات الماليّة السّخيّة لحركة فتح. يعرف مصطفى النّادل جورج وهو مسيحي فلسطيني، في الحقيقة عضو في

القوّة 17. لاحظ ذلك المساء وجود مراسل صحيفة الدّيلي ميل البريطانيّة يجلس عند البار. كان يعرف أنّه أحد العملاء الموثوقين للموساد في بيروت. لا يميل مصطفى إلى شرب الكحول، لكنّه قال لجورج «إنسَ بيرة الهاينكن وهاتِ لي كأسا من الوسكي!» صبّ له جورج كأسا من الوسكي، الذي كان في الحقيقة شايا اسود. وبعد فترة تظاهر بأنّ الخمرة قد «لعبت في رأسه» فبدأ يتحدّث بصوت مسموع إلى مراسل مجلة تايم أبو ريشه فقال، «دعني أخبرك سرّا. لدينا معلومات أنّ الإسرائيليين ينوون مهاجمة شقة على سلامة في شارع فردان، إلاّ أنّهم لا يعرفون أنّ هناك حراسة مشدّدة تطوّق البناية وفي داخلها. ستكون تلك المحاولة مفاجأة كبرى لهم».

بعد أقلّ من سنة، وفي مساء 9 أبريل 1973 نزل 17 من الكوماندوس الإسرائيليين على السّاحل اللبناني مستخدمين زوارق مطاطيّة سوداء من نوع Mark7 نقلتهم من سفينة حربيّة راسية على بعد ميلين من السّاحل. كانت المجموعة بقيادة عقيد أصبح فيما بعد رئيس وزراء حكومة إسرائيل هو إيهود برّاك. سُمّيت العمليّة ربيع الشّباب. نزلت المجموعة عند ساحل أحد الفنادق وانتقلت بسيّارات كانت معدّة سلفا مسافة خمسة أميال للوصول إلى قلب بيروت، واغتالت ثلاثة من قادة المنظمة الكبار في شققهم في شارع فردان. كانوا محمود يوسف النجّار (أبو يوسف). وهو محام اعتُبر في وقته الرّجل الثاني في حركة فتح. والآخر هو ممدوح عدوان وكان مهندس نفط وعضوا في اللجنة المركزيّة للحركة. أمّا الثالث فهم كمال ناصر المتحدّث الرّسمي باسم منظمة التّحرير الفلسطينيّة، وكان شاعرا معروفا. سكن عدوان وناصر في بناية واحدة، ليست بعيدة عن السّفارة الأمريكيّة. أمّا أبو يوسف فكان يسكن في عمارة مجاورة. اغتيل الرّجال الثلاثة بزخّات رصاص كثيفة، وقتلت أيضا سيّدة إيطاليّة تبلغ من العمر 70 عاما حين فتحت باب شقّتها في اللحظة الخطأ. كما استُشهد عدد من رجال الشّرطة اللبنانيين الذين لاحقوا الإسرائيليين وهم يفرّون بسيّاراتهم من مكان الجريمة بسرعة فائقة.

أصيبت القيادة الفلسطينيّة بالصّدمة، إذ كان عرفات في تلك الليلة نائما في شقة قريبة. لقد نجا لأنّ أحد حرّاسه سمع أصواتا خافتة تهمس بالعبريّة في

الشّـارع. أدرك ما كان يجري فأسـرع وأيقظ عرفات وهرّبه من باب خلفي إلى سيّارة نقلتـه إلـى مـكان آخـر. كاد يقع في قبضة الإسـرائيليين. كمـا أنّ أبو إياد رئيس أيلول الأسـود كان قد أمضى ليلة سـابقة في إحدى تلك الشّـقق. شـيّع ما يقارب نصف مليون شخص الشّهداء من القادة الفلسطينيين.

أصيب علي سلامة هو الآخر بالصّدمة من جرأة فرقة الاغتيال الإسرائيليّة. قال لأحد المراسلين اللبنانيين العاملين في صحيفة مندي مورننغ إنّ الاغتيالات «كانت نتيجة إهمال كامل، وهو ما يميّز العقليّة الشّرقيّة التي تؤمن بالقدر. تبعد شـقتي عن شـقة أبو يوسـف 50 مترا. لم يجرأ الغادرون الإسـرائيليّون أن يقتربوا منها لأنّه يحرسها 14 رجلا». كان يعرف أنّ الإسرائيليين كانوا يبحثون عنه تلك الليلة. أصرّ سـلامة على القول، «في معارك الأشـباح بيننا وبينهم، اسـتطعنا أنْ نسجّل بعض الانتصارات. لكنّ الحقيقة هي أنّ الفلسطينيين في النّهاية دائما في موقع الدّفاع، ولا مجال للمقارنة بين تسليحهم وتسليح خصومهم».

لم يكن مصطفى زين على علم بأنّ ثلاثة من قادة المنظمة الكبار يسكنون في الشّـارع نفسـه الذي تقع فيه شـقة سـلامة. بعد أنْ نفّذ الإسـرائيليّون عمليات الاغتيال فرّوا بسياراتهم المسرعة جدا (95 ميلا في السّاعة) فمرّوا جانب العمارة التي فيها شقته. ذكّر زين الخِتيار عرفات بتحذير أيمز حول نقل عائلة سلامة إلى مكان آخر، وأخبره أنْ يتحرّى ما قاله بالرّجوع إلى جورج وما دار ذلك المساء فـي فنـدق كومـودور على مسـمع من مراسـل صحيفـة الدّيلي ميَـل. ردّ عرفات بحدّة، «حسنا، من الآن فصاعدا، استمعوا لما يقوله بوب وكأنّه كلام منزّل».

غيّـرت عمليـة أيلول الأسـود خـلال دورة الألعاب الأولمپيّة في ميونخ كلّ شـيء. في مطلع شـهر يوليو من عام 1972كان أبو إياد يجلس في أحد مقاهي رومـا مـع عـدد مـن رفاقه حين قرأ في الصّحـف أنّ اللجنة الأولمپيّة الدولية لن تسمح باشتراك أيّ فلسطيني في الدّورة الصيفيّة التي كان من المقرر أنْ تبدأ في أغسطس لأنّه ليس لهم «وطن»، وسُمح للإسرائيليين بالاشتراك. انزعج أبو إياد من ذلك القرار انزعاجا شـديدا وخطر في ذهنه أنّ بليون شـخص حول العالم سيشاهدون لأوّل مرّة دورة الألعاب تُنقل على شاشات التّلفزيون، وسيكون هناك

حشد إعلامي كبير لتغطية الدّورة. قرّر أنّ أيلول الأسود يجب أنْ تفرض نفسها على ذلك الحدث العالمي. وكما أوضح فيما بعد للصّحفي الفرنسي أرك روايه الذي كان أحد مؤلفي كتاب عن سيرة حياته، كان الهجوم يهدف لتحقيق ثلاثة أهداف هي (1) إثبات الوجود الفلسطيني أمام العالم، سواء أحبّ ذلك أم لم يحبّ. (2) تأمين إطلاق سراح 200 مقاتل فلسطيني معتقلين في سجون إسرائيل. (3) استغلال الوجود الإعلامي الكثيف لإبراز المقاومة الفلسطينيّة، حسنا كان ذلك أم سيّئا.

كانت فكرة مهاجمة دورة الألعاب من بنات افكار أبو إياد وحده، لكنّه ترك مهمّة تفاصيل ذلك لرجال آخرين. كان محمود عوده المعروف باسم أبو داود هو المخطط الرّئيسي للعمليّة. لقد نظم خطة تهريب الأسلحة إلى ميونخ وخزنها هناك. سافر إلى هناك وزود الرّجال الثمانية الذين اختارهم بنفسه من بين مقاتلي أيلول الأسود بآخر التّعليمات. شارك في الإعداد للعمليّة عدد كبير آخر بينهم فخري العمري نائب أبو إياد في منظمة فتح. واستنادا لما جاء في تقرير أرون كلاين مراسل مجلة تايم في القدس، وكان نفسه ضابط مخابرات في الجيش الإسرائيلي، أنّ العمري هو من اخذ مفاتيح الشقة وجلب الأسلحة من مكان خزنها. يُعتبر كتابه، Striking Back: The 1972 Munich Olympic Massacre's Deadly Response من أوثق ما كُتب عن العمليّة وما حدث بعدها. يقدّر كلاين أنّ حوالى 100 شخص ساهموا في العمليّة، أغلبهم من الطلبة الفلسطينيين واللاجئين الذين يعيشون في أوروبا، ممّن ساعدوا أيلول الأسود في تنفيذ عمليّتها ذلك الصّيف.

قبل شروق الشّمس يوم 5 سبتمبر 1972 تسلل 8 عناصر من أيلول الأسود إلى الجناح الذي يشغله الرّياضيّون الإسرائيليّون في القرية الأولمپيّة. قتلوا اثنين منهم عندما اقتحموا الجناح واخذوا التّسعة الآخرين رهائن. في البداية، أخبر الفدائيّون السّلطات الألمانيّة بأنّهم سيطلقون سراح الرّهائن مقابل إطلاق سراح 234 فلسطينيًّا في السّجون الإسرائيليّة. طلبوا بعد ذلك، طائرة تنقلهم والرّهائن إلى القاهرة. وافق الألمان، إلاّ أنّهم اعدّوا لهم كمينا في المطار لم يُحسن إعداده. هاجم الجنود الألمان الفدائيين، فقام هؤلاء واطلقوا النّار على

الإسرائيليين التّسعة فقتلوهم جميعا مستخدمين الرّشّاشات والقنابل. قُتل خمسة من الفلسطينيين، وبعد مرور ساعة تمكّنت السلطات الألمانيّة من اعتقال الثلاثة الآخرين. (حسب علمي شاركت وحدة إسرائيليّة في إفشال العملية، وساهمت في شنّ الهجوم على الفلسطينيين في المطار - المترجم)

كانت عمليّة ميونخ تراجيديا دمويّة وأنّها مثال متكامل لكلّ النّتائج التي لم تكنْ في الحسبان. قال أبو إياد عنها، «كانت مأساة للإسرائيليين ولنا أيضا». لقد خُطط لها لتكون دعاية واسعة وليس عمليّة انتحاريّة، ولم يُتوقع منها مقتل الرّياضيين الإسرائيليين. لقد أمل أبو إياد ومعه أبو داود بأنّ فدائيي أيلول الأسود سيطيرون إلى القاهرة بصحبة رهائنهم بأمان، وستعقب ذلك مفاوضات من أجل تبادل الرّهائن الإسرائيليين بالمعتقلين الفلسطينيين. وبدلا من ذلك، أصبحت العمليّة عارا لطّخ وجوه كافّة الفلسطينيين وشرفهم، وأصبحوا في أعين العالم إرهابيين متعطشين لسفك دماء النّاس الأبرياء.

يقول براين جنكنز الخبير الأمريكي في شؤون الإرهاب «إنّ الإرهاب عمليّة مسرحيّة». وما يقصده في قوله هذا إنّ الإرهابيين «يرغبون أنْ يراقبهم ناس كثيرون ويستمعوا لما يقولون، لكنّهم لا يريدون موت الكثير منهم». وبهذا المعنى كانت ميونخ مسرحيّة فاشلة، أتت على الفلسطينيين بشهرة سيئة ونجم عنها مقتل أبرياء.

أعطت ميونخ إسرائيل عذرا لكي تقوم بعمليّات ثأريّة. فبعد ثلاثة أيّام من وقوع العمليّة قصفت الطائرات الإسرائيليّة مخيّمات الفلسطينيين في لبنان فقتلت ما يقرب من 200 شخص، أغلبهم من المدنيين غير المسلّحين. كما قتل 45 فلسطينيًّا آخرين على يدّ القوّات البرّيّة الإسرائيليّة في جنوب لبنان. بتاريخ 15 سبتمبر 1972 أقرّت غولدا مائير برنامجاً للاغتيالات أطلق عليه عمليّة غضب الرّبّ، واستهدف فلسطينيين لم تكنْ لهم علاقة بأيلول الأسود ولا عمليّة ميونخ. لقد استعملت إسرائيل أسلوب الاغتيالات في الماضي كسياسة للردّ على العمليّات الإرهابيّة، ولكن خلال السّنة التالية فإنّ 10 أشخاص عرب قيل أنّ لهم علاقة بعمليّة ميونخ تمّت تصفيتهم تدريجيّا في باريس ونيقوسيا وبيروت

وأثينا والنّرويج. لقد بدأت أيلول الأسود حربا شخصيّة جدّا.

يشير عدد من التّقارير أنّ الموساد وضع علي سلامة على قائمة المطلوبين الذين يجب تصفيتهم لمسؤوليتهم عن قتلى ميونخ. يقول كلاين في كتابه المشار اليه، «إنّ عددا من قادة الموساد السّابقين وضبّاط المخابرات العسكريّة أكّدوا من خلال الأحاديث معهم أنّ المعلومات التي لديهم تشير إلى أنّ مساهمته كانت كبيرة ومتنوعة». لكنّ كلاين كتب أيضا أنّ كلاً من أبو داود وتوفيق طيراوي، الذي شغل سابقاً موقع مساعد أبو إياد، ناقضا تلك الإتّهامات وقالا إنّ سلامة كانت له مساهمة في خمس عمليّات في أماكن مختلفة، وأنكرا أيّ دور له في ميونخ.

غير أنّ هناك تقارير مختلفة عن الموضوع. يضع الكاتب سيمون ريف مؤلف كتاب One Day in September سلامة في مطعم محطة قطار ميونخ مساء يوم 4 سبتمبر بصحبة أبو داود وهما يزوّدان الفدائيين الثّمانية بالتّعليمات النّهائيّة. ثمّ يمضي ريف للقول إنّ سلامة غادر بعد ذلك متوجّها إلى برلين الشّرقية حيث انشأ غرفة قيادة في شقة... بعلم سلطات ألمانيا الشّرقية. ادّعى الكاتب أنّ مصدر قصته عنصر مخابرات إسرائيلي لا يمكن البوح باسمه. وفي كتاب مايكل بارزوهار بالاشتراك مع إيتان هابر الذي صدر عام 1973 بعنوانThe Quest for the Red Prince لمْ يشيرا إلى أيّ مصدر، ولكن كان واضحا أنّ بعض عناصر الاستخبارات الإسرائيليّة قد تعاونوا معهما. إنّ كتاباتهما عام 1982 هي التي جاءت عليه بتسمية «الأمير الأحمر». قاما بتصويره على أنّه القائد الفعلي لهجوم ميونخ، حيث قالا «إنّه كان ساهرا في مخبأه في ألمانيا الشّرقيّة عندما بدأ الفدائيّون هجومهم على الجناح الإسرائيلي. كما أنّهما ذكرا أنّ ياسر عرفات قد احتضنه لدى عودته إلى بيروت قائلا، «إنّك ابني الذي أحبّه!» لربّما زوّق بارزوهار وهابر ذلك الجزء من قصّتهما، لكنّهما بالتأكيد عكسا بشكل دقيق ما كان الموساد يحبّ أنْ يعتقد حول سلامة(*).

(*) ظهرت الإتّهامات بأنّ سلامة كان في ميونخ، وأنّه خطط للعمليّة، أوّلا في كتاب نشره مراسل مجلة تايم ديفد تنن بالإشتراك مع دغ كرستنسن بعنوان The Hit Team الذي نشرته دار دل عام 1976. لا يحتوي الكتاب على أيّة مصادر إطلاقا، لكنّه أصبح بشكل واضح مصدرا عن كلّ القصص المثيرة عن سلامة التي روّجها بارزدهار وهربر في كتابهما The Quest for the Red Prince.

إنّ الأدلّة افتراضيّة في أحسـن الأحوال. في أواخر السّبعينات أخبر ضبّاط المخابـرات الإسـرائيليين الصّحفييـن الغربييـن «أنّ لديهـم مستمسـكات عـن محادثات تلفونيّة تمّ اعتراضها من قبل السّلطات الألمانيّة بين سلامة في برلين ومنفذي العمليّة. تثبت أنّه كان هناك حين جرى الهجوم». يقول مئير هارل ضابط الموسـاد في ذلك الوقت والذي أصبح فيما بعد المدير العام، «من المؤكّد أنّه كان ضمن المخططين. ليس عندي شكّ في ذلك. ولكن هناك نقطة هامة. كان علي حسن سلامة من جهة يتحدّث مع الأمريكيين، ومن جهة أخرى كان يخطط لتلك العملية. لا بُدّ أنّ نسبة الأدرينالين في دمه كانت عالية جدّا».

اعتقـد بعـض منتسـبي الوكالـة ممّن كانت لهم علاقة بسـلامة بصحة رواية الموساد. يقول سام وايمن الذي حلّ محل أيمز في علاقته مع سلامة، أنّ الأخير بالتأكيـد كان مسـاهما. ثـمّ أضـاف، «إنّه مخطط تكتيكي. لقـد ذهـب إلى ميونخ ودرس القرية الأولمبية. أبو داود كان مخططا إسـتراتيجيا. كانت الفكرة فكرته، لكنّ سلامة وضعها موضع التّنفيذ. إنّ بوب أيمز يعلم أنّ علي سلامة له علاقة بما جرى في ميونخ، وأنّ سلامة نفسه يعلم أنّني أعرف بمساهمته في العمليّة. لكنّنا لم نتطرق للموضوع في أحاديثنا معا».

ربّما يكون وايمن على خطأ. فهو لم يواجه سـلامة إطلاقا بقضيّة ميونخ. كمـا لا يتذكّـر أنّـه أثـار الموضـوع مع أيمز أيضا. لربّما افترض أنّ ما يُشـاع عن سلامة وميونخ في العديد من الدّوائر الأمريكيّة والإسرائيليّة هي الحقيقة بعينها. أمّـا مصطفـى زيـن فلـه قصـة يقول فيهـا، «إنّ بوب اعتقد أنّ سـلامة كان خلف العمليّـة، ولذلـك اعتقد أنّه سـوف لن يشـاهد علي إطلاقا حتّـى ولو بعد مليون سـنة. لكنّه عرف فيما بعد من مصادر داخل منظمة التحرير شـيئا مختلفا، وهي معلومات أقنعته أنّ علي لم يكن مسؤولا شخصيّا»، كما يؤكّد زين بإصرار. ثمّ يمضـي للقـول، «إنّ مهمّـة علي كانت أنْ يتصيّد أعضاء الموسـاد، وأنّ القوّة 17 لم يكنْ لها أيّ دور في ميونخ. شرح في سيرة حياته غير المنشورة بعد بعنوان Deceit with Extreme Prejudice. فيقول «إنّني لا أحاول وضع هالة من القدسيّة على رأس سلامة، ولكن ما أحاول أنْ أوضحه أنّه قام بعمليّات عدّة كان بعضها دمويّا جدّا، ولكنّها كانت تركّز على عدم إلحاق الأذى بالمدنيين».

لم يتحدّث سلامة بدوره عن ميونخ بشكل علني، غير أنّ أخته نضال قد أخبرت الصّحفي البريطاني پيتر تيلر أنّها واجهت أخاها بالموضوع، «عندما سمعتُ عن ميونخ سألته مباشرة. كنت سمعت هنا وهناك أنّه خلف العمليّة ولم أصدّق ما سمعت. كان ردّه بالنّفي القاطع». وذكر تيلر أيضا انّ أمّ علي سلامة سألت ولدها عن العمليّة فأنكر علاقته بها. قال لها «أنا ضدّ قتل المدنيين، ولا أؤمن بمثل هذه العمليّات».

ومع ذلك بقيت ميونخ جزء من أسطورته، ولربّما أدرك أنّها جعلته مستهدفا بشكل دائم. وكما يقول جورج جونَس مؤلف كتاب Vengeance، وهو كتاب آخر عن مأساة ميونخ ظهر في عام 1984 «في العمليات المضادة للإرهاب كما هي الحال في عمليات الإرهاب ذاتها، تأخذ الأهداف العسكريّة المرتبة الثانية خلف الأهداف الرّمزيّة. بمعنى آخر، إنّ اغتيال سلامة مساو للاستحواذ على راية العدوّ».

أصبح سلامة رمزا حيّا للقتلة في ميونخ وتحوّل إلى إيقونة لكلّ من الفلسطينيين والعرب. في داخل الموساد أضحى قتله فكرة تستحوذ على أفراد المؤسّسة على نحو مقلق غير سويّ. حاولت المخابرات الإسرائيليّة تصويره بأنّه الشّيطان نفسه. قالوا عنه، «هو رجل له قوّة فكر الشّيطان وتصميم المؤمن». وطبعا لم يكنْ هو من النّوع الذي يلتمس الأعذار. أوضح أنّ عمليّات أيلول الأسود ناجمة عن اليأس لكنّها ردّ ضروري على الهزيمة التي لحقت بالفلسطينيين في الأردن بين عامي 1970 و1971. كان صريح العبارة حول طريقة تفكيرهم. «وضعونا في ذلك الوقت تحت ظروف تعتيم، تعتيم مرهب. كان يجب أنْ ننتصر على ذلك التعتيم، وقد فعلنا ذلك. لقد انفجرنا على المسرح العالمي، وتجاوزنا التّعتيم لنخبر العالم إنّنا هنا، حتّى وإنْ تمّ اجتثاثنا من الأردن بشكل مؤقت. لقد نظر العالم إلينا كإرهابيين، ولم ينظر إلينا كثوريين. لكنّ الحقيقة هي أنّنا نخوض صراعا ثوريّا وجوديّا». في رأيه، إنّ الإرهاب الثوري شيء فعّال. لقد احتل الفلسطينيّون العناوين الرّئيسيّة حول العالم وكان واضحا أنّهم لن يتخلوا عن قضيتهم.

كما اعتقد أيضا أنّ «الصّراع الثّوري» سينتهي على طاولة المفاوضات. فقبل

وقت سـابق جدّا لعمليّة ميونخ، وبالذات في أواخر السّـتّينات، كان يتناقش مع صديقه مصطفى حول الصّراع المسـلح. كان زين يريد أنْ يعرف «ما هي نهاية اللعبـة؟» أجابـه علـي «يجب أنْ ينتهي الموضوع بالمفاوضات والحلّ السّياسـي العادل لكلي الطرفين، نحن والإسرائيليين».

من الغريب أنّه بعد مأساة ميونخ بقليل، قامت وكالة المخابرات الأمريكيّة بمحاولة أخرى لتجنيد سلامة كعميل. لم يساهم أيمز ثانية بهذه المحاولة، ولكنْ كان هناك شاهد عليها هو زوجة سلامة نفسه. أخبرت نشروان شريف الصّحفي تيلر، «شاهدت احدهم يعطيه شيكا لم يُكتب عليه مبلغ معيّن، وقال له أنْ يكتب ما يشـاء. غضب زوجي. غضب جدّا لأنّ ذلك كان إهانة قويّة له. رمى الشّـيك وغادر الغرفة. لم يكنْ يريد أنْ يكون عميلا لأحد مهما كان، وليس للأمريكيين فقط. كان يخبرني دائما أنْ لا أحد في العالم يمكن أنْ يعطيه أيّ شيء لا تعطيه إيّـاه ثورتـه. لـم يكـن يقصد المال، بل يقصد القناعة والكبرياء اللتين يتمتّع بهما نتيجة النّضال من أجل وطنه».

غادر ضابط الوكالة الذي جاء بالشيك بيروتَ خالي الوفاض. للمرّة الثانية، تصرّف سـلامة بشـكل واضح أنّه رجل يملك قدره، وأزعجوه بتصرّفهم. بدا له أنّ هدف الوكالة هو تجنيده، وليس قضيّته.

رغم ذلك لم يتخلّ أيمز عن استعادة صداقته مع سلامة إلى سابق عهدها، لكنّه علم جيّدا أنّ المحاولة الفظة بمنحه شـيكا مفتوحا قد عقّدت المحاولات لفتح قنوات الاتصال معه. كانوا أغبياء، لأنّ محاولات شـراء سـلامة بدولارات الوكالـة قـد أغضبت الشّـاب الفلسـطيني. لكنّ أيمز فهم أيضـا أنّ الوكالة بذلك العمـل قـد عرّضـت حياة سـلامة للخطر. فهو يعـرف أنّ منظمة التحرير مفتوحة للمخابرات الأجنبيّة، ومن المؤكّد أنّ للمخابرات العربيّة والسّوفيتيّة والإسرائيليّة عمـلاء داخلهـا، وبإمكانهـم أن يكتبـوا تقارير عنه وعـن اتّصالاته المختلفة، وأنّ محاولة تجنيده كعميل للوكالة الأمريكيّة ستظهره بمظهر الخائن للثّورة.

في أواخر عام 1972، وبعد أسـابيع من ميونخ، التقى أيمز بمصطفى الذي صـبّ جـام غضبـه. بـدا وكأنّ الأمـور بدأت تفلت من عقالهـا، وهو الأمر الذي

ترك مرارة في نفسه. بعد عدّة أشهر من الصّمت المطبق، كتب رسالة طويلة إلى مصطفى، «لا أريد أنْ أوضح السّبب في صمتي خلال الأشهر الماضية بشيء من التّفصيل. لكنّني ما زلت اعتبرك صديقا، وليس حريّا بالأصدقاء أنْ يعتذروا عن أفعال خارجة عن إرادتهم. كما أنّه ليس بإمكاني قول الكثير خشية أنْ تُفتح الرّسالة.» شكا له «أنّ بعض الأشياء التي عبّرت عنها في بيروت لم تكن عادلة، لكنّني أعرف دوافعك لذلك». كان أيمز لا يزال منزعجا لما عرفه بعد مأساة ميونخ. «ما آلمني أعمق هو تعليقات علي،» حسب ما كتبه لزين. «اعتقدت أنّنا نفهم بعضنا البعض. صحيح أنّنا مهنيين، ولكن لديّ وفاء شخصي لأصدقائي. وهذا الوفاء يتجاوز حتّى حدود العمل».

اعترف أيمز قائلا، «لقد نقلت الكثير عن علي وأنا متأكّد أنّه فعل الشيء نفسه عنّي وقدّمه لمنظمته. ما كتبته كان وديّا وتفصيليّا لأنّني أردت من زملائي هنا أنْ يفهموه ويفهموا دوافعه ومنظمته. إنّ ما كُتب كان قد كُتب في وقت كانت لنا فيه آمال كبار. ولسوء الحظّ لم نرَ تحقيق تلك الآمال، وهكذا افترقنا ونحن نشعر بالمرارة. ولكنْ على أيّة حال، لم أتخل تماما عن آمالي، ما زلت محتفظا بها حتّى اليوم».

لكنّه يعترف أنّ ما حدث في ميونخ قد غيّر كلّ شيء. «عدت إلى واشنطن وأنا مستعدّ لعمل شيء ما، وفي الواقع حققت بعض التّقدم. ثم جاء سبتمبر وعمليّة ميونخ. لو وضعنا جانبا الدّوافع لمثل هذا العمل ومشاعري الخاصّة، فالحقيقة هي أنّ ذلك الفعل قد وضع الجميع هنا إلى جانب الطّرف الآخر، وأنّ الضّرر لا يمكن إصلاحه. إنّ التّوقيت والمكان، وليس العمليّة بحدّ ذاتها، هما من تسبّبا في ذلك الضّرر الفادح. وبعد كلّ الذي جرى، فلن يوجد أحد هنا مستعدّ للاستماع إطلاقا لأيّة مبرّرات. كلّ مشاعر التّعاطف قد تبخّرت في الهواء. والكلّ متّفق على أنّ عملا كهذا يجب ألاّ يتكرّر».

سبّبت العمليّة جيَشانا في لانغلي. إنّ مشهد الضّحايا من الرّياضيين الإسرائيليين وهم يُقتلون على شاشات التّلفزيون أمام أنظار العالم اجبر الوكالة على تبادل المعلومات مع الموساد بشكل أكبر وأوسع. أصيب أيمز بالذهول وهو يراقب ما حدث. كتب إلى زين يقول، «لقد اطلعت على تقارير عدّة عن

علي وخاصّة من الموساد، وصدّقني أنّ التّفصيلات مذهلة، علما بأنّها تحتوي الكثير عنّي والتي مصدرها منظمته فقط. أنا على ثقة بأنّ الكثير هنا قد اطلعوا على تلك التّقارير، رغم إنّي لست متأكّدا من ذلك تماما. وأنت تعرف أنّ علي ليس شخصا غير معروف».

حدث تسريب للمعلومات واعتقد أيمز أنْ المصدر هو منظمة التحرير، وهو عنى أنّ للموساد عملاء داخل المنظمة، وهم كانوا يبعثون معلومات عن سلامة واتّصالاته بأيمز. أصرّ زين أنّ الوحيد الذي يعرف شخصيته هو عرفات. لكنّه كان من الممكن أنّ بعض مصادر الوكالة قد ابلغوا الموساد عن العلاقة الخلفية بين الاثنين. لربّما كان التّسريب أمراً مقصوداً.

ولكنْ على أيّة حال، فإنّه في شهر فبراير عام 1973 كانت قنوات الاتّصال معلّقة تماما. لم يشاهد أيمز صديقه سلامة منذ شهر مايو أو حزيران من عام 1971 قبل نقله إلى واشنطن بفترة قصيرة. كان الاتّصال الوحيد بينهما يجري عن طريق زين. حاول أيمز بشكل متكرّر أنْ يعيد العلاقات إلى سابقها، لكنّ عمليّة ميونخ أوقفت حتّى تلك الاتصالات. اقنع أيمز نفسه بأنّ سلامة لم تكن له يد في العمليّة وكان يرغب جدّا في لقائه واستجلاء الأمر منه شخصيّا. يبدو أنّ علي خشي عودة الاتصالات لأنّه خاف أنّهم سيحاولون تجنيده من جديد، وأسوأ من ذلك ربّما «تصفيته» لعناده ورفضه. تعرّض أيمز لتلك المخاوف مباشرة في رسالة إلى زين بتاريخ 10 فبراير 1973 إذ كتب يقول، «لو كان يعتقد إنّني أو الوكالة نرمي اغتياله فهو على خطأ، وعليه أنْ يعرف ذلك دون حاجتي للتأكيد. هذا تأثير ما يقرأه في الكتب الدّعائيّة، لأنّ منظمتي لا تستهدف الأفراد. صحيح أنّنا نتصرّف أحيانا بشكل ارعن، ولكنْ ما أقوله هو الصّحيح».

اخبر أيمز زين أنّه يخطط أنْ يكون في بيروت بتاريخ 24 فبراير وثانية بتاريخ 9 مارس «وهناك الكثير ممّا أودّ إخبارك به، لكنّي لا أستطيع وضع ذلك على الورق. كما أنّ بودّي أنْ أقابل علي في أيّ مكان يختاره، وإنّي مستعدّ للإجابة عن أيّ سؤال في ذهنه شخصيّا. وإذا كان يودّ «قتلي» فتلك فرصته، بالرّغم من أنّني اعتقد أنّنا فوق مثل هذه الأشياء».

في الأسـبوع الثّاني من شـهر مارس 1973، اسـتطاع أيمز استئناف الاتّصال بسلامة. التقينا في بيروت بعد فترة قصيرة من استيلاء خمسة مقاتلين من أيلول الأسـود علـى مبنى السّـفارة السّـعوديّة فـي الخرطوم أثناء حفـل توديع للملحق الأمريكي جورج كورتس مور. أصيب السّفير الأمريكي كليو نويل بجراح عندما اجتاح الفدائيّون قاعة الاحتفال. اخذوا الجميع رهائن، وطالبوا بإطلاق سراح أبو داود من السّجن الأردني. كان هذا قد وقع منذ فترة في يد المخابرات الأردنيّة وقاموا بتعذيبه بشـكل وحشـي. طلب ياسـر عرفات من الأردنيين إطلاق سـراح رفيقـه، لكـنّ الطلـب رُفـض. قام أعضـاء الجماعة بتاريخ 2 مـارس 1973 باقتياد السّفير نويل والملحق كورتس مور ودبلوماسي بلجيكي إلى قبو السّفارة وقاموا بإعدامهم رميا بالرّصاص. حظي هذا القتل بإدانة عالميّة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ أيمز قد صُدم بوحشيّة أيلول الأسود وقتل الدّبلوماسيين الأبريـاء بـدم بـارد، لكّـن ذلـك لم يوقفه من مقابلة سـلامة لأنّه يعـرف أنّه ليس مسـؤولا شـخصيّا عمّا جرى. كان سـلامة في الكويت وليس في الخرطوم وقت الحادثـة. اخبـره زيـن فيمـا بعد أنّ العمليّة كانت محاولة اختطاف نظّمها أبو إياد للحصول على بعض الملايين من الدّولارات السّعوديّة(*). غير أنّ ذلك لم يهدئ من روع أيمز وغضبه. لقد قتل سفّاحو المنظمة دبلوماسيين أمريكيين. ليس لدينا نصّ لما دار بين الاثنين في ذلك اللقاء. ربّما تمّ تبادل بعض الاتّهامات القويّة والكلمـات الجارحـة. أو علـى الأغلـب، جلس أيمز بهدوء يسـتمع لتوضيح من سلامة.

نعرف أنّ سلامة اخبر أيمز، «لقد أثبتت عمليّة الخرطوم أنّ على الحكومة الأمريكيّـة أنْ تأخـذ عمليّـات الفدائيين الإرهابيّـة على محمل الجدّ...» وفقا لما جاء في مذكّرة كتبها أيمز فيما بعد حول ذلك اللقاء. دافع سلامة بشكل ضمني عن عمليّة الخرطوم ووصفها بأنّها شرّ لا بُدّ منه. «لم تكن هناك محاولة للابتزاز، لأنّ الرّهائن كانوا سيُقتلون على أيّة حال». غير أنّه أكد لأيمز أنّ عمليّة الخرطوم

(*) ادّعت الحكومة الأمريكيّة فيما بعد أنّ لديها ادلّة تظهر أنّ عرفات قد وافق على العمليّة شخصيّا. تشير برقيّة من الخارجيّة الأمريكيّة بتاريخ 13 مارس 1973 «إنّ قائد فتح عرفات قد وُصف في تقرير حديث للمخابرات بأنّه أعطى موافقته لتنفيذ عمليّة الخرطوم قبل البدء بتنفيذها».

سوف لنْ تتكرّر. «لا يُخطط الفدائيّون لملاحقة الأمريكيين، ولا مصالحهم».

قد يستغرب بعض الأمريكيين أنّ ضابطا في الوكالة اختار أنْ يجتمع مع سلامة بعد أنْ قتلت منظمته دبلوماسيين أمريكيين. سُئِل پيتر تيلور احد ضباط الوكالة ممّن تعامل مع سلامة إذا كانت أمريكا «تتعامل مع إرهابيّ». أجاب الضّابط «اعتقد أنّنا كنّا كذلك، ولكن من جهة أخرى فإنّنا نتعامل مع أصناف كثيرة من النّاس. لا شكّ أنّ تلك منطقة رماديّة. وبالتّأكيد فإنّ هذا ما يقوم به ضبّاط الوكالة دائما وهو التّعامل مع الأشرار». في إحدى المرّات قال أحد ضبّاط العمليّات السّريّة، «من المؤكّد أنّك تتناول العشاء مع الشّيطان، ويجب أنْ تكون مستعدّا لاستعمال ملعقة طويلة».

يوفّر بعض الأشخاص الأشرار أحيانا معلومات مخابراتيّة نافعة للوكالة. في مطلع السّبعينات، تلقت الوكالة معلومات غير مؤكّدة أنّ المنظمة تخطط لاغتيال الرّئيس نيكسون. بعث أيمز رسالة مستعجلة إلى سلامة يستوضح الأمر. حقق الأخير بالموضوع واجتمع مع أيمز ومدير محطة الوكالة في بيروت جين برغستولر في فندق بدفرد، وأخبرهما أنّ الموضوع ليس أكثر من إشاعة طبخها رجل أعمال ليبي اسمه الخضيري الذي تمّ إلقاء القبض عليه في روما خلال محاولته تهريب 15 كيلوغراما من الهيروين. استنادا لما أفاد به عضو القوّة 17 محمد ناطور (أبو طيّب) «أنّ الشّخص الليبي قد اختلق القصّة ليخلص نفسه من السّجن». أخبر الليبي المخابرات الإيطاليّة أنّ علي سلامة يخطط لاغتيال الرّئيس نيكسون خلال زيارته القادمة إلى أوروبا. أوضح سلامة أنّه يعرف الخضيري كرجل أعمال ثري جدّا يعيش في سويسرا. استثمر الخضيري مبلغ 200000 دولار في مشروع المطعم الدّبلوماسي الذي تمتلكه القوّة17 في روما. وتأكّدت الوكالة أنّ ما قاله سلامة صحيح تماما.

في الوقت نفسه كانت إسرائيل تضرب أيلول الأسود بعمليّات انتقاميّة. يقول أحد ضبّاط الموساد «بعد ميونخ قمنا باغتيال كثير من الأشخاص، واعترف أنّ بعضهم لم يكونوا أفرادا مهمّين، لكنّهم دفعوا الثمن بحياتهم». بتاريخ 16 أكتوبر 1972 قتل مسلحان وائل عادل زعيتر الذي قيل أنّه كان ممثلا لمنظمة التّحرير

في روما. بتاريخ 8 ديسمبر من العام نفسه اغتيل محمود همشري في باريس حين انفجر جهاز التّلفون في وجهه. بتاريخ 24 من عام 1973 اغتيل حسين البشير ممثل فتح في نيقوسيا بوضع قنبلة انفجرت تحت سريره. يشير تقرير للنيويورك تايمز وغيرها من وسائل الإعلام أنّ الرّجال الثلاثة «قد لعبوا أدوارا سريّة» في مجزرة ميونخ. وفي الحقيقة نحن نعرف الآن أنه لم تكن لأيّ من هؤلاء الأشخاص علاقة بتلك العمليّة.

إنّ اغتيال وائل زعيتر بشكل خاص بدا مثيرا للانزعاج. رسم آرون كلاين في كتابه Striking Back صورة مقنعة أنّ الضّحيّة كان مثقفا يحبّ الموسيقى وقراءة الكتب. وفي وقت اغتياله كان مواظبا على ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة إلى الإيطاليّة. كان يعمل مترجما مؤقتا في السّفارة الليبيّة في روما، وكان دخله منخفض جدّا لدرجة أنّه تمّ قطع خدمات الهاتف عن شقته. وُلد زعيتر في نابلس ومن الطبيعي أنّه كان متعاطفا مع القضيّة الفلسطينيّة، وأنّ نشاطه السّياسي ربّما لم يكن يتجاوز أكثر من المشاركة في تظاهرة سيّاسيّة ما. كان يتوفّر للموساد عنه دليل افتراضي عن علاقة بإحدى العمليّات، وهي انفجار حقيبة سفر في طائرة العال بتاريخ 16 أغسطس 1972. تمكّن قبطان الطائرة من العودة والهبوط بسلام في مطار روما دون وقوع ضحايا. قامت السّلطات الإيطاليّة بالتّحقيق مع المئات من الطلبة العرب المقيمين في روما، وكان زعيتر واحدا ممن استُجوبوا وأطلق سراحهم مباشرة. كان ذلك الاستدعاء دليلا كافيا للموساد بأنّه مذنب في ارتكاب شيء ما.

يقول كلاين في كتابه المذكور «اعتُبر ذنب زعيتر حقيقة واقعيّة، غير أنّه في عام 1973 اخبر الميجر جنرال أهرون ياريف مستشار غولدا مائير لشؤون الإرهاب، محطة البي بي سي، «بقدر ما أتذكر كان له، أي زعيتر، دور في النّشاطات الإرهابية، ليس في العمليّات ذاتها ولكن تأمين المساعدات، لنقل أنّها نشاطات مساعدة. ويجب أنْ تتذكّر الموقف في ذلك الوقت. كانت نشاطاتهم مستمرّة واعتقدنا في وقتها أنّ أفضل طريقة هي وقفها، لأنّنا لم نكن نرغب أن نتركهم يقتلون النّاس. كنّا نقتل من كان في موقع القيادة، وكانت خطة ناجحة في النّهاية. لقد أثبتت نجاحها». توصّل كلاين إلى قناعة بأنّه لم تكن توجد لزعيتر

أيّة علاقة بعمليّة ميونخ. في الحقيقة استنكر زعيتر علنا استخدام العنف، ويقول كلاين «إنّ اغتياله كان خطأ». استعملت الموساد حقها «في الانتقام» لميونخ عذرا وراحت تضرب الفلسطينيين بشكل أعمى، وهؤلاء ناس جريمتهم التّعاطف مع القضيّة الفلسطينيّة. لقد حاربت الموساد الإرهاب بنموذجها الخاصّ منه.

كان باسل الكبيسي التّالي على قائمة اغتيالات إسرائيل. وهو العراقي الذي قابله أيمز بين عامي 1967–1968 في عدن عندما صادقه لاستحصال المعلومات منه. كان لهما اهتمام مشترك بتاريخ حركة القوميين العرب. ربّما حاول أيمز تجنيد الكبيسي، ولكن على الأغلب أنّ العلاقة بينهما اقتصرت على الصّداقة، ووصفها أيمز بأنّها «علاقة بمصدر مطلع». وما من شكّ أنّه بعث بالمعلومات التي حصل عليها من هذا المصدر إلى المركز في لانغلي، لكنّنا لا نعرف إنْ كان قد أعطاه اسما سريّا.

حصل الكبيسي على الدّكتوراه عام 1971 من الجامعة الأمريكيّة في واشنطن، انتقل بعدها إلى بيروت حيث عمل محاضرا مؤقتا في الجامعة الأمريكيّة. انضم إلى الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، الذي اعتبره في طليعة المثقفين الشّباب في صفوف الجبهة. «كان باسل قوميّا عربيّا، وبالتأكيد أنّه لم كان ميّالا للعنف»، على حدّ قول الأستاذ الذي اشرف على أطروحته، الدّكتور عبد السّعيد عزيز. «كان شابّا متزن السلوك، يركزّ على عمله ويوليه جلّ اهتمامه، ولم يكنْ مطنبا في كلامه».

والآن وهو في سنّ الأربعين ويرتدي البدلات الجميلة ويتحدّث بطلاقة ثلاث لغات هي العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، سافر مستعملا جواز سفره العراقي ولم يكنْ مسلحا، أو عمل أيّ شيء سرّا. في فصل الرّبيع الذي أرسلته فيه الجبهة إلى باريس «كان يقوم بجولة في أوروبا لإطلاع الأحزاب اليساريّة هناك على وجهة نظر الجبهة الشّعبيّة». كان أكاديميّا دمثا مصقولا، ورجلا يمكنه أنْ يعرض الوجه «الحضاري» للجبهة. عاش بتواضع، حسب ما ورد في التّقارير، وكان يقطع شوارع العاصمة الفرنسيّة مشيا ليوفّر تكاليف النّقل. لم يكنْ على علم بأنّ عملاء الموساد كانوا يتربّصون به ويعرفون مكان إقامته في أحد الفنادق. في ساعة متأخّرة من مساء 6 أبريل 1973، اعترضه اثنان من الإسرائيليين قرب كنيسة

مادلن التي تبعد قليلا عن فندقه، ولوحا برشاشي بيريتا مزوّدين بكاتمي الصّوت. صاح الكبيسي «لا لا لا» قبل أنْ يتمكن العميلان من حشو رأسه وصدره بتسع رصاصات من عيار 22، ثمّ تابعا سيرهما بهدوء. قالت الشّرطة الفرنسيّة «إنّ الاغتيال قد تمّ بدقة وبراعة لا يجيدهما إلا المحترفين». نقلت نيويورك تايمز عن أحد موظفي السّفارة العراقيّة قوله، «إنّ الكبيسي مثقف ثوري معروف بمواقفه المعادية للصّهيونيّة». أمّا صحيفة واشنطن پوست فنقلت عن أحد رجال الشّرطة أنّ العملية كانت قضيّة إعدام علني في أحد شوارع العاصمة. وجد رجال الشّرطة في غرفته مبلغ 1000 دولار وتسعة جوازات سفر مختلفة. يبدو أنّه في الأشهر الأخيرة التي سبقت اغتياله قد قام بسفرات عديدة داخل أوروبا وكندا.

ربّما لم تعرف الموساد أنّها اغتالت شخصا كان لا يزال على علاقة بمصادر وكالة المخابرات المركزيّة. كان باسل رائد الكبيسي معروفا لدى الإسرائيليين بأنّه عضو نشط في منظمة جورج حبش. ورد في أحد التّقارير أنّه رئيس قسم العمليّات في أوروبا. بالتّأكيد أنّه عضو في الجبهة الشّعبيّة، وفي أعين الموساد دليل كاف على تصنيفه كإرهابي. بعد اغتياله، قالت وكالة الأنباء الفلسطينيّة في بيروت إنّه كان يترأس وفدا من الجبهة للتّفاوض مع المسؤولين الفرنسيين. وذهبت الوكالة للقول إنّه بالنسبة لحبش كان «سفيرا متجوّلا».

ولكن حتى لو اتّفقت المصادر الإسرائيليّة أنّه لم تكن له علاقة بقضيّة ميونخ، فإنّ كلاين يقول «إنّه ربّما لم تكن له علاقة بفتح أو أيلول الأسود، ولكن الأكيد لم تكن له يد في مذبحة ميونخ». ومع ذلك يقول كلاين إنّ ملف الموساد عن الكبيسي من أكبر الملفات». هذه المخابرات الأوليّة قد تكون افترضت أنّ له علاقة بقائمة طويلة من الهجمات الإرهابيّة. اعتقد الإسرائيليون أنّه في عام 1956 كان بشكل ما مرتبطا وهو في سنّ 23 عاما في محاولة فاشلة لاغتيال العاهل العراقي فيصل الثاني. ربّما اعتقدت الموساد حديثا أنّه ساعد الجبهة الشّعبيّة في تهريب الأسلحة والمتفجّرات إلى أوروبا. وقبل شهر من اغتياله، اعتقدت الموساد أنّه ربّما شارك في عمليّة 4 مارس 1973 لتفخيخ ثلاث سيّارات لتفجيرها في نيويورك تزامنا مع وصول رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير إلى مطار جون كندي في المدينة. غير أنّ كلّ ما أورده كلاين هو ما قاله

لـه عناصـر الموسـاد نقلا عن محتويات ملف الكبيسـي لديهـم. نحن ليس لدينا أيّة أدلة كيف عرفت الموساد بذلك وجمعت معلوماتها عنه. وبالأخصّ أنّه كان مشـاركا في عمليّة تفخيخ سـيّارات نيويورك، فتلك اتّهامات مزيّفة غير ممكنة. لقد كانت أيلول الأسود وراء تلك العمليّة التي أعدّها عضو في فتح اسمه خالد الجـوري، الـذي ألقـي القبـض عليـه عام 1991 فـي روما وجُلب إلـى الولايات المتّحدة فحوكم وأدين وحكم عليه بالسّجن 30 عاما. أودع السّجن لغاية 2009 حين أطلق سراحه وأبعِد إلى السّودان. بالمناسبة، لم تنفجر القنابل ولم يظهر أيّ دليل خلال محاكمة الجوري في نيويورك أو يرد اسم وائل الكبيسي بأيّ شكل من الأشكال. إنّ أدلّة الموساد عنه كانت ضبابيّة وكذلك حياة الكبيسي وموته(*).

لم يكن الكبيسي من النّوع الذي يحمل السّلاح أو ينقله، والسؤال هو، لماذا استهدفته الموساد؟ يقول أحد أصدقائه وهو الدّكتور فاضل النّقيب، الاقتصادي الفلسـطيني بأنّه كان لديه حسّ بأنّ صديقه كان مسـتهدفا. ففي شـهر يوليو عام 1972، عندما اغتال الإسرائيليّون غسان كنفاني، المتحدّث الرّسمي باسم الجبهة الشّـعبيّة، وهـو أيضـا روائي وناقـد أدبي، كتب النّقيب إلى الكبيسـي محذرا بأنّه سيكون الهدف التالي.

لاحـظ النّقيـب أنّ إسـرائيل لـم تسـتهدف الرّجال الذين يحملون السّـلاح. «لـم تلاحـق الموسـاد عضـلات الثـورة الفلسـطينيّة ولكن روحها... كان باسـل قائدا متميّزا في حركة القوميّة العربيّة... وكان يختلف عن بقيّة المثقفين العرب وكذلـك المقاتليـن منهـم. لقـد كان رجـلا متعلمـا يحمـل الدّكتوراه فـي العلوم السّياسيّة، لكنّه لم يكن يميل إلى الحياة الأكاديميّة».

كان الكبيسي سفيرا ثقافيّا للجبهة الشّعبيّة، وقد يكون مصدرا سريّا للوكالة وقت اغتياله. نحن لا نعرف إنّ كان أحد أرصدة الوكالة النّشطين. إذا كان الأمر كذلـك، فهـذه أوّل مـرّة يخسـر فيهـا أيمز أحـد مجنّديه في عمليّـة اغتيال. يقول جورج كيف، وهو الضّابط الذي عمل مع أيمز في إيران «إنّ ذكر اسم الكبيسي يقرع جرسا. ولكن لأنّي كنت في إسلام آباد عندما اغتيل، فلا اعرف الكثير عنه.

(*) وقت اغتياله كان الكبيسي متزوّجا من نادرة الخضيري وهي أستاذة جامعيّة، ولهما ثلاثة أطفال. قُتلت نادرة وأطفالها جميعا في حادث سقوط طائرة قرب دمشق، بعد سنتين من اغتياله.

لقد طوّر بوب الكثير من الاتّصالات مع المنظمات الفلسطينيّة، لكنّه لم يعمل على التجنيد الرّسمي لهم. أعطاهم أسماء سريّة لأغراض التّواصل، دون كشف الأسماء الحقيقيّة لهم». وعليه ربّما يكون الكبيسي واحدا من المصادر التي لم يتمّ تجنيدها، ومع ذلك أعطوا أسماء سريّة.

ذكر ديوي كليرج أنّ الكبيسي كان مصدرا «مغرّدا وليس جاسوسا يعمل مع بوب». ومهما كانت درجته فإنّ الكبيسي كان بالتّأكيد قادرا على تزويد الوكالة بالكثير من المعلومات عن الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين. كان اغتياله خسارة للوكالة. ذكر غراهام فولر، «اعرف أنّ الكثير من ضبّاط الوكالة قد غضبوا لأنّ إسرائيل استهدفت بشكل مقصود اغتيال أحد مصادرنا، الذي كان يزوّدنا بمعلومات هامّة عن الشّرق الأوسط، غير تلك التي نحصل عليها من قنوات الموساد.» ثمّ ذهب للقول، «لم يكنْ أغلب العاملين في الوكالة لشؤون الشّرق الأوسط ينظرون للموساد نظرة صداقة، أو أنّها تعمل لنفس أهدافنا إطلاقا. كان يُنظر إليها بأنّها منافسة أو غير متعاطفة مع عمل ضبّاط الوكالة وتقاريرهم. والسّبب في ذلك أنّ ضبّاط الوكالة ينظرون للقضية الفلسطينيّة نظرة تقوم على الحقائق التي نعرفها، ونعرف أنْ لا أحد يستمع إليها في الدّوائر السّياسيّة في واشنطن. وهذا يعود إلى هيمنة مناصري إسرائيل على كافة المعلومات التي تُقدّم لصانعي السّياسة الأمريكيّة».

بعث سلامة في أواخر شهر حزيران من عام 1973 رسالة إلى أيمز قال فيها إنّه بحاجة للقائه بشكل عاجل. ولذلك فإنّ الأخير طار من طهران إلى بيروت. التقى الاثنان في بيت آمن للوكالة يومي 9 و10 من يوليو. كانت أمامهما قائمة مواضيع عديدة. ابلغ سلامة أيمز بانطباعاته عمّا يجري في لبنان وقال إنّ عرفات قد أصدر التّعليمات لقوّاته لتحاشي الصّدامات مع الجيش اللبناني «مهما كان الثمن». كما شكا لصاحبه من برنامج الاغتيالات الإسرائيلي. كان آخر الضّحايا محمد بوضيا، وهو كاتب مسرحي جزائري تمّ اغتياله عن طريق تفجير سيّارته في باريس بتاريخ 29 حزيران. كشف سلامة أنّه جنّد بوضيا شخصيّا ليتولى إدارة عمليّات أيلول الأسود في فرنسا. اعتقد أيمز أنّ «تلك معلومات هامّة للغاية».

بعد يومين من اغتيال بوضيا، وفي السّاعات المبكّرة من صباح يوم 1 يوليو

1973 تمّ اغتيال العقيد يوسف ألون مساعد الملحق الجوّي العسكري في السّفارة الإسرائيليّة في واشنطن. جرت العمليّة أمام منزله في چفي چيز. ما زالت عمليّة الاغتيـال مبهمـة، لكنّـه ورد أنّهـا من تدبير فرقة اغتيـالات تابعة للقوّة 17 يقودها شخص باسم أبو فارس، وهو فلسطيني من أصل أفريقي، له شعر كثّ منفوش على الطريقة الأفريقيّة. كان هدف الفرقة اغتيال السّفير الإسرائيلي إسحق رابين، لكنّ حراسته كانت مشدّدة جدّا، الأمر الذي دعا إلى تغيير الخطة واغتيال ألون بدلا عنه. في اليوم التّالي أعلنت محطة الإذاعة الفلسطينيّة في القاهرة أنّ اغتيال ألـون هـو ردّ علـى اغتيـال بوضيا. «وكانت تلك هي المحاولة الأولى من نوعها ضدّ أحد المسؤولين الصّهاينة في الولايات المتحدّة». وإذا كانت القوّة 17 هي التي نفذت العمليّة، فلا بُدّ أنّ سلامة على علم بها. في الحقيقة، اعتقد زين أنّ سـلامة هو نفسـه «من أمر باغتيال معاون الملحق العسـكري». تشير التّقارير إلى أنّ أيمز بعث رسـالة مسـتعجلة إلى سـلامة عقب الاغتيال طلب فيها أنْ يعرف إنْ كانـت القـوّة 17 تمـارس عمليّاتها على الأرض الأمريكيّة. لا نعرف ماذا كان ردّ سـلامة، لكنّنـا نعـرف انّـه طلـب عودة الفرقة بسـلامة إلى بيـروت. بعد أربع سـنوات أخبـرت الوكالـة مكتب التّحقيقـات الفدرالي FBI أنّها علمت من «أحد قادة الفدائيين الكبار» أنّ أيلول الأسـود مسـؤولة عن عمليّة الاغتيال. لربّما كان أيمز هو مصدر المعلومات التي قد زوّده بها سلامة.

من الواضح أنّ لسلامة علاقة بعمليّات أيلول الأسود. وممّا لا شكّ فيه أنّه يعتبر نفسـه مقاتلا فدائيّا يعمل على اسـتعادة فلسـطين لأهلها. وإذا كان مشـتركا في اغتيال العقيد ألون. لربّما كان اعتبره هدفا «عسكريّا» شرعيّا. كانت الموساد تغتال المدنيين مثل بوضيا والكبيسـي في شـوارع باريس، في حين كانت أيلول تأخذ الثأر في واشنطن. ربّما كانت هذه هي الطريقة التي برّر فيها سلامة عمليّة الاغتيال. غير أنّه إذا كان هذا الشّخص يتّصل بالوكالة باستمرار، فإنّ جدلاً علنيًّا فـي الإعـلام الأمريكـي حـول الأمر سيُسـبّب للوكالة مشـاكل. ولكن في الوقت نفسه، لا بُدّ أنّ تواصل أيمز مع سلامة أمر يجب عمله.

خلال مباحثات يومي 9 و10 يوليو في بيروت، عرف أيمز أنّ سلامة يريد إخباره بشيء بالغ الأهميّة. قال علي أنّ عرفات قد أعطاه تعليمات لأخذ مبادرة

رئيسيّة لمفاتحة الأمريكيين. شعر عرفات «بالامتنان» لما ورد في البيان المشترك الصّادر عن لقاء نيكسون والزّعيم السّوفيتي ليوند بريجينيف الذي تطرّق إلى «مصالح الفلسطينيين في الشّرق الأوسط». اطلع سلامة أيمز أنّ تغييرات كبيرة قد حدثت في الحركة الفلسطينيّة منذ التقيا آخر مرّة في مطلع مارس 1973. كان عرفات يريد إخبار الأمريكيين بأنّه قد «وضع حدًا» لأي عمليّات فدائيّة تستهدف الأمريكيين، وأنّ هذا الحظر سيظل ساري المفعول ما دام الجانبان يواصلان حوارهما، بالرّغم من اختلاف وجهات النّظر الرّئيسيّة. لم يكنّ ذلك تهديداً، بمعنى إمّا أنْ تتحدّثوا معنا وإلاّ، بل هو اعتراف بأنّ «الكلام ضروري». لم يعطِ عرفات الأمريكيين «ضمانات تامّة بوقف كلّ النّشاطات الإرهابيّة»، لأنّه «لا أحد يمكنه أن يوقف تصميم رجل مسلح». غير أنّ منظمة التحرير تلتزم بعدم القيام بأيّة عمليّات ضدّ الأمريكيين.

يبدو أنّ الدّوائر الداخليّة لمنظمة التحرير قد اختطّت لنفسها إستراتيجية جديدة. لربّما وضعت عملية ميونخ القضيّة الفلسطينيّة في لبّ الإعلام الأمريكي، لكنّ عرفات أدرك أنّ القيام بعمليات على الأرض الأوروبيّة أو الأمريكيّة مسألة لا تعود بالخير على تلك القضية. لقد قرّر أنْ يقطع «شريان الحياة» عن منبع الإرهاب. ولذلك فإنّ سلامة صرّح بأنّ عمليّات الفدائيين ستقتصر على الأردن وإسرائيل فقط. فالمملكة الأردنيّة هي الهدف الأوّل. لماذا؟ أوضح سلامة أنّ عرفات قد اقنع رفاقه أنْ يجروا تغييرا في فكر فتح بأنّ «إسرائيل هنا، وهي باقية». ولذلك فإنّ دولة ديمقراطيّة للمسلمين والمسيحيين واليهود في إسرائيل ليست أمرا واقعيًا» ولأنّه يجب أنْ يكون للفلسطينيين وطن، فإنّ ذلك الوطن هو الأردن».

وضع أيمز تلك الأفكار في مذكّرة قدّمها للسّفير هلمز بتاريخ 18 يوليو. «ادّعى عرفات أنّه يحظى باتّفاق كافّة الدّول العربيّة من حيث المبدأ لإحلال جمهوريّة فلسطينيّة محلّ المملكة الهاشميّة. وعليه، فإنّ الأردن سيكون الهدف الرّئيسي للفدائيين، على أنْ يتمّ الاحتفاظ باستمرار النّشاطات الإرهابيّة ضد إسرائيل للإبقاء على مصداقيّة الحركة... إنّ عرفات يريد دولة حقيقيّة، أو لا شيء». طلب سلامة من أيمز أنْ يأتيه بجواب واشنطن عن الأسئلة التالية:

- ماذا تقصد حكومة الولايات المتّحدة عندما تقول «المصالح الفلسطينيّة»؟
- كيف يتعامل «الحلّ السّلمي» مع مسألة «المصالح الفلسطينيّة»؟
- هل سيُفسح المجال للفلسطينيين في وضع خطط الحلّ السّلمي الجزئي أو الشّامل؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فما هو؟ كيف يمكن لأيّ حلّ أن يكون ذا معنى إذا استمرّ وجود الأردن؟

ردّ أيمز أنّه لا يمكنه أنْ يتوقع بردّ واشنطن على مثل هذه «الأسئلة الاستفزازية». ومع ذلك فإنّه سيرفعها، وفعل ذلك. في أواخر يوليو سافر هلمز إلى واشنطن واخبر كيسنجر بلقاء أيمز مع سلامة الذي نقل رغبة عرفات في الحوار مع واشنطن وأنّ هذا الحوار يقوم على مبدأين هما، «إنّ إسرائيل هنا، وهي باقية» وأنّ دولة فلسطينيّة يجب أنْ تحلّ محلّ المملكة الهاشميّة.

بالتّأكيد أنّ هلمز وأيمز اعتقدا أنّ الحوار مع منظمة التحرير مسألة مهمّة. إنّ حقيقة اعتراف عرفات «بوجود إسرائيل» هو تنازل مثير في ضوء الواقع، وهو نقطة بالغة الأهميّة لحلحلة القضيّة. لكنّ المطلب الثاني كان استفزازيّا. غير أنّ مستقبل النّظام الهاشمي في الأردن وطبيعته يمكن أنْ يكونا موضوعا للنّقاش، خاصّة وأنّ الأردن واقعيًا دولة فلسطينيّة لأنّ غالبيّة السّكّان من الفلسطينيين. اخبر هلمز كيسنجر بشكل مبسّط، والموضوع هو إذا كان يرغب في إجراء محادثات سياسيّة مع الفدائيين أم لا؟

ردّ كيسنجر بأنّ ذلك هو السّؤال. واستنادا إلى ما جاء في مذكراته، فإنّه أخبر هلمز بأنّه «سيفكّر بالموضوع». كتب فيما بعد، «لم يكنْ ردّ فعلي إيجابيّا. اعتبرُ الملك حسين صديقا قيما للولايات المتّحدة، وهو يمثّل أملا رئيسيّا للتّقدّم الدّبلوماسي في المنطقة». كما كتب أيضا أنّه اعتقد أنّ أيّة دولة تقودها منظمة التحرير ستصبح دولة وحدويّة، وأنّ أيّ كيان فلسطيني في الضّفة الغربيّة سيكون قاعدة انطلاق للهجمات ضدّ الأردن وإسرائيل. اعتقد كيسنجر أنّ الفلسطينيين لنْ يتخلوا عن رغبتهم في العودة إلى كلّ أرض فلسطين. كتب يقول، «بالنّسبة لهم، تُعتبر الضّفة الغربيّة دولة مصغّرة مرحليّة لتحقيق أهدافهم النّهائيّة. إنّهم سوف لنْ يكتفوا حتّى لو أعادت إسرائيل كافّة الأراضي التي احتلتها في حرب 1967، بما فيها القدس الشّرقيّة». وإضافة لذلك قال في مذكّراته التي نشرها عام

1982، «إنّ القليل يعتقدون هذا (الانسحاب الإسرائيلي) أمراً ممكن في ضوء حقيقة ما يجري على الأرض.» في الأساس، لم يعتقد كيسنجر أنّ إسرائيل ستتخلى عن المناطق المحتلة، وأنّه لم يثق في قول رئيس منظمة التحرير «إنّ إسرائيل هنا، وهي باقية».

بتاريخ 3 أغسطس 1973 أخبر كيسنجر السّفير هلمز بأنّه «لا شيء» في الأمر، أو هكذا قال في مذكّراته. غير أنّه في ربيع 2008 كشفت الوكالة أوراق هلمز. ومن بينها مذكّرة غير موقعة ولا تحمل عنوان جهة رسميّة جوابا لأسئلة عرفات. وهذه المذكّرة تمثل الاتّصال الأول بين عرفات وأيّ مسؤول أمريكي. لربّا نُقلت إلى عرفات من خلال القنوات الخلفية لأيمز وسلامة، ولم تكنْ «لا شيء». حين تقول الحكومة الأمريكيّة إنّ الصّراع العربي الإسرائيلي يجب أنْ يأخذ بنظر الاعتبار مصالح الفلسطينيين، فإنّ في رأيها مسألتين. أوّلا، يجب أنْ يكون هناك حلّ بعيد المدى لمشكلة اللاجئين، وأنّ الولايات المتّحدة مستعدّة للمساهمة بشكل فعّال في برنامج رئيسي لمساعدة أولئك النّاس لكي يبدأوا حياة طبيعيّة. ثانياً، من الواضح أنّ لبعض الفلسطينيين مصلحة للتّعبير عن آرائهم السّياسيّة.

يختتم كيسنجر ردّه بالقول، «من الأفضل التّوصّل لتلك المصالح مع الآخرين في المنطقة عن طريق المفاوضات. إذا كان الفلسطينيّون راغبين في المشاركة للتّوصل إلى حلّ عن طريق المفاوضات، فإنّ الحكومة الأمريكيّة يسعدها أنْ تستمع لأفكارهم. لكنّ العمل على قلب أنظمة حكم قائمة بالقوّة، لا يبدو طريقة ناجعة».

كان كيسنجر في الحقيقة يدعو منظمة التحرير إلى طاولة المفاوضات، ويعطي الإشارة بأنّ واشنطن ستموّل مشروعا كبيرا لتوطين اللاجئين، لكنّه يعترف في الوقت نفسه أنّ للفلسطينيين حقّ في نوع من «التّعبير الشّخصي السّياسي». ومع ذلك فهو يحذرهم بألاّ يتوقعوا تحقيق أهدافهم بإسقاط الملك حسين بالقوّة. تكشف تلك المذكّرة طبيعة مناورة كيسنجر الكلاسيكيّة. في عام 1973 كان يصرّح علنا بأنّ منظمة منظمة التحرير إرهابيّة لا يستطيع أيّ مسؤول أمريكي أنْ يتحدّث مع ممثليها. وفي السّرّ كان يرسل مثل تلك المذكّرات عبر «القنوات المخابراتيّة على المستوى الأدنى» لاستكشاف إمكانيّة جلب تلك

المنظمة الإرهابيّة من موقعها السّري إلى الضّوء. لربّما كانت تلك الطريقة ذكيّة ومخادعة في الوقت نفسه.

بتاريخ 13 أغسطس من عام 1973 تلقى كيسنجر رسالة لجسّ النّبض من منظمة التحرير عن طريق ملك المغرب الحسن، الذي حمل الأسئلة نفسها التي ارسلت سابقا بواسطة سلامة من خلال أيمز. ربّما لم يكنْ هناك وقت كافٍ لكي يستلم سلامة ردّ كيسنجر المؤرّخ في 3 أغسطس، غير أنّ حقيقة كون المنظمة تطرق بابا آخر هو دليل على أنّها جادّة في الموضوع. في هذه المرّة سُلمت رسالة إلى الجنرال فرنن والتر نائب مدير محطة الوكالة، الذي كان يزور الملك في الدّار البيضاء. أخبر كيسنجر والتر بأنْ يترك الباب مفتوحا لاحتمال لقاء ممكن. في مطلع سبتمبر 1973، أرسل أيمز رسالة مشجّعة تقول، «إنّ منظمتي ما زالت راغبة في عقد لقاء مع منظمة علي، علما بأنّ المحطة الجنوبية (إسرائيل) قد بدأت تحقيقاتها. لقد اطلعت على الكثير من ملفاتهم، وهم على علم باتّصالاتنا». أرسل كيسنجر الجنرال والتر إلى الرّباط مع تعليمات بالاستماع إلى ممثلي منظمة التّحرير الفلسطينيّة وتحذيرها من أنّ أيّ هجوم على الأمريكيين سوف لنْ يُقبل. تردّد والتر لحظة وقال «لا بُدّ أنْ أكون رقم 8 أو 9 على قائمتهم». أجاب كيسنجر بلكنته الألمانيّة المعروفة، «لا يهمّك يا فالتر، فأنا رقم 2، وعليك أنْ تذهب».

بتاريخ 3 نوفمبر اجتمع والتر ومدير محطة الوكالة في الرّباط مع مندوبين كبيرين من المنظمة، وهما الأخوين خالد الحسن وهاني الحسن، اللذين أكدا لوالتر أنّ المنظمة لا تستهدف أيّ أمريكي، لكنّ الملك حسين يُعتبر عقبة في وجه الطموحات الفلسطينيّة. ردّ عليهما معتمدا على تعليمات كيسنجر «إنّنا ننظر للملك الأردني باعتباره صديقا». غير أنّه في ضوء حلّ شامل فإنّ واشنطن تأمل من الحركة الفلسطينيّة والنّظام الهاشمي «أنْ يعملا سويّة نحو الصّلح». ثمّ أضاف قائلا: «ليست هناك أسباب موضوعيّة للتوتّرات بين الفلسطينيين والولايات المتّحدة».

لم يكنْ ردّ المندوبين الفلسطينيين أكثر من استعادة خطاب حول حقوق الشّعب الفلسطيني، وأصرّا على أنّ الضّفة الغربيّة مقطوعة لتكون دولة

للفلسطينيين، ويتوجّب على الملك حسين أنْ ينزاح عنها لتكوين دولة فلسطينيّة. والخلاصة الهامّة في كلّ هذه المناورات أنّ «إسـرائيل هنا، وهي باقية». إلاّ أنّ كيسـنجر لم يعط ذلك اهتماما، فهو ما زال يعتقد أنّ الفلسـطينيين غير جادّين. يقول، «إنّ ديناميكيّة الحركة الفلسـطينيّة تجعل من هذا الاعتدال أمراً لا يمكن الوثوق به في المستقبل».

فـي مذكّراتـه التي نشـرها عام 1982، قلّل كيسـنجر مـن أهميّة لقاء الرّباط، لكنّه اعترف بهدوء أنّ المنظمة وضعت في يد واشـنطن «شـيئا ملموسـا». بعد لقاء الرّباط بين والتر وممثلي المنظمة، توقفت الهجمات ضدّ الأمريكيين، على الأقل من قبل أتباع عرفات. في الحقيقة أنّ سلامة أعطى أيمز مثل ذلك الوعد في الصّيف السّـابق بأنّ الفدائيين سـوف لنْ يسـتهدفوا الأمريكيين. إنّ القنوات الخلفيّـة بيـن أيمـز وسـلامة قد قادت إلى عقد اتّفاقيّـة عدم اعتداء بين الحكومة الأمريكيّة ومقاتلي فتح.

من الطبيعي أنّ كيسنجر لم يستطع في ذلك الوقت الاعتراف بأنّه يتفاوض مـع منظمـة التّحريـر، لكنّـه في الحقيقـة كان. وهو يعرف جيّـدا أنّ المفاوضات السّريّة مع المنظمة «شيء قد ينفجر وهناك مخاطرة إذا ما تسرّبت الأخبار عنها». وبغية حماية نفسه والرّئيس نيكسون، أبلغ ملك المغرب بهدوء، وكذلك الرّئيس المصري أنور السّادات وبعض القادة العرب الآخرين عن بدء مفاوضات أوليّة. كما أنّه تأكّد أنّ السّـفير الإسـرائيلي في واشـنطن سـمحا دنز قد أُبلغ بمحاولات عرفـات. وطبعـا، صُـدم الإسـرائيليّون وانطلقوا لعمل كلّ ما في وسـعهم لوقف الولايات المتّحدة من إجراء أيّة محادثات مع المنظمة(*).

غضب المدير العام للموساد إسحق هوفي الذي شغل المنصب بين الأعوام 1974-1982 حين علم أنّ كيسنجر يتعامل مع المنظمة، خاصّة وأنّ علي سلامة الذي يعتبره مخطط عملية ميونخ هو من بدأ تلك المحادثات. وأسوأ من ذلك،

(*) كان لإسرائيل حليف قويّ داخل وكالة المخابرات الأمريكيّة، هو رئيس شعبة المخابرات المضادّة جيمس جيزس أنغلتن، الذي كان اعتمادا على أقوال تومَس پاورز مقتنعا بأنّ «المخابرات السّوفيتيّة KGB كانت لها سيطرة كاملة على منظمة التّحرير الفلسطينيّة». Thomas Powers, *The Man who Kept the Secrets: Richard Helms and the CIA*, New York: Alfred A. Knopf, 1979, p. 327. اعتقد أيمز أنّ مثل هذا الإتّهام سخيف.

أنّـه اعتقـد أنّ عرفات قد عيّن سـلامة مندوبـا للمنظمة للتّواصل مع الأمريكيين. أصيب هوفي بالشّحوب لأنّه اعتقد أنّ الأمريكيين يتفاوضون مع رجل حاولت الموساد اغتياله حديثا.

بتاريـخ 21 يوليـو 1973، وبعـد مـرور حوالـى 11 يومـا مـن لقـاء أيمـز مع سـلامة، قام فريق من الموسـاد في مدينة ~~للهامر~~ السّـياحيّة في النّرويج، باغتيال عامل مغربي اسـمه أحمد بوشـيكي اعتقادا منهم بأنّه سـلامة. القي القبض على سـتة ضباط من الموسـاد وأدينوا بالقتل وأمضى بعضهم عامين في السّـجن. لقد وضعت هذه المحاولة القاتلة نهاية سريعة مؤقتة لعملية غضب الرّب التي ينفذها الموساد لاغتيال النّاشطين من عناصر أيلول الأسود.

حين اغتيل العامل المغربي البريء في للهامر، كان سلامة في مكان ما في أوروبا. انتشـرت أخبار إلقاء القبض على فريق اغتيالات الموسـاد في الصّحف الإسـكندنافيّة بشـكل واسـع، صـرّح سـلامة فيمـا بعد لصحيفـة الصّيّـاد اللبنانيّة الأسـبوعيّة، «عندمـا اغتالـوا بوشـيكي كنت في أوروبـا... كان يعمل في تنظيف حوض السّباحة، وكانت صفاته وملامح جسمه ووجهه لا تشبهني إطلاقا. إنّني ما زلت حيّا، ليس بفضل مهاراتي، ولكن بسبب ضعف المخابرات الإسرائيليّة». كما تهكّم بهم لتبجّحهم الدّائم أنّه باستطاعتهم أنْ يضربوا أينما يشاؤون.

سبّبت تلك العمليّة إحراجا كبيرا للموساد، لكنّ حقيقة فتح الوكالة علاقة مع ضابط مخابرات فلسـطيني كبير كانت بالنّسـبة لهم أكثر إشـكالا من عمليّة للهامر. لقد شكّلت محادثات الوكالة مع سلامة سابقة خطيرة في رأي إسرائيل، فاحتجّ رئيس الموسـاد هوفي مباشـرة لدى الجنرال والتر وطلب من الوكالة أنْ توقـف اتّفـاق عـدم الاعتـداء بينها وبين منظمة التّحريـر. ووفقا لما ذكره غوردن تومَـس مؤلـف كتـاب جواسـيس جدعون عن تاريخ الموسـاد، «قـال نائب مدير الوكالة أنّ طلبه غير ممكن وحذّر هوفي أنّ واشنطن ستعتبر نشر معلومات عن الموضوع عملاً عدوانيًا». رغم احتجاجات إسـرائيل، سـمح كيسـنجر للجنرال والتـر أنْ يجتمـع ثانية مع الفلسـطينيين بتاريـخ 7 مارس 1974، وهي الفترة التي أصبح فيها وزيرا للخارجيّة ويقوم بجولات دبلوماسـيّة مكوكيّة في محاولة منه لتطوير وقف إطلاق النّار المؤقت الذي أعقب حرب أكتوبر ليصبح عمليّة سلام

دائم. اخبر مندوب المنظمة الذي قابل والتر أنّ علي حسن سلامة هو من أحبط محاولة لاغتيال كيسنجر بتاريخ 16 ديسمبر 1973 عندما وصل إلى بيروت. كانت جماعة أبو نضال هي من كان ينوي القيام بتلك المحاولة. وهذه جماعة إرهابيّة متطرّفة مسؤولة عن اغتيال عدد كبير من الغربيين، وحتّى بعض الشّخصيّات من المنظمة. كانوا ينوون إسقاط طائرته بصارخ أرض - جوّ عند اقترابها من مطار بيروت. يذكر كيسنجر أنّه لم يشعر بالامتنان لذلك، لكنّ الحقيقة هي أنّ الدّبلوماسيين الأمريكيين في بيروت كانوا يعتمدون على سلامة وفدائيي فتح لحمايتهم الشّخصيّة.

كان كيسنجر لا يزال غير واثق تماما من نوايا منظمة التّحرير، وحافظ على علاقاته الطيبة بالنّظام الهاشمي. كان الأمريكيّون سعداء بتحالفهم مع «الملك القصير المقدام» لكنّ الواقع يشير إلى أنّ الفلسطينيين أضحوا قوّة سياسيّة لا يمكن تجاهلها. قرّر الملك حسين أنّه من أجل المحافظة على وجوده واستمراره، يتحتّم عليه أنْ يعقد صفقة مع عرفات. في أواسط السّبعينات، كانت منظمة التّحرير تبتعد بسرعة عن استراتيجية الكفاح المسلّح وتتحول إلى حركة سياسيّة تنشد اعتراف العالم بها وبشرعيتها. لقد ذكر سلامة ذلك لأيمز قبل ما يقارب العام، وهذا التّحوّل يحدث الآن. بتاريخ 8 حزيران 1974 صرّح عرفات أنّ المجلس الوطني الفلسطيني صوّت بالإجماع على تبنّي «خطّة جديدة من عشر نقاط». كُتبت الوثيقة بلغة معقّدة مبهمة مقصودة فحواها أنّ المنظمة تسعى لإقامة دولة فلسطينيّة على أيّ قسم من الأرض الفلسطينيّة ممّا يمكن «تحريره». كان ذلك إشارة إلى الضّفة الغربيّة وغزّة، وهي المناطق التي احتلتها إسرائيل عام 1967، وبقيت تحت سيطرتها منذ ذلك الوقت. كانت تلك هي الخطوة الأولى نحو (حلّ الدّولتين)، وكانت اعترافا رسميّا وتطبيقا لما باح به سلامة إلى أيمز في الصيّف الماضي بأنّ «إسرائيل هنا، وهي باقية».

وفي الوقت نفسه، فإنّ «خطة النّقاط العشر» هي اعتراف صريح بأنّ «النّظام الأردني هنا، وهو باق أيضاً». لقد تخلت المنظمة عن خطتها للإطاحة بالملك الأردني وتحويل البلاد إلى جمهوريّة فلسطينيّة. لقد فتح ذلك باب المصالحة بين حسين وعرفات ومنظمته. ولذلك فإنّه خلال مؤتمر القمّة العربيّة بتاريخ 28

أكتوبر 1974 في الرّباط صوّت الرّؤساء والملوك أنّ المنظمة هي «الممثل الشّرعي الوحيد للشّعب الفلسطيني.» وتبع ذلك بسرعة دعوة الأمم المتّحدة لياسر عرفات للحضور إلى نيويورك وإلقاء خطاب أمام الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة. بتاريخ 13 نوفمبر 1974، وصل عرفات بصحبة سلامة ووفد من المساعدين وفريق للحراسة. سافر سلامة باسم مستعار هو رفيق بهلولي بجواز سفر جزائري رقمه 2092A73. غير أنّ الأمريكيين يعرفون طبعاً من هو الشّخص الحقيقي. قبل السّفر إلى نيويورك، اجتمع مع بعض دبلوماسيي السّفارة في بيروت لمدّة أربع ساعات لمناقشة جدول زيارة عرفات والوفد المرافق له لنيويورك. حاول الأمريكيّون أنْ يحدّدوا عدد أعضاء الوفد وأصرّوا ألاّ يحمل أعضاء المنظمة أسلحة لدى وصولهم إلى نيويورك. واستناداً إلى برقيّة تصف المفاوضات أنّ سلامة طلب من أعضاء الجانب الأمريكي أنْ يتفهّموا الموقف ويكونوا أكثر ليناً، بأنّ الأسلحة لن تكون ظاهرة للعيان إطلاقاً، وقال لهم ما معناه «هل شاهدتم في حياتكم صورة لأبي عمّار دون أنْ يكون حاملاً مسدّسه؟».

وقف الأمير الأحمر في جناح عرفات وهو يتابع خطابه في الجمعية العامة للأمم المتّحدة، وهو يتمنطق قراب مسدس فارغ. استهلّ عرفات خطابه بشكل دراماتيكي حين قال، «لقد جئتكم حاملاً غصن الزّيتون بيد وبندقية المحارب بيدي الأخرى. فلا تدعو غصن الزّيتون يسقط من يدي». كان الدّبلوماسيّون الإسرائيليّون يغلون غضباً، رغم أنّهم قاطعوا الجلسة، فكيف يمكن للمجتمع الدّولي أنْ يضمن لعرفات تلك الفرصة لإلقاء خطابه.

اجتمع سلامة في اليوم نفسه مع چالس وافرلي مدير محطة الوكالة الجديد في بيروت في الجناح الذي شغلته المنظمة في فندق ولدورف إستوريا. كان أيمز قد مهّد لذلك الاجتماع وكان مصطفى زين موجوداً، وهو من قدّم سلامة لوافرلي. كانت التّرتيبات الأمنيّة صارمة جدًّا، وشغل الوفد الفلسطيني ثلاثة طوابق في الفندق الفاخر. شغل عرفات وسلامة والمساعدون الكبار الدّور الوسط واحتلّ الحرس الخاصّ الطابقين الأعلى والأسفل. كانوا يحملون أسلحة رشاشة ووقفوا في نهاية كلّ الممرّات والسّلالم. أمضوا جميعاً ليلة واحدة هناك وانتقلوا إلى مبنى الأمم المتّحدة والعودة ثانية بسيّارات الليموزين المدرّعة.

كتب ديفد إغناطيوس في صحيفة واشنطن پوست تقريراً عن المفاوضات التي جرت بين سلامة والوكالة. كتب يقول إنّه اعتماداً على ما اخبره به أحد الحاضرين في غرفة الاجتماع بأنّ عرفات وجناح فتح في منظمة التّحرير سيقومون بوقف العمليّات الإرهابيّة العالميّة خارج إسرائيل، علما بأنّ عرفات لنْ يكون مسؤولاً عن العمليّات التي يقوم بها كلّ فلسطيني. ومقابل ذلك تكون الولايات المتّحدة مستعدّة لتعترف بشرعيّة الحقوق الفلسطينيّة. لكنّ أحد مسؤولي الوكالة وصف المفاوضات بشكل مختلف. «إنّ منظمة التّحرير ستتوقف عن استهداف الأمريكيين، وخاصة المسؤولين منهم في أيّة عمليّات إرهابيّة، ونقوم نحن من جانبنا بمراعاة القضايا الأمنيّة للمنظمة». أمضى زين وسلامة وواڤرلي أربع ساعات معاً لمناقشة تفاصيل الاتفاقية الأمنيّة. أخبر زين سلامة بأنّ بوب طلب منه التأكيد على أنّ المنظمة تريد قبولها كدولة و«أنّها ستتصرّف كدولة تودّ الانضمام إلى المجتمع الدّولي». كما أنّهم اتّفقوا على تعاون المنظمة والوكالة لمحاربة العدّو المشترك، مثل جماعة أبو نضال. وأخيراً، وفي تمام السّاعة الثالثة صباحاً، انفضّ الاجتماع وذهب سلامة ليصطحب عرفات في زيارة إلى كوبا، حيث كان من المقرر أنْ يلتقيا فيدل كاسترو.

اشترى سلامة قبيل مغادرة نيويورك بطاقة بريديّة عليها صورة فندق ولدورف إستوريا، ووضع سهماً على جناح فيه وكتب «منظمة التّحرير كانت في ولدورف إستوريا!» ثمّ بعث البطاقة إلى أسرته في بيروت.

إنّ التّطوّر الذي حدث داخل المنظمة بين عامي 1973–1974 كان كبيراً. في نهاية سنة 1973 حل عرفات أيلول الأسود، كما أنّه وضع رجاله في مواجهة جماعة أبو نضال، كما اتّفِق عليه في محادثات إستوريا. شرح نائب سلامة في قيادة القوّة 17، محمود ناطور (أبو طيّب) بأنّ «عرفات طلب من القوة 17 مهاجمة مراكز تدريب جماعة أبو نضال في ليبيا، فقتلنا كلّ من كان هناك يخطط لقتل ممثلي المنظمة في أوروبا... وتمكّنا من إحباط عدد من الهجمات الدّمويّة هناك. لم نسمح إطلاقاً بوصول أيّ إرهابيّ إلى الشّواطئ الأمريكيّة. أضف إلى ذلك أنّ كافّة الأمريكيين والمواطنين الغربيين في لبنان كانوا تحت حماية القوّة 17».

لم تتخلَ فتح تماماً عن صراعها المسلح، بل حصرت أهدافها داخل إسرائيل والضّفة الغربيّة. وكما ذكرنا فإنّ برنامج اغتيالات الموساد قد توقف بعد إخفاق عمليّة للهامر في النّرويج. لقد توقفت حرب الأشباح(*). كانت خسائر الفلسطينيين أكثر بكثير من خسائر الإسرائيليين. ففي لندن انفجرت رسالة ملغومة وقتلت دبلوماسيًّا إسرائيليًّا. وفي مدريد تمكنت جماعة أيلول الأسود من اغتيال عميل للموساد. قال الميجر جنرال ياريف «إنّ موجة الإغتيالات الإنتقامية التي شنّتها إسرائيل أقنعت قيادي منظمة التّحرير أنْ يوقفوا عمليّاتهم الإرهابيّة في الخارج. وهذا يثبت أنّنا كنّا على صواب باستخدام هذه الوسيلة لمدة معيّنة».

غير أنّ برنامج الموساد للاغتيالات لم يوقف هجمات الجماعات خارج فتح مثل الجبهة الشّعبيّة وجماعة أبو نضال. لعلّ الرّأي الأكثر صدقاً هو الذي طرحه عرفات وسلامة بأنّ عمليّات أيلول الأسود قد أدّت دورها بالاستحواذ على اهتمام العالم. فالجميع يعرف الآن أنّ هناك قضيّة فلسطينيّة. كما أنّ القيادة أدركت أنّ الاستمرار بمثل تلك العمليّات سيقلل من تعاطف العالم مع القضية. كما أنّها أدركت أنّه لا يمكنها الإحتفاظ بالقنوات الخلفيّة مع وكالة المخابرات، إذا استمرّت أيلول الأسود في مهاجمة الأهداف في أوروبا. وأدرك عرفات أنّ القناة التي كانت تمرّ من خلال بوب أيمز إلى قيادة الوكالة، وبالتّالي إلى البيت الأبيض، قد أعطته فرصة لكي تحظى المنظمة باعتراف أمريكي يضمن حقوق الشّعب الفلسطيني لنيل الاستقلال وتقرير مصيره. وبهذا المعنى فإنّ أيمز والوكالة قد بذرا بذور التّسوية السّلميّة. كتب أيمز لصديقه زين في شهر حزيران 1974، قبل أيّام من إقناع عرفات للمجلس الوطني الفلسطيني بتقبل فكرة دولة فلسطينيّة على جزء من الأرض المحرّرة، يقول «أنا فقط وسيط، والوسطاء يمضون في العادة وقتاً طويلاً في الانتظار، وهناك قول (من صبر ظفر). وهو ما ينطبق عليك

(*) من الغريب أنّ الموساد قد اغتال عددا من الفلسطينيين ممّن ليست لهم مسؤوليّة عن عمليّة ميونخ، لكنّ المخطط الرّئيسي لها أبو داود مات ميتة طبيعيّة بسبب فشل كلويّ عام 2010.
Tevor Mostyn, «*Mohammed Oudeh (Abu Daoud). Obituary: Mastermind Behind the attack on Israeli Atheletes 1972 Munich Olympic*,» Guardian, July 4, 2010.
كما أنّه يوجد واحد على الأقلّ من الثلاثة، الذين اعتقلوا إثر العمليّة من قبل الشّرطة الألمانيّة، لا يزال على قيد الحياة.

وعليّ أيضاً. أخبر صديقنا بأنْ يتحلى بالصّبر».

سعِد أيمز بموافقة واشنطن للسّماح لعرفات وسلامة بزيارة نيويورك. لقد شعر بأنّ اتّصالاته المتقطّعة مع سلامة والعلاقة الحسّاسة التي طوّرها خلال السنوات الخمس الماضية، قد أثمرت أخيراً في تحقيق نجاح دبلوماسي ملموس. فبعد مؤتمر القمّة العربيّة في الرّباط في شهر أكتوبر 1974، أصبحت المنظمة هي «الممثل الشّرعي الوحيد للشّعب الفلسطيني.» تمنّى أيمز أن تسير واشنطن على ذلك الطريق. كما أنّ عرفات اعتقد للحظات أنّ واشنطن ستعترف به حقاً كقائد شرعي. غير أنّ كيسنجر اعترض ذلك وأصرّ أنّه يتوجّب على عرفات أنْ يعترف أوّلاً بحق إسرائيل في الوجود ويقبل دون أيّ شرط قرار الأمم المتحدة رقم 242، الذي يعترف بحدود إسرائيل التي كانت عليها قبل حرب 1967. غير أنّ عرفات لم يقدر على إقناع رفاقه بالذهاب إلى ذلك الحدّ، لأنّهم ما كانوا مستعدّين لذلك. اعتقد أيمز أنّ الجمود ليس في صالح القضيّة، وأنّه بالإمكان التّقريب بين وجهات النّظر المختلفة. واعتقد أنّ من مصلحة الولايات المتّحدة أنْ يتوصّل الجميع إلى حلّ للمشكلة الفلسطينيّة المحيّرة. لقد فتحت الدّبلوماسيّة السّريّة التي اجراها مع سلامة بابا خلفيّا للحلّ السّلمي، لكنّ صانعي السّياسة، خاصّة كيسنجر، ضيّعوا الفرصة للوصول إلى حلّ شامل حقيقي. إنّ سياسة «الخطوة خطوة» التي التزم به وزير الخارجيّة الأمريكي قد ضيّعت الفرصة وسمحت لإسرائيل أنْ تؤجّل اتّخاذ قرارات صعبة من أجل السّلام، كما «أعطتهم وقتاً أكثر ليخلقوا حقائق جديدة على ارض الواقع في المناطق المحتلة». (ليس لديّ شك بأنّ كيسنجر قد تعمّد ذلك، ربّما بالتّنسيق مع الإسرائيليين - المترجم) كان أيمز فخوراً بما حقق، لكنّه شعر بالمرارة أيضاً.

وحتّى لو لم يكن سلامة عميلاً رسميًّا، فإنّ أيمز على الأقلّ اعتبر نفسه مسؤولاً جزئياً عن جلب ذلك الثّوري الفلسطيني إلى دائرة الضّوء. كانت تلك خطوة للشّرعيّة السّياسيّة والابتعاد عن الإرهاب. لقد كان سرًّا مكشوفاً في الوكالة أنّه هو الذي أثّر على MJTRUST/2، وأنّ البعض مع ذلك عرف أنّ أيمز نجم صاعد. كما أنّهم عرفوا أنّه البالغ من العمر 39 عاماً «حواريّ» لهلمز. وذلك وحده كان كاف لأنْ يجعله شخصاً متفرّداً.

خلال مسلسل الحوادث بين عامي 1973- 1974، كان أيمز يعمل في طهران بإمرة السّفير هلمز، ثم انتقل إلى الكويت. وقد طار بشكل متكرّر إلى بيروت للقاء سلامة، لكنّ عمله في طهران تطلب منه أنْ يحصل على خبرات جديدة عن الأمور التي تخصّ الإيرانيين. لقد كره المدينة «الكونكريتيّة» ولم يُعجب بالإيرانيين المحبين للمظاهر، خاصّة أولئك الذين يعملون في الدّوائر المقرّبة من البلاط البهلوي. يتذكّر أحد ضبّاط الوكالة قائلا: «كنّا في طهران مقطوعين تماماً عن المجتمع الإيراني، وكان على الوكالة أن تعتمد في كلّ شيء على جهاز السّافاك، وهو البوليس السّريّ للشّاه. كان عناصره يشعرون بالتّفوق إزاء العرب، وهو أمر أزعج بلا شكّ أيمز كثيراً. أضف إلى ذلك أنّ هؤلاء السّافاك كانوا كذابين بشكل لا مثيل له، وكان ذلك متعباً لنا. كانوا يكذبون حتى عندما تسألهم ماذا أكلوا على وجبة الغداء ذلك اليوم». وفي مجالسه الخاصّة كان يسخر من تظاهر الشّاه بالعظمة ويقلد بلهجة فارسيّة عبارة «ملك الملوك»، وشارك بعض منتسبي السّفارة أيمز تلك المشاعر. كتب أحد موظفي الخارجيّة في ذلك الصّيف تقييماً قدّمه للسّفير هلمز جاء فيه، «إنّ الشّاه في سنواته الأولى في الحكم كان عاهلاً دستوريًا وزرع الأفكار الدّيمقراطيّة التي قال إنّه تعلّمها عند دراسته في مدرسة لو روزي في سويسرا، وهي مدرسة للنّخبة في تلك البلاد(*). وإذا كان ذلك صحيحاً، فيجب القول إنّ لو روزي لم تؤكّد على تلك المبادئ. يبدو واضحاً أنّه في بداية الخمسينيات، خصوصاً بعد الإطاحة بحكومة مصدّق، فإنّ الشّاه كان مصمّماً على حكم البلاد وقيادتها كيفما يشاء». ثمّ يستمرّ الضّابط في وصف حكم محمد رضا شاه پهلوي بأنّه «نظام بدائي فجّ مثله مثل ما يقوله اللغويّون عن اللغات البدائيّة التي لها قواعد بالغة الصّعوبة. كلّ جهاز حيوي في الدّولة يديره بعض الرّجال الذين يجب أنْ يكونوا دائماً في حالة عدم الثّقة والتّناحر مع بعضهم البعض. وكلّ القوّة في يد الشّاه».

ومع ذلك، كان النّظام البهلوي حليفاً قريباً، ولذلك فإنّ واشنطن تجاهلت الضّعف الموجود فيه وعدم شعبيّته لست سنوات أخرى، أي حتّى اللحظة التي

(*) كان كاتب المذكّرة السّريّة يعرف طبعا أنّ السّفير هلمز نفسه قد امضى السّنتين الأخيرتين من مرحلة تعليمه الثّانوية في تلك المدرسة، حيث تعرّف هناك على الشّاه، الذي كان عمره حينئذ 11 عاما.

أطيح فيها «بالإمبراطور الفارسي» في ثورة عنيفة، ليس العفوّ والسّماح من ميزاتها.

في خريف عام 1973، وبعد ستة أشهر من وصوله إلى طهران، حصل أيمز على ترقية كبيرة ليكون مديرا لمحطة الوكالة في الكويت. كان السّفير هلمز هو من أعدّ لتلك التّرقية. كان بوب سعيدا جدّا بالعودة إلى شبه الجزيرة العربيّة، غير أنّ إيفون تبرّمت لأنّ العائلة ما زالت غير مستقرّة بعد، تعيش في بيت مؤقّت في طهران وقت صدرت الأوامر بالانتقال. عندما وصلوا إلى الكويت، كان متاعهم الذي شحنوه من واشنطن لا يزال محمّلا على ظهر باخرة متّجهة إلى إيران.

أقامت العائلة في فندق هلتن غير البعيد عن السّفارة الأمريكيّة. لكنّها وجدت بيتا مسيّجا على طراز بناء البيوت الخليجيّة. ومن سطح ذلك البيت كان باستطاعة العائلة أنْ ترى المياه الفيروزيّة للخليج. سُجّل الأطفال في المدرسة الأمريكيّة، واشترت لهم أمّهم ملابس جديدة طلبتها بالبريد عن طريق «كتالوغات» مخزني JcPenny & Sears. لم تكن توجد في الكويت خدمات تلفزيون بعد، لكنّ الأطفال باستطاعتهم أنْ يمشوا إلى السّاحل ويسبحوا كلّ يوم تقريبا. استمتع بوب بالعودة إلى الأجواء التي يفضّلها، فبدأ يستقلّ سيارته ويتوجّه للبادية ويتوقف هنا هناك للحديث مع البدو في طريقه. دُعيت العائلة في إحدى الأمسيات لتناول العشاء عند أحد الجيران. نُصبت خيمة سوداء في حديقة البيت وجاء مضيّفهم بصحن كبير مليء بالأرز وفوقه خروف مشويّ محمر. ومنذ ذلك المساء الخالد في الذاكرة تحوّل الأطفال جميعا إلى نباتيين. وحتّى اليوم، لا تقوى أدرَين على لمس اللحم، دعك من أكله.

أرسل أيمز في ذلك الخريف برقيّة إلى Fletcher M. KNIGHT، وهو الاسم المستعار الذي تستخدمه الوكالة للسّفير هلمز، اخبره فيها عن الحياة الجديدة للعائلة في الكويت. ردّ KNIGHT بالقول، «إنّني سعيد للغاية أنّ الأمور تجري بهذا الشّكل الجيّد». يفضّل أيمز كثيرا العمل الميداني في الخارج على العمل في أحد مكاتب لانغلي وحضور الاجتماعات، أضف إلى ذلك أنّ مرتّبه يكون أكثر. تولّت الوكالة دفع إيجار البيت، وكان بإمكانه استخدام سيّارات السّفارة،

كما صُرفت له مخصّصات ماليّة إضافيّة. وطبعا كانت السّفارة تدفع له ما يصرفه خلال اجتماعاته السّريّة مع العملاء. كان يعمل تحت إمرته في محطة الكويت ضابطان. وكان الثلاثة في الغالب يرسلون ما يقرب من 20 تقريرا في الشّهر.

تمكّن خلال وجوده هناك من تجنيد عميل فلسطيني يبدو أنّه على معرفة واسعة بالسّياسات الفلسطينيّة والكويتيّة. أعطى بوب هذا العميل السّري اسما هو MJVOICE/1، وكانت له ارتباطات قويّة **بالجبهة الشّعبية الدّيمقراطيّة لتحرير فلسطين**. اعتمد على المعلومات التي وفّرها له MJVOICE/1. يتذكّر ديفد ريف، وهو ضابط للوكالة كان مركزه بيروت، أنّ أيمز كان يقدّم تقارير تتسم بالعمق عن المشكلة الفلسطينيّة. كانت تلك التقارير تشير إلى أنّ العميل الفلسطيني المذكور يتمتع بقدرة تحليليّة فائقة ويأتي بوجهات نظر فريدة. كان ريف قد عرف أيمز في بيروت وأحبه. غير أنّه بدأ يغيّر رأيه فيه بسبب هذا العميل. حين قابل ريف MJVOICE/1 في بيروت لم يترك لديه أيّ انطباع جيّد. «استخدمت تقارير بوب السّابقة في محاولة منّي أن اجعل MJVOICE/1 يخبرني ماذا يجري في بيروت، ولم أحصل منه على ما أريد. بالتّأكيد أنّه لم يقدّم لي معلومات بمستوى ما كان يقدّمه لبوب». بدأ ريف يتساءل إنْ كان «بوب» يستعمل اسم هذا العميل لكي يعبّر عن آرائه. «لم يظهر هذا الشّخص امامي على تلك الدّرجة من الذكاء». وهو يعرف أنّ الموقف إحراج مهني، لأنّه يعتقد أن ضابط الوكالة يجب أنْ يميّز بين ما ينقله المُخبر وبين رأيه الشّخصي الذي يطرحه باعتباره اخبارا مصدرها ذلك المُخبر. اعتقد أنّ أيمز قد تجاوز القيود والمبادئ المهنيّة. من جهته، سمع أيمز شكاوى من MJVOICE/1 عن لقائه مع ريف. فأرسل برقيّة إلى مدير محطة الوكالة في بيروت، جون سيدل اقترح فيها تعيين ضابط آخر ليتولى الإتّصالات بذلك العميل الفلسطيني، غير أنّ سيدل تجاهل تلك البرقيّة.

عاب البعض من زملاء أيمز في الوكالة عليه أنّه يفصح عمّا في نفسه دون أيّ اعتبار، ويقول غراهام فولر: «إنّ بوب يمتلك ذكاء فطريّا لمعرفة نقاط ضعف الآخرين». أعجِب فولر به ووجد أنّ بينهما الكثير من الأشياء المشتركة. لكنّه أحسّ في إحدى المرّات أنّ بوب قد تجنّى عليه. يبدو أنّه أسرّه بصراحة عن بعض الشّكوك حول كيفيّة التّعامل مع المخبرين العاملين معه. وبعد اسابيع صُدِم

فولر عند استلامه برقيّة من أيمز انتقد فيها طريقة عمله. كان الإنتقاد يقوم أساسا على الأمور نفسها التي أسرّه بها. «لقد شعرت أنّ أمانتي معه قد استخدمت ضدّي»، حسب قوله. «وهو الأمر الذي جعلني ألتزم جانب الحذر منه. في الحقيقة، أنّني لم أختلف معه في أحكامه حول القضايا المهمّة، ولكنْ داخل الوكالة يمكن أن يلعب معك لعبة القط والفأر. بعد ذلك، لم أعد أثق به تماما، كما كنت من قبل».

لا شكّ أنّ أيمز كان طموحا، ويلجأ البعض من أمثاله أحيانا إلى عدم التّعبير عن رأيهم صراحة. غير أنّ ذلك لم يكن من مزايا أيمز. فهو يعبّر عن قناعاته دون تردّد. ذكرت لي زوجته إيفون قائلة: «أخبرني مرّة أنّه على كلّ شخص يعمل معه أنْ يأخذ أفكاره ويجعلها قابلة للتّطبيق».

في الوقت نفسه، فإنّه مخلص بشكل لا غبار عليه لمن يعتبرهم أصدقاء له. كان هنري مكدرموت زميلا له وعمل معه في الكويت. أحبّ مكدرموت لرباطة جأشه وجرأته، فعمل ما بوسعه لحماية هنري من نقاط ضعفه. تتذكّر إيفون أنّ حياة هنري كانت خليطا من الفوضى والشّرب المفرط. لكنّ بوب كان صبورا معه واستطاع أن يتجاوز هفوات هنري الذي كان لطيفا للغاية برغم كلّ المشاكل المحيقة به عندما كانت له علاقة بإحدى السّكرتيرات. اعترض أيمز على ذلك عملا بتعاليم الوكالة، لكنّه التزم الصّمت. كان هنري في ذلك الوقت منفصلا عن زوجته منذ عام 1970. أصبحت قضيّة إدمان هنري قضيّة بالغة الخطورة. يقول هنري ملر جونز إنّ طباعه الإيرلندية الحادّة كانت سببا في ابتعاد الكثير عنه. بعد أنْ انتهى تنسيبه في الكويت، لم يكن هناك أحد ممن يقبل العمل معه. أرادت لانغلي إحالته على التّقاعد، ولكن بدلا من ذلك أرسِل لتلقي بعض الرّعاية الصّحيّة للتّخلص من مشكلة الإدمان. وهنا تدخّل أيمز وطلب من جين برغستالر الذي أصبح مدير محطة باريس أنْ يجد له مكانا في محطة الوكالة هناك بعد انقضاء فترة العلاج. كان برغستالر مثل أيمز يحبّ هنري لأنه قام في السّابق ببعض المهام الخطيرة عندما عملا معا في بيروت، فوافق على طلب أيمز.

بعد عدّة سنوات وجد هنري نفسه جالسا جنب فتاة شابّة جذابة للغاية في الطائرة المتوجّهة من العاصمة الفرنسيّة إلى نيويورك. «استغلّ توفّر الكحول في

الطائرة فبدأ يشرب»، كما يتذكّر بل فسك، وهو ضابط عمليّات سرّيّة مثل هنري. «بدأ يعيد على مسامع الفتاة قصصا عن المجموعات الإرهابيّة في باريس، بقصد نيل اعجابها». ولسوء حظ هنري تبيّن أنّ الفتاة الجذابة تعمل مساعدة في مكتب برنت سكوكروفت، مستشار الأمن القومي. أبلغت الفتاة رئيسها بما جرى، فصدرت الأوامر بإحالة هنري مكدرموت على التّقاعد مبكرا لأسباب صحيّة. أصبح بعد ذلك خزّافا يسكن في زورق في مدينة بلمار في ولاية نيوجرزي.

يستمرّ تعيين منصب مدير المحطة في العادة ثلاث سنوات، لكنّ واشنطن اعتبرت الكويت موقعا صعبا، ولذلك فإنّ المدراء هناك لم يمكثوا أكثر من سنتين. وأياً يكن الأمر انتهت مهام بوب في صيف 1975، أي بعد مرور سنتين. كتب إلى السّفير هلمز في طهران يقول: «من فضلك أخبرني إنْ كنت تريدني أنْ أفعل أيّ شيء قبل أن أغادر».

لربّما كان سبب نقله من الكويت مقالة نُشرت في مطلع عام 1975 في مجلة Counter Spy، وهي مجلة يساريّة تترصّد نشاطات وكالة المخابرات المركزيّة وتنتقدها. لقد كشفت فيها اسمه. تقول إيفون إنّه لم يكن راغبا في الإنتقال. لكن بوب لم يكن يتحدّث عن هذه القضايا، ولذلك فإنّها لا تعرف ماذا حدثّ. في شهر ديسمبر 1975، وبعد العودة إلى رستن في فرجينيا، تمّ اغتيال مدير المحطة في أثينا رچرد ولچ، وهو في بيته. كان اسمه ومركز عمله قد وردا في تلك المقالة، التي ذكِر فيها أيضا اسم بوب ومركز عمله. تمّ اغتيال ولچ على يد ناشطين تابعين لمنظمة 17 نوفمبر الثوريّة. وهي جماعة سريّة معارضة لقيام الدّكتاتوريّة العسكريّة في اليونان. من الطبيعي أنّ عمليّة الإغتيال، التي كانت الأولى من نوعها، قد هزّت كلّ من كان يعمل في مركز الوكالة في لانغلي. يقول بل نلسن، وهو ضابط كبير في الوكالة، في برقيّة أرسلها إلى دك هلمز، «إنّ الجريمة تتناسب مع ما جرى خلال تلك السّنة من الأعمال الجنونيّة».

الفصل السّابع

في مكاتب الوكالة
بين الأعوام 1976-1979

رُقي أيمز بعد عودته إلى رستن في خريف 1975 إلى منصب رئيس قسم عمليّات الشّرق الأوسط وشبه الجّزيرة العربيّة. وهذا يعني أنّه أصبح مسؤولا عن كافة العمليّات السّرّيّة في السّعوديّة واليمن والكويت وباقي المنطقة. كانت تلك ترقية هامة ضمنت زيادة مرتبه إلى درجة GS-14. وهذا يعادل مرتّب عقيد في الجيش. كان يعمل في الوكالة حينها حوالى 20000 شخص، بينهم 2500 ضابط في العمليّات السّرّيّة. كان تعيينه في ذلك المنصب مسؤولية عالية.

أدرك أيمز أنّه يعود للعمل في مركز الوكالة مصحوبا بمشاعر التّضييق. بعد أنْ ترك دك هلمز إدارة الوكالة في مطلع عام 1973، عيّن الرّئيس نيكسون جيمس شلزنجر مكانه ليقوم «بتطهيرها». قال نيكسون له «خلّصنا من هؤلاء المهرّجين. أيّ فائدة تُرجى منهم؟ لديهم 40 ألف مستخدم يقضون الوقت في قراءة الصّحف». شغل شلزنجر المنصب لمدة 17 أسبوعا فقط. وفي الوقت الذي تركه، تمّ فصل أكثر من 500 محلل وحوالى 1000 ضابط من المتمرّسين في العمليّات السّرّيّة. حلّ محله وليم كولبي، وكانت مشاعر الإحباط على أشدّها.

ثمّ جاء يوم 22 ديسمبر، حين نشر سيمور هرش قصّة على الصفحة الأولى من نيويورك تايمز بعنوان «عمليّة واسعة لوكالة المخابرات ضد مناهضي الحرب». أضحى استخدام نيكسون الوكالة للتّجسّس على منتقدي الحرب فضيحة وطنيّة. قام مجلس النّوّاب وبعده مجلس الشّيوخ بفتح تحقيق حول نشاطات وكالة المخابرات المركزيّة خلال الحقب القليلة الماضية. وفي النّهاية أصدرت لجنة چرچل، نسبة إلى عضو مجلس الشّيوخ فرانك چرچل الذي ترأس اللجنة، نتائج التّحقيق التي طُبعت في 14 جزء ضمّت الشّهادات والوثائق. استدعت اللجنة عددا من المسؤولين للإدلاء بإفاداتهم. أكثر الشّهادات إثارة، كانت تلك

التـي تـدور حـول «خطط اغتيالات لعدد من الزّعماء الأجانب». أخذ المواطنون الأمريكيّـون علمـا بـأنّ الوكالة قد وضعت خططا ونفذتها لعزل الرّئيس التشـيلي الماركسـي سـلفادور أيّندي ورئيس وزراء الكونغو پاترس لومومبا ورئيس كوبا فيـدل كاسـترو. ومـن الملفـت للنّظر أنّ اللجنـة المذكورة لم تتناول النّشـاطات المماثلة في الشّرق الأوسط (وآسيا من قبيل محاولات الإطاحة بمصدّق وناصر وقاسـم وسـوكارنو – المترجـم). كمـا وجّـه مجلس الشّـعب لومـا للوكالة لأنّها أكّدت للقيادة الأمريكيّة على عدم نيّة الرّئيس المصري أنور السّادات شنّ حرب أكتوبر في خريف 1973. «لقد تنبّأنا قبل يوم من اندلاع الحرب بأنّها لنْ تقوم»، على حدّ قول وليم كولبي. باستثناء ذلك، لم تكن هناك إشارة لنشاط الولايات المتّحدة في الشّرق الأوسط. وعليه، لم يُطلب من أيمز الحضور للإدلاء بشهادته أمام اللجنة.

فـي داخـل الوكالـة، كان هناك انتقاد شـديد لكولبي لأنّـه ضحّى «بدرّة» ما تملكه الوكالة وتعاون بشكل لا محدود مع محققي لجنة الكونغرس. اعتقد حينها أنّه لم يكن أمامه خيار آخر «في ضوء اعتبارات الوضع السّياسي الجاري حينئذ، خاصّة بعد فضيحة ووترغيت، لم يعد من الممكن أنْ تستميت في الدّفاع، لأنّ فرص نجاح مثل تلك الجهود محكوم عليها بالفشل». ومثله مثل ضباط الوكالة الآخرين، لم يكن أيمز من محبّي كولبي وكان غاضبا جدّا. يعترف كولبي قائلا: «يبدو أنّ محققي الكونغرس قد استحوذت عليهم قوى خارجيّة. لقد تمّ احتلالنا من قبل الكونغرس الذي تصفّح ملفاتنا وأهان مسؤولينا وفضح وكالتنا».

قامت لجنة چرچل فعلا بفضح أفشل محاولات الوكالة إلى حدّ أنّه خطر على ذهن البعض وجوب إلغائها. بادر هلمز بتحذير الرّئيس جيرالد فورد أنّه إذا سُمح لمحققي الكونغرس أنْ يستمرّوا بضغوطهم، فإنّ «البعض سيضطرّ لفضح الأسـرار. لا أعـرف كلّ شـيء جـرى داخـل الوكالة، ولربّمـا لا يعرف ذلك أيّ شـخص. لكنّنـي أعـرف بما فيـه الكفاية للقول، إنّه إذا اضطرّ الآخرون لكشـف الأسـرار، فإنّني بنفسـي سأسـاهم بذلك». وما عناه هلمز أنّه سيُجبَر على كشف أسرار الأمن الوطني.

كان الرّجل ذا بصيرة ثاقبة. في النّهاية كشفت اللجنة المذكورة خطة الإنقلاب

للإطاحة بالرّئيس التشيلي إيندي فاستعملها الإعلام والكونغرس خلال مراسم التّصديق على شغل هلمز منصب السّفير في إيران 1973. أنكر هلمز، وهو تحت القسم، أيّ دور للوكالة للإطاحة بالرّئيس إيندي. اضطر خلال السّنوات الأربع التّالية التي قضاها سفيرا في طهران للعودة إلى واشنطن 13 مرّة للمثول أمام لجان الكونغرس المختلفة للإدلاء بشهادته حول عدد من الأمور. شعر أيمز أنّ رئيسه قد عومل بطريقة غير عادلة، فدعاه مرّة لتناول الغداء تعبيرا للوقوف إلى جانبه. اضطر هولمز في النّهاية إلى الإقرار بالذنب أنّه كذب على الكونغرس. غرّمه القاضي 2500 دولار، وحُكم عليه بالسّجن لمدة عامين مع وقف التّنفيذ. وأخبر محاميه إدوارد بينيه وليم الصّحفيّين «أنّ هلمز يرى في قرار المحكمة بإدانته وسام شرف». وافق هلمز على تلك الصّياغة موافقة تامّة.

لقد ترتّب عن ذلك انخفاض مستوى تمويل العمليّات السّريّة خلال فترة السّبعينيات. يعود ذلك جزئيا إلى انتهاء الحرب في فيتنام. لقد تحرّك البندول نحو الجهة الأخرى وأصبح الاعتماد على العنصر البشري في عمليّة المخابرات أقلّ ممّا كان عليه. قيل حينها إنّ تجنيد العملاء عمليّة بطيئة وغير مؤكّدة ومكلفة، أضف إلى ذلك أنّ السّياسيّن في واشنطن قد ضاقوا ذرعا بنشاطات الوكالة. وهكذا عاد التأكيد على التّجسّس الإلكتروني واستخدام الأقمار الصّناعية ومراقبة المكالمات التّلفونيّة واعتراضها.

ومع ذلك فإنّه كانت تتوفر للوكالة مصادر أكثر ممّا كان يتوفّر لوزارة الخارجيّة. أخبر أيمز والدي، وهو موظف عادي في وزارة الخارجيّة، مرّة «لو كان الأمر بيدنا لدفنّاكم جميعا». قال ذلك بطريقة المزاح المشوب بالتّبجّح، لكنّ ما قاله يعكس حقيقة ما جري في السّياسة الخارجيّة. يقول ريجرد هولم، وهو ضابط متمرّس في الوكالة، «من خلال تجربتي، أستطيع القول إنّه نادرا ما اتّفق ضبّاط الوكالة مع موظفي الخارجيّة حول نظرتهم للأمور. وأدّت تلك الاختلافات إلى ضياع الثقة وتنامي الشّكّ في الأمور التي كنّا نعالجها معا». بحلول أواخر السّبعينات، كان هناك حوالى 2300 شخص في وزارة الخارجيّة يعملون حول العالم، إضافة إلى 1600 شخص في مركز الوزارة في واشنطن. كما كان لقسم الخدمات الخارجيّة 5000 شخص آخر في خارج الولايات المتّحدة

وداخلها، ومثل هؤلاء الرّجال والنّسوة وجه الدّبلوماسيّة الأمريكيّة. لكنّهم كانوا أقلّ بكثير من أعداد القوى العاملة في الوكالة التي بلغت 18000 ضابط وموظف وميزانيّة تزيد عن 5 بلايين دولار، وهو مبلغ يفوق كثيرا ميزانيّة الخارجيّة.

كان رئيس أيمز المباشر هو دوان كلارج، وهو نائب رئيس الشّرق الأوسط للعمليّات العربيّة. لا يجيد اللغة وكان أول منصب له كشاب العمل في كاتماندو في النّيبال. كما أنّه عمل في تركيا، لكنّه لا يعرف شيئا عن الشّرق الأوسط. لقد تباهى في ذلك، وعن فترة متأخّرة من ذكرياته كتب يقول: «أنا متأكّد من وجود البعض في القسم ممّن عبّر عن استيائه، لأنّ هذا المنصب قد اسنِد إليّ، وليس عندي خبرة عن العالم العربي». ولكنْ بالنّسبة إلى ديوي، فإنّ الشّرق الأوسط ليس أكثر من ثقافة «لها جذور هلينيّة وبقايا قويّة من الإرث الإسلامي المسيحي... وبشكل عام، لا تختلف كثيرا عن بعضها البعض».

اعتقد أيمز أنّ موقفا من هذا القبيل ينمّ عن الجّهل والغطرسة، وأنّ فهم ديوي للعرب «عمومي». كما كان يزعجه أنّ رئيسه هذا يستعمل الكلمة المهينة wog عند الإشارة للعرب. فهو دائما يتحدث عن «عامل الوغ» الذي يعني أنّه لا يمكن التوقع إطلاقا بما سيفعله هؤلاء الأجانب في الخطوة التّالية. من المؤكّد أنّ ديوي ليس الوحيد بين ضباط الوكالة ممن يستعمل تلك الكلمة الجّارحة. غير أنّ استعمال ديوي لها كان له وقع خاصّ في أُذني أيمز.

كان كلارج «متوهجا» بشكل لا يقدر عليه أيمز. كان يلبس بدلات الكتّان البيضاء عندما يحضر للعمل، وكان يجاهر بآرائه دون وجل. طبعا كان أيمز متميّزا بطوله الفارع وحذاء الكاوبوي ونظارة الطيّارين السّوداء، التي كان يمتلك ثلاثا منها تختلف حسب درجة الدّكن. لم يكن فعلا كاوبوي، وبالمقارنة مع ديوي، كان يُعتبر «لطيفا ولم تظهر عليه علامات تدّل على أنّه عصبيّ المزاج أو رعديد،» حسب قول هنري ملر جونز.

كان الصّدام بين هاتين الشّخصيتين أمرا حتميّا. فبوب من جهة كان شديد البراعة متعلما واسع الثقافة عن العرب، في حين كان ديوي شخصا عمليّا يحبّ أنْ يُنجز ما يقوم به. اعتقد أنّ أيمز ينظر للعالم نظرة أكاديمية «وأنّ من يحمل

شهادة الدّكتوراه لا يصلح للعمل في ميدان الجّاسوسيّة»، حسب قوله. «إنّهم مدرّبون على رؤية اللون الرّمادي فقط، وعندما تحين السّاعة لا يضغطون على الزّناد، وبالذات عندما يتعلق الأمر بتجنيد الوكلاء». لقد كان يشعر بدرجة من الإحباط إزاء أيمز، ولم يكن يفهم لماذا لم يقدر على تجنيد سلامة رسميّا. «إذا لم تستطع أنْ تطرح السؤال، فلا يجبْ أنْ تكون في هذا النّوع من المهنة»، حسب رأيه.

يظهر أنّ كلارج قد حمل في ذهنه نوعا من الشّكوك حول سلامة، وإنْ لم يكنْ بالمستطاع تجنيد مثل هذا الفلسطيني، فلا بُدّ من وجود عامل آخر. ثمّ أثار موضوع «علاقة الاتّصال بهذا القاتل» أي سلامة، وهل كانت له أيّة قيمة. وتساءل، «إن كُنّا نحن في الوكالة قد سُخّرنا لخدمة فتح». اعتقد أنّ عرفات قد استخدم «لعبة سلامة» لتمرير آرائه والتأثير على السّياسة الأمريكيّة. كما ظنّ أنّ الوكالة لم تخترق إطلاقا منظمة التّحرير، وأنّه كان هناك الكثير من الضّغط داخل الوكالة لخلق الانطباع بأنّ قنوات سلامة ذات نفع للولايات المتّحدة. أضف إلى ذلك، ثقته بأنّ المعلومات التي نقلها سلامة كان مبالغا فيها.

ذكر كلارج أنّه «في السّبعينات لم يكن لدينا عميل واحد داخل منظمة التّحرير. لا أحد». كان هناك استثناء قصير الأمد تمثل بوجود شخص ألماني اسمه Ganymede. وحتّى هذا الشخص لم يكن تجنيده من قبل ضابط في الوكالة، بل أنّه جاء طوعا. استعمل كلارج موضوع هذا الشخص للمقارنة مع سلامة. أخبر Ganymede قصّته لصحفي في جريدة دير شبيغل الألمانيّة، فقال إنّ اسمه الحقيقي هو Willi Voss وله ماض إجرامي. وجد هذا الشّخص نفسه في مطلع السّبعينات يعمل لصالح عضو منظمة فتح أبو داود. وبعد سنوات قليلة عرض خدماته على وكالة المخابرات، وأصبح الضّابط ترنس دوغلاس مسؤولا عنه. ذكر دوغلاس للصحيفة نفسها عام 2013 «أنّ ولي كان شخصا لطيفا له قدرة على الإبداع، لكنّه كان في عقله مسّ من الجنون. أمضينا أنا وهو وقتا عصيبا جدّا».تمّ تدريبه على كيفيّة استخدام الكاميرات الصّغيرة لتصوير الوثائق. حذرناه من حمل أيّة أدلة لتجريم نفسه وأعطيناه بعض الدّروس عن «ترك المعلومات» في مناطق معيّنة أو في الممرّات الكثيفة الأشجار في الحدائق العامّة، كما علمناه

حول سلامة جهاز الهاتف الذي يستعمله، وكان مستعدّا لتوقيع وثائق العمل لصالح الوكالة». بالنّسبة لكلارج كان «التّوقيع» هو المسألة الأساسيّة التي تدّل على أنّ الشّخص مستعدّ للتّعاون تماما. تمكّن ولي في مرّة واحدة فقط من تسليم الوكالة صورا لبعض وثائق المنظمة. عندما كان يقيم في شقة لأحد مسؤولي المنظمة، تمكّن من تصوير بعض الوثائق العشوائيّة. لم يكن يعرف قراءة العربيّة ولا يتحدّث بها. ولذلك فإنّه لم يكن يعرف ماذا كان يصوّر من الوثائق الموجودة في الشقة. يقول دوغلاس «إنّ المعلومات التي جاءنا بها كانت ذات قيمة عالية عن الخليّة التي عمل فيها ذلك المسؤول الفلسطيني.في شهر يناير من عام 1976، التقى كلارج دوغلاس بصاحبنا الألماني هذا في غرفة في فندق بأثينا. قام الثلاثة بمناقشة خطّة لمحاولة لإيقاع أليش رميرز سانشيز الملقب الثعلب كارلوس في أيدي وكالة المخابرات. ذكر كلارج أنّه ناقش الخطة في لانغلي قبل المجيء إلى أثينا. وأخبره أحد مسؤولي العمليّات السّريّة الكبار بأنّه «لو تمكّن ولي فعلا من الإيقاع بكارلوس، والقبض عليه حيّا، فذلك نصر للإنسانيّة أجمع...وحتّى لو قُتل خلال العمليّة، فذلك شيء لا يهمّ». وافق الألماني على الخطة التي نوقشت معه في أثينا، لكنّه تراجع بعد ذلك لأنّه «فقد أعصابه» في اللحظات الأخيرة. علم كلارج بتاريخ 18 فبراير بإصدار الرّئيس جيرالد فورد الأمر الرئاسي 11905 الذي منع بموجبه الوكالة من اغتيال أيّ احد. أصيب كلارج بخيبة أمل(*). استمرّ ولي يعمل مع الوكالة بشكل فعّال خلال الفترة 1974- 1976. كان من الصّنف الذي يعتقد كلارج بأنّ أيمز كان ينبغي أنْ يجنّد مثله. كان يريد من أيمز أن يدفع سلامة إلى «توقيع وثائق الانتماء للوكالة». غير أنّ ذلك لم يحصل، وهو ما سبّب لكلارج خيبة أمل.

توصّل كلارج في النّهاية إلى أنّ أيمز لا يصلح حقيقة للعمل في قسم العمليّات السّريّة، رغم سمعته عن خلق القنوات الخلفيّة مع سلامة والمنظمة. أصرّ كلارج فيما بعد على القول، «إن علاقتي به كانت جيّدة عندما كان مساعدي في قسم العمليّات العربيّة. إنّني معجب حقا بفهمه العميق لمشاكل

(*) ألقي القبض على كارلوس عام 1994، ويقضي الآن حكما بالسّجن مدى الحياة في أحد السّجون الفرنسيّة.

الشّرق الأوسط. ولكن بالتّأكيد أنّ هذا الفهم لم يكن أفضل ممّا اعتقده چارلي ووترمـن أو بارنـز، وغيرهمـا من ضبّاط العمليّـات. وبالتّأكيد لا يرقى إلى درجة فهم هاري فلبي والسّـير رچرد فرنســس برتن (1890-1921) أو الكولونيل وليم أدي (1896- 1962)» وغيرهما من المستعربين الأمريكيّين والبريطانيّين.

اعتقد كلارج أنّ أيمز لا يصلح للعمل في قسـم العمليّات. فهو من النّوع الـذي لا يذهـب لتنـاول الكحـول مـع أصدقائه بعد انتهاء العمل. وتسـاءل، «إنْ كان لا يشرب الكحول، فكيف يمكنه تجنيد العملاء؟» أضاف يقول، «إنّ شرب الكحول يلعب دورا اساسيّا في عمليّة تجنيد الوكلاء.» اعتقد ديوي على الدّوام أنّ اداء أيمز المهني كضابط عمليّات «رديء أو معتدل في أحسن الأحوال».

من ناحية أخرى، فإنّ ضباط قسم العمليّات نادرا ما جنّدوا العملاء. أجرت الوكالة مســحا لنشـاط قســم العمليّات خلال الحقب الثلاثة الماضية التي سبقت عـام 1985، فتوصّلـت إلـى أنّ أقـلّ مـن 0.5 بالمئـة من ضبّاط هذا القســم قاموا بعمليّـات تجنيـد للعمـلاء ممّن قدّموا معلومـات نافعة وهامّة. يقول كلارج، «إنّ تجنيد الوكلاء مهمة صعبة.» ثمّ اضاف، «حسنا، إذا كان 0.5 بالمئة من الضّبّاط قادريـن علـى عمـل ذلك، وفـي وقتي كان هناك حوالى 2000 ضابط، فهذا يعني أنّـه خـلال فتـرة 25 سـنة كانـت الوكالة قـادرة على تجنيد أكثر مـن 100 عميل. وبالمقابل، فإنّ الكثير من المصادر غير المجنّدين، كانت تُعطى لهم أسماء سريّة لكـي يمكـن تعميـم المعلومـات التي يقدّمونها، دون كشـف هويّاتهـم الحقيقيّة. لربّمـا كان لمثـل هـذه المعلومـات تأثير في خداع القيادة السّياسـيّة، لأنّها تعتقد أنّ المعلومات جاءت من عملاء رسـميّين.» ثمّ مضى للقول، «لو اسـتطاع كل ضابـط تجنيـد عميـل واحـد خلال فترة انتدابه، والتي تمتد لفترة سـنتين في كل محطّة، لكان بوسع الوكالة أن تكون لها أمواج متلاطمة من الجواسيس». إنّ ما صرح به كلارج، أصبح موضوع نكتة داخليّة.

بالتّأكيـد، كان أيمـز علـى علم بتلك الحقائق، لكنّه لم يعرْ انتقادات كلارج أيّة أهمية جدّيّة. كان يعرف أنّ لديه الكثير من الاتصالات التي توافيه بمعلومات جيّدة، خاصّة بين الفلسطينيّين، وأنّ بعضهم مثل MJTRUST/2 قد أعطوا أسماء سـريّة. وأكثر من ذلك، اعتقد أنّ كلارج واحد من ضبّاط قسـم العمليّات الذين

يتصّرفـون مثـل الكاوبوي. كان سـلوكه مدعاة لجـذب الكثير من الآراء المُعجبة بـه والمُنتقـدة لـه. ذكـر كليـر جورج، وهو أحـد زملاء ديوي بـأنّ الأخير، «كان ضابـط مخابـرات ذكـيّ جدّا. مشـكلته الرّئيسـيّة أنّـه يحبّ رؤية اسـمه يُذكر في الصّحـف». وذكـر زميـل آخر كان يعمل محللا في إدارة المخابرات، «أنّه حمار يحبّ الاستعراضات. صحيح أنّ لبوب بعض العيوب أيضا، مثل حذاء الكاوبوي ونظـارة الطيّاريـن، لكنـه حين يدخل قاعة الاجتماعات لم يكن يسـتدعي شـفقة الآخرين، كما هو حال ديوي».

أحبّ أيمز أنْ يستفزّ كلارج. ترك مكتبه في احد الأيام ذاهبا إلى نيويورك بغيـة لقـاء احـد مصادره. وقبـل أنْ يفعل ذلك التفت إلى أحد زملائه قائلا: «إذا سأل ديوي أين ذهبت، فأخبره إلى نيويورك لمقابلة مسؤول في شركة نفط كبيرة حول فرصة للعمل هناك». كان يعرف أنّ مثل هذا الكلام يجعل ديوي يستشيط غضبا. لكنّه لم يهمّ بذلك، فالأمر ليس ديوي فقط. كتب هنري ملر جونز يقول، «اخبرني في إحدى المرّات أنّه سوف لنْ يرقى لأكثر من منصب متوسّط في سلّم الإدارة، لأنّه يحبّ الاعتراضات ويقول ما يريد أنْ يقول. في الحقيقة، كان يدخل في نقاشات عاصفة مع رؤسائه حول اختيار بعض العاملين أو كيفيّة التّعامل مع وكيل معيّن، خاصّة ممّن جنّدهم، أو حول رأي سياسي ما».

كان رئيسـه الآخر في منتصف السّـبعينات هو ألن دوغلاس وولف، رئيس فرع الشّرق الأوسط وجنوب آسيا NESA. كان وولف رجلا مميزا لهذا المنصب. «كان نسـخة قصيرة ووجهه اشـدّ احمرارا من وجه الممثل البريطاني بيتر اوتول بطل فلم لورنس العرب،» كما يتذكّر هنري ملر جونز. وُلد وولف في نيويورك عـام 1928 وتخـرّج فـي جامعة كولومبيـا، قبل التحاقه بالوكالة. كان أوّل منصب لـه فـي كراچـي عـام 1951. اعتقد البعض أنّه يعاني من عقدة نابليون. فقد شـكا مرّة بأنّه من المؤكّد أنه سـيُرقى إلى منصب مدير الوكالة لو كان له طول بوب أيمز الفارع. قال كلارج عنه: «إنّه قليل الذكاء ولـم يحاول إخفاء رأيه عن أولئك الذين يعتقد أنّهم يفتقرون للمعرفة العامّة أو الخبرة الميدانيّة». اعتقد أنّه يعرف الكثيـر عـن الشّـرق الأوسـط، رغـم أنّ عمله في العالـم العربـي اقتصر على فترة قصيرة قضاها في الأردن عام 1956. كان وولف متخصّصا بشؤون جنوب آسيا،

وعمل عام 1971 كرئيس للفريق الذي مهّد لزيارة هنري كيسنجر للصّين. لا يعرف العربيّة، والحقيقة أنّه لا يؤمن بضرورة تعلم اللغات الأجنبيّة. عُرف عنه قوله المأثور أنْ لا ضابط في الوكالة يحتاج أنْ يتكلم سوى الإنكليزيّة، لأنّ أيّ شخص في الشّرق الأوسط يستحق التّجنيد للعمل في الوكالة سيكون ممّن يتكلمها! إنّ تعلم لغة wogs مضيعة للوقت». لقد كان حسّاسا سريع الغضب وأنانيّا، وكان شديد الثقة بنفسه، واعتقدت بعض النّسوة العاملات في قسم العمليات بأنّه متحيّز جنسيّا، ووصفته إحدى نساء الوكالة بأنّه غير مهذب.

كان وولف شديد الاعتداد برأيه وطموحا. يتذكّر احد ضبّاط الكبار، «كان من نوع الرّجال الذين يتعمّدون الظهور بمظهر غير محبّب». في إحدى الأمسيات في مطلع 1975، قُدّم وولف للقائم بالأعمال الإسرائيلي في حفل استقبال دبلوماسي في واشنطن. كان ذلك بعد وقت قصير من قرار بل كولبي بإبعاد جيمس جيزس إنغلتن(*)، الذي كان يدير المخابرات المضادّة ويسيطر على كل ما يتعلق بالقضايا الإسرائيليّة وكأنّها إقطاعيّة خاصّة به. انزعج الإسرائيليّون من تلك الخطوة لأنّهم شديدو الشّك بقسم الشّرق الأوسط وجنوب آسيا. احتجّت تل أبيب رسميّا على وضعها في الخانة نفسها مع العالم العربي، وأنّها يجب ألّا تكون لها علاقة مع ضبّاط الوكالة المُستعربين لأنّها تعتبرهم منحازين للجانب العربي وينتقدون إسرائيل. وعليه، حين قابل الدّبلوماسي المذكور وولف قال له:

«ألن جاء إلى علمي أنّك ستكون مسؤولا عن قضايا إسرائيل».

اجاب وولف، «نعم، لقد آن الأوان».

قال الملحق، «حسنا، ولكنْ حسب علمي أنّك معادٍ للسّاميّة؟»

ردّ وولف بحدّة، «نعم، وأنت على صواب. إنّني أعرفكم أنتم السّاميين جميعا على اختلاف أنواعكم، ولا تساوون عندي قرشا!»

لقد أزعج وولف بملاسنته تلك العديد من النّاس، ومع ذلك فإنّه ترقى

(*) في ربيع 1987 كان إنغلتن في أيّامه الأخيرة يعاني من مرض سرطان الرّئة. اخبر رئيس الموساد إفرايم هاليفي، «الذيّ اعتراف. لقد كنت واثقا بكم أنتم الإسرائيليّين، ولكن ليس تماما. ولذلك عملت على اختراق جهازكم». ذكر هذا الضّابط الإسرائيلي الكبير الذي روى القصّة وعلق بمرارة قائلا، «كان ينوي زرع الشّكوك حتّى وهو على فراش الموت». كما ذكر هاليفي، أنّ الوكالة حاولت تجنيده مرّتين.

بسرعة في صفوف الوكالة. كان لمكتبه شبّاك صغير يطلّ على المدخل الرّئيسي لمبنى الوكالة في لانغلي في فرجينيا. من الغريب أنّه توجد على طاولته صورة لفتاة جذابة بلباس غابات الأمازون وهي تحمل رشاش AK47 وتقفز في الهواء. تعلم أيمز خلال السّنوات القليلة القادمة ألّا يثق بأحكام هذا الرّجل ولا بتقديراته.

وكما هو الحال مع ديوي كلارج، لم يفهم وولف لماذا لم يبذل أيمز جهودا أكثر لتجنيد «أصدقائه». عندما جاء مصطفى زين إلى واشنطن زائرا، أخذ أيمز وولف معه ليقابل زين في الفندق. يقول زين، «باشرني بالسؤال، لماذا أقوم بكلّ هذه المهام دون مقابل؟» ردّ زين، «لو أخذت منكم مقابلا عمّا أخبركم به، فسوف لن تحترموني، أو تصدّقوا ما أنقل إليكم من المعلومات». فجابه وولف، «كافة العملاء مدفوعون لنيل المال، وليس البحث عن الحقيقة». ردّ زين بشكل حاسم، «يا سيّد وولف، أنا أبحث عن الحقيقة».

حين باشر أيمز عمله كرئيس للعمليّات السّريّة في شبه الجزيرة العربيّة، كان عمله إداريّا. واعتمادا على ما يتوفر من المصادر فإنّ العاملين معه أحبّوه كثيرا. يقول چارلي ألن، ضابط الوكالة الذي قابله عام 1973، «إنّ ضبّاط العمليّات السّريّة لا يفكّرون بمصالحهم الذاتيّة، وقد يظهرون كثيرا من التّملق. لكنّ بوب ليس من هذا النّوع. كان له شيء يخصّه وحده فقط. هو ضابط سرّي متميّز، من أفضل ما شاهدت في حياتي.» كان من ذلك النّوع من الإداريّن، يترك كرسيّه خلف الطاولة ويأتي للجلوس جنب من يريد أنْ يتحدّث معه. يتذكّر أحد زملائه قائلا: «كانت له شخصيّة محبّبة، هو شخص متّزن له خبرة في التّعامل مع الآخرين. ولذلك فإنّه ليس من المدهش أنّه كان ممتازا في تجنيد الوكلاء، وممّن يوحي لمن يتحدّث معه بثقة كاملة.

كانت طاولته نظيفة لم تتكدّس عليها أكوام الورق كالآخرين. قال في إحدى المرّات لزوجته، «أعتقد أنّ الكسل شيء معدٍ. طبع تقاريره ومذكراته بنفسه على آلة طابعة. وبعد ذلك على طابعة IBM الكهربائيّة، واستخدم إصبعين فقط، ولم يتعلم غير ذلك. كان يعجبه استعمال قلم الحبر الأخضر ويكتب على ورق أصفر. وكان مكتبه مليئا بالكتب، وليس بالأوراق.

بالرّغم من انصباب اهتمامه على شبه الجزيرة العربيّة، فإنّه لم يتخلَ عن قنواته الخلفية مع سلامة. استمرّ يثق به وكان يحبّ فيه سلوكه البسيط المجبول بالنّكتة. يقول چالز وافرلي، الذي تولى مسؤولية التّواصل مع سلامة خلفا لأيمز بعد عدّة سنوات، «كنّا ننظر لسلامة باعتباره شخصا متفتح العقل، وأنّ أيمز قد شجّع تلك الخصلة فيه ورعاها وأولاها اهتمامه». وفي وقت معيّن قرّر أنْ يهدي له شيئا يعتزّ به. كان يعرف أنّ سلامة ليس ثوريّ صالونات فقط. كان يتنقل من مكان إلى مكان وهو يحمل مسدّسا على حزامه. وعليه عزم أنْ يهديه مسدّسا أمريكيّا. عرف أنّه لا بُدّ من الاستحصال على موافقة لانغلي أوّلا. لم يوافق المركز على الفكرة لأنّهم اعتقدوا أنّ ذلك يتجاوز الحدود الأخلاقيّة. لربّما تعاملت الوكالة مع إرهابيّ، لكنّها لم تفكر بإهدائه مسدّسا. كانت البرقيات تمضي جيئة وذهابا، وأصرّ أيمز على طلبه، وأنّه لن يتنازل عنه. وافقت الوكالة على الفكرة، لكنّها اشترطت عليه أنْ يكون ذلك المسدّس بدون زناد. ردّ بأنّ ذلك سيكون إهانة لعلي، فاضطر في النّهاية أنْ يتخلى عن الفكرة.

ربّما لم يكفّ أيمز عن فكرة تجنيد سلامة تماما، وقد تكون فكرته لإهدائه مسدّسا أمريكيّا دليلا على ذلك. لقد عرف أنّه لو تحقق ذلك فإنّه سيتطلب وقتا طويلا وتاريخا من علاقات الصّداقة التي خبرها الزّمن. فالخط الفاصل بين التّجنيد والعلاقة دقيق. يتذكّر هنري ملر جونز، «بلا شكّ، حاول أيمز أن يُبعد ولاءات MJTRUST /2 عن عرفات تدريجيّا. فعل ذلك باستجلاء آراء سلامة الشّخصيّة وتحليلاته. كان يشجّعه أنْ يعبّر عمّا يعتقده بالمقارنة مع آراء عرفات وغيره من قياديّي المنظمة. (القصد هو دقّ إسفين في العلاقة - المترجم). حاول أن يستدرجه «ليتخرّج» من تلك المدرسة، مع علمه التّام أنّ سلامة لو جازف بعبور الخط واختلف مع الخِتيار، فإنّه يخاطر بعمله أو ربّما بأسوأ من ذلك. وإذا ما حاول قبول أيّ شيء ماديّ من أيمز، فإنّه كان يعرض نفسه لتهمة التّجسّس للأمريكيّين، خاصّة إنْ لم يُخبر قادته في فتح عن ذلك. هذا هو الخطّ الدّقيق الفاصل بين التّجنيد وعدمه.

يبدو أنّ سلامة عرف أصول اللعبة جيّدا، وأنّه قد مشى بمحاذاة ذلك الخطّ بحذر شديد. عرف كيف يلعب لعبته. يقول جاك أوكونول رئيس محطة الوكالة

في الأردن، «كانا يحاولان تجنيد بعضهما البعض. كان أيمز سلامة صديقين حقيقيّين.» يُخبرونك في الوكالة ألّا تقع في حبّ من تحاول تجنيده»، حسب قول هنري ملر جونز. «لكنّ القلة يفعلون ذلك فيُحرمون من التّرقية لمناصب عالية». لكنّ أيمز كان مختلفا. هناك سؤال مفتوح عام 1975 عن المنصب الأعلى الذي يمكن أنْ يحصل عليه في الوكالة، وأنّه لنْ يترقى لأنّه معروف بقناعاته ومشاعره. ومن جهة أخرى كان كفوء ومؤثرا. في وقت مبكّر من تلك السّنة وخلال سفراته المتكرّرة إلى الكويت وبيروت، استطاع أنْ يحصل من سلامة على تعهد بحماية امن السّفارة الواقعة في المنطقة التي تسيطر عليها المنظمة في رأس بيروت. وكانت القوّة 17 هي المسؤولة طبعا عن حماية عرفات نفسه. وكجزء من الاتّفاق بين الجّانبين، وافقت الوكالة على تأمين تدريب محدّد لأعضاء القوّة 17. وهذا يعني أنّ الوكالة تقوم الآن بتدريب رجال الحراسة الخاصّة بالرّئيس عرفات.

بانتهاء حرب فيتنام في شهر إبريل 1975، وصلت مساهمة الوكالة الكبيرة في العمليّات السّرّيّة إلى نهايتها. ورغم أنّ العدد الكلي لتلك العمليّات قد انخفض في مطلع السّبعينات، لكنّها استمرت تحظى بنسبة 37 بالمئة من مجموع ميزانيّة الوكالة. إنّ جزءاً كبيرا من تلك الأموال كان يُصرف في الشّرق الأوسط، لأنّه أصبح منطقة للعمليّات. ففي الوقت الذي أصبحت فيه برلين عاصمة للتّجسس في بداية الحرب البـاردة، أضحت بيروت المكان الذي يجب أن تتواجد فيه لتدير أيّة عمليّة. ولذلك فإنّه حين عُرض على كلير جورج منصب مدير محطة الوكالة في بيروت، اعتبر ذلك التّعيين مكافأة ممتازة.

غير أنّه ما إنْ وصل جورج إلى بيروت حتّى بدأ اللبنانيّون يقتلون بعضهم البعض بشكل وحشي في حرب أهليّة طاحنة قاتلت فيها المليشيات المارونيّة المسيحيّة ضدّ تحالف مكوّن من الدّروز والسّنّة والشّيعة. كتب سعيد أبو ريش، الصّحفي الفلسطيني الذي أمضى جزء كبيرا من حياته في بيروت يقول، «لم أفكّر بلبنان كبلد، بل كنت اعتقد أنّه فكرة ممتازة، في أساسها فكرة ممتازة». حتّى عام 1975 كان لبنان حقاً فكرة لكل الشّرق الأوسط، كنموذج لتعايش الأقليّات الدينيّة والقوميّة لخلق مجتمع مدني متحضّر. ولكن فجأة سقط كلّ شيء. يمكن القول إنّ المأساة تعود لتاريخ 13 إبريل 1975، وهو يوم مجزرة

الحافلة التي قُتل فيها 27 شخصا من الفلسطينيّين والمسلمين على يد رجال المليشيا المارونيّة. وطبعا، تلك المجزرة المريعة سبقتها بعض الحوادث الأقلّ دمويّة. لكن في رأي المؤرّخين كانت حادثة الحافلة (البوسطة) الشّرارة التي أشعلت الحرب الأهليّة التي استمرّت 15 عاما. تفاوتت تقديرات القتلى بين 130 ألف إلى 250 ألف. قاتل الموارنة للدفاع عن لبنان بقيادة نخبة من صفوفهم، بالرّغم من أنّهم في السّبعينيات كانوا أقليّة مسيحيّة عريقة، عند مقارنتهم بأعداد الدّروز والسّنّة والشّيعة المتزايدة، والتي أسس كلّ منها مليشيا خاصّة به. كانت منظمة التّحرير الفلسطينيّة تمثل اللاجئين الفلسطينيين، الذي بدأوا ينجذبون نحو القتال ضدّ المليشيات المارونيّة وجناحها اليميني الكتائب. وفي النّهاية، تدخّل الجيش السّوري لصالح الكتائب أوّلا، وقاتل الفلسطينيّين وحلفائهم من الدّروز والمسلمين السّنّة. لقد كانت فوضى دمويّة تغيّرت فيها الولاءات العشائريّة والمذهبيّة من حين لآخر.

استبيحت بيروت وأصبحت ساحة ساخنة لتلك الحرب الأهليّة. ذكر جورج لأحد أصدقائه، «لكلّ شخص في بيروت أجندته الخاصّة التي يحميها بندقيته. وأنّ تلك الأجندة يمكن أنْ تذهب بأيّ اتّجاه، ومعه يتغيّر اتّجاه فوهات البنادق». ولكنْ حين وصلت الحال إلى أسوأها، كانت قيمة سلامة تزداد في عيون الأمريكيّين. أصبح ضروريّا لضمان أمن السّفارة هناك. لقد تأكّد ذلك في شهر حزيران 1976 بعد أنّ تمّ اغتيال السّفير فرانسس ملوي والقنصل التّجاري روبرت وورنغ. رغم الخطر المحدق، قرّر السّفير ملوي المحافظة على موعد له مع رئيس الجمهوريّة إلياس سركيس في شرق بيروت. استقلّ السّفير والقنصل سيّارته المصفحة، التي قادها سائق لبناني عمل في السّفارة لفترة طويلة. من الغريب أنّ السّيّارة انطلقت دون حماية مسلحة. وفي النّقطة التي اجتازت فيها الشّارع نحو المنطقة الشرقيّة التي يسيطر عليها المسيحيّون، أوقفها شخص مسلح واحد واخذ ركّابها رهائن. عُثر بعد ساعات على جثث الضّحايا ملقاة في مزبلة. واعتمادا على ما كتبه جنثن راندل مراسل واشنطن پوست في ذلك الوقت، فإنّ ذلك الشّارع الذي يربط غرب بيروت بالشّطر المسيحي من بيروت الشّرقية، كان تحت سيطرة مليشيا لبنانيّة تابعة لحزب العمل الاشتراكي اللبناني،

ولها علاقة «غير وثيقة» مع الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين.

ظلت هويّة القتلة ودوافعهم مجهولة حتّى الآن. أياً يكن الأمر، فإنّ فتح لم تكن هي من قتل السّفير والقنصل والسّائق، وأنّهم لم يُقتلوا وهم تحت حمايتها. بتاريخ 20 حزيران 1976، تمّ نقل جثماني السّفير والقنصل من لبنان بواسطة موكب سيّارات انطلق نحو الجبّال ومنها إلى سوريا. كان مطار بيروت مغلقا، وحتّى النّقل عبر الموانئ كان محفوفا بالمخاطر. رتّب سلامة تلك المهمّة ووعد سام وايمن بالقول، «سأنقلكم عبر الخطوط الفلسطينيّة.» وفى بوعده، ويقول وايمن، «ما أنْ تجاوزنا تلك الخطوط حتّى تعرّضنا لنار المليشيات المسيحيّة المارونيّة، غير أن الوحدات السّوريّة ردّت عليها فأسكتتها. إنّ علي سلامة هو من أخرجنا. كنّا صديقين قريبين، وكان ذكيّا ومثقفا واقعيّا».

بعد إجلاء منتسبي السّفارة البالغ عددهم 263 شخصا من لبنان، شكر الرّئيس فورد منظمة التّحرير لأنّها أمّنت سلامة إجلاء مواطنيه. وحتّى كيسنجر، كتب رسالة رسميّة لعرفات شكره فيها على حسن تعاونه في تلك القضيّة.

لم يعد سلامة بحاجة إلى إرسال رجاله ليستهدفوا الإسرائيليّين والغربيّين في أوروبا، لكنّه لا يزال يفرض تعليماته. ذكر چالس وافرلي يقول: «سألته مرّة عن شخص اعتقدنا أنّه ساهم ببعض الأعمال الإرهابيّة. وحين ذكرت له اسمه ردّ بأنّه لا حاجة للقلق منه فقد قتله قبل يومين». كما ذكر ضابط آخر كان يعمل في بيروت في منتصف السّبعينات أنّه ذهب مرّة إلى سلامة بشكوى مفادها بأنّه تتوفّر لديهم معلومات عن أنّ البعض من جماعته يخطط للقيام بعمل سيّء في ألمانيا. مدّ سلامة يده وتناول الهاتف واتّصل بشخص وسمعه ذلك الضّابط يصرخ مخاطبا من ردّ على المكالمة، «ما هذا الهراء؟ أوقفه حالا!».

في بداية الحرب الأهليّة، اجتمع وافرلي مع سلامة في احد أوكار الوكالة. كان بإمكانهما سماع هدير مدافع الهاون في منطقة قريبة. قال وافرلي: «من الصّعب أنْ نسمع بعضنا بعضا وسط هذا الهدير المدوّي. اشار سلامة إلى هاتف على الطاولة وسألني إن كان يعمل». عندما أحنى رأسه بالإيجاب، تناول سلامة ذلك الهاتف واتّصل برقم يحفظه عن ظهر قلب. وفي اللحظة التّالية سمع وافرلي سلامة يقول، «يا بشير، خلاص!» يبدو أنّه تحدّث مع بشير الجميّل قائد المليشيا

المسيحيّة وواحد من ألدّ أعداء منظمة التّحرير. بعد لحظات، توقف القصف المدفعي.

يُعتبر بشير الجميّل مناصرا للأمريكيّين، وبالتأكيد كانت له علاقة قويّة بهم. اعتقد كلير جورج أنّه «بربري» وقاتل، وأطلق عليه أيمز ببساطة لقب «أميرنا في هذه الحرب». كشف الصّحفي بوب وودورد بعد سنوات أنّ الجميّل كان عميلا مدفوع الأجر لحساب وكالة المخابرات المركزيّة، غير أنّ سام وايمن، الذي كان في موقع من يعرف حقيقة الأمر، قال إنّ وودورد مخطئ.

كان الجميّل وسلامة عدوّين لدودين وأميري حرب. في عالم بيروت السّريالي، كانا يكنّان لبعضهما الاحترام. وصف سعيد أبو ريش ذلك الرّجل وصفا قاسيا حين قال، «له وجه يشبه وجه قوّاد أو قاطع طرق ثخين، ويبدو كمراهق بشعره المطلي بالدّهن... ويتنافس مع سلامة في عدد أزرار قميصه المفتوحة». كما انتقد سلامة ووصفه وصفا لاذعا حين قال: «له عقليّة ولد عتّال يعمل في ميناء إيطالي، وأنّ بروزه كقائد للرّجال الفلسطينيّين المقاتلين يثير شكّا قويّا حول قدرة عرفات على حسن التّقييم». جلبت الموساد في شهر مارس 1976 قائد الكتائب المسيحي إلى هرزليا، وهو منتجع سياحي على البحر إلى الشّمال من تل أبيب لتبادل المعلومات المخابراتيّة ووضع اللمسات الأخيرة للتّحالف بين إسرائيل والكتائب اللبنانيّين. وفي لحظة أخذه احد ضبّاط الموساد جانبا وسأل إنْ كان بإمكانه أن يزوّدهم بمعلومات عن نشاطات سلامة وتنقلاته اليوميّة والطرق التي يسلكها في بيروت عادة. أجاب بشير بالإيجاب وأن الأمر بسيط. يُقال إنّ الموساد لم تتلقّ تلك المعلومات. من الواضح أنّ بشير الجميّل قد اعتقد بأنّ سلامة قد يكون في يوم من الأيّام نافعا له لتحقيق طموحاته السّياسيّة. كما عرف أنّه لو أزال الإسرائيليّون سلامة من المشهد، فلربّما يحلّ محله فلسطينيّ آخر أقلّ مكرا وذكاء.

في وسط الحرب الأهليّة اللبنانيّة المتأرجحة، حاول سلامة أن يعطي إشارة إلى أنّ الفلسطينيّين قد وقعوا في فخّ لبنان، لأنّ حوالى 250000 لاجئ، ما كان بودّهم أنْ ينحازوا إلى جانب دون آخر. هذا وكان سلامة قد صرّح لصحيفة مورننغ ستار الأسبوعيّة، «إنّ ما يحصل في لبنان قد شغلنا عما يجري في داخل

وطننا.» وفي مقابلة مع صحيفة يومية قال، «لقد ارتكبنا أخطاء... عاملنا اليمين اللبناني (الكتائب) كمعسكر معاد، واعتقد الكثيرون منّا أنّه يجب ألّا نتفاهم أو نتعاون معهم.» وقال لصحفي آخر، «لا يوجد خصوم دائمين ولا أعداء دائمين».

لم يكن ذلك كلاما للاستهلاك اليومي. عندما وقع داني شمعون، رئيس ميليشيا النّمور المسيحيّة اليمينيّة في يد مقاتلي منظمة التّحرير، تدخّل سلامة بسرعة وأطلق سراحه. كان يحاول أنْ يخلق لنفسه شخصيّة القائد العملي، وهناك سبب وجيه هو أنّ ذلك قد يكون نتيجة علاقته بأيمز وبالوكالة.

كان نجمه يرتفع في سماء منظمة التّحرير. بحلول عام 1976، كان قائد المخابرات والقوّة 17 بمثابة الخليفة الممكن لعرفات في حالة موت «الخِتيار». بدأ سلامة في هذا الوقت يتصرّف وكأنّه وسيط بين الأطراف المتحاربة. لم يعد ذلك المناضل المقاتل، وهذا هو «الدّور الذي ملك به قلوب الأمريكيّين لصالح المنظمة»، حسب قول بل بكلي، مدير محطة الوكالة في بيروت، الذي اختُطِف ومات في الاختطاف فيما بعد. «كانت له جاذبيّة قويّة ويجيد الإقناع ويعرف متى يحتكّ ومتى يستمع». اعتقد سام وايمن أنّ سلامة سيكون وريث عرفات الطبيعي. «لقد بذلت الكثير من وقتي بالملاطفة والتّملق لأوجّهه نحو السّياسة المسؤولة حتّى يفهم أنّه إذا كان يطمح حقا لحلّ سلمي، فيجب عليه أنْ يترك مواقعه الحصينة».

ما زال أيمز هو قناة التّواصل بين سلامة والوكالة، ولكن عن بُعد. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أنّه في واشنطن، فقد تولى وايمن ووافرلي مهمّة مقابلة ضابط استخبارات المنظمة بشكل منتظم. وكما فعل أيمز في السّابق، كانا يكلفان زين بترتيب اللقاءات. كما أنّهما حاولا وضع سلامة تحت المراقبة الإلكترونيّة. استمر في مغامراته النّسائيّة، وكانت من بين عشيقاته العديدات مراسلة ألمانيّة. يتباهى ديوي كلارج بالقول: «لدينا تسجيلات لخلوات غراميّة بينهما». من الواضح أنّ الوكالة اعتبرته حلقة تواصل ثمينة ومصدرا للمعلومات، لكنّها من ناحية أخرى، اعتبرته هدفا شرعيا يمكن مراقبته إلكترونيّا.

في شهر نيسان من عام 1976، خصّ سلامة، الصّحفيّة ناديه السّلطي ستيفن التي كانت تعمل في مندي مورننغ، بمقابلة مثيرة. وهذه الصحيفة معروفة بإجراء

المقابـلات مـع الشّـخصيّات الرّفيعـة فـي المجتمع البيروتي، وتظهـر فيها أحيانا مقابـلات جـادّة. نشـرت هـذه المرّة مقابلة مطوّلة علـى خمس صفحات أرفقت بها صورة كبيرة له. أغضبت تلك المقابلة سـام وايمن، ويتذكّر أنّه اخبر سـلامة بأنّـه «يخالـف مبـادئ المخابـرات الجّيّدة. فالإسـرائيليّون يعرفون من أنت وماذا تفعـل. يجـب عليـك التـزام جانب الحذر.» هزّ كتفيه بلا مبالاة، لأنّه اعتبر الأمر عاديّـا، وذلـك راجع للإفراط في الاختيـال والغرور والثقة الزّائدة. «اعتقدت أنّه تصـرّف بشـكل أحمـق وكأنّه (شـقي الحارة) لبيروت كلهـا». بحلول عام 1976، كان برنامجـه اليومـي منتظمـا تقريبـا. فهـو يتنقل في موكب من ثلاث سـيّارات، سيّارة أماميّة للحرس والثانية سيّارة شفرولية صالون يجلس في مقعدها الخلفي، يتبعها بيك آپ تويوتا مثبّت عليه مدفع رشـاش دوشـكا22 ملمترا. سـأله وايمن مرّة، «كيف سيؤمّن لك هذا المدفع الرّشاش الحماية في ساعة الخطر؟ إنّه إعلان للجميع بأنّك موجود في السّيّارة التي تسبق التويوتا». ضحك سلامة وقال، «إنّه مدفع رشّاش يُعتمَد عليه».

أعطي سـلامة تحذيرات مشـابهة عدّة مرّات، لكنّه كان مؤمنا بالقدر. كان يعرف أنّه نجا من محاولات عديدة للموسـاد لاغتياله. في المرّة الأولى فجّروا قنبلة أمام باب شقته في بيروت، وفي أخرى بعثوا له طردا ملغوما على أنّه مرسل من السّفارة الجزائريّة، ولم يفتحه. ثمّ اغتالوا الشّابّ المغربي في النّرويج خطأ ظنّا منهم أنّه هو. لقد فشـل الإسـرائيليّون لحد الآن في محاولاتهم. قال سـلامة مرّة عنهم «إنّهم ليسوا رجالا استثنائيين» وأنّه سيتحاشى ضرباتهم القادمة.

كان يعـرف أنّهـم إضافـة إلى ذلك يشـجّعون الآخرين لإظهاره بأنّه «سـيئ السّمعة وزير نساء ومهرّب وقاتل ومتعطّش للدّماء لا يستطيع أن ينام مساء دون أن يشهد منظر داميا... والقصد من ذلك واضح يمهد الطّريق لتصفيتي... كانوا يحاولون أنْ يجعلوا اغتيالي مشروعا».

وعلـى عكـس مـا يريدون، كان سـلامة يعيـش حياته أكثر إسـرافا. في عام 1976 كان مرتبطا بعلاقة بامرأة عمرها 24 عاما اسمها جورجينا رزق. كانت ذات جمال ساحر، وفازت قبل ستّ سنوات بلقب ملكة جمال الكون. وهي من أب لبناني وأمّ إيطاليّة. ولدت عام 1953 ونشـأت على تعاليم الكنيسـة الأرثوذكسـيّة

الإغريقيّة. بدأت كعارضة أزياء على المستوى المحلي وهي في عمر 14 عاما، وكانت تتحدّث العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة بطلاقة. كانت فتاة جميلة لا علاقة لها بالسّياسة. عندما سافرت إلى ميامي بيتش عام 1971 لتتنافس في مسابقة ملكة جمال الكون، لاحظت وسائل الإعلام أنّها أصبحت بسرعة صديقة لملكة جمال إسرائيل، أتي أورغاد. عندما سُئلت عن تلك العلاقة، أجابت جورجينا «نحن هنا لنتنافس على لقب الجّمال، وليس السّياسة». بتاريخ 24 يوليو1971 توّجها بوب بيكر شخصيّة التّلفزيون المشهور ملكة لجمال الكون. ونظرا لأنّها أوّل امرأة من الشّرق الأوسط تحظى بهذا اللقب، فقد نُشرت صورها في كافة الصّحف والمجلات اللبنانيّة والمصريّة والسّوريّة. كما أصدرت الحكومة اللبنانيّة طابعا بريديّا يحمل صورتها. ولذا عندما بدأ علي سلامة يظهر بصحبتها علنا في مطاعم الدّرجة الأولى في بيروت ونواديها الليليّة، أصبحا حديث الجميع. لقد شكّلت ملكة جمال الكون مع رئيس المخابرات الفلسطيني ثنائيّا غريبا.

في أواخر عام 1976، إثر فشل الرّئيس فورد في انتخابات الرّئاسة، اقنع أيمز مدير وكالة المخابرات المركزيّة جورج بوش أنْ يوجّه دعوة إلى سلامة لزيارة واشنطن. شعرت منظمة التّحرير بفخر عظيم، واعتبرها الفلسطينيّون «دعوة رسميّة». قام چالز وافرلي. مدير محطة الوكالة في بيروت بتقديم الدّعوة شخصيّا. كما وُجّهت دعوة مماثلة إلى مصطفى زين لكنّه رفضها قائلا: «إنّني ارغب في إثبات أنْ لا حاجة إليّ بعد لأمسك بالعلاقة السّرّيّة بين الولايات المتّحدة ومنظمة التّحرير أو احميها، وأنّ علي يعرف تماما الطريق إلى الولايات المتّحدة بدون مساعدة مصطفى زين ولا مرافقته». أظهر هنري كيسنجر وزير خارجية فورد امتعاضه الشّديد واعتراضه على زيارة سلامة، رغم علمه التّام بأنّ الرّجل هو من كان يقود قنوات الاتّصال الخلفيّة للمنظمة مع الوكالة خلال السّنوات السّبع الماضية. غير أنّ بوش استطاع إقناع الرّئيس المُنتخَب جمي كارتر ووزير خارجيّته المُرتقب سيرس فانس بأنّ زيارة سلامة تصبّ في خدمة المصالح الوطنيّة الأمريكيّة. لاحظ دوان كلارج، «أنّ بوش قد أيّد زيارة سلامة اعترافا منه بدوره في إخراج الأمريكيّين بسلام من بيروت. «وهكذا وافق فانس

على السّماح بتلك الزّيارة».

في وقت ما، اخبر سلامة صديقه أيمز بأنّه يرغب في اصطحاب جورجينا رزق معه إلى الولايات المتّحدة لأنّها تحبّ زيارة دزني لاند في كاليفورنيا وأنّهما يخططان لإجازة في هاواي. قال إنّه بحاجة لأخذ إجازة استراحة، وسأل أيمز إنْ كان يستطيع مساعدته لتحقيق ذلك، وكان الرّدّ بالإيجاب. وضمن الخطّة، فإنّ سلامة وجورجينا حضرا تحت غطاء الوكالة، وكانت زيارة سرّيّة. اعدّ أيمز كافة المستمسكات من الوثائق وتأشيرات الدّخول بأسماء مستعارة. يتذكّر أحد ضبّاط العمليّات السّريّة أنّ جلب MJTRUST /2 إلى الأرض الأمريكيّة كان أمرا حسّاسا، وكان أهم شيء هو إعداد الوثائق بأسماء مستعارة. دفعت المنظمة تكاليف بطاقات السّفر إلى نيويورك، وتولت وكالة المخابرات تغطية نفقات السّفر والإقامة داخل البلاد.

سافر مصطفى زين من بيروت إلى القاهرة ليلتقي بنائب رئيس محطة الوكالة سام وايمن، الذي سلمه ثلاث تأشيرات لسلامة ورزق ومسؤول فلسطيني اسمه زياد الحوت. في مطلع عام 1977 سافر سلامة والحوت إلى نيويورك عن طريق القاهرة. يقول كلارج الذي كان على علم بالسّفرة السّرّيّة، «تمّ ترتيب كلّ شيء من قبل دائرة الهجرة الأمريكيّة». طارت رزق من بيروت إلى نيويورك لمقابلة سلامة وسافرا معا إلى واشنطن. حيث قام أيمز باصطحاب سلامة لزيارة مركز الوكالة في لانغلي ومقابلة بعض المسؤولين. لم يعرف الإسرائيليّون بتلك الزّيارة.

أنيطت مهمة مرافقتهما بچالز وافرلي الذي اصطحبهما أوّلا إلى نيو أورلينز ومن ثمّ إلى أنهايم في كاليفورنيا لزيارة دزني لاند، وأخيرا إلى هاواي. أضيفت نيو أورلينز إلى جدول السّفر لغرض المتعة وأيضا لتبادل المعلومات المخابراتيّة بين سلامة وبعض ضبّاط الوكالة. أشار الصّحفي البريطاني پيتر تيْلر أنّ سلامة التقى مع مسؤول أمريكي كبير في أحد فنادق المدينة، وهو رئيس أيمز المباشر ألن وولف، الذي طار لمقابلة سلامة. أخبرت جورجينا الصّحفي تيلر أنّ سلامة رأى في ذلك الاجتماع خطوة جديدة لعلاقته مع الوكالة. ثمّ أضافت، «كانت اختبارا. أرادوا معرفة مزاجه وقدراته على التّعامل معهم. استمرّ الاجتماع خمس ساعات، وكان أبو حسّان يشعر بالغبطة لأنّه اجتاز ذلك الامتحان».

قد يكون أيمز قد سافر إلى نيو أورلينز للمشاركة في ذلك الاجتماع، أو ربّما اقتصر دوره على التّرحيب بسلامة في واشنطن. ووفقا لما يعتقده مصطفى زين فإنّهم اهدوا سلامة هدايا رمزيّه صغيرة شملت قِرابا جلديّا لمسدّسه. كما أنّ أيمز أهداه حقيبة يد جلديّة فيها مسجّل صوت خفيّ، يمكن أنْ تُستعمل لأغراض التّجسّس. أعطى سلامة تلك الحقيبة إلى زين فيما بعد، فاستعملها لتسجيل أحاديثه مع مختلف الأفراد.

كره علي سلامة زيارة دزني لاند لكلّ الأسباب المعروفة، لكنّه أحبّ أجواء مدينة نيو أورلينز، وكانت العطلة التي قضاها في هاواي ممتعة للغاية. حاول وافرلي أنْ يعلّمه الغوص في مياه المحيط الهادئ الفيروزيّة الضّحلة، فذكر أنّه خاف أنْ يغرق، واخبره في النّهاية أنّه لا يستطيع تعلم ذلك. «لم ادفعه لفعل ذلك، غير أنّه كان مولعا بأكل المحار البحري المثير للشّهوة. كنت اسمع مساء أصوات تأثير ذلك الولع تأتي من الغرفة المجاورة. اعتقدُ أنّ علي أحبّ جورجينا حقا».

في أواخر فبراير 1977 كلف ديوي كلارج وألن وولف أيمز ليقوم بمهمة مؤقتة أمدها ثلاثة اشهر في بيروت، فوافق في الحال، رغم أنّه تعوّد الحياة في رستن قريبا من زوجته وأطفاله. لكنّه شخص طموح يأمل في نيل منصب أعلى في الوكالة، وأنّ قبول هذا النّوع من المهام في بيروت، التي تمزّقها الحرب، يعني قبولا لأداء الواجب في ظلّ ظروف استثنائيّة صعبة.

وصل بيروت عن طريق باريس يوم 21 فبراير، وقابله في المطار أحد مسؤولي السّفارة الذي نقله بسيّارة مصفّحة بصحبة عدد من الحرس المدجّجين بالسّلاح. إنطلقت السّيّارة مباشرة إلى مبنى السّفارة الواقع في كورنيش رأس بيروت. كانت الشّوارع مقفرة مظلمة. وبين مسافة كيلومتر وآخر كانت السّيارة تتوقف عند نقاط التّفتيش التّابعة لقوّات الرّدع العربيّة للتّدقيق في هويّة الأشخاص. كانت الدّبابات السّوريّة جاثمة في حفر حول مخيّمات اللاجئين الفلسطينيّين وهي توجّه فوهات مدافعها نحو تلك المخيّمات. كان حوالى 40 ألف جنديّا سوريّا قد غزوا لبنان في العام الماضي، بهدف إحلال السّلام. كانت الرّحلة من المطار

إلى السّفارة مخيفة، واخبروه هناك أنّ العاملين ملزمون بحالة منع التّجوّل مساء، وحتّى خلال ساعات النّهار أحيانا. لم يُسمح لأيّ احد بالتّنقل داخل المدينة بدون حرس مسلحين، ويُستثنى من ذلك الملحق العسكري وضابط الوكالة بوب أيمز. شرح لزوجته إيفون قائلا: «من الواضح أنّني لن استطيع القيام بواجباتي إذا كان يرافقني حرس مسلحون».

اعطي شقة داخل السّفارة، وكان يتناول معظم وجباته في كافتريا الحرس من رجال البحريّة، ودفع 30 دولارا اسبوعيا مقابل وجبتي الفطور والعشاء. كانت شعبة تموين السّفارة توفر لهم تلك الوجبات. وفي المساء، كان رجال البحريّة يتجمّعون لمشاهدة افلام تعرض باستعمال آلة عرض من نوع 35 ملمترا. كان الملل يسيطر على كلّ من كان موجودا في المبنى بسبب محدوديّة تحرّكهم، باستثناء أيمز الذي خرج لجمع المعلومات من مصادره. استأجر سيّارة تويوتا 1974 مستعملة لا تثير الإنتباه واستعملها في تنقلاته. لم تكن المنطقة المحيطة بالسّفارة، بما فيها المنطقة التّجاريّة في شارع الحمرا وكذلك الجامعة الأمريكيّة قد تعرضت لأيّ خراب أو دمار بعد، غير أنّ الجامعة اوقفت الدّراسة في ذلك الفصل. دُمّرت معظم المطاعم كما الفنادق ومركز المدينة تدميرا شاملا. كتب أيمز يقول: «من الأفضل أنْ يزيلوا كلّ شيء ويبنوا مجدّدا. إنّ الوضع فوضى عارمة، ولا أحد يعرف إنْ كانت الحرب قد انتهت، أمْ أنّ بيروت تشهد توقفا مؤقتا للقتال. لقد ماتت بيروت. غير أنّ علامات الحياة قد عادت مجدّدا... يبدو أنّ هناك انفراجا، وأنّ التّوتر قد خفّ بعض الشّيء». ومع ذلك فإنّه وجد مهمّته محزنة. بعد ايّام من وصوله هناك تعرّضت المدينة إلى عاصفة مطريّة قويّة. كتب إلى زوجته، «يحتاج لبنان إلى الأمطار الغزيرة ليغسل الموت والأوساخ التي غطّت البلاد. سقط الثّلج في المناطق الجبليّة، كما سقط على بيروت، فلبست المدينة حلة بيضاء لبضع ساعات».

لقد عُرف عن لبنان بأنّه متنوّع الخلفيّات ومسرح لعالم الأزياء والمظاهر، لكنّه بالتّأكيد اثبت قدرته على التّحمّل، حيث يُسمع دويّ الإنفجارات وسيّارات مكافحة الحرائق وهي تسابق الرّيح للوصول إلى البنايات المشتعلة لتخمد حرائقها. كانت توجد اعداد كبيرة من مفارز السّيطرة في الشّوارع، والشّيء الجيّد

الذي نجم عن هذه الحرب، أنّه لا مجال بعد اليوم للغرور. لقد أدرك اللبنانيّون أنّ الحياة أكثر من سيّارات مرسيدس وربطات عنق إيف سانت لورين... طبعا، إنّ كلّ ذلك يمكن أنْ ينتهي بإطلاقة واحدة، فالسّلام هشّ.

تنقّل أيمز بشكل متكرّر بين شرق بيروت المسيحي وغربها المسلم، وتحدّث إلى أشخاص كثيرين من كلا الجانبين. كتب يقول، «اشعر أنّ المسلمين أكثر ميلا للوصول إلى حلّ من المسيحيّن... إنّ المسيحيّن متعصّبون، بينما المسلمون شديدو القلق، وهذا هو لبّ المشكلة اللبنانيّة. إنّني حقا، لا أرى حلّا للمسألة على المدى البعيد. يريد المسيحيّون قيام دولة خاصّة بهم تحت حماية امريكا وإسرائيل، ونحن لا نريد إسرائيل أخرى في المنطقة».

لقد كان على حقّ. فالمارونيّة المسيحيّة لم تكن مستعدّة للتنازل عن السّلطة. بدأت الحرب ثانية واستمرت لثلاث عشرة سنة أخرى. وجد أيمز نفسه مشغولا جدّا مع «كثير من الأصدقاء القدامى الذين عادوا يتّصلون بنا مرّة أخرى». أمضى ربيع ذلك العام يعيد تنظيم شبكة العملاء التي خرّبتها الحرب الأهليّة. زوّدت الوكالة ثلاثة من مخبريها باجهزة راديو للإتّصال بالمحطة في السّفارة، ووضع أيمز جدولا لهم حيث اتّصل بهم ثلاث مرات في اليوم، في السّاعة السّابعة صباحا وثانية في الخامسة وثالثة في السّابعة مساء. كان يضع سمّاعة على اذنيه ويدوّن المعلومات التي ينقلونها إليه بشكل تفصيلي. كتب لزوجته، «لقد أصبحت خادما لذلك الرّاديو». وإضافة لذلك، كان عليه أن يقابل 10 أشخاص آخرين بشكل منتظم. «لم أعمل بمثل هذا الجدّ قطّ في حياتي، والوضع يزداد سوءاً. ولأنّ السّلام يكشف العديد من الأصدقاء القدامى، فأنا متأكّد أنّ قائمتي ستتضاعف خلال وقت قصير». كان يعمل أيام الأسبوع بكاملها ولمدة 12 ساعة يوميًا. اخذ إجازة لمدة يوم واحد للإحتفال بعيد ميلاده بتاريخ 4 مارس، وكان يدير نصف اجتماعاته باللغة العربيّة.

لا شكّ أنّه كانت هناك مخاطرة كبيرة للإتّصال ببعض الأشخاص. أخبر أحد أصدقائه مرّة أنّه اضطرّ أن يختفي في صندوق سيّارة للوصول إلى وكر أحد الإجتماعات السّرّيّة. وفي مناسبة أخرى، كان يقود سيّارته ليقابل أحد المخبرين عندما اوقف في نقطة تفتيش لقوّات الرّدع العربيّة. كان الجنود أميّين

من اليمن الجنوبي. فتّشوا صندوق سيّارته فعثروا على شيء لم يشاهدوه من قبل، مكنسة كهربائيّة. أخبرهم أنّها هديّة ينوي تقديمها لأحد أصدقائه. غير أنّ الجنود اليمنيّين المتنرفزين شكّوا بأنّها قنبلة موقوتة. حاول أن يشرح لهم بالعربيّة مزايا المكنسة الكهربائيّة وكيفيّة عملها. فكّر في تلك اللحظة أنّه جاسوس قد امسِك به وهو يخفي مكنسة كهربائيّة في صندوق سيّارته، تماما مثل الموقف الذي صوّره الكاتب غرام غرين في روايته «رجلنا في هافانا». كان موقفا سخيفا لكنّه محفوف بالمخاطر. لم تكنْ المسألة أنّ بوب قد عجز عن شرح الموقف بالعربيّة، لأنّ عربيّته جيّدة. على حدّ قول اصدقائه الذين روى لهم القصّة. لكنّ المشكلة أنّ مفردات الجنود العربيّة لا تشمل عبارة «مكنسة كهربائيّة». شعر الجنود بالخوف ووضعوا اصابعهم على زناد بنادقهم، إلّا أنّه تمكّن أخيرا من إقناعهم فسمحوا له بالمرور. قال بوب: «كان الموقف حرجا لبضع دقائق».

في ربيع ذلك العام، كان أيمز ضابط الوكالة الوحيد في المحطة، لأنّ أعداد المتنسبين قد اختُزلت بشكل كبير بسبب حرب عام 1976، ولكن في أواخر مارس 1977 بعثت لانغلي مساعدا له، اسمه سانفرد درايدن. وهو ضابط جديد في الوكالة وتعيينه في بيروت هو ثاني تنسيب له. وهو ما تسبّب له في صدمة خلال أوّل مهمّة له في أحد لقاءات الأوكار السّرّيّة. علق أيمز، «لا بُدّ أنْ يشعر أيّ منّا بذلك الإحساس في المعدة عندما يدخل وكرا آمنا للمرة الأولى. ربّما ذلك شيء جيّد». قرّر أنْ يولي مسؤولية خمسة من مخبريه بذلك الضّابط الجّديد، لكنّه أصيب بالخيبة عندما عرف أنّ مستوى درايدن لم يكن بالمستوى المطلوب. أضِف إلى ذلك، أنّه لا يعرف كيف يكتب بالعربيّة(*).

كان أيمز يتناول الغداء مع عدد من الأصدقاء بينهم مصطفى زين الذي لا يزال يسكن في فندق بدفرد القريب جدّا من شارع الحمرا. لم يتأثّر بالحرب الأهليّة، والحقيقة أنّه يشغل الآن شقة في الطابق الأعلى فرشها بالسّجّاد وأثثها بالأثاث الفاخر «الذي لم يكلفه شيئا لأنّه منهوب». والحقيقة أنّ بوب لم تعجبه

(*) أصبح سانفرد درايدن فيما بعد مستعربا جيّدا وتعلم كيف يكتب بالعربيّة. شغل منصب معاون رئيسيّ لنائب مدير الوكالة لكافة العمليّات السّرّيّة.

تلك الشّقة وما فيها لأنّها كانت «مكتظة بالأثاث الحديث جدّا والقديم جدّا».

لم يعد بحاجة إلى زين ليرتّب له لقاءات مع علي سلامة. كان أيمز يرى «صديقه القديم» كلّ يوم، وهذا ما جعله مشغولا جدّا حسب ما ذكر لأيفون. إحتفل سلامة بذكرى صداقتهما واهداه مسبحة من الذهب الخالص. وبتاريخ 13 مارس 1977 اقام هو وزين حفلة عيد ميلاد متأخّرة، واهدى مصطفى أيمز مسبحة أخرى من المرجان الأبيض. كتب لزوجته مازحا: «أعتقد أنّهما يعملان على تغيير ديني!».

أخذ زين أيمز في أحد الأيّام لمقابلة زوجة سلامة، نشروان وولديهما، حسّان البالغ من العمر 12 عاما وأسامه البالغ من العمر 5 سنوات. اعتقد أيمز أنّ نشروان محبوبة وذكيّة جدّا. كان حسّان يقضي إجازة في بيروت من مدرسته الدّاخليّة في لندن. وحين عرض أيمز صور أولاده ومن بينهم صورة ابنته كرستن وقال إنّها في سنّ الثانية عشر، ردّ حسّان بأنّه يودّ أنْ يلتقي بها «خاصّة لأنّها شقراء»، كما كتب لزوجته. ختم رسالته بالقول، «العربُ عربٌ! دائما يفضلونهنّ شقراوات!» اعتقد بوب أنّ أسرة سلامة «لطيفة للغاية».

طبعا، يعرف أيمز أنّ لسلامة علاقات غراميّة، وهو أمر لم يقرّه، وفي الحقيقة اعترض عليه. كما أنّه قابل جورجينا رزق. ورغم أنّها كانت بالتأكيد لا تزال جذابة، فإنّه لم يفهم تلك العلاقة. كتب لزوجته إيفون يقول: «لا اعرف لماذا لا يزال على تلك العلاقة. أنا لا افهم ذلك. زوجته جميلة ومثقفة جدّا، وله ولدان وسيمان لطيفان». عرف سلامة أنّ أيمز لا يقرّ تلك العلاقة ورفض صراحة مقابلته في شقة جورجينا. «يقول الجّميع أنّني لو اخبرته أن يقطع تلك العلاقة لفعل لأنّه يحترمني. لكنّني متردّد في الخوض في أموره الشّخصيّة، علما بأنّ تلك العلاقة تسيء إلى سمعته». كان بوب يفكّر كصديق وربّ اسرة، وليس كضابط وكالة يودّ استغلال نقاط الضّعف في شخصيّة عميل متوقّع.

ظلّ سلامة وأيمز شريكين في تلك اللحظة الحرجة من مسار الحرب الأهليّة اللبنانيّة. حاولا أنْ يبقيا الغطاء محكما، وعرف أيمز أهميّة ذلك. كتب لزوجته يقول: «أقوم بعمل هامّ لا يقدر غيري على القيام به. أُمضي الكثير من وقتي في محاولة الإبقاء على هدوء الفلسطينيّين. إنّهم يشعرون بإحباط

عظيم لأنّ كل شيء ثابت في مكانه. وإذا زاد هذا الإحباط عن حدّه، فإنّهم قد يرجعون ثانية لممارسة الإرهاب لجذب الإنتباه وتحريك قضيّتهم. أتمنّى أنْ تضغط حكومة الولايات المتّحدة على الإسرائيليّين ليكونوا أكثر ليناً. لكنّني غير متفائل بذلك. على الأقلّ، إنّني أحاول أنْ أبقي جماعة أيلول الأسود هادئة. لكنّ المتطرفين الحقيقيّين مثل الجبهة الشّعبيّة، فهم مستعدّون للتّحرّك. لقد تحدّثت مع أحد قادتهم، وهو صديق لي، ويجب أنْ اعترف بأنّ حججه للقيام بعمل ما مقنعة، رغم أنّي لا اتّفق مع نوعية أعمالهم».

كان يجب أنْ تكون القضيّة الفلسطينيّة موضوعا أوّليّا في واشنطن. فهي الموضوع الشّائك المثير للنّزاع في منطقة قابلة للإنفجار في أيّة لحظة، ويسبّب المشاعر المعادية للأمريكيّين. غير أنّه من المثير للعجب أنّ للوكالة مصادر محدودة جدّا داخل المجتمع الفلسطيني في المنفى. ذكر ديوي كلارج أنّه، «باستثناء بعض المخبرين لا سيطرة للوكالة عليهم، ما عدا ذلك الوكيل الألماني داخل فتح. لم يكن للوكالة أيّ مخبرين مهمّين داخل الحركة الفلسطينيّة طوال فترة السّبعينات. في عام 1977 كان للوكالة إثنان أو ربّما ثلاثة فلسطينيّين ممّن استخدموا لإيقاف خطط هجمات فلسطينيّة ضدّ السّفارة في بيروت ولشبونة وربّما في عاصمة ثالثة. «كان أيمز هو القناة الوحيدة داخل منظمة التّحرير الفلسطينيّة».

إنّ القول بأنّ بوب أيمز كان متعاطفا مع القضيّة الفلسطينيّة تصريح مقصود به أنْ يصوّر الفكرة على نحو أضعف أو أقلّ مما تقتضيه الحقيقة. لقد تعاطف معهم بشكل عميق، وكان معجبا بسلامة بدرجة يصعب توضيحها، وهو الذي عرف أنه قد ارتكب اعمالا فضيعة. كتب لإيفون يقول، «من الصّعب الإعتقاد بأنّ صديقنا هو حقيقة ما يُظهره. لكنّ ذلك مبعثه الإحباط. لو حصل الفلسطينيّون على وطن لهم، لكان ذلك في صالح العالم أجمع. عندما انظر إلى ما تُسمّى شعوب ودول في افريقيا، مثل يوغندا وعيدي أمين، فلا اعتقد أنّ ذلك عدالة. وهنا شعب مثقف جدّا محروم من الوطن، في حين يأكل الأوغنديّون بعضهم البعض. ومع ذلك لهم صوت ممثل في الأمم المتّحدة! هناك شيء خطأ في مكان ما».

طغى عليه شعور بالغبطة عندما ذكر الرّئيس كارتر بتاريخ 16 مارس 1977 «وطنا قوميّا للآجئين الفلسطينيّن.» كان تعليقا محسوبا، ادلى به كارتر في اجتماع بلديّة كلينتون في ولاية ماساتشوستيس. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يستعمل فيها رئيس امريكي مثل تلك الكلمات. نشرت الصّحف اللبنانيّة التّصريح بأحرف كبيرة. وبعد ايام قليلة اخبر سلامة أيمز عن «إمتنان» الشّعب الفلسطيني لكلمات الرّئيس. كتب أيمز يقول، «اعتقد أنّنا تمكنّا اخيرا من إحراز تقدّم. يتحدّث صديقنا الآن عن بيت سيبنيه لأسرتنا إلى جانب بيت اسرته في القدس».

كان السّفير الأمريكي في ذلك الوقت ريچرد پاركر، وهو مستعرب قديم. عرف أيمز السّفير بأنّه شديد الحذر وناقد للوكالة. كتب لزوجته يقول: «لقد حصلت على احترامه المتحفظ لأنّه يعرف أنّني أعرف ما أقول وأنّني لن ادعه يتنمّر عليّ». اتّفقت آراء پاركر مع أيمز في تقييم الموارنة بأنّهم مخادعين مغرورين. كما أنّ السّفير پاركر اعتقد بأنّ زعيم مليشيا الكتائب بشير الجميّل بالذات «كذاب بارع ومنافق، ليس فيما يدّعي ذرّة من الحقيقة». كلّ من قابل دك پاركر يتّفق أنّه رجل ساخر عنيد متشبّث برأيه. اعتقد پاركر أنّ الإسرائيليّن يشجّعون الكتائب للمضي في تثبيت سطوتهم على لبنان. قال مرّة، «إنّني منزعج من غرور الإسرائيليّن وتجاهلهم للسيّادة اللبنانيّة. وبين الإسرائيليّن من جهة والسّوريّن من جهة أخرى، فليس هناك مجال للإختيار». بدأ أيمز يُعجَب بالسّفير پاركر لأنّهما وجدا نفسيهما متّفقين في الآراء حول الوضع.

شعر السّفير پاركر بعظيم الإمتنان عندما أخبره أيمز بأنّه وجد واستردّ سيارة الليموزين التي كان يستقلها السّفير فرانسس مِلوي والملحق حين اختطفا وقتلا عام 1976. كما تسلم أيمز تقريرا متكاملا من سلامة حول تحقيقاته في ظروف اختطاف السّفير والملحق وتصفيتهما. كتب يقول: «إنّ قراءة التّقرير ومعرفة ما جرى مثيرة للإشمئزاز. ولكن الآن تتوفّر كافة الحقائق للمسؤولين الأمريكيّن حول تلك العمليّة الغادرة. وإنّني بكل تواضع أقول إنّه لم يقدر أحد قبلي على فعل من هذا النّوع». غير أنّه شكا لزوجته بأنّه لم يتلق تهنئة من أيّ مسؤول في

الوكالة. الوحيد الذي اعترف بذلك هو السّفير الذي دعاه لتناول الغداء معه.

خلال شهر من وصوله إلى بيروت، بعث أيمز 60 تقريرا إلى مركز الوكالة. وهذا جعل محطة بيروت في المرتبة الأولى. كان هناك الكثير مما يجب نقله. بتاريخ 16 مارس 1977، اغتيل الزّعيم الدّرزي كمال جنبلاط. كان زعيما لتحالف قوّات الدّروز - المسلمين اليساريّة التي تدعى الحركة الوطنيّة اللبنانيّة. في مطلع الحرب الأهليّة تحالفت هذه المليشيا مع الفلسطينيّين واستطاعت السّيطرة على 70 بالمئة من البلاد. وعد جنبلاط بإنهاء النظام غير الدّيمقراطي في لبنان الذي منح التمثيل البرلماني للمسيحيّين الموارنة والمسلمين السّنّة والأقليّات الدّينيّة حسب التّعداد السّكّاني لعام 1932. سمح هذا النّظام الطائفي القديم للأقليّة المارونيّة في السّيطرة على الدّولة بشكل غير عادل. كانت الحرب الأهليّة على وشك أنْ تنتهي لولا قيام الرّئيس حافظ الأسد في عام 1976 بإرسال 40 ألف من جنوده إلى لبنان. خاف الأسد أنّ جنبلاط سيحقق وعده الذي سيُضعف ليس فقط الماكنة السّياسيّة المارونيّة، بل سيُضعف شرعيّة دكتاتوريّة حزب البعث، الذي يفضّل العلويين. وهم فئة انشقت عن الطائفة الشّيعيّة.

كان جنبلاط صوتا للتعقل والإعتدال، لكنّه كان من بين منتقدي السّوريّين. ولربما لا نجافي الحقيقة عند القول إنّ عملية الإغتيال تمّت بتدبير من الأسد. كتب أيمز، «بعد إعلان اغتياله، قام الدّروز الغاضبون بقتل أيّ مسيحي وجدوه في منطقة الشّوف،» وهي منطقة جبليّة إلى الجنوب من بيروت. والدّروز هم أيضا طائفة انشقت عن المذهب الشّيعي، مثل العلويّين في القرن الحادي عشر. قُتل حوالى 140 شخصا، معظمهم من النّساء والأطفال. ولا شكّ أنّ عمليّات القتل هذه قد زادت من حدّة التّطرف داخل الأقليّة المارونيّة. عرف أيمز عن طريق مخبريه في شرق بيروت أنّ مليشيا الكتائب بقيادة بشير الجميّل قد استغلت الفراغ السّياسيّ لزيادة تسليح نفسها. تلقت الكتائب أسلحة من إسرائيل، وفي ربيع 1977 ساعدت رجال الجميّل بتأمين الزّوارق لنقلهم إلى جنوب لبنان عن طريق البحر، حيث قاموا بمهاجمة قرى شيعيّة ومواقع منظمة التّحرير الفلسطينيّة. كان هدف إسرائيل خلق منطقة خالية من الفلسطينيّين في جنوب لبنان. كان الجميّل يقوم بالعمل القذر نيابة عن إسرائيل التي كانت تزوّده بالأسلحة والأموال التي

احتاجها لبسط سيطرة الموارنة على الدّولة اللبنانيّة بكاملها. وجدير بالذكر أنّ تلك المكائد كانت لها آثار سلبيّة ونتائج مأساويّة.

شعر أيمز بالمرارة جرّاء ما يحدث في جنوب لبنان. «إنّ القتال هناك مغامرة سخيفة، لقد أصبح المسيحيون والفلسطينيون ادوات بيد إسرائيل والنظام السّوري. وهذا هو الموقف المأساوي. النّظام السّوري واسرائيل يشعران بأنّهما على حقّ، في حين يقتل اللبنانيّون والفلسطينيّون بعضهم البعض. أنا أعرف أنّ بإمكاني أنْ أوقف الفلسطينيّين، لكنّ حكومة الولايات المتّحدة لن تضغط على إسرائيل لوقف مساعداتها للمسيحيّين. إنّي اعتقد أنّه حتّى لو قادتنا إسرائيل إلى الحرب العالميّة الثالثة، فإنّ حكومتنا لن تضغط عليها». حين انهار وقف إطلاق النّار المؤقت واستؤنف القتال في جنوب لبنان، توصّل أيمز إلى قناعة بأنّ، «إسرائيل والمسيحيّين هما من بدأها، لأنّ غالبيّة المسيحيّين يرغبون فعلا بقيام دولة منفصلة ويعتقدون أنّنا سنساعدها كما نساعد إسرائيل».

آمن السّفير پاركر ببعض تلك القناعات، وحاول أن يُقنع بشير الجميّل بأنّ هذا التّحالف العسكري مع إسرائيل عمل أحمق. كتب فيما بعد، «قام الجميّل بنقل تعليقاتي إلى مناحيم بيغن،الذي اشتكى إلى سفيرنا في تل أبيب، سام لويس. حاولت وزارة الخارجيّة الوقوف إلى جانبي، لكنّه كان واضحا أنّه لم يكن للجهات العليا أيّة نيّة لتحدّي إسرائيل أو الوقوف بوجه تأكيد حقّها في السّيطرة على جنوب لبنان».

ليس من الغريب أنّ القتال تصاعد في ذلك الرّبيع. وطبعا، كلما شنّ الفلسطينيّون هجوما عبر الحدود، ردّ الإسرائيليّون بهجمات جوّيّة تسببت في إيقاع خسائر بشريّة باهظة في صفوف الشّيعة والفلسطينيّين. كتب السّفير پاركر في مذكّراته فيما بعد، «عندما حدث ذلك، وجد الشّيعة المرعوبون أنفسهم في الوسط، فبدأوا بالفرار والهجرة شمالا نحو بيروت. أدّت تلك الهجرة إلى تفاقم حدّة الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة والأمنيّة، ومهّدت الطريق لسيطرة الشّيعة على غرب بيروت».

اجتمع أيمز مع سلامة أحيانا في مخيّمي صبرا وشاتيلا على طرف المدينة الجنوبي بالقرب من المطار، وشاهد بأمّ عينه الأعداد المتزايدة للاجئين الشّيعة

القادمين من الجنوب وهي تتدفق وتختلط باللاجئين الفلسطينيّن. إنّ النّتيجة الحتميّة للحرب الأهليّة ومحاولة إسرائيل خلق منطقة آمنة لها في جنوب لبنان قد خلقت تحالفا جديدا بين الفلسطينيّن والشّيعة، وهما افقر مكوّنات المجتمع اللبناني. أفرزت هذه الظاهرة خلال السّنوات القادمة قوّة سياسيّة جديدة اسمها حزب الله.

بتاريخ 2 ابريل من عام 1977، كان أيمز على موعد مع سلامة، فكتب إثر ذلك قائلا: «عندما وصلت إلى المكان المطلوب، أخذني بسيّارته إلى المخيّم فالتقينا بالملتحي رقم1.» لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي ألتقى فيها بعرفات. كانت اللقاءات السابقة عابرة وقصيرة، واقتصرت على تبادل عبارات التحيّة والمصافحة، لا غير. جرى هذه المرّة حوار مفتوح بين الثلاثة. كتب لزوجته في اليوم التّالي، «يبدو شكله مضحكا، تماما كما صورته، لكنّه ذكي جدّا ورجل مخلص لقضيّته. سيقفز المسؤولون في لانغلي في الهواء لو علموا بهذا اللقاء». يبدو أنّ رئيسي أيمز المباشرين وهما ديوي كلارج وألن وولف يديران حلقة محكمة. لا أحد يستطيع أنْ يفعل أيّ شيء دون علمهما. غير أنّهما لم يعرفا أنّ أيمز قد التقى عرفات. حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه إدارة كارتر تصرّ بشكل علني أنّها لا تشجّع التّعامل مع منظمة التّحرير. صرّح أحد مسؤولي الوكالة الكبار، «لا أحد في الوكالة كان مستعدّا أنْ يسمح لايمز أو لأيّ شخص آخر أنْ يتحدّث مع فتح، ما لم يكنْ ذلك عن طريق تكليف دبلوماسي».

شكّك أحد ضبّاط الوكالة بأنّ أيمزقد قام بذلك فعلا. «لو كان أيمز قد قابل عرفات أو حتّى سلامة، لكتب تقريرا عن ذلك. ولا أتذكّر استلام أيّ تقرير عن ذلك اللقاء، ومن الواضح أنّني سأتذكّره إنْ كان جرى. لربّما كان أيمز أقلّ تحفظا في تلك الفترة، ولكن ليس بهذه الدّرجة في موقف كهذا. وأكثر من ذلك، أنّنا كنّا مقيّدين من قبل الخارجيّة بعدم اجراء اتّصالات مع أيّ فلسطيني، وليس فتح فقط، لأنّهم سيوظفون ذلك سياسيّا. لقد وضع ذلك صمّاما على قدرتنا للقيام باتّصالات جديدة مع الفلسطينيّن، علما بأنّ اتّصالاتنا القائمة استمرّت في مسارها». لكنّ أيمز قابل عرفات فعلا، ولم يكتب مباشرة تقريرا عن تلك

المقابلة.

ولذا، فإنّ أيمز كان يغامر بوظيفته. فاللقاء بسلامة شيء مختلف، وأنّ تلك العلاقة كانت تُعتبر علاقة بمصدر معلومات، لكنّه لم يكن مفوضاً أنْ يقابل عرفات. يبدو أنّ سلامة قد يكون رتّب ذلك دون علم أيمز، وأنّ ذلك اللقاء كان مفاجأة له. ومع ذلك قال: «إنّه كان لقاء نافعا جدّا». وفي الوقت نفسه، أصبح على يقين بأنّه لا يستطيع أن يعمل شيئا كبيرا يمكن أنْ يغيّر السّياسة الأمريكيّة في المنطقة. «لقد كانت لحظات مملة، فلا تأخذوا الإنطباع أنّني استمتعت بها. لربّما كنت كذلك لو اعتقدت أنّها عنت أيّ شيء. لكنها لم تعنِ أيّ شيء، وهذا أمر مثبط. المشكلة أنّنا لا نتعلم».

بعد مرور 17 شهرا، اضطر الرّئيس كارتر مرغما لقبول استقالة أندرو يانغ، مندوب الولايات المتّحدة في الأمم المتّحدة. إلتقى يانغ في شقته في نيويورك بزهدي طرزي رئيس مكتب منظمة التّحرير في الأمم المتحدة. كتب الرّئيس في مذكّراته يقول: «كان قرارا منافيا للعقل أنْ لا تفاوض مع المنظمة، لأنّ المنظمة هي المفتاح لأيّة تسوية سلميّة شاملة». غير أنّ كيسنجر قد تعهّد في مذكّرة اتفاق مع الإسرائيليّين بتاريخ 1 سبتمبر 1975 بذلك. حين أخبر يانغ مندوب إسرائيل بأنّه قابل مندوب منظمة التّحرير لمناقشة قضيّة تخصّ مجلس الأمن، سرّب المندوب الإسرائيلي تلك المعلومات لأجهزة الإعلام، فانقلب الكون واضطرّ يانغ لتقديم استقالته. عرف أيمز أنّه كان يمكن أن يلقى المصير نفسه. في الحقيقة، إنّ ما عمله عندما التقى عرفات يفوق كثيرا ما قام به يانغ. لكنّه كان باستطاعته استعمال «ورقة التوت» ليغطي «إثمه» بأنّه حاول تجنيده، لأنّه ذهب والتقى عرفات لتبادل الآراء السّياسيّة معه. ولو عرف الإسرائيليّون بذلك لكانوا أعلنوا الخبر على الملأ ولاحتجّوا بأعلى اصواتهم، ولربّما كان في ذلك نهاية لحياته المهنيّة.

بمرور الوقت أصبح أيمز يميل إلى السّخريّة، وهذا ليس غير شائع لنجم صاعد في العمليّات السّرّيّة. ذكر غرام فولر، ضابط العمليّات السّريّة الذي تعكس حياته حياة زميله أيمز، «إنّ فقدان البراءة يتمّ على عدّة مراحل. في البداية تشعر بالفخر أنّك تطلع على المعلومات السّرّيّة وتنال الخبرة المباشرة

في ميدان عملك. ثمّ يتولد لديك شعور بأنّ كلّ ما تحتاجه هو أنْ تقدّم تلك الحقائق إلى صانعي السّياسة، وأنّ الأمور ستتغيّر. تعتقد أنّ بإمكانك أنّ تحدث تغييرا. ولكن تدريجيّا تدرك بأنّ صانعي السّياسة، لا يعيرون تقاريرك وحقائقك والآراء التي تزودهم بها أيّ اعتبار. ثمّ تتجلى لك الأمور بأنّ السّياسة الخارجيّة ليست مرهونة أو مدفوعة بالحقائق».

كان أيمز يبذل جهدا كبيرا في بيروت للتّعامل مع قضايا بالغة الحسّاسيّة. ارسل خلال 45 يوما ما يزيد عن 100 برقيّة عن «عمليّات». علّق على البعض منها بأنّها «بالغة الخطورة». اعتقد أنّه إذا استمرّ في كتابة برقيّاته بتلك اللهجة الحادّة، فإنّ قسم عمليّات الشّرق الأدنى سيسعى للتّخلص منه. كان يحاول أن يوقف نفسه، «إنّ قلبي سينفطر ألما!» لكنّه شعر أنّ برقيّات حادّة اللهجة «هي الطّريقة الوحيدة لكي تحظى بانتباه أولئك النّاس». لم تكن علاقته جيّدة مع ديوي كلارج. «ربّما ستؤدي برقياتي الحادّة اللهجة له أنْ يقول بأنّه لا يستطيع العمل معي. يا للموقف الرّهيب!» شكا لزوجته أنّه يعاني من ارتفاع ضغط الدّم في ربيع ذلك العام. ألقى باللوم على عمله وعلى جدوله غير المنتظم في بيروت. «أنا متأكّد أنّ كلارج لا يعاني نفس مشكلتي»، قال ذلك وهو يحاول كظم غيضه. كان وضعه الصّحّي يقلقه.

كان بوب يأمل بأنّه سيعود إلى واشنطن ليشغل منصبا مختلفا. «أشعر أنّني أستحقّ ترقية هذه السّنة. ولكنّ ذلك لن يحصل». شعر بعدم وجود اهتمام أو استحسان لجهوده. حصل على درجة GS-14 منذ سنتين، لكنّه أمِل في ترقية سريعة. «إذا تمّت ترقية جون مكاغنن (وهو ضابط عمليّات شابّ تعرّف عليه في بيروت) إلى درجة GS-15 قبلي، فسأترك هذا القسم. سيكون ذلك أمرا يصعب تحمّله». كان معجبا بـمكاغنن لكنّه لم يرَ سببا أن يترقى ذلك الشّاب وظيفيّا إلى درجة أعلى منه. «إن قناعتي تزداد يوما بعد يوم بأنّه يوجد القليل من الأشخاص ذوي الكفاءة، وأنّه يتمّ التّخلص منهم لصالح أشخاص آخرين. إنّه امر غريب».

كتب لزوجته يقول: «سمعت بشكل غير مباشر من بعض الأشخاص أنّنا هنا في هذه المحطة نقوم بعمل جيّد. لكنّني لم أسمع كلمة ثناء واحدة من

إدارة القسم، رغم أنّنا نقوم بعمل رائع. لا كلمة مديح. ثمّ يتساءلون لماذا يرغب بعض العاملين في ترك الوكالة». إنّ معظم المعلومات التي يرسلها مصدرها اجتماعاته مع سلامة. أمضى ساعات «مع صديقنا» يوم السّبت 19 إبريل، أي قبل يوم واحد من عيد الفصح، فكتب يقول: «عدّت لتوي من لقاء مع صديقنا، ولذلك لديّ الكثير ممّا يجب أن أدوّنه من الآن حتّى يوم الاثنين. ربّما سأمضي بعض الوقت من يوم العيد مشغولا بكتابة التّقارير». إنّ الجانب غير المستحسن في مهنة التّجسّس الجيّدة هو كتابة التّقارير عمّا يجري. كانت برقيّات أيمز إلى لانغلي دقيقة التّفاصيل. بالمناسبة، ما زالت تلك البرقيّات سريّة لم يُكشف عن محتوياتها حتّى اليوم.

ما زال أمامه شهر واحد فقط ليكمل تنسيبه إلى بيروت. غير أنّه بتاريخ 23 إبريل من عام 1977، تلقى مكالمة من زوجته إيفون أخبرته فيها أنّ والده ألبرت قد ادخِل المستشفى في اليوم السّابق وأنّه توفي مساء ذلك اليوم. يبدو أنّ ألبرت قد أُخبِر قبل فترة بأنّه مصاب بسرطان البنكرياس، لكنّه كتم الأخبار عن عائلته. كما أنّه كان مصابا بانتفاخ الرّئة. وبتاريخ 23 إبريل توقف قلبه عن العمل. قال سانفرد درايدن: «وقعت أخبار وفاة والد بوب عليه وقوع الصّاعقة. اعتقدُ أنّهما كانا قريبين، وشاهدته يبكيه». في اليوم التّالي استقل بوب طائرة وعاد الى البيت، لكنّ وصوله كان متأخّرا للمشاركة في مراسيم الجنازة. كان والده يبلغ من العمر 77 عاما.

بتاريخ 8 حزيران 1977 تزوّج سلامة عشيقته جورجينا رزق. لبس بدلة بيضاء للمناسبة وكانت حفلة فاخرة، فمعروف عنه أنّه يحبّ البذخ. وطبعا كمسلم، كان بإمكانه أنْ يتّخذ زوجة ثانية. لم يُطلق زوجته نشروان لكنّه لم يستطع مقاومة سحر جورجينا رزق. ذكر مصطفى زين أنّها أغوته فوقع في غرامها بعد الخلوة الأولى. أمّا عرفات فقال له بشكل صريح: «إمّا أنْ تتزوّجها أو تتركها. القادة لا يتّخذون محظيّات!».

بعد سنة من ذلك الزّواج، وبالضّبط في منتصف شهر حزيران 1978، استقلّ أيمز طائرة TWA من مطار دالاس متّجها إلى بيروت، وسافر بجواز

سفر دبلوماسي جديد رقمه X135101. غاب عن لبنان لمدة تقرب من عام، وحين طلب منه رئيسه المباشر ألن وولف أنْ يحلّ محلّ فرانك أندرسن مدير المحطة الذي غادر عائدا إلى بيته في إجازة لمدة شهر، لم يكن أيمز متحمّسا لهذه المهمّة، رغم أنّه يتلقى مخصّصات إضافيّة وتتوفر له فرصة للقاء مصادر معلوماته القدامى. السّبب هو أنّه كره الابتعاد عن عائلته. آخر شيء أخبر به إيفون هو أنْ تقوم بالكتابة إليه بانتظام. بالمناسبة، كان ينهي رسائله إليها بعبارة «بارك الرّبّ بكِ!».

وصل إلى بيروت بتاريخ 16 حزيران ونزل مؤقتا في فندق ريفيرا. إنتقل بعد يومين إلى شقة أندرسن ذات الثلاثة غرف في مبنى ألدورادو الواقع على الكورنيش، والتي تطلّ على مياه البحر الأبيض المتوسط. اعتقد أنّ أندرسن «ربّ بيت سيئ» لأنّه كان عليه أن يمضي يوم الأحد في تنظيف الشّقة وترتيبها. كان يجلس في الشّرفة ليراقب مغيب الشّمس، وكان يستغرب من وجود بعض من كانوا يمارسون رياضة العدو الوئيد وهم يرتدون ملابس رياضيّة من صنع ديور وإيف مونتا، وتساءل إنْ كان اللبنانيّون سيتغيرون. «العالم يتهاوى على رؤوسهم، وهم لا يتخلون عن المودة والأزياء».

لقد تغيّرت بيروت بشكل كبير. حوّلت المرحلة الأولى من الحرب الأهليّة بين الأعوام 1975 إلى 1978 غالبيّة بيروت ومركزها إلى أنقاض، حيث تقف على جانبي الشّوارع بنايات عالية فيها شقق فارغة وتحمل واجهاتها آثار القذائف والحرائق والقصف. فحرب 1976 التي سُمّيت «حرب الفنادق» أدت إلى تدمير فندق فينيسيا العالمي والهوليدي إن وفندق السان جورج وحوّلتها جميعا إلى حطام. وكان آخر الأحداث يوم 11 مارس حين قامت وحدة من فدائيي فتح مكوّنة من أحد عشر مقاتلا بقيادة فدائيّة اسمها دلال مغربي بالتسلل بواسطة أطواف مطاطية عبر شاطئ فلسطين المحتلة وتمكّنت من اختطاف حافلة صغيرة وقادتها جنوبا باتّجاه تل أبيب. وعندما أوقفتها دوريّة إسرائيليّة دارت معركة استمرت تسع ساعات قتِلت نتيجتها دلال ومعظم رفاقها. ومن الجانب الإسرائيلي، قّتل 37 شخصا بينهم 13 طفلا. كما قتِلت في وقت مبكّر مصوّرة امريكيّة حدث وكانت على الشّاطئ في المنطقة التي نزل فيها الفدائيّون. تُعتبر

تلك المذبحة من أسوأ ما شهدته إسرائيل من العمليات التي جرت داخلها. بعد ثلاثة ايام وبتاريخ 14 مارس 1978 دفعت إسرائيل بنحو 25 ألف من جنودها لغزو لبنان، فاحتلوا الجنوب حتى حدود نهر الليطاني. كانت نتيجة هذا الغزو الإسرائيلي سقوط عدد هائل من الضّحايا ضمّ 2000 لبنانيّا مدنيّا ودفع حوالى 250000 مواطنا للهروب شمالا كلاجئين نحو بيروت.

أصبح لبنان ساحة للفوضى العارمة، ومع ذلك كان باستطاعة أيمز أن يراقب الكثير من النّاس وهم يتمشّون على كورنيش بيروت البحري. جلس يوم الأحد الموافق 18 حزيران وكتب بخطّه الجميل رسالة من أربع صفحات إلى عائلته. كان عادة يبدأ رسائله بالقول: «عزيزتي بوني والأطفال والوحوش..».وعنى بالأطفال بناته وولديه الذين ما عادوا أطفالا و«الوحوش» هي الكلب «هانزجي» الهنغاري الأصل والقطط العديدة في البيت. «لن تعتقدوا عند النّظر من شرفتي أنّ هذا البلد ساحة حرب». قبل خمسة أيّام وبتاريخ 13 حزيران قام 600 من مليشيا الجميل القائد المسيحي الماروني بمهاجمة منطقة أخرى خاضعة لسلطة رئيس الجمهورية سليمان فرنجية، الذي اعترض على تحالف الجميّل مع إسرائيل. كان هدف الهجوم هو قتل ابنه توني فرنجيّةالبالغ من العمر 36 عاما. بعد أن قتل الكتائب 30 من حرسه الخاص، أجبروه وزوجته فيرا على مراقبة إعدام طفلتهما جيهان البالغة من العمر 3 سنوات فقط. لقد أفرغوا في جسدها الغضّ 24 طلقة ثمّ قتلوا فيرا وأخيرا أجهزوا على توني. كتب أيمز، «إنّ الإعدام وحشيّ ودمويّ، ومع ذلك مرّ القتل وكأنّ شيئا لم يكن لأنّ النّاس اعتادوا على الموت والقتل... أنا أتحدّث بشكل منطقي، وطبعا لا مجال للمنطق في لبنان».

صُدم أيمز عندما قرأ في صحيفة مندي مورننغ أنّه بعد التّصفيّة الوحشيّة، أخذ الرّئيس فرنجيّةحفيده البالغ من العمر 11 عاما ليرى بعينيه جثامين والده ووالدته وأخته الصّغيرة التي مزّقها الرّصاص وغطتها الدّماء «لكي يتذكّر الولد ما يجب عليه أنْ يفعل». اعتقد بوب أنّ ذلك هو الدّليل على أنّه «يوجد في لبنان حقد يكفي العالم بأجمعه».

تناول أيمز العشاء مع سلامة بعد يوم من وصوله إلى بيروت. لم تعد بهما حاجة للإجتماع في اوكار الوكالة أو بيوتها السّرّيّة. لقد رحّب سلامة بصديقه في

بيته، فكتب الأخير إلى زوجته، «أبلغك تحيّات صديقنا. لقد تناولت العشاء معه ومع عائلته مساء الجمعة 16 حزيران. قامت زوجته نشروان بإعداد أكلات لذيذة فأكلت حدّ التّخمة، لحدّ أنّني اكتفيت في اليوم التّالي بوجبة شاورما فقط. ناقش الرّجلان الكثير من المواضيع. وفي الأسابيع الثلاثة القادمة كان أيمز يحضر إلى بيت صديقه في السّاعة 6:30 بين يوم وآخر. كان يقضي معه حوالى السّاعة والنّصف قبل أنْ يعود إلى شقته في الألدورادو. تسببت تلك اللقاءات لبوب بكثير من القلق الذهني. كان يصحو من نومه وسط الليل «وأنا أفكّر عادة كيف أدوّن المعلومات التي أحصل عليها بين يوم وآخر خلال اللقاء مع صديقنا بين السّاعة 6:30 - 8:00 مساء».

قبل أن تبدأ الحرب الأهليّة في عام 1975 كان لبنان قطعة معقدة جدّا من «الجغرافية». وبحلول عام 1978 أصبح متاهة من السّرد الذي لا يمكن شرحه، والولاءات التي تتغيّر باستمرار. كان الفلسطينيّون عاملا في استعار الحرب ومن ضحاياها الرّئيسيّن. حاول عرفات والمنظمة في البداية وبشكل يائس ألّا يكونوا طرفا فيها. ولكن في نهاية عام 1976 لم يجدوا بُدًا من الإنحياز إلى التّحالف اللبناني اليساري المكوّن من أحزاب السّنّة والشّيعة والدّروز ضدّ المليشيات المارونيّة اليمينيّة. كان سلامة ينقل إلى أيمز ما يجري أوّلا بأول وكيف تحوّل الوضع إلى حرب طائفيّة دمويّة. بتاريخ 25 حزيران كتب إلى إيفون يقول، «ما زال لبنان ينتظر ماذا سيحدث بعد سلسلة الإغتيالات في الشّمال واستمرار المشاكل في الجّنوب. للأسف هناك تدخّل خارجي كبير في شؤون لبنان، إضافة إلى ميل اللبنانيّن إلى قتل بعضهم البعض. يحبّ الإسرائيليّون أن يبقوا الجّنوب في حالة عدم استقرار ليطردوا الفلسطينيّن من هناك، ولكي يعطوا لأنفسهم الأعذار في العودة إلى هناك متى شاءوا. أمّا الفلسطينيّون فإنّهم يريدون لبنان ضعيفا يفتقر إلى قوّة عسكريّة تضايقهم. أمّا السّوريّون فيريدون لبنان لهم».

بعد ثلاث سنوات حدث ما كان متوقعا. تمّ اختطاف 33 مقاتلا من الكتائب في منطقة بعلبك وجرى إعدامهم والتمثيل بجثثهم. اعتقد أيمز أنّ السّوريّن قاموا بذلك تضامنا مع الرّئيس فرنجيّة الذي خسر العدد نفسه من مقاتليه وابنه

توني وزوجـة ابنـه وحفيدتـه الصّغيـرة. في الوقت نفسـه، اندلعـت المعارك في شـرق بيروت بين الجيش السّـوري ومليشـيا الكتائب بقيادة الجميّل. كتب أيمز بتاريخ 5 يوليو لزوجته يقول: «أصبح الوضع في بيروت خطيرا، سـقطت بعض القذائف على بعد مئات من الياردات من شـقتي. وحين انفجرت كانت وكأنّها انفجـرت فـي غرفتـي. وفي الوقت الذي أكتب لك فيه وأنا في المكتب، أسـمع استئناف إطـلاق النّـار مجـدّدا. إنّ التّيار الكهربائي ينقطـع بين فترة وأخرى منذ ظهيرة أمس... لا أحد يخرج إلى الشّوارع هذه الأيّام ما لم يكنْ مضطرّا لذلك. أحبّكنّ وافتقدكم كثيرا. ليحفظكم الرّبّ جميعا».

من الطبيعي أنّه شعر وهو في بيروت بالعجز وإثباط الهمّة. كتب لزوجته، «إنّه لشـيء متناقض أنْ يقول الفرد أنّه مشـغول ويشـعر بالملل في الوقت نفسـه. لكنّ هذا ما أشـعر به... إنّني أعمل بشـكل أكثر ممّا عملته في بيروت سـابقا، وأقضـي سـاعات طويلـة في القـراءة والكتابـة، لكنّي ألافتقر إلـى الحماس الذي اعتـدت عليـه مـن قبـل، ولا اشـعر بأنّي انجز أيّ شـيء. أشـعر أنّنـي كتبت هذا وكـرّرت القـول. لا تغيّر فـي الموقـف. الوضـع سـيئ كمـا كان عليـه مـن قبل والحكومة الأمريكيّة لا تبدو أنّها مستعدّة لعمل ما. ولا شيء يتغيّر ما لم نعمل ما يجب عمله». ليس واضحاً أنّه يشـير إلى لبنان أو إلى مشـكلة الفلسـطينيّن المحيّرة، أو كليهما. لكنّ ضيقه بالموقف ذرعا يبدو عميقا.

كان هنـاك سـبب آخـر لانزعـاج أيمـز. تقدّم في اواخر فصـل الرّبيع بطلب للحصـول علـى منصب مُسـتحدَث في الوكالة، وهو ضابـط للمخابرات الوطنيّة NIO في قسـم الشّـرق الأدنى وجنوب آسـيا NESA. وهذا منصب جديد في ما تسـمّيه الوكالة مجلس المخابرات الوطنيّة NIC. شـعر أنّه قد وصل إلى سـقف التّرقيات في قسمه حين كان يشغل منصب المساعد الأوّل لديوي كلارج. أحسّ بـأن كلارج ورئيسـه المباشـر ألـن وولـف لـن يسـمحا له أن يترقـى إلى منصب أعلـى فـي ذلـك القسـم. اعتقد كلارج أنّ أيمـز لا يصلح أصلا كضابط عمليّات فعلي، وشاركه وولف بذلك الرّأي. ذكر ضابط العمليّات هنري ملر جونز، «أنّ الرّجلين مؤمنان بمواهب بوب الأخرى، ورغم أنهما يتغافلان عن قضيّة تعامله مـع MJTRUST /2، لكـنّ وولفـلم يسـانده صراحة للحصول على منصب أعلى

فـي القسـم. «يعـرف الإثنـان أنّ بـوب ذكي ومؤهّل لكنّهما اعتقـدا أنّه يميل إلى التّنظير وليس إلى اقتراح الحلول العمليّة. واعتقدا أيضا أنّه كان يجب أنْ يجنّد سلامة كعميل رسميّ. إنهما يعتقدان أنّه حاول وفشل».

«تمتّع بوب بسمعة في قسم العمليّات، بأنّه ذكي جدّا ومثقف»، حسب ما يتذكّر لندسـي شِـرون، الذي عمل معه في الفترة الأخيرة. أحبّ أيمز العمليّات واعتقد أنّه كان جيّدا فيها. لكنّه اعتقد أنّ العمل السّرّي يجب أن يكون له غرض أكبر من مجرّد «لعبة كبيرة». والنّقطة هنا، هي أنّ مثل هذا العمل يجب أنْ يؤثر فـي مسـرى التّاريـخ مـن أجل خلق عالم أفضل. لقد آمـن أيمز بذلك حقا. كان يريد أنْ يكون لعمليّاته السّرّيّة قدرة على اقناع واضعي السّياسة لاتّخاذ قرارات صائبة. لقد شـعر أنّه في نهاية عام 1978 وصلت السّياسـة الأمريكيّة في الشّـرق الأوسـط إلـى طريـق مسـدود. كانـت مهمّته في بيروت هي التـي جعلته يتوصّل إلـى مثـل هـذا الإسـتنتاج. «في الحقيقة، إنّني لم أسـتمتع بأيّ شـيء خلال هذا التّنسـيب المؤقـت، باسـتثناء اللقـاءات المفيدة بين فترة وأخـرى بصديقنا». لكلّ هـذه الأسـباب ترقـب معرفـة نتيجة تقديمه للمنصب الجّديد. إعتقد أنّه مناسـب جـدّا لإشـغاله. وهـذا المنصب لا يقع تحت إشـراف قسـم العمليّـات ولا إدارة المخابرات. كانت الفكرة من اسـتحداث هذا المنصب هو جمع عدد قليل من أفضل العاملين في الوكالة من ضبّاط سـرّيّن ومحللين ودفعهم للتّفكير بصورة أشمل. كان ضروريّا أنْ تتوفر لهذا المجلس كافة المعلومات من القسم والإدارة المذكورين أعلاه. وفي رأي أيمز أنّ هذا المجلس ينشـد المسـاعدة من أسـاتذة الجامعات والصّحفيّن. قال غرام فولر الذي كان ضابطا سريّا وعضوا في NIO فيمـا بعيـد، «أدركنـا أنّ كلّ المعلومـات السّـرّيّة لدينـا لا تفـي بالضّـرورة. فهذه المعلومات غالبا ما تكون عاجزة عن توفير الإجابة عن الإسئلة العميقة. الحقيقة هي أنّ السّـؤال الأهم لا يتوفر له جواب كافٍ ولا شـافٍ. كان واضعو السّياسـة يريدون أن يعرفوا إنْ كان الإتّحاد السّـوفياتي قادرا على الاسـتمرار في الوجود خلال السّنوات العشر القادمة، أو إنْ كان أنور السّادات سيبقى على قيد الحياة بعـد توقيـع معاهـدة صلح مع إسـرائيل. إذا كنّا راغبين في الحصول على أجوبة لهذه الأنواع من الأسئلة، فالأمر يتطلب التّوجّه إلى خارج الوكالة لإيجاد العقول

التي لها معرفة كافية لاتّخاذ قرارات مستقلة. وهذه العقول موجودة بين الهيئات الأكاديميّة والصّحفيّة. أقصد هنا المفكّرين المستقلين. أنْ تكون عضوا في NIO يعني عملا محفزا، وتدرك فجأة أنّ هؤلاء الأشخاص، الذين لا يمكنهم الإطلاع على معلوماتنا السّرّيّة، يعرفون الكثير».

كان الهدف من تأسيس مجلس المخابرات الوطني NIC هو تزويد واضعي السّياسة بوجهة نظر مستقلة لما يجري حول العالم. كان ذلك يمثل عودة إلى مجلس التّقديرات الوطنيّة المُبكر للوكالة عندما قام شرمن كنت من جامعة ييل وبل لانغر من جامعة هارفرد بتوظيف عدد من الخبراء بشؤون المناطق المختلفة لتزويد واشنطن بتقديرات مخابراتيّة عالميّة. في عام 1950 وعندما أخبِر بل لانغر خلال اجتماع في نادي دورچستر في بوسطن، أنّ بإمكانه أنْ يوظف جهازا يتألف من مئات الأشخاص لهذا الغرض أجاب، «إنّني أستطيع القيام بهذه المهمة بتوظيف حوالى 25 شخصا». وكما حدث في مجلس التّقديرات الوطنيّة، فإنّ مجلس المخابرات الوطنيّة المقترح سيضمّ في عضويّته الصّفوة من ذوي الإعتبار وذوي الصّبغة الأكاديميّة نوعا مّا.

لقد طمح أيمز أنْ يحصل على ذلك المنصب بقوّة. كتب بتاريخ 29 حزيران 1978 إلى زوجته يقول، «ربّما يعود سبب ضيقي وانزعاجي لأنّني لم أسمع شيئا حول طلبي لمنصب NIO... أنا متأكّد أنّ ألن وولف يستغل عدم وجودي في واشنطن ليعمل ضدّي. وحتّى لو حصلت على المنصب، فإنّ ذلك ليس ضمانا بأنّني لن أشعر بالإحباط، لأنّه سيكون لدي مجال للإطلاع على الفرص التي ضيّعناها ونضيّعها في الشّرق الأوسط».

وبعد اسبوع فقط تسلم برقيّة من لانغلي تقول بأنّه لم يتمّ اتّخاذ قرار بعد بشأن طلبه. اعتقد أنّهم حاولوا أنْ يجدوا شخصا غيره لشغل المنصب الجّديد لكنّهم لم يجدوا. شعر برغبة في الكتابة إلى المركز ليقول لهم: «إنّكم كذا كذا وسأحاول أن أبحث عن منصب آخر لدى عودتي». حالوا في لانغلي أن يقنعوه أن يكون مدير محطة الوكالة في طهران لكنّه قرّر أن يقاوم تلك المحاولة بأقصى ما يستطيع، فرد يقول: «لقد قمت بما فيه الكفاية من هذه التّعيينات». كان عليه أنْ يعود إلى واشنطن ليعرف التّعيينات الجديدة.

وجد أيمز أنّه يصعب عليه التّجوّل في شوارع بيروت. كتب لزوجته يقول: «لا أحبّ أنْ أكون في شوارع بيروت بعد حلول الظلام، فهناك الكثير من عمليّات الخطف». وإذا لم يكن الأمر لقاء مع سلامة من أجل تناول العشاء معا، كان يتناول وجبته في كافتريا حرس السّفارة. بتاريخ 14 يوليو مشى نحو مبنى الجامعة الأمريكيّة ولعب هناك كرة السّلة حتّى بدأت القذائف تتساقط. كان قد جلب معه بعض النّقود ليتبضّع في شارع الحمرا، لكنّه وجد الأسعار غالية جدّا. وقبل مغادرة بيروت بتاريخ 11 يوليو تناول عشاء فاخرا مع مصطفى زين، وكان صديقه اللبناني الشّاب يوسّع في علاقاته ويزيد من معارفه في المدينة. ربّما ما وصلت إليه حال بيروت وما آل إليه حال العلاقات العربيّة الإسرائيليّة.

في أواخر ذلك الخريف، حضر فريق من محطة أخبار NBC الأمريكيّة لإعداد فيلم وثائقي عن احوال الفلسطينيّن. ركّز الفيلم حقيقة على تدريب منظمة التّحرير للشّباب للقيام بهجمات يائسة ضدّ إسرائيل. كان فرانك رونالدز هو من علق على الفيلم وحاول أنّ يظهر حقيقة أنّ أولئك الشّباب يتدرّبون على القيام بعمليّات انتحاريّة. اثار الفيلم بعض النّقاش بين الملايين من المشاهدين الأمريكيّن. تعجّب أيمز أنّ معدّي الفيلم اجروا مقابلة مع مصطفى زين، الذي توجّه إلى المشاهدين بالسؤال، «لماذا يصعب على الغربيّن أنْ يتفهّموا حقّ الفلسطينيّن للحصول على كرامتهم في أرضهم؟ كلّ رجل وامرأة يهودي جاءوا من روسيا أو الولايات المتّحدة وغيرهما، يُضمن لهم حقّ السّكن في إسرائيل لأنّ لهم ارتباط معيّن بالأرض قبل ألفي عام». ثمّ تساءل زين، «لماذا يتعجّب النّاس أنّ للفلسطينيّن نفس الإرتباط؟ لماذا يتوقعون أنّ الفلسطينيّن أقلّ وطنية من الإسرائيليّن؟» اختتم الفيلم بإظهار عرفات وسط الجماهير بصحبة حسن سلامة، الذي وصفه رينولدز بأنّه «من أخطر الرّجال في العالم». من الواضح أنّ معدّي الفيلم لم يعرفوا بعلاقة زين مع سلامة.

عاد أيمز إلى واشنطن أواسط شهر يوليو، وعلم بعد ذلك بوقت قصير أنّه حصل على منصب ضابط في المخابرات الوطنيّة NIO. أحسّ بالإرتياح ولم يكنْ على علم بأنّ من ضمن له المنصب شخص مُعجب به لفترة طويلة، هو مدير محطة بيروت هاري سمپسن. لقد رُقي هذا الضّابط لمنصب المساعد التّنفيذي

في مكتب مدير الوكالة. قال سمپسن: «رغم أنّ بوب يفتقد حقيقة إلى أيّة خلفيّة في التّحليل، شعرت أنّه سيكون ضابطا ممتازا في منصب NIO، فأخبرت نائب مدير الوكالة فرانك كارلوچي بذلك. نظر في الأمر وراجع الملفات والمقابلات والعمليّات ثمّ تحدّث مع الأدميرال ستانسفيلد تيرنر، وقرّرا منح أيمز المنصب».

شعر سمپسن بأنّ أيمز كفوء للمنصب، أضف إلى ذلك اعتقاده أنّ الوقت قد حان لإزالة الجّدران بين قسمي العمليّات والتّحليل في الوكالة. لقد اعتقد أنّ هناك حاجة ماسّة لشخص متمرّس في العمليّات ليجيب عن بعض الأسئلة التّحليليّة الكبيرة. أخذ أيمز جانب التّحليل مأخذا جدّيا. وخلال وقت قصير بدأ يكتب التّقارير الميدانيّة و«تقديرات تحذيريّة شهريّة» تتفاوت بين «النّفط والسّياسة» و«إنقلابات مزعومة في اليمن» و«الشّكّ المُتبادل بين العراق وإيران» واحتمال «تدخّل عسكريّ سوفياتي في أفغانستان».

أصبح أيمز يشغل الآن درجة GS-15 أو ما يقابل رتبة كولونيل في الجّيش يتقاضى راتبا قدره 100 ألف دولار في ذلك الوقت. كان يعرف أنّ إيفون لا تحبّذ أنْ يشغل منصبا خارج البلاد. كان قسم NIC يضمّ 13 ضابطا NIOs وكلّ منهم له خبرة في منطقة أو تخصّص معيّن. وأصبح أيمز ضابط NIO لمنطقة الشرق الأدنى وجنوب آسيا NESA. وكما أشرنا، كان هناك ضابط متخصّص في العلوم وآخر في التكنولوجيا وثالث في عدم انتشار الأسلحة النّووية، وغيرها من المواضيع. كانت مناصب للنّخبة، وهو ما يشكل انقلابا في حياة شخص عمره 44 عاما ويُعتبر شابّا نسبيّا ولا يملك شهادة عليا بالمقارنة مع زملائه. لكنّه اختير لجدارته.

قامت الوكالة في خريف عام 1978 بإجراء تحقيق أمن روتيني عن أيمز. تمّت مقابلة إثنين من بين الأشخاص الذين اقترحهم، إضافة إلى رئيسه المباشر. ذكر أحد الشّهود الذي لم يُذكر اسمه، أنّ أيمز يملك قدرة فريدة على التّعامل الجّيد مع مختلف الأفراد، وبالتّأكيد هو شخص يهتم بإخلاص بأمور من يعمل معه... وهو شخص يحبّ أنْ يستمع لآراء الآخرين». وعندما طُلب منه أنْ يعلق على حياة أيمز الزّوجيّة، قال: «إنّها تبدو علاقة سعيدة، وأنّه قد يتناول كأسا أو كأسين من الشّرب في الحفلات، لا أكثر من ذلك». أمّا فيما يتعلق بعلاقاته

الأجنبيّة، قال الشّاهد إنّه يعتقد أنّ أيمز على علاقة مع شخص أجنبي، وأنّ تلك العلاقة كانت بطلب من رئيس قسمه وبموافقة البيت الأبيض. أيّد رئيس أيمز المباشر تلك الأقوال وأضاف «يقوم أيمز بعمل ممتاز، ويعرف عنه أنه شخص سويّ السّلوك، ومن النّاحية العاطفيّة صلد كالصّخر».

شارك أيمز بشكل هامشي في القضيّة المعروفة «إختفاء الإمام الصّدر». كان موسى الصّدر إماما شيعيًا وسياسيًا لبنانيًا صاحب شخصيّة كارزماتيّة ومخططا اكاديميًا. وهو الذي اثار في سكّان جنوب لبنان من الفلاحين الشّيعة الفقراء روح المقاومة للمطالبة بحقوقهم السّياسيّة والإقتصاديّة. وهو من أسرة لبنانيّة عريقة، وولد في إيران. عاد إلى لبنان عام 1959 وبحلول السّبعينيات أصبح شخصيّة سياسيّة هامّة. تحدّث عام 1975إلى حشد من الشّيعة بلغ 70 ألف فأخبرهم «أنّ اقتناء السّلاح يشبه اقتناء نسخة من القرآن». ومع ذلك كان يُعتبر صوتا للتعقل والإعتدال. كان على علاقة طيّبة مع رجال الأعمال المسيحيّن الموارنة وأساقفة الإغريق الأرثوذوكس وشيوخ الدّروز وزعماء السّنّة.

غير أنّ الإمام اختفى بتاريخ 31 اغسطس بشكل غامض عندما كان يقوم بزيارة إلى ليبيا، حيث دُعي لمقابلة العقيد القذافي. حين استفسرت الحكومة اللبنانيّة في مطلع شهر سبتمبر، ردّ نظام القذافي بأنّ الصّدر وإثنين من مرافقيه قد غادرا على متن طائرة أليتاليا المتوجّهة إلى روما بتاريخ 31 اغسطس. وصلت حقائب الإمام ومرافقيه فعلا إلى روما لكنّ المسافرين الثلاثة لم يصلوا.

بعد أسبوعين من اختفاء الصدر بعث الإمام الخُميني، الذي كان لا يزال مُبعدا في العراق، رسالة إلى عرفات طلب منه فيها أن «يوضح السّرّ». أظهر أيمز اهتماما بالموضوع لسببين. أوّلا، إنّ اختفاء الصّدر سيزيد من حدّة الحرب المستعرة في لبنان. ثانيا، كان يعرف أنّ مصير الصّدر موضوع يهمّ ملايين الشّيعة ليس في لبنان فقط، ولكن في إيران التي بدأت الإضطرابات الثوريّة تطغى على شوارعها. بعث أيمز رسالة إلى سلامة وسأله إن كانت لديه أيّة معلومات عن مصير الإمام، فردّ الأخير برسالة تفصيليّة.

علم عرفات أنّ القذافي قد وافق على عقد لقاء مع موسى الصّدر وغريمه الأيديولوجي محمد بهشتي، الذي أمضى عدّة سنوات في المنفى داخل مسجد

للشّيعة في هامبورغ بألمانيا، وهو حليف مقرّب من الإمام الخميني. وكان مثل الصّدر عالما دينيّا مثقفا. غير أنّه كان بين الاثنين خلاف مبدأي حول قيام دولة شيعيّة ثيروقراطيّة. اعترض الصّدر على قيام هكذا دولة يقودها رجال الدّين، وقال إنّ الفكر الشّيعي يمنع رجال الدّين من تولي المسؤوليّة السّياسيّة.

تلقى كلّ من الصّدر وبهشتي هِبات من القذافي الذي دعاهما لوضع خلافاتهما العقائديّة جانبا ويتعاونا لوضع أجندة سياسيّة مناهضة للغرب، رغم أنّ القذافي سنّي وليس لديه أصلا اهتمام بالخلاف المذهبي بين الطرفين الشّيعيّين. على أيّة حال، كان من المفترض أن يلتقي العالمان الدّينيّان في طرابلس لتسوية خلافاتهما السّياسيّة تحت مظلة القذافي. حضر الصدر ومرافقين له لكنّ محمد بهشتي ومرافقوه لم يصلوا إطلاقا. وبعد أن مكث الصّدر ومرافقاه في أحد فنادق العاصمة الليبيّة عدة أيام ينتظرون مقابلة القذافي التي لم تحدث، حزموا حقائبهم بعدما أعلن الإمام أنّه ملّ من الإنتظار، وينوي العودة الى بيروت. صاحبه نائب القذافي إلى المطار مودّعا. في مكالمة هاتفيّة، أخبر بهشتي القذافي أن يُبقي الصّدر لديه بأيّة طريقة ممكنة، وأخبره أنّ الصّدر عميل للغرب. وبناء عليه، طلب القذافي من أجهزة الأمن أن تؤخر مغادرة الصّدر ورفيقيه بعد أن تمّ تسليم أمتعتهم لقسم الشّحن. وطُلِب من رجال الأمن أن يحاولوا إقناعه بالعدول عن السّفر والعودة إلى الفندق. إلا أنّ هؤلاء خاطبوا الإمام بلهجة فجّة وهو ما زال في قاعة الإنتظار، فجرت مشادّة كلاميّة، خرجت عن اصول اللياقة، عندها قام رجال الأمن بدفع الإمام ومرافقيه إلى سيّارة نقلتهم إلى أحد السّجون.

غضب القذافي حين اكتشف ما جرى، لكنّه شعر بأنّه لن يقدر على إطلاق سراح الإمام الصّدر دون إحراج نفسه سياسيّا. أمضى الصّدر ومرافقاه عدّة شهور في المُعتقل. أخيرا رجا عرفات من القذافي أن يطلق سراح «ضيفه». حينها كان الإمام الخميني قد عاد إلى طهران منتصرا، وقام هو وبهشتي بكتابة الدّستور الجّديد لدولة الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة. عندما ألحّ عرفات بالطلب، أخبره القذافي بأنّه يحتاج أنْ يقوم بإجراء مكالمة هاتفيّة. وبالفعل اتّصل القذافي ببهشتي الذي أخبره أنّ الإمام موسى الصّدر يشكّل خطرا على حياة الإمام الخميني.

علم أيمز عن طريق مصادره الفلسطينيّة أنّ موسى الصّدر ومرافقيه قد

اعدِموا بسرعة ودُفنوا في مكان مجهول، فصُدِم بوحشيّة القذافي وبسلوك بهشتي. تلك الجّريمة أعطته انطباعا حول قسوة طبيعة نظام جمهوريّة إيران الإسلاميّة الجّديد. (قتِل محمد بهشتي عندما انفجرت المنصّة التي يقف عليها وهو يخطب في حشد من انصاره في طهران. وهي نفس الطريقة التي اغتيل فيها بشير الجميّل في بيروت قبله بسنوات - المترجم)

الفصل الثّامن

الإغتيال

إثـر عـودة أيمـز من تنسـيبه المؤقت في بيروت صيـف عام 1978، اعترض ضابـط إسـرائيلي طريـق ألـن وولف في مؤتمر في لندن ليسـأله بهدوء وبشـكل مباشـر إنْ كان علي حسـن سـلامة عميلا لوكالة المخابرات المركزيّة. تجاهل وولف السـؤال وانتقـل إلـى ركـن آخر مـن قاعة المؤتمر. غير أنّـه عرف الأهميّة التّامة لاستفسار رجل الموساد هذا. عُقِد اجتماع لكبار ضبّاط قسم العمليّات في لانغلي من الذين لهم معرفة بالموضوع. لم يُدعَ أيمز لذلك الإجتماع لأنّه ما عاد يتبع قسم العمليات، فقد اصبح الآن ضابطا في مجلس المخابرات الوطنيّة. اخبِر وولـف بـأنّ مـا واجهه لم يكن المحاولة الأولى التي سـأل فيها الموسـاد حديثا عن سـلامة، فعلى الأقلّ كانت هناك سـابقتان. تريد الموسـاد أن تعرف إنْ كان خارج الحدود، وبالتالي هل يمكن اغتياله؟ أم هو يعمل لصالح الأمريكيّين؟

وضعت تلك الأسئلة الوكالة في موقف حرج. إنّ سلامة أو MJTRUST/2 كان مصدرا وليس عميلا. ذكر كلير جورج، «إنّ الإسـرائيليّين يعرفون جيّدا أنّ سـلامة مصدر لمعلوماتنا. وهو مصدر حيويّ وضروريّ. ولكن إذا قلنا لهـم إنّه عميـل مدفـوع الأجـر، فإنّهم سـيطلبون حينئذ أن نطلعهم علـى المعلومات التي نحصل عليها منه. وطبعا لا يمكننا فعل ذلك. كان موقفا عصيبا». لم يكن جورج مشاركا في ذلك الإجتماع الذي تقرّر فيه مصير سلامة. لكنّه قال إنّه احيط علما بمـا دار فيـه مـن نقـاش. «كان نقاشـا حادّا. وفـي النّهاية تقرّر عـدم الإجابة عن الأسـئلة التـي يطرحهـا الإسـرائيليّون. اعتقد المجتمعـون أنّ ذلك هو أفضل من الإجابة بنعم أو لا».

فـي رأي العديـد مـن ضبّـاط الوكالة، كانت تلـك غلطة فظيعة. ذكر چالس وافرلـي، «أنّ عـدم إعطـاء جـواب، هو جواب بحدّ ذاتـه. بمعنى أنّه ليس عميلا لنا، ولكن لنا معه علاقة هامّة». إنّ معالجة الوكالة للموضوع بهذه الطريقة كان

متوقعا لها أن تكون على تلك الشاكلة. ذكر بروس ردل، المحلل ذو المركز العالي الذي راجع في إحدى المرّات ملفّ سلامة، «نحن لا نجيب عن أسئلة من هذا القبيل، وهو موقف معروف للوكالة إزاء كلّ سؤال صعب. لقد اعتقدوا أنّ إجابتهم عن السؤال سيجعل القضية أسوأ. لربّما كانوا يأملون أنّ تجاهل المشكلة سيؤدّي إلى نسيانها أو اختفائها. لكنّني تعاملت مع الإسرائيليّين، وأعرف أنّهم يعتبرون سلامة تهديدا مزدوجا. أولّهما أنّه إرهابي، وثانيهما أنّه على علاقة سرّيّة بالأمريكيّين. اعتقدوا أنّ تلك العلاقة هي التي ستجلب عرفات لزيارة البيت الأبيض. ولذلك فإنّهم ارادوا أن يقضوا عليه لذلك السّبب وحده».

غير أنّ ديوي كلارج، الذي كان انتقد أيمز لعدم تجنيد سلامة بشكل رسمي، اعتقد أنّ الوكالة قد ارتكبت خطأ فادحا. قال: «أنا متأكّد أنّه كان هناك نقاش، ومن الواضح أنّهم قرّروا أنْ يتصرّفوا بشكل غير مشرّف. وتلك حماقة. كان يجب أنْ يحموه من الإسرائيليّين».

اعتقد جورج وضابطان آخران من الوكالة أنّ أيمز كان على علم بأسئلة الإسرائيليّين وموقف الوكالة بعدم الرّدّ عليها. وعليه فإنّه عرف بأنّ حياة سلامة في خطر، وهو حذره بشكل واضح دون التباس. ووفقا لما ذكره فرانك أندرسن، مدير محطة بيروت، كان أيمز قد حثّ ألن وولف لكي يبعث للإسرائيليّين إشارة واضحة بعدم المسّ بسلامة. ويُقال إنّ وولف رفض أنْ يفعل ذلك. يذكر سام وايمن، ضابط الوكالة في بيروت، بأنّه «كان هناك حديث متداول لشحن سيّارة مصفحة ضدّ المتفجّرات لكي يستعملها سلامة في تنقلاته، غير أنّنا اكتفينا بدلا من ذلك بتزويده ببعض الأجهزة لسرعة الإتّصال بنا واقترحنا عليه أنْ يزيد من مستوى حمايته. حذرته بالحرف الواحد بأنّهم سيغتالونه إذا استمر يقطع شوارع بيروت في ذلك الموكب، وأنّ القضيّة قضيّة وقت لا غير».

واستنادا لأقوال مصطفى زين، فإنّ نائب رئيس الموساد، ديفيد كميحي اتّصل بأيمز مستفسرا عن الموضوع، وأيّد هذا الكلام عدد من ضباط الموساد المتقاعدين. كان كميحي وقتها رئيس وحدة تفل في الموساد. وهي الوحدة المسؤولة عن العلاقات بالمخابرات الأجنبيّة، وهو جاسوس إسرائيلي ناشط منذ الخمسينيات. طار إلى واشنطن لغرض الإستفسار من أيمز شخصيّا عمّا إذا كان

سلامة عميل براتب في وكالة المخابرات المركزيّة. اوضح له بشكل صريح أنّ سلامة على قائمة المستهدفين، وأنّ حياته في خطر ما لم تعطِ الوكالة الموساد تأكيدات صريحة وواضحة أنّه يعمل لصالحها. لم يعطِ أيمز جوابا، غير أنّه في شهر نوفمبر 1978 اتّصل بسلامة في بيروت. وطبقا لأقوال زين، فإنّه حاول بشدّة أن يحصل على موافقة عرفات عن طريق سلامة نفسه، لكي يُخبر الإسرائيليّين أنّ سلامة يعمل لصالح الوكالة. تناقش الرّجلان حول الموضوع، وأكّد أيمز لعلي بشكل صريح أنّ حياته في خطر وأنّه شخص لا يمكن تعويضه. غيرّ أنّ سلامة ذكّره بأنّه رفض محاولة من هذا القبيل في روما قبل ثماني سنوات. رفض بشكل قاطع أنْ يُقال عنه إنّه عميل مأجور للوكالة، ولربّما كان سببه وجيها. ذكر يورام هزل، وهو ضابط كبير في الموساد، «لو كان علي سلامة قد وافق أنْ يُقال عنه إنّه عميل للوكالة، فذلك يعني أنّه يضع إطلاقة في رأسه. فهو يعرف أنّه لو وافق على أن يُقال عنه إنّه عميل، فإنّه بذلك سيكون شرع في عمليّة تحطيم نفسيّة لكلّ من يعرفه في حلقات بيروت، وستلاحقه لعنة العمالة إلى الأبد». كان سلامة يعرف ذلك وكذلك أيمز أيضا.

عمل سلامة في خدمة «الخِتيار» و«الثّورة الفلسطينيّة» لا غيرهما. لم يحصل أيمز على الجّواب الذي أراده، لكنّه اقنع سلامة بأن يحضر إلى واشنطن في الشّهر التّالي من أجل لقاء رسمي لتبادل المعلومات المخابراتيّة. لربّما ظنّ أنّ الإسرائيليّين سيلاحظون ذلك، وقد تحميه تلك الدّعوة بشكل من الأشكال. وفي الوقت نفسه نظّم عمليّة لإرسال معدّات اتّصال إلى بيروت لتكون هديّة لعلي. غير أنّ الهديّة لم تصل في الوقت المطلوب.

لم يكن زين سعيدا لتقاعس سلامة في امر حمايته وزيادة مستوى حراسته. ذكر يقول، «كنت أعرف أنّه سيُقتل». كما عبّر عن مخاوفه لزوجة صديقه نشروان وأخبرها أنّ هجوما وشيكا يستهدف حياته سيقع قريبا. «كنّا نريده أنْ ينتقل من منطقة الحمرا في بيروت حيث مناظر الأجانب وهم يمشون في الشّوارع أمر مألوف. كان من المفترض أن ينتقل للسّكن في أحد مخيّمات اللاجئين. سيكون أكثر امنا لو سكن في صبرا وشاتيلا، لكن طبعا ليس من المتوقع أنْ تقبل جورجينا العيش في مخيم للاجئين. كان بإمكانه أن ينتقل إلى منطقة أخرى

يسكنها الفلسطينيّون الموسرون خارج الحمرا. اخبرته آنذاك بأنّ مثل هذا الإنتقال مؤقت، لأنّ فريق الإغتيالات الإسرائيلي لن يبقى ينتظر حيان الفرصة للأبد. غير أنّ علي رفض الإنتقال من شقتّه في شارع فردان».

اهدى سلامة سيارة مرسيدس ذات بابين تبرّع أحد ما بها له إلى صديقه زين. كان طبعا يحبّ سيّارات الرياضية، لكنّ المشكلة هي أنّها صغيرة وليس فيها مكان لمرافقيه. بدأ زين يستعملها في تنقلاته داخل بيروت وهي تحمل لائحة التّسجيل العائدة لعلي. غير أنّه حين حضر أيمز إلى بيروت وحذر سلامة من الهجوم المتوقع، اقتنع زين أنّه من الحماقة أن يستمر في استعمال تلك السّيارة. ذكر أنّه اعاد السّيّارة لصديقه وقرّر ألا يركب معه في سيّارته الخاصّة.

بعد فشل محاولة اغتيال سلامة في للهامر في النّرويج في شهر يوليو 1973، والتي انتهت بمقتل شابّ مغربيّ بريء خطأ، اصدرت رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير أمرا بإيقاف حملة الإغتيالات التي اعقبت عمليّة ميونخ. غير أنّ الحملة استؤنفت مجدّدا في شهر حزيران عام 1977 بعد انتخاب مناحم بيَغن، زعيم حزب الليكود، رئيسا للوزراء. في صيف عام 1978 خوّل فرقة الإغتيالات في الموساد التي سُمّيت فريق القياصرة باستئناف استهداف سلامة.ربّما ما كان عنده شكّ بأسطورة الأمير الأحمرالذي وضع خطة عمليّة ميونخ. وربّما اعتقد أنّ سلامة لا يزال يستخدم شبكة خاصّة لتنفيذ عمليّات مماثلة، لكنّ الأمر لم يكنْ كذلك. بحلول عام 1979 لم يتوفر للموساد أيّ دليل على أنّ سلامة كان «قنبلة موقوتة». وعلى أيّة حال، تمّ إشعار بيَغن أنّه حلقة الوصل بين وكالة المخابرات المركزيّة ومنظمة التّحرير الفلسطينيّة. ومن المُحتمل أنّ الموساد قد التقطت معلومات إستخباراتيّة بأنّ أيمز قد دعا سلامة لزيارة الولايات المتّحدة للمرّة الثالثة في شهر ديسمبر 1978.

في أجواء إتّفاقيات كامب ديفد في شهر سبتمبر 1978، كان لا يزال هناك المزيد من القضايا التي تتطلب الحلول بين الجانبين. في الوقت الذي عبّدت فيه تلك الإتّفاقيّات الطّريق لمعاهدة سلام بين مصر وإسرائيل، فإنّها اشارت إلى وضع خطة لمنح الفلسطينيّن «الحكم الذاتي» في المناطق المحتلة في الضّفة

الغربيّة وغـزّة. اقنـع أيمـز مسـؤولي إدارة كارتر أنّه من المفيد دعوة سـلامة إلى واشـنطن لمقابلة عدد من المسـؤولين الأمريكيّين. كان مفترضا أن تجري تلك المباحثـات مـع رئيـس مخابرات منظمة التّحرير بسـريّة تامّة، فواشـنطن لم تكن مسـتعدّة بعد للتّفاوض علنا مع المنظمة. ومن جانبه كان سـلامة شـديد الإنتقاد لاتّفاقيّـات كامـپ ديفـد. فبرأيـه، لم يكن هدف المنظمة مجـرّد «الحكم الذاتي» لأنّها تريد «السّيادة التّامّة والإستقلال» أيضا. غير أنّ أيمز كان ينوي تليين موقف سـلامة ليقبل بتلك الإتّفاقيّات، كخطوة مرحليّة فقط. وهذا ما يفتح الباب أمام المنظمة لتحقيق أهدافها الأخرى بالطّرق السّـلميّة. وإذا صحّ القول إنّ إسـرائيل سـمعت إشـاعات عن تلك القمّة السّـريّة في واشـنطن، فإنّ ذلك بالتّأكيد جعلها تسارع في تنفيذ خططها لتصفية سلامة. وكما تبيّن فيما بعد فإنّ سلامة قد غيّر موعد زيارته من ديسمبر 1978 إلى إبريل 1979.

في مطلع عام 1978 بدأ ضبّاط الإغتيالات في الموساد من فريق القياصرة بجمـع المعلومـات مرّة أخرى عن سـلامة وجـدول تحرّكاته اليّوميّة في بيروت. لقد عملوا ذلك بشعور حماسيّ يجعله قريبا من حافة الجّنون. ذكر آرن كلاين في كتابه Striking Back أنّ مقابلاته مع اعضاء فريق القياصرة الذين كانوا حينها في سنّ التّقاعد، أنّهم وصفوا اغتيال سلامة بأنّه كان بمثابة «غلق الدّائرة». كانوا يعرفـون أنّ جماعـة أيلـول الأسـود لـم يعـد لها وجـود، وكانوا يعرفـون بوجود فلسطينيّين آخرين ممّن تلطخت أياديهم بالدّماء أكثر من سلامة. لكنّه كان على رأس قائمتهـم. فكّـروا أوّلا بإسـقاط قذيفـة كبيرة على شـقته. لكـن المعماريين الذين درسـوا خارطة المبنى قالوا بأنّ محاولة كهذه سـتقضي على حياة الكثير من النّاس الأبرياء. «تابعنا تحرّكات علي سلامة بشكل تفصيلي»، حسب ما ذكر مدير الموسـاد العام. «اسـتخدمنا وسـائل تقنية عالية، وكنّا على علم بأنّ حراسـه كانوا ملازمين له كلّ الوقت».

لم يكن اغتيال الأمير الأحمر مهمّة سـهلة، والسّـبب في ذلك أنّ حراسـته كانت مشدّدة. أضف إلى ذلك، أنّ علي قد وضع رشّاشات كلاشينكوف في كلّ غرفة في شـقته ومكتبه. وكانت تحيط به نخبة من الحراس لتأمين سـلامة شـقته

فـي شـارع فـردان في رأس بيـروت. ومن الإجراءات الإحتياطيّـة التي قاموا بها وضع ستائر معدنيّة ثقيلة على كافة شبابيك شقّته في ذلك الشّارع. وكان يتنقل بمرافقة موكب من السّيّارات التي تحمل رجالا مسلحين، ونادرا ما غادر بيروت.

ومـع كلّ هـذه الإحتياطـات الأمنيّة، ظلّ سـلامة مؤمنا بمـا يخفيه له القدر إلى حدّ القول، «إنّني أعرف أنّني سأموت»، حسب ما ذكر لشفيق الحوت، مدير الإعلام في المنظمة. «أعرف أنّني سأقتل، وسأسقط في ميدان المعركة». عندما سأله دين برليس مراسل مجلة تايم، إنّ كان قلقا إزاء محاولات إسرائيل لاغتياله، ردّ سلامة، «هم من يجب أن يقلقوا لكثرة أخطائهم. إنّني أعرف أنّه حين تحين سـاعة أجلي، فلا مجال لردّها». ثمّ أضاف قائلا إنّه بحاجة لأخذ إجازة، «ربّما على سواحل البرازيل أو جزر الكاريبي، لكنّني لا أستطيع أنّ استقل طائرة هكذا واذهب. لا أستطيع القول أنّه يمكنني السّفر من بلد لآخر».

اسـتمر قائـد القياصـرة مايك حراري يبحث عـن فرصة تتاح لأعضاء فريقه للإقتـراب مـن سـلامة ليضربوا ضربتهم. كان هـذا الضّابط هو من قاد المحاولة الفاشلة في النّرويج عام 1973. (لم يذكر المؤلف إنْ كان مايك ضمن الضّباط الخمسـة الذيـن القـي القبـض عليهـم وحوكمـوا وقضوا سـنتين من أصل سـبع سنوات سجن في تلك البلاد- المترجم) وهو ضابط شديد الإندفاع اطلق عليه جماعته لقب القيصر. ذكر ضابط الموساد هذا مرّة لزملائه أنّ سلامة قد أفصح في لقاء له مع صحيفة مورننغ سـتار أنّه يهوى الكاراتية. ولذلك فله لياقة بدنيّة جيّـدة. بحـث عمـلاء الموسـاد عنه في كافة نوادي بيـروت الرّياضيّة في محاولة للإنقضاض عليه. لقد أمضوا شهورا في تلك المهمّة، وفي النّهاية وجد احدهم نفسـه يجلس عاريا جنباً إلى جب مع سـلامة في حمّام السّـونا sauna في فندق كونتيننتـال حيـث كان يمـارس رياضتـه المفضّلـة مع فريق يتـدرب معه في قاعة رياضـة الفنـدق المذكـور عصـر كلّ يـوم تقريبا. اقترح ذلـك العميل وضع قنبلة تحت المقعد في ذلك الحمّام، غير أنّه تمّ الإعتراض على الفكرة لأنّها ستؤدي إلى مقتل بعض المدنيّن الأبرياء.

أخيراً توصّل الفريق إلى خطة بديلة. تمكّن فريق المتابعة من تحديد موقع شقة زوجته الثانية جورجينا رزق في حي الصّنوبرة في رأس بيروت، كما أخذوا

علما بالطريق الذي يسلكه من تلك الشّقة إلى الشّقة التي تسكنها أمّه واخته في منطقة قريبة. مكّنت هذه المعلومات الموساد من وضع خطة الإغتيال التي بدأت في شـهر نوفمبر 1978 وشـارك فيها 15 عنصرا من القياصرة في بيروت وكلفت الموساد مبلغا كبيرا من المال.

وصلت أريكا ماري چمبرز البالغة من العمر ثلاثين عاما والتي تحمل جواز سفر بريطاني إلى بيروت. كانت أول عميلة للموساد من فريق الإغتيالات تصل إلى هناك. امضت چمبرز أربع سـنوات في ألمانيا، ولكن قبل ذلك درسـت في الجامعة العبريّة حيث تمكّن الموساد من تجنيدها. تبرّعت بعد تخرّجها من تلك الجامعة للعمل في بيت الصّمود وهو مأوى لرعاية الأطفال الفلسطينيّين اليتامى فـي مخيّـم تـلّ الزّعتر، الذي أسّـس بعد فكّ الحصار عـن ذلك المخيّم. ذكرت بعـض التّقاريـر أنّ چمبـرز قـد قابلـت سـلامة هناك وأصبحا صديقيـن، رغم أنّ هـذا الأمـر غيـر متوقع. يشـير پيتر تيْلر صاحب كتـاب States of Terror، والذي أعطـى تفصيـلا كاملا للخطة، أنّ چمبرز اسـتأجرت شـقة فـي الطابق الثامن من بناية تقع على شـارع مدام كوري. أخبرت الجّيران أنّ اسـمها (پنلوب) وتركت الإنطبـاع لديهـم بأنّهـا امرأة إنكليزية غريبة الأطـوار تهوى القطط وتمضي وقتها في شرفة شقتها ترسم مناظر الشّوارع والبيوت والعمارات المحيطة بها من ذلك الموقع. تمكّنت چمبرز من مراقبة سـيّارة سـلامة تقطع شـارعها عصر كلّ يوم وتتبعهـا سـيّارة لاندروفـر مليئـة بالمرافقين. كان يجلس فـي المقعد الخلفي في سيّارة الشفرولية القديمة ويجلس إلى جنبيه مرافقان له.

وصل ضبّاط آخرون من الموسـاد إلى بيروت وسـط شـهر يناير1979، وهم يحملون جوازات سفر كنديّة مزوّرة(*)، ونزلوا في فنادق متعدّدة. استأجروا سيّارة فولكسـفاغن بيتل زرقاء اللون. وحسـب الخطة الموضوعة قام إثنان من رجال الضّفـادع الإسـرائيليّن بنقـل 11 أونصـة من متفجّرات الهكسـوجين وتركاها في مكان معيّن على السّـاحل اللبناني، حيث قام عملاء الموسـاد بنقلها مسـتخدمين

(*) كان أحد الجوازات الكنديّة باسم رونالد كولبرغ من فانكوفر، والذي كان يدرس علوم الحياة في جامعة تل أبيب. أخبر كولبرغ الصّحفيّين فيما بعد أنّه تمّ استخدام جوازه دون علمه. إنّ استخدام جوازات مواطنين من بلد ثالث تكتيك استعملته الموساد لفترة طويلة.

تلـك السّـيّارة التـي ركنوها في جانب شـارع مدام كوري أمـام المبنى الذي تقع فيه شقة چمبرز، ثمّ مكثوا ينتظرون.

قبـل ايـام قليلـة مـن ذلك، تلقى سـلامة تحذيرا من مصدر غيـر متوقع بأنّ الموسـاد يخطـط لاغتيالـه. لقـد علم بشـير الجميّل، رئيس ميليشـيا الكتائب من مصادره داخل الموساد بأنّ عمليّة اغتيال سلامة على وشك التّنفيذ. اوعز الجميّل لأحد مستشاريه وهو كريم بقرادوني أنّ يحذر سلامة من ذلك الهجوم الوشيك. «اعتقدُ أنّ بشير قد شعر بوخز ضمير»، حسب ما ذكر كريم في مقابلة له مع پيتر تِيَلر. «فرغب أنْ يخبر سلامة بذلك». حين سأل تِيَلر بقرادوني لماذا كان الموساد يسـعى لتصفية سـلامة، ردّ قائلا، «لأنّه عضو في أيلول الأسـود وبسـبب علاقته مـع السّـفارة الأمريكيّـة في بيروت... إنّ سياسـة إسـرائيل كانـت ترمي لتخريب أيّ اتّصالات بين منظمة التّحرير الفلسطينيّة والولايات المتّحدة... ولذلك أدرك الموسـاد بسـرعة أنّ سـلامة لا يشـكّل تهديدا أمنيّا لإسـرائيل فقط، بل هو خطر سياسي لأنّه فتح الشّباك الفلسطيني على السّاحة الأمريكيّة».

التقـى فرانـك أندرسـن، رئيـس محطة الوكالة في بيـروت في ذلك الوقت، بسـلامة مسـاء في شـقته في مطلع شـهر يناير 1979. قال أندرسـن: «أخبرته أنّني سمعت بأنّ الإسرائيليّن سيستهدفونه قريبا وقلت له أنْ يأخذ هذا التّحذير على محمل الجدّ».

كما أنّ والدته وأخته كانتا قد حذرتاه أيضا. ذكرت نضال للمؤلف تِيَلر أنّ أخاها ذهب مرّة إلى قارئة فنجان فأخبرته أنّه سـيموت وهو في سـنّ 37. وهو نفس العمر الذي قتل فيه الإسرائيليّون والده حسن سلامة في عام 1948. قالت نضال إنّه ضحك، وأضافت، «إنّه يعني الكثير بالنّسبة إليّ. كان عظيما ليُقتل في ذلك السّنّ المبكّر. كنت أعتقد أنّه خالد للأبد، ومن المستحيل أن يموت». كما أخبـرت أمّـه تِيَلـر، «حذرتـه في المرّة الأخيرة التي شـاهدته فيها، وذكرت له أنّ لديّ إحسـاس بأنّ شـيئا ما سـيحدث له. ضحك وقال لي ألّا أقلق لأنّه سـيعيش خمسـين سـنة أخرى... قلت له بأنّ ذلك غير كاف. وحين ترك الشّـقة شـعرت أنّني لن أراه ثانية».

شـاهد مصطفى زيـن صديقه علي سـلامة مسـاء يوم 21 ينايـر 1979. كان

علي يعرف أنّ عيد ميلاد مصطفى سيكون في اليوم التّالي. ولذلك فإنّه توقف في جناحه الجديد في فندق بدفرد. ذكر، «سألني ماذا خططت للإحتفال بعيد ميلادي، فأخبرته أنّني لا أودّ أن احتفل بذلك. مشى نحو رفّ كتبي واستلّ كتاب مدينة الموت. قلت له يا علي، من فضلك أعده إلى مكانه. ثمّ اصطحبته إلى الطابق الأسفل حيث توجد سيّارته، واحتضنّا بعضنا».

كان يوم 22 يناير 1979 يوما غائما في بيروت. كان ذلك اليوم هو عيد ميلاد ابنة اخته، وكان علي قد وعد بأنّه سيتوقف عند شقة والدته عصر ذلك اليوم ليشارك في احتفال البنت الصّغيرة. كان مقرّرا أن يذهب بعد ذلك إلى دمشق بالسّيّارة لأنّ عرفات كان يتوقع وجوده لحضور اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني هناك. قبّل سلامة زوجته جورجينا على عجل وغادر الشّقة. كانت حاملا في الشّهر الخامس. جلس في المقعد الخلفي للشفرولية، وفي اللحظة تلك أسرع أحد مساعديه، وهو شابّ اسمه جمال وسلمه رسالة. كانت رسالة تحذير ثانية من بشير الجميّل ذكر فيها أنّ تنفيذ اغتياله سيكون خلال اليوم التّالي أو الذي بعده. ترك احد مرافقي سلامة مقعده ليسمح لجمال أنْ يحلّ محلّه. اتّجه السّائق نحو شارع فردان وكانت سيّارة الجيب اللاندروفر تتبعه. وبعد حوالى كيلومتر واحد انعطفت السّيّارة يمينا من شارع فردان نحو شارع مدام كوري وانسابت باتّجاه المبنى الذي تقع في طابقه الثامن شقة أريكا چمبرز التي كانت واقفة تنتظر في شرفتها. اسرعت سيّارة كانت خلف سيّارة اللاندروفر فتجاوزتها، وحين بدت سيّارة أخرى قادمة من الإتّجاه المعاكس اضطرّت صاحبة تلك السّيّارة أن تحشرها بين سيّارة سلامة وسيّارة حراسه. حين تجانبت سيّارة سلامة مع الفولكسفاغن الزّرقاء المفخّخة المركونة امام المبنى، قطعت چمبرز أنفاسها وضغطت بهدوء على زرّ الجهاز الذي تحمله في يدها. انفجرت السّيّارة الزّرقاء بما كانت تحويه ولفّت سيّارة علي بكتلة نار أحرقتها، وأحرقت كذلك سيّارة المرأة التي احتلت موقعا خلفها. كانت بريطانيّة عمرها 34 عاما تعمل سكرتيرة في بيروت واسمها سوزن ويرهام. قتِلت هذه المرأة إلى جانب سلامة ومرافقيه وسائقه وراهبة ألمانية كانت تمشي على الرّصيف في تلك

اللحظة وثلاثة لبنانيين آخرين. كما أصيب 16 شخصا آخرين بجراح مختلفة.

أخبر شخص سمع الانفجار المدوّي وشاهد ضحاياه يتساقطون في الشّارع المؤلف تِلر، «كان مشهدا من الجحيم. لاحظت ومضا أعقبه انفجار هائل... قُتِل الكثير من النّاس واحترق عدد من السّيارات. شاهدت جثث عدد من الشّباب تتناثر في الشّارع. شاهدت أبا حسّان يغادر السّيّارة ثمّ يتهاوى على الأرض. أخبرني النّاس الذين حولي عن هويّته». ومن مصادفات القدر أنّ أبا داود المخطط الفعلي لعملية ميونخ، والذي يسكن في شقة قريبة، هرع إلى مكان الإنفجار وشاهد سلامة ملقى على الأرض وهو مثخن بالجراح. ذكر فيما بعد، «كان في وجهه جرح عميق».

كان سلامة لا يزال على قيد الحياة عندما نقلته سيّارة إسعاف إلى مستشفى الجامعة الأمريكيّة الذي كان على مقربة من موقع الانفجار. بذل الجّراحون هناك ما في وسعهم لاستخراج شظيّة شقّت وجهه واستقرّت في دماغه، لكنّه توفّي على طاولة العمليّات في السّاعة 4:03 تماما من عصر ذلك اليوم.

في وسط الفوضى التي حلت في الشّارع، نزلت أريكا چمبرز من شقتها واستقلت سيّارة داتسن كانت قد استأجرتها واتّجهت إلى سواحل بيروت الشّرقيّة. وفي ساعة متأخّرة من ذلك المساء التقت بضابطين من الموساد قاما بنقلها في زورق مطاطي إلى باخرة إسرائيليّة كانت في الإنتظار(*).

(*) تعيش چمبرز الآن في إسرائيل. تمّ اختيارها لأنّ كافة رجال فريق القياصرة الذين تدرّبوا على تنفيذ عمليّة الإغتيال كانوا يضغطون على زرّ التّفجير لحظة أو لحظتين بشكل متأخّر. لذلك قرّر مايك هراري رئيس الفريق بين الأعوام 1970–1980 اختيار امرأة لتنفيذ المهمّة. نجحت چمبرز في كلّ المحاولات خلال التّدريب.

(أشارت مقالة بعنوان «جاسوسة الموساد التي قتلت أبو علي حسن سلامة» في موقع «صوت الوطن» للدكتور سمير محمود قديح. http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2009/12/28/145060.html. وهو باحث في الشئون الأمنية والإستراتيجية، ورد فيها أنّه بعد اغتيال أبو علي حسن سلامة. لم يهدأ القائد صلاح خلف أبو إياد، فأرسل فورا إلى كل مساعديه طالبا منهم البحث عن اريكا واحضارها إمّا ميتة أو على قيد الحياة. وبالفعل تم إبلاغ كافة رجال الأمن الفلسطيني في جميع أنحاء العالم. بعد أن حصلوا على معلومات ومواصفات العميلة أريكا، بدأ البحث ليل نهار إلى أن عُثِر عليها في اليونان برفقة اثنين من كبار ضبّاط الموساد الإسرائيلي وتم قتلهم جميعا وإلقاء قنبلة على جسدها الذي تقطع ارباً، حسب ادّعاء محمود قديح – المترجم)

كان فرانك أندرسن يستعدّ للقاء سلامة عندما سمع صوت الانفجار. وحين تلقى مكالمة هاتفيّة من احد ضبّاط السّفارة بأنّ سلامة ربما أصيب في ذلك الإنفجار، قاد سيّارته وأسرع إلى شقة سلامة فعرف ما جرى.

أمضى زين يوما كاملا قابعا في جناحه في فندق بدفرد مثقل القلب ويطغى عليه حزن عميق لسبب لا يعرفه، كما قطع إتّصال الهاتف لكي لا يتحدّث مع احد. إضطرت القوّة 17 أن ترسل شخصا ليبلغ مصطفى بالأخبار. أسرع إلى مستشفى الجامعة الأمريكيّة في بيروت، ولمّا وصل كان صديقه قد فارق الحياة.

حين حضر أندرسن إلى جناح زين في الفندق وجده يقرأ القرآن. جلس معه لبعض الوقت وكتب رسالة تعزية قصيرة لابن سلامة البكر شرح له فيها بإيجاز ماذا كان والده يعني بالنّسبة له. قال فيها:

عزيزي حسن

فقدّت أنا أيضا والدي عندما كنت في سنّك. واليوم فقدّت صديقا أحترمه أكثر من كلّ الرّجال الآخرين. من ذكريات أحزاني السّابقة ومن عذابات هذا اليوم، فإنّي أشاطرك الألم. أعدك بأنّني سأحتفظ بذكرى والدك المشرّفة، وأعدك بأنّني أقف مستعدًا لأكون صديقك.

صديق

كما كتب رسالة قصيرة إلى أرملته، نشروان شرف ورد فيها:

عزيزتي أمّ حسن

إنّي أنا الذي أحزن بصمت لفقد صديق. لا أحد يستطيع تعويضك عن خسارتك. ومع ذلك فإنّي آمل أنّك ستجدين راحة عندما تعرفين بالتزامي بأنّي أتشرّف بذكرى زوجك.

في عصر اليوم التّالي، شهد حوالى 20 الف شخص موكب جنازة علي حسن سلامة ومراسم دفنه في مقبرة الشّهداء في بيروت. ومثل والده، قتِل علي وهو في السّابعة والثلاثين من عمره. نشرت صحيفة مورننغ ستار صورة

ياسر عرفات وهو يحمل النّعش مع عدد من رفاق الراحل. كما نشرت صحيفة بيروت الأسبوعيّة صورة مؤثرة لعرفات وهو يحتضن الابن البكر حسن البالغ من العمر 13 عاما الذي لبس بدلة الفدائيّن وعلى رأسه بيريه ولفّ حول رقبته الكوفيّة الفلسطينيّة، كما دفع أحدهم بيديه رشّاش كلاشنكوف. كانت صورة معدّة لتلك المناسبة، غير أنّ عيني عرفات الدّامعتين أشارتا إلى هول الفاجعة التي حلت به. لقد عامل علي وكأنّه ابنه. قال لأحد المراسلين في دمشق، «لقد فقدنا أسدا.» وفي اللحظة التي أهالوا فيها التّراب على الجثمان نادى عرفات بصوت عال، «إنّنا ندفن شهيدا، وسنمضي في طريق النّضال نحو فلسطين. وداعا يا بطلي!» حضر زين المراسم وشاهد ما جرى فقال، «كان يوما لا يُنسى». كان عرفات مخبوصا، وكان في دمشق حين سمع الأخبار. حدث أن اغلقت عاصفة ثلجيّة الطريق الموصل بين بيروت ودمشق، فاضطر موكبه أن يمضي 7 ساعات للوصول إلى العاصمة اللبنانيّة. وفي إحدى المناطق اضطرّ أنْ ينزل من سيّارته ورفع الثلج بيديه من تحت عجلاتها. وخلال الجنازة تقدّم عرفات نحو زين وقال له بألم مرير: «لم يستطع أصحابك حماية ولدي. لقد أعطيتهم كلّ ما يعزّ عليّ. أعطيتهم ذراعي اليمنى. كيف حدث هذا؟».

في بادرة غير معهودة، حضر زعيم الكتائب بشير الجميّل مراسيم الجنازة. وفي لحظة مواراة الجثمان الثّرى اطلقت فرقة من رجاله زخّات رصاص في الهواء تحيّة للمقاتل الذي خرّ صريعا مضرّجا بالدّماء. علق زين قائلا: «إنّ ألدّ اعداء الفلسطينيّن يؤدّون مراسم الإحترام والتّبجيل للقائد الفلسطيني». زيّنت صحيفة نيويورك تايمز صفحتها الأولى في اليوم التّالي بمقال عنوانه «مخطط عملية ميونخ خرّ صريعا في بيروت». وفي ذلك اليوم قالت أرملة احد الرّياضيّن الذي قتل في ميونخ، إيلانا رومانو للصّحفيين إنّها كانت تنتظر هذا اليوم منذ سنوات. «باسمي واسم كافة الأرامل، أودّ أنْ أشكر أولئك الذين نفذوا العمليّة». وبالنّسبة لكافة الإسرائيليّن، فإنّ الرّجل المسؤول عن مأساة ميونخ لقي جزائه العادل.

وكما هو متوقع، لم تنظر لانغلي ولا وكالة المخابرات لما جرى بالطّريقة نفسها. يتذكّر لندزي شِرون، المحلل المتخصّص في منطقة الشّرق الأوسط

قائلا، «إنّ اليوم الذي اغتيل فيه علي حسن سلامة سيئ جدّا. الجميع في الوكالة عرفوا أنّ ما جرى مسألة كبيرة. أصيب أيمز بالصّدمة حين سمع الأخبار، وأمضى يومه صامتا وقد أمتقع لون وجهه. سمعت احدهم يسأل إنْ كان على ما يُرام».

اعتقد العديد من ضبّاط العمليّات السّرّيّة في لانغلي أنّ اغتيال سلامة كان خطأ فظيعاً. قال لندزي شِرون، «إنّي أعجب لماذا لم يحاول كلير جورج والآخرون ما بوسعهم للمحافظة على حياة سلامة». قال آخرون إنّها مأساة. ذكر سام وايمن، «لو بقي سلامة حيّا لاتّخذت الأمور مسارا مختلفا. لم يكن ممكنا تجنيده، ولو جرت الأمور بشكل صحيح لأصبح وسيطا سياسيّا ذا تأثير قويّ فعّال. إنّ ما حدث ضربة لنفوذنا وضربة لكلّ طموحات السّلام». وفي بيروت اتّفق مدير محطة الوكالة أندرسن مع ما ذهب إليه وايمن، حين قال: «لقد فقدنا قناة دبلوماسيّة بالغة الأهميّة. لقد فقدنا القدرة على دفع عمليّة السّلام. إنّ عرفات بالمقارنة مع سلامة كان رجلا ضعيفا جدّا.» حين قابل أندرسن عام 1993 عرفات، عاد من تلك المقابلة بانطباع أنّ الرّجل وعاء فارغ. ويتذكّر أنّه بعد مرور عدة أسابيع، «كنت أتناول العشاء مع الملك حسين، فذكرت له أنّ عرفات لم يترك في نفسي انطباعا جيّدا. اكمل الملك جملتي بالقول إنّه لا يوجد هناك شك».

اعتقد العديد من منتسبي الوكالة أنّ سلامة كان يجب أن يحظى بالحماية. ومهما كان حجم المخاطرة السّياسيّة، ظنّ البعض أنّه كان يجب إخبار الإسرائيليّين بعدم المساس به. وذهب چارلي ألن إلى القول، «إنّ اغتيال سلامة قد أضرّ بالمصالح الوطنيّة الإسرائيليّة. حين قتلت الموساد علي سلامة كانت كمن يقطع أنفه لكي يغيظ وجهه». أمّا سفير الولايات المتّحدة في مصر آنذاك، هرمن إيلتس فقد أخبر صحيفة وول ستريت جورنل بصراحة، «لقد قدّم مساعدات فائقة. وكانت منظمته فتح قد ساعدت في حماية المواطنين والمسؤولين الأمريكيّين في بيروت. إنّني اعتبر اغتياله خسارة كبرى». أمّا الأدميرال ستانسفيلد تيرنر، مدير الوكالة في إدارة كارتر، فقد نُقل عنه أنّه أخبر الرّئيس، «إنّ رجلنا في منظمة التّحرير الفلسطينيّة قد اغتيل».

فهم بعض ضبّاط الموساد مشكلة الأمريكيّين المحيّرة. لاحظ يورام هزل

الموقف قائلا: «كان استثمارا كبيرا بالنّسبة لهم. كان سلامة يعني 10 سنوات من العلاقة المخابراتيّة. ولذلك نرى من وجهة نظرهم أنّهم رغبوا في حمايته، ولكن هناك شيء خطأ في لبّ القضيّة. من وجهة نظرنا، نحن الإسرائيليّن، إنّنا لا يمكن أنْ نتصوّر إقامة علاقة مع رجل من هذا النّوع. إنّ فكرة وجود عمليّة تبادل المخابرات مع الأمير الأحمر مسألة بغيضة لعينة».

أمّا مير هارل الذي أصبح المدير العام للموساد فيما بعد، فقد فهم فهما تامّا لماذا رعى أيمز سلامة فقال، «إنّ العلاقات خلف الكواليس مسألة مقبولة وفق أصول مقبولة للعبة. كنّا نعرف أنّ سلامة يتحدّث مع الأمريكيّن. وعرفت فيما بعد أنّ أيمز غاضب جدّا علينا لأنّنا قتلنا سلامة. لو كان الأمريكيّون يريدون بقائه حيّا، فما كان عليهم إلّا أنْ يطلبوا ذلك منّا. يمكنك الإفتراض بأنّه لو كان الأمريكيّون قد أخبرونا أنّه عميل للوكالة، لكنّا توقفنا عن المضيّ في عمليتنا». غير أنّ مثل هذا الكلام يتطلب طرح سؤال، لأنّ علي لم يكن موافقا على اعتباره عميلا. ويعترف هارل بنفسه أنّ علي لم يكن عميلا. وأضاف يقول، «لم يدهشني الأمر، ولم يثر غضبي أنّ الأمريكيّن كانوا يتحدّثون مع الفلسطينيّن. لقد كان ذلك جزء من اللعبة. لكنّها لعبة ساحرة. لقد شككنا أنّ له إتّصالات بالأمريكيّن. وعلى أيّة حال، فإنّ تلك العلاقة مسألة اتّصالات وليس عمالة لوكالة المخابرات المركزيّة».

يتذكّر مسؤول إسرائيلي آخر في جهاز المخابرات وهو دون زِيت نقاشا له مع أيمز جرى في واشنطن بعد اغتيال سلامة عن علاقته، أي أيمز، الوثيقة بمنظمة التّحرير الفلسطينيّة. يتذكّر زِيت قول أيمز بأنّ القتيل لم يكن يلعب لعبة سياسيّة، وأنّه في الحقيقة كان شخصا امينا. أتذكّر أنّ قادتي في المناصب العليا، صُدموا بطبيعة العلاقة بينهما».

في الواقع، إنّ كافة منتسبي المؤسّستين الإسرائيليتين العسكريّة والمخابراتيّة قد احتفلوا بقتل سلامة. لقد تمّت تصفية إرهابيّ. ولكن إذا وضعنا جانبا قضيتي الثأر والإنتقام، ماذا حقق الإسرائيليّون من تصفيته؟ كان رونن برغمن، وهو مراسل هامّ في شؤون الأمن القومي والمخابرات ممّن شكّوا في الفوائد المتوقعة. سأل يقول، «هل حلت عمليّة الإغتيال المشكلة الفلسطينيّة؟ لا. هل

ساعدت على تحقيق السّلام؟ لا، بل خلقت فرصة لسفك مزيد من الدّماء في صفوف الجانبين في أوروبا. من النّاحية التّكتيكيّة، كانت العملية ناجحة، لكنّها من النّاحية الإستراتيجيّة كانت فشلا ذريعا.» أمّا فرانك أندرسن فقد كانت له وجهة نظر ساخرة حين قال: «تتبع إسرائيل سياسة تقضي بتصفية أيّ شخص قريب من عرفات يظهر ميلا نحو الأفكار الليبراليّة. أعرف أنّهم ينكرون ذلك، ولكن أنظروا إلى قائمة اسماء الذين اغتالوهم».

من المؤكّد أنّ تصفية **الأمير الأحمر** ربّما أخّرت اليوم الذي تفاوض فيه المسؤولون الأمريكيّون مع ياسر عرفات بشكل علني، لكنّها لم تغلق باب القنوات الخلفيّة. إثر اغتيال سلامة، كان أندرسن يريد معرفة من سيخلفه ليكون حلقة اتّصال بالوكالة. حضر عضو المنظمة ممدوح صبيح، وهو زوج أخت أرملة الراحل، إلى مكتب السّفارة واخبر أندرسن بأنّ زين سيكون ذلك الشّخص. في الحقيقة، دُعي زين لمقابلة عرفات تحت جنح الظلام في أحد البيوت السّريّة للمنظمة في بيروت، حيث جرى حديث مطوّل مع «الخِتيار.» قال عرفات: «أريدك أن تقوم بهذه المهمّة، رغم أنّي أدفعك نحو الموت. ولكن أنت لبناني ولست فلسطينيّا، ولذلك سيكون من السّهل على الأمريكيّين أنْ يجتمعوا بك». كان أندرسن يشكّ بأنّ زين سيقبل المهمّة ويحلّ محلّ صديقه سلامة، وشاركه في ذلك الشّكّ رؤساؤه في لانغلي. غير أنّ الوكالة كانت مصمّمة على بذل كافة الجهود الممكنة للإبقاء على القنوات الخلفيّة مفتوحة عن طريق الإجتماع بعدد من الشّخصيّات الأخرى، منها هاني الحسن مسؤول المنظمة الذي كان التقى سابقا بالجنرال فرنن والترز في الرّباط عام 1973.

بعد أسبوعين من اغتيال سلامة، طار زين إلى واشنطن. زاره أيمز في غرفته في الفندق، وتحدّث الإثنان في رثاء صديقهما، وانسابت دموع كثيرة بغزارة، على حدّ قول زين. كما يتذكّر قول أيمز له: «يجب أنْ ننهي المهمّة التي بدأناها مع علي».

الفصل التّاسع

آيات الله

بتاريخ 1 فبراير من عام 1979، وبعد مرور تسعة أيّام فقط على اغتيال علي حسن سلامة، وصل آية الله روح الله الخُميني إلى طهران منتصرا، واستقبلته الملايين من الإيرانييّن إيذانا بسقوط نظام الشّاه. بتاريخ 11 فبراير أحكم الثوريّون الخُمينيّون قبضتهم على الحكومة. بدأت الثورة في شهر اكتوبر عام 1977 عندما تظاهر بضع مئات من المواطنين، غير أنّ التّظاهرات تصاعدت طيلة عام 1978. وفي خريف ذلك العام بدا واضحا أنّ النّظام البهلوي لم يعد قادرا على فرض سيطرته على الشّارع الإيراني.

أعيد جورج كيف بعد ثورة 1979 من السّعوديّة إلى واشنطن وأنيطت به مهمّة التّعامل مع الحكومة غير المستقرّة والوضع الثوري المائع في طهران. وباعتباره ضابطا في المخابرات الوطنيّة NIO لمنطقة الشّرق الأدنى، كان أيمز يتعامل مع قضايا من هذا القبيل. فمنذ عودة آية الله الخُميني نشب صراع حادّ على السّلطة في طهران بين الأعضاء المعتدلين في الحكومة الثوريّة والإسلاميّين المتطرفين من أنصاره، الذين ارادوا تحويل إيران إلى دولة ثيوقراطيّة تقوم على أسس الإسلام. كان المعتدلون بقيادة مهدي بازركان، وهو أستاذ الهندسة في جامعة طهران، عيّنه الخُميني رئيس وزراء مؤقت. وفي الوقت الذي حاول فيه بازركان إعادة الخدمات الحكوميّة الأساسيّة وكتابة الدّستور، اجّج الخُميني المشاعر السّياسيّة عن طريق عدد من الخطب الحماسيّة التي هاجم فيها الإمبرياليّين الأجانب والفساد والعلمانييّن الملحدين في الدّاخل. وخلال عام 1979، استمر في حملته المنظمة لوضع العقبات امام رئيس وزرائه.

بحلول ربيع 1979، كانت طهران على شفا هاوية الفوضى. بدأت جماعات من الإسلاميّن المتطرفين الموالين لآية الله تجوب شوارع المدينة وتنصب نقاطا للتّفتيش. بتاريخ 18 مارس 1979، ذهب هوارد هارت، المدير المؤقت لمحطة

الوكالة ليلا لمقابلة أحد العملاء، عندما اعترضه إثنان من هؤلاء وهما يردّدان «سي آي أي»! وحين طرحاه أرضا، اضطرّ أن يسحب مسدّسه ويقتلهما. من جهة أخرى، كانت الفترة «فترة تفتّح آلاف الأزهار». كان الباعة المتجوّلون يبيعون الصّحف والمجلات على جوانب الشّوارع، وهي تعرض آراء مختلفة تتفاوت بين الشّيوعيّة والإسلامية. كان لحزب توده، وهو الحزب الشّيوعي في البلاد، مكتب في العاصمة، وكذلك لحزب مجاهدي الشّعب، وهم جماعة إسلاميّة ذات برنامج يساري. غير أنّه بدا واضحا أنّ انصار الخّميني كان لهم الزّخم السّياسي وعضلات الشّارع لإسكات أيّ اتّجاه سياسيّ معارض.

وفي مثل هذا الموقف المشوب بعدم التّأكّد، ما كان واضعو السّياسة الأمريكيّة تحت أيّ وهم لإعادة النّظام الملكي. كانت واشنطن تأمل بشكل متواضع استئناف العلاقات الطبيعيّة الإيرانيّة الأمريكيّة فقط. كما أنّها أملت أنّ حكومة بازركان التي يسيطر عليها رجال معتدلون نوعا مّا ومن أنصار التّحديث، ستكون قادرة على الاستمرار في الحكم لتهدّأ الأوضاع وتضع دستورا ديمقراطيّا، وربّما تحافظ على تصدير النفط بالمعدلات السّابقة المعروفة إلى الأسواق العالميّة. للأسف، ثبت أنّ تلك الآمال لم تكن إلّا أضغاث أحلام. وكما أشار أحد المسؤولين الأمريكيّين، «ليس من السّهل أنْ تنام قرير العين جنب فيل كنت قد أصبته». غير أنّ بوب أيمزوجورج كيف قاما بمحاولة شجاعة عام 1979 لتحويل العلاقة الثوريّة الإيرانية المعدومة مع امريكا إلى موقف يشبه الوضع الطبيعي.

كانت العقبات في طريقهما بالغة الصّعوبة، إذ إنّ معظم الإيرانيّن كانوا شديدي الشّك بالنّوايا الأمريكيّة. فهم يعرفون جيّدا أنّ وكالة المخابرات المركزيّة هي التي خططت للإنقلاب الذي أعاد الشّاه إلى الحكم عام 1953. كما يعلمون جيّدا أنّها عملت بشكل وثيق مع شرطة الشّاه الأمنيّة السّافاك التي زرعت الرّعب في قلوب المواطنين. وافترض غالبيّة الإيرانيّن أنّ الأمريكيّن سيعملون كلّ ما في وسعهم للقيام بثورة مضادّة في بلدهم.

في ربيع عام 1979 وبعد قيام الثورة مباشرة سحبت إدارة كارتر سفيرها وليم سوليفَن من طهران لأنّه كان مقرّبا جدّا من الشّاه. واقتصر الأمر على وجود

قائم بأعمال في السّفارة هناك. وخلال الأشهر التّالية أجلت الكثير من موظفيها الدّبلوماسيّين بحيث تقلص عددهم من عدّة مئات إلى اقل من 80 شخصا نتيجة لتدهور الأوضاع الأمنيّة والسّياسيّة. لم يكن لضبّاط الوكالة هناك أيّ خبرة في شؤون إيران، ولا يتكلم أي منهم الفارسيّة، وهذا أمر لا يُصدّق. ومن المثير للسّخرية أنّه كان للموساد معلومات افضل، لأنّها كانت تقوم بتدريب السّافاك وأنّ بعضهم قد خلع بزّته الرّسميّة واطلق لحيته وانضمّ للحرس الثّوري.

حاولت وزارة الخارجيّة الأمريكيّة والوكالة خلال ذلك الصّيف فتح قنوات اتّصال خلفيّة مع النّظام الجديد. عيّن رئيس الوزراء بازركان مساعده الخاصّ عباس أمير إنتظام ليكون حلقة اتّصال بالسّفارة الأمريكيّة. كان يبغي علاقات أفضل مع الأمريكيّين، وعليه وبناء على تخويل بازركان الرّسمي بدأ إنتظام يجتمع بشكل منتظم مع مسؤولي السّفارة الأمريكيّة. يبلغ هذا الرّجل من العمر 46 عاما وهو مهندس ورجل أعمال درس في الولايات المتّحدة وعمل فيها. عندما كان شابّا، قام مرّة بتسليم رسالة احتجاج للسّفارة خلال فترة انقلاب عام 1953. كان وطنيّا إيرانيّا من المعارضين لنظام الشّاه وعضوا لفترة طويلة في حركة المقاومة الوطنيّة. بحلول عام 1978، أصبح من أشدّ مؤيّدي الخُميني باعتباره قائدا للثورة. وبمحض الصّدفة، فإنّ إنتظام كان قد قابل كيف، الذي كان ضابطا للوكالة في طهران في أواخر خمسينات القرن الماضي. لم يحاول كيف تجنيده، وبناء عليه لم يكن عميلاً مدفوع الأجر. لكنّ كيف قد عرفه واستطلع آرائه حول النّظام البهلوي، كما أكّد ذلك بنفسه. وبدون علم إنتظام، اعطته الوكالة اسما سرّيّا هو SDPLOD/1. لقد حطّمت تلك الخطوة حياته فيما بعد وجعلته يقبع في سجون الثورة الإيرانيّة لفترة طويلة. أيّاً يكن الأمر، في ربيع 1979، دفعت تلك العلاقة القديمة الرّجلين كي يعملا معا. حدث أنْ تقابلا في ستوكهولم يومي 5 و6 من شهر أغسطس. تذكّر إنتظام علاقته القديمة بضابط الوكالة منذ سنوات سابقة. شرح له كيف أنّ واشنطن ترغب أنْ تعيد علاقات صداقة وعمل مع طهران. ولتحقيق ذلك، اقترح عقد لقاءات مع الإيرانيّين لإطلاعهم على المعلومات المخابراتيّة التي تهمّ النّظام الثوري. وافق إنتظام على المقترح وتقرر أن يجري الإجتماع الأوّل في أواخر شهر اغسطس في طهران.

تقرّر أنْ يكون بوب أيمز هو من يقوم بطرح المعلومات خلال ذلك اللقاء الأوّل. ونظرا لكونه ضابطا في المخابرات الوطنيّة لمنطقة الشّرق الأدنى، كان يُعتقد أنّ لديه صورة عامّة عن الوضع، كما كانوا يعلمون أنّه متحدّث جيد، وطبعا لـه خبـرة سـابقة للعمل والعيش في إيـران. طار من باريس إلى طهران، فوصلها بحدود السّـاعة 10:00 مسـاء يوم 21 اغسـطس. كان يحمل معه «رسـالة رسميّة» كي لا يقوم أحد بتفتيشـه أو تفتيش أمتعته أو وثائقه السّـرّيّة. في العادة، توضع مثل تلك الوثائق في محفظة مربوطة بالرّسغ. وفق الأعراف الدّبلوماسيّة الدّوليّة فإنّ «الرّسـالة الرّسـميّة» يجب أن تكون كافية لكي لا تقوم السّـلطات في مطار طهران بتفتيشـه أو مضايقته. سـافر باسـمه مسـتعملا جوازه الدّبلوماسي، غير أنّ برقيّة الوكالة أشـارت إليه باسـمه السّـرّيّ لديها وهو Orrin W. WEIDEKOPF. في اليوم التّالي، قام بتقديم تقريره للإيرانيّين، ورافقه القائم بالأعمال الأمريكي بروس لاينغن وكذلك المستشار السّياسي في السّفارة فكتر تومِست. أمّا الجانب الإيراني فقد مثله رئيس الوزراء مهدي بازركان ووزير الخارجيّة إبراهيم يازدي وإنتظام. كانت تعليمات أيمز أن يشجّع الإيرانيّين على جعل تلك اللقاءات دوريّة منتظمة. نجح في ذلك، لأنّ الإجتماع الذي كان مُقررا له أن يكون لساعة استمر سـاعتين كاملتين. لم يكشـف في هذا اللقاء عن معلومات مخابراتيّة حسّاسـة، بـل أعطاهـم ملخّصـا لوجهـة نظر واشـنطن حول التّطـورات العامّة في الشّـرق الأوسط. كان إنتظام قد طلب في وقت مسبق معلومات عن المخاطر الخارجيّة التـي تحيـق بالنظـام الجديد وتهدّده. لكنّ أيمز تحدّث عن التّطورات في العراق وأفغانسـتان والإتّحاد السّـوفياتي. ذكر بروس رِدل، المحلل الذي عمل مع أيمز في واشنطن، أنّه حاول أنْ يزيل شكوك الإيرانيّين القائمة منذ وقت طويل. «في الأسـاس، كان بوب يعمل على إقناع الإيرانيّين بأنّ الشّـيطان الأكبر في الحقيقة متمثل بجاريهما في المنطقة، وهما العراق والإتّحاد السوفياتي». وفي نهاية لقاء السّـاعتين قال إنتظام: «نأمل أنْ تحسّـن مؤسسـتكم علاقاتها معنا بالطريقة نفسها التي تتحسّـن فيها العلاقات بين بلدينا من خلال جهود القائم بأعمال السّـفارة لين‌غـن والدكتـور يـازدي». قال ذلك وهو يجلس جنـب رئيس الوزراء بازركان

الذي يعرف الإنكليزيّة جيّدا. لم «يكشف» أيمز عن علاقته مع RTACTION وهو الاسم الرّمزي للوكالة. غير أنّ الجميع كان يعرف أنّه قادم من وكالة المخابرات المركزيّة. اختُتِم الإجتماع بقول بازركان الموجز: «إنّنا نأمل أن يتمّ مثل هذا اللقاء مرّة كلّ شهرين». ذكر إنتظام لكيف فيما بعد بأنّ «الجميع اعتبروا اللقاء مع ضابط NIO بداية حسنة».

الآن وقد فتح أيمز قناة للإتّصال، فإنّ دوره قد انتهى من النّاحية العمليّة. غير أنّه مكث في طهران عدّة أيّام أخرى محاولا رصد مزاج النّظام الثّوري، وتمكّن من الحصول على مقابلة مع آية الله الدكتور محمّد بهشتي، الذي يبلغ من العمر 51 عاما. وهو عالم دين معروف لعب دورا أساسيّا في كتابة الدّستور الجديد. وهو الشّخص نفسه الذي يعرف أيمز عنه أنّه لعب دورا في اختفاء الإمام اللبناني موسى الصّدر عندما كان يزور ليبيا. لقد اطّلع على تقرير الوكالة حول اختفاء الصّدر، وكذلك تقارير أخرى ورّطت جميعها بهشتي في اختفاء الإمام المذكور ومرافقين له. وعليه فإنّه بموجب كلّ المعايير، كان لاعبا عنيدا مرعبا في الثّورة الإيرانيّة. كان في طليعة مناصري قيام الجمهوريّة الإسلاميّة وحليفا موثوقا لآية الله الخُميني. ذكر أحد محللي الوكالة، «إذا كان الخُميني هو القائد صاحب الشّخصيّة القويّة (الكارزمي) للمجلس الثوري، فإنّ بهشتي هو المسؤول التّنفيذي الأوّل لذلك المجلس». عاش بهشتي في الغرب وترأس المركز الإسلامي في مدينة هامبورغ في ألمانيا لمدّة خمس سنوات في السّتّينيات. وعليه كان يُعتبر أكثر تفتّحا وتحرّرا ومعرفة بالمقارنة مع غالبية الملالي الذين احكموا قبضتهم على البلاد في ظلّ النّظام الجديد. أضف إلى ذلك، أنّ الخُميني وثق به واحترمه. لم تكنْ لدى بهشتي أيّة فكرة أنّه يقابل ضابطا في الوكالة في شخص أيمز، الذي حاول أنْ يثقّف نفسه ويزيد معرفته بالنّظام الجديد عن طريق مقابلة آيات الله المتنفّذين. لقد تقابلا في مطلع شهر سبتمبر، طار بعدها أيمز عائداً إلى واشنطن(*).

بعد مرور ستة أسابيع، أي في اكتوبر 1979، حضر جورج كيف واسمه

(*) قُتِل بهشتي بتاريخ 28 يونيو 1981 مع حوالى 60 عضوا من أعضاء حزب الثورة الإسلاميّة عندما انفجرت المنصّة التي كان يقف عليها وهو يخاطب جمهور المحتشدين.

السّـري ADLESICK إلـى طهـران للتباحـث مـع وزير الخارجيّة يـازدي وإنتظام حـول معلومـات عسـكريّة موثقـة. توصّل بعض محللي الوكالة إلى اسـتنتاج في الصّيـف الماضـي أنّ الجّـار العراقي يعدّ العدّة لغزو إيران. تمّ تخويل أيمز بنقل تلك المعلومات للإيرانييّن في شهر أغسطس، ولكنّ كيف حضر بنفسه ليقدّم لهم أدلة دامغة أنّ صدام حسين ينشر بهدوء قوّاته ذات الإستعداد العسكري الممتاز بغية القيام بغزو واسـع النّطاق. يقول مارك غاسبروسـكي المتخصّص بالشـؤون التّاريخيّـة الإيرانيّـة أنّ مهمـة الوكالة كانت، «التّحذير من احتمال نشـوب حرب بيـن بلديـن مهميـن لهما موقع اسـتراتيجي بالغ الخطـورة. هذا وكان نائب وزير الخارجيّـة ديفـد نيوسـوم، وغيره مـن القادة السّياسـييّن الأمريكييّن قد دعوا إلى تزويد حكومة بازركان بالمعلومات المخابراتيّة حول نشاطات العراق لكي تقوم الحكومـة المذكـورة باتّخاذ الإجراءات الكفيلـة بردع الغزو المباغت، والحيلولة دون انـدلاع الحـرب. ومـن الواضـح أنّ مـا قام به روبرت أيمـز في لقائه الأوّل وما تبعه من اللقاءات كان الطريقة الواضحة التي انتهجتها الإدارة الأمريكيّة».

كان للأمريكييّن هدف ابعد من التحذير. من المؤكّد أنّهم يرغبون في عودة العلاقات الطبيعيّة مع المسؤولين الجدد الذين يديرون البلد الآن. غير أنّ الوكالة اسـتهدفت أيضا إقناع الحكومة المؤقتة في طهران لاسـتئناف نشـاطات نظامين للمراقبة الإلكترونية كانت تديرهما في ايام الشّاه. الأول هو IBEX الذي يعتمد علـى قواعـد ارضيّـة للتنصّت ويسـتلم معلومات من طائـرات C-130 التي تغطي منطقـة الحـدود العراقيّة الإيرانيّة وتراقبها. تسـتطيع تلـك الطائرات التقاط صور فوتوغرافيـة حـول تحـرّكات القـوّات العراقيـة على عمق 7 اميـال داخل العراق وترسلها إلى المحطة الأرضيّة. توقف نظام IBEX عن العمل في خضمّ الفوضى التي اعقبت قيام الثورة. ولم يكن بازركان ولا يازدي ولا إنتظام على علم بوجود مثل هذا النّظام، دعك من المعلومات المخابراتيّة التي يمكن أن يوفّرها.

أمّـا نظـام المراقبـة الآخر فاسـمه Taksman الذي كان مركـز اهتمام خاصّ بالنّسبة للأمريكييّن لأنّه يراقب عمليّات اختبار الصّواريخ السّوفياتيّة. فقد أملت الوكالة أنّه اذا اسـتطاعت إثبات قيمة نظام المراقبة IBEX وجدواه لتزويد إيران بالمعلومات المخابراتيّة الهامّة حول نوايا العراق، فإنّ ذلك قد يشجع الحكومة

الجديـدة لبعـث الحيـاة مجـدّدا في نظام Taksman أيضـا. في عام 1979 وخلال الحـرب البـاردة القائمـة، كانت مراقبة الإتّحاد السـوفياتي فـي طليعة مهام وكالة **المخابرات المركزيّة.**

بتاريخ 15 اكتوبر 1979 قدّم كيف تقريرا سرّيا بالغ الأهميّة وأعلم الإيرانيين صراحة أنّ العراق يعد العدّة للبدء بالهجوم عليهم. فوجئ الإيرانيّون بذلك إلى حدّ قول وزير الخارجيّة يازدي، «لن يجرأوا على ذلك». وبعد ثلاثة أيّام وخلال لقـاء آخـر مـع يـازدي أوضـح كيفـبصبر وتـأن أنّه إذا كان لديهم أيّ شـكّ، فما عليهم إلّا البدء بتشـغيل نظام IBEX للمراقبة الإلكترونيّة ليشـاهدوا المعلومات المخابراتيّة بأنفسهم. يبدو أنّ ذلك الإقتراح قد اقنع الوزير يازدي ورئيسه بازركان بأنّ الأمريكيّين يزودونهم بمعلومات مخابراتيّة بالغة الأهميّة. يقول القائم بأعمال السّـفارة بـروس لينغـن: «وصل الأمر إلى حدّ أنْ جلسـنا معـا جميعا واعطيناهم معلومات مخابراتيّة موثقة عن العراق.» وبعد عودة كيف إلى واشـنطن قام هو وأيمز بتقديم تقرير مشـترك موجز إلى مدير الوكالة الأدميرال ستانسـفيلد تيرنر عن مهمّتهما السّرّيّة في طهران.

غير أنّ الأمور اتّخذت منحى سـيئا بشـكل متسـارع. بتاريخ 20 اكتوبر قرّر الرّئيس الأمريكي جِمي كارتر على مضض، السّماح للشّاه المنفي أن يحضر إلى نيويـورك لتلقـي العلاج من مرض السّـرطان الـذي يعاني منه. لقد تعرّض كارتر لحملة ضغط واسـعة دامت عدة اشـهر وسُـمّيت «مشـروع ألفا». كانت الحملة بتمويل خاصّ من قبل ديفد روكفلر الذي انفق العشـرات من آلاف الدّولارات علـى هـذا المشـروع. قـام روكفلر بدفع الأموال السّـخيّة لمنتسـبي مصرف چَيز مانهاتن ولمحامين معروفين من مكاتب ملبانك وتويد وهادلي ومكلوي لمضايقة إدارة كارتر قانونيّا، لكي تمنح الشّاه لجوء سياسيّا. كتبت زوجة الرّئيس روزلن كارتر في مذكّراتها تقول: «لا نستطيع الهروب من مشكلة إيران. إنّ العديد من الأشخاص المعروفين مثل كيسنجر وديفد روكفلر وهارولد بيكر وجون مكلوي وجيرالـد فـورد، كانـوا يمارسـون الضّغط على جِمي ليأتي بالشّـاه إلى الولايات المتّحدة. إلّا أنّ جِمي تمسّـك بموقفه وأخبرهم أنّ المشـاعر ضدّ امريكا وضدّ الشّـاه في تزايد، وأنّه لن يقدم على تلك الخطوة. ذكر جِمي أنّه شـرح لهم أنّ

الإيرانيّين ربّما سيخطفون الأمريكيّين الذين ما زالوا داخل تلك البلاد». كانت مخاوف الرّئيس في محلّها.

بتاريخ 22 اكتوبر 1979 وصل الشّاه إلى نيويورك لتلقي العلاج من مرض السّرطان في أحد مستشفياتها. وبعد أيّام قليلة، انطلق الملايين من الإيرانيّين في تظاهرات صاخبة في شوارع طهران مندّدة بوصول الشّاه إلى امريكا، وقام الخُميني بإلهاب مشاعر المتظاهرين عن طريق خطب حماسيّة ندّدت بأمريكا وانتقدت القوى اليساريّة والعلمانيّة داخل بلاده. وحين قام حشد من مئات الطلبة الغاضبين باجتياح السّفارة الأمريكيّة بتاريخ 4 نوفمبر 1979 واحتجزوا 61 امريكيّا كرهائن، امتدح الخُميني فعلتهم. كتب روس رِدل المحلل الذي عمل مع أيمز يقول: «ربّما شعر الخُميني أنّ الأمريكيّين يحاولون استمالة بعض الإيرانيّين مثل بازركان ويازدي وإنتظام كي يسلكوا طريقا معتدلا. ولذلك حين قام الطلبة باجتياح السّفارة، فإنّ ذلك أعطاه فرصة لتأجيج الموقف لصالحه». وبعد يومين أقال حكومة بازركان وقطع الطّريق على أيّ احد ينتقد نظرته لما يجب أنْ تكون عليه إيران كدولة ثيوقراطيّة(*).

خلقت أزمة الرّهائن فرصة للخُميني لقلب موازين القوى السّياسيّة في البلاد لصالح الملالي. وفي الوقت نفسه أوصد القناة الخلفيّة التي فتحها أيمز وكيف ومن خلفهما الوكالة مع بازركان ويازدي وإنتظام. لم يكن الخُميني على علم بالتّقرير الذي قدّمه أيمز في طهران، ولا بالمعلومات المخابراتيّة الموثقة التي قدّمها كيف عن خطط العراق لغزو إيران. ومن المثير للدّهشة، أنّ الطلبة الذين اجتاحوا السّفارة حصلوا على كنز من المعلومات يتمثل في آلاف البرقيّات السّريّة، بما فيها تلك التي تعرّضت لزيارتي أيمز وكيف ولقائهما مع بازركان ويازدي وإنتظام. جرى جمع الوثائق والبرقيّات السّريّة المُمزّقة من سلال المهملات وتمّ تركيبها بطريقة متأنّية صبورة. استخدِم بعضها لتوجيه تهمة

(*) اعترف الرّئيس السّابق محمود أحمدي نجاد أنّه كان ضمن مجموعة من خمسة طلبة حضروا الإجتماع الأول للتخطيط لاجتياح السّفارة. كما ادّعى أنّه اقترح اجتياحا مماثلا للسّفارة السّوفياتيّة، لكنّ اقتراحه رُفض عند التّصويت عليه. راجع كتاب:

Mark Bwad, *Guests of the Ayatollah: The First Battle in America's War with Militant Islam*, (Atlantic Monthly Press, 2006), p. 615.

التّجسّس إلى إنتظام وحكم عليه بالسّجن مدى الحياة(*). كما ألقي القبض على عدد من عملاء وكالة المخابرات الأمريكيّة من الذين وردت أسماءهم في الوثائق التي وضع الطلبة أيديهم عليها. ومن هؤلاء سيمون فرزادي SDTRAMP /1، وهو صحفي إيراني يهودي تمّ إعدامه رميا بالرّصاص في شهر ديسمبر عام 1980. وكذلك خسرو قشقاي SDROTTER /4 وهو قائد قبلي أعدِم بشكل علني شنقا عام 1982.

وكما توقع جورج كيف قام صدّام حسين بغزوه المرتقب الواسع للأراضي الإيرانيّة في شهر سبتمبر من عام 1980. فوجئ الإيرانيّون الذين لم يكونوا مستعدّين لذلك ولحقت بهم خسائر كبيرة وهزائم ضخمة في تلك المرحلة من الحرب. وسرعان ما أصبحت حربا دمويّة شملت استخداما واسعا للأسلحة الكيمياويّة. استمرت هذه الحرب الطاحنة لغاية شهر اغسطس 1988، وبلغ عدد الضّحايا فيها حوالى نصف مليون عسكري قتيل من كلا الجانبين. وفي النّهاية لم يحرز أيّ منهما تقدّما ميدانيّا.

كتب الأستاذ غاسيروسكي يقول: «السّخرية المؤلمة هي أنّ الطلبة الإسلاميّن الرّاديكاليّن الذين اجتاحوا السّفارة في مطلع نوفمبر 1979، قد قاموا بذلك لأنّهم اعتقدوا أنّ الولايات المتّحدة تعدّ العدّة لانقلاب آخر أو غيره من النّشاطات الشّائنة في بلادهم. وحقيقة الأمر أنّ المسؤولين الأمريكيّن كانوا يحذرون الحكومة الإيرانيّة من النّشاطات العسكريّة العراقيّة التي بلغت ذروتها في الغزو التّدميري الذي بدأ في شهر سبتمبر 1980».

ولو أعدنا النّظر، لوجدنا أنّه ربّما لم يكنْ باستطاعة أيمز ولا كيف ولا الوكالة كلّها أنْ يغيّروا المسار السيئ الحظّ للتّاريخ. كان الخُميني مصمّما على إزاحة المعتدلين من قبيل بازركان جانبا ليشرع في إقامة جمهوريّة إسلاميّة متطرّفة. كان هو وأنصاره من الثوريّن يشكّون في أمريكا شكّا عميقا على

(*) مكث إنتظام في السّجن لغاية عام 1997، حين أطلق سراحه. غير أنّه أعيد إلى السّجن في السّنة التّالية وحُكم عليه لثماني سنوات أخرى يبقى خلالها رهن الإقامة الجبريّة في منزله. ومن سخرية القدر أنّ الطلبة لم يعثروا على وثيقة جورج كيف التي زوّد فيها يازدي وإنتظام بمعلومات موثقة حول استعدادات العراق لغزو إيران. السّبب هو أنّ كيف كان قد أحرق تلك الوثيقة بعد أنْ أبرق محتوياتها إلى واشنطن.

المستويين السّياسي والثقافي- الدّيني. غير أنّ أيمز اعتقد أنّها محاولة جديرة بالجهد لإبقاء قنوات الإتّصال مفتوحة مع الفريق المعتدل في الحكومة الثّوريّة.

بعد سبع سنوات، وتحديدا بتاريخ 25 مايو 1986 استقلّ كيف طائرة من تل أبيب متوجهة إلى طهران لإنجاز مهمّة سريّة. كان معه على متن تلك الطائرة مستشار الرّئيس ريغن لشؤون الأمن القومي روبرت مكفارلند واللفتنانت كولونيل أوليفر نورث، وضابط المخابرات الإسرائيليّة أميران نير. كانت تلك الزّيارة محاولة لبعث الرّوح في قنوات الاتّصال الخلفيّة مع الجناح المعتدل في النّظام الثوري. حمل كيف كعكة شوكولاته على شكل مفتاح قصِد منه رغبة الجميع لفتح باب العلاقات الموصد واستئناف العلاقات الأمريكيّة الإيرانيّة. كان الرّئيس ريغن قد صادق على مهمّة تلك البعثة، وكانت مبادرة الكعكة المفتاح من بنات أفكار كيف نفسه. فشلت المهمة فشلا ذريعا، ولكنّها والمفتاح الذي جاءت به أصبحا موضوع ما سُمّي فضيحة إيران - كونترا(*).

(*) (قضية إيران كونترا Iran–Contra Affair. عقدت بموجبها إدارة الرّئيس الأمريكي ريغن صفقة مع إيران لتزويدها بالأسلحة بسبب حاجة إيران الماسّة لأنواع متطوّرة منها أثناء حربها مع العراق، وذلك لقاء إطلاق سراح الأمريكيّين المحتجزين في لبنان. كان الاتفاق يقضي ببيع إيران عن طريق الملياردير السعودي عدنان خاشقجي ما يقارب 3000 صاروخ تاو المضاد للدّروع وصواريخ هوك ارض جو مضادة للطائرات مقابل إخلاء سبيل خمسة من الأمريكيّين المحتجزين في لبنان.

عقد جورج بوش الأب، عندما كان نائباً للرّئيس ريغن في ذلك الوقت، تلك الصّفقة عند اجتماعه برئيس الوزراء الإيراني أبو الحسن بني صدر في باريس. وهو لقاء حضره أيضاً مندوب عن المخابرات الإسرائيليّة الموساد آري بن ميناشيه، الذي كان له دور رئيسي في نقل تلك الأسلحة من إسرائيل إلى إيران. في آب/ اغسطس من عام 1985، تمّ إرسال 96 صاروخاً من نوع «تاو» من إسرائيل إلى إيران على متن طائرة DC-8 انطلقت من إسرائيل، إضافة لدفع مبلغ مقداره 1217410 دولارا إلى الإيرانيّين لحساب في مصرف سويسرا يعود إلى تاجر سلاح إيراني يدعى غوربانيفار. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1985، تمّ إرسال 18 صاروخاً شُحِنت من البرتغال وإسرائيل، تبعها 62 صاروخاً آخر ارسلت من إسرائيل.

إيران - كونترا تُعرف أيضا بفضيحة إيران غيت. اثناء حرب الخليج الأولى في ثمانينات القرن الماضي، كانت امريكا تمثّل الشّيطان الأكبر بالنّسبة إلى الإيرانيّين الذين تبعوا الخميني في ثورته ضدّ نظام الشّاه. كانت أغلب دول العالم تقف في صفّ العراق ضدّ إيران وبعضها بشكل شبه مباشر مثل الكويت والسّعوديّة وأمريكا. في خلال تلك الفترة ظهرت بوادر فضيحة بيع اسلحة امريكيّة لإيران «العدوّة». في عام 1985، خلال ولاية رونالد ريغن الرئاسيّة الثانية، كانت الولايات المتحدة تواجه تحدّيات دبلوماسيّة وعسكريّة كبيرة في الشّرق الأوسط وامريكا الوسطى. كان ريغن ومدير السي آي

إيه وقتها ويليام جي. كيسي معروفين بخطاباتهما وسياساتهما القويّة المناوئة للإتحاد السوفياتي. وكان غيتس، نائب كيسي، يشاطرهما هذا التّوجّه الأيديولوجي.

ذكر غيتس، «وقتئذ كانت (إيران- كونترا) في مرحلة الإعداد، حيث كانت عبارة عن مخطط سرّي كانت تعتزم إدارة ريغن بمقتضاه بيع أسلحة لدولة عدوّة هي إيران، واستعمال أموال الصّفقة لتمويل حركة الكونترا المناوئة للنظام الشّيوعي في نيكاراغوا. ومن أجل تبرير هذه الأعمال، رأى مسؤولو الإدارة الأمريكيّة حينئذ أنّهم في حاجة ماسّة إلى دعم وتأييد من رجال الاستخبارات. بطبيعة الحال لم يكنْ الموظفون في مكتبي يعرفون شيئاً بخصوص مخططاتهم، غير أنّ السياق الذي طُلب فيه منّا عام 1985 بالمساهمة في تقرير الاستخبارات القومي حول موضوع إيران كان معروفاً لدى الجميع».

تمّ بموجب الصّفقة تزويد الأسلحة التّالية إلى إيران:

20 أغسطس 1985-96 من صواريخ تاو TOW المضادة للدّبابات.

14 سبتمبر 1985-408 من صواريخ تاو مرة أخرى.

24 نوفمبر 1985-18 صاروخا مضادا للطائرات من نوع هوك Hawk.

17 فبراير 1986-500 من صواريخ تاو.

27 فبراير 1986-500 من صواريخ تاو.

24 مايو 1986-508 من صواريخ تاو و240 من قطع الغيار لهوك.

4 أغسطس 1986 - المزيد من قطع الغيار لصواريخ هوك.

28 أكتوبر 1986-500 من صواريخ تاو.

الفصل العاشر

جِمي كارتر وامريكا الرّهينة

أخـذت أزمـة الرّهائـن التـي اسـتمرّت 444 يوما جلّ وقـت أيمز. أصبحت إيـران هـي الأولويّـة بالنّسـبة إليـه خلال السّـنة الأخيـرة من حكـم إدارة كارتر. وباعتباره ضابطا في المخابرات الوطنيّة NIO لمنطقة الشّـرق الأدنى، كان لاعبا مهمّـا فـي كافـة الإجتماعـات المتعلقة بإيـران والرّهائن. وأعطـاه منصبه كضابط فـي تلـك المؤسسـة الفرصـة للإطّـلاع على مجريات الأمـور. وغالبا ما كان هو الشّخص الوحيد في غرفة الإجتماعات ممّن له معرفة بالعمليّات السّرّيّة وتحليل المخابرات. كان عنوانه الوظيفي وخبرته قد أعطياه أهميّة. لقد أدرك الجميع أنّ الثّورة الإيرانيّة وأزمة الرّهائن قد أخذتا الوكالة على حين غفلة، وكانت أمريكا لا تزال تحاول تفهّم النّتائج المترتبّة عن ذلك الفشل المخابراتي الفضيع. قال دك هولمز رئيس أيمز في الوكالة لبعض الوقت: «إنّ الهجوم على سفارتنا في إيران والصّـراع السّياسـي هنـاك، الذي أدّى إلى احتجـاز الرّهائن، كانا مفاجئتين ولدتا نتيجة الفشـل في فهم التّعصّب الأعمى والحماسـة المفرطة لآية الله الخُميني. وكبلد يتوجّب علينا أن نزيد من معرفتنا بثقافة الآخرين ودياناتهم وسياسـاتهم، بشـكل أفضل ممّا نحن عليه الآن. صدّقوني، إنّنا ما زلنا شـعبا ضيق التفكير». من المؤكّد أنّ أيمز اتّفق مع كلّ ذلك.

في منتصف شـهر ديسـمبر 1979 ترك الشّـاه المريض بالسّـرطان الولايات المتّحـدة إلـى المنفـى في مقاطعة إيسـلا كانتادورا في پنمـا. ادركت إدارة كارتر أنّ وجود الشّـاه في نيويورك قد جعل مشـكلة التّفاوض لإطلاق سـراح الرّهائن اكثر صعوبة. في مطلع شهر يناير1980 سمع أيمز شائعات أنّ البيت الأبيض قد وجد طريقة للمباشرة في فتح مفاوضات سرّيّة مع شخص في الحكومة المؤقتة في طهران لغرض إطلاق سـراح الرّهائن. سـمع أيمز أنّ هملتن جوردن، مدير مكتب الرّئيس هو القناة الرّئيسيّة، فشعر بضرورة الإطّلاع على ما يدور، فهاتفه

طالبا الإجتماع به. قابله جوردن مباشرة في البيت الأبيض وأخبره تحت إلحاح شديد من جانب أيمز، أنّ شخصا فرنسيًا هو كرستن بورغيه وآخر ارجنتينيًا اسمه فكتر فيلالون، وهو رجل اعمال يعيش في باريس، قد وصلا إلى پنما كمبعوثين غير رسميّين لإيران كي يطلبا إبعاد الشّاه وتسليمه إلى طهران. كان ذلك محاولة شكليّة، لأنّهما يعرفان جيّدا أنّ پنما سوف لن تقوم بذلك. كما أوضحا أنّ لهما مهمّة اخرى. طلبا من رئيس البلد عمر توروخوز أنْ ينقل رسالة إلى البيت الأبيض فحواها أنّ وزير الخارجيّة الإيراني صادق قطب زاده قد عبّر عن رغبة إيران في التّفاوض لإنهاء أزمة الرّهائن. ولكن نظرا لأنّه لا يثق بوزارة الخارجيّة، فإنّه طلب لقاء مع صديق الرّئيس الأمريكي ومدير مكتبه. أوضح جوردن أنّه استلم الرّسالة وأبلغها للرّئيس الذي فوّضه مباشرة لمقابلة قطب زاده. طلب جوردن النّصح من أيمز وطرح عليه عددا من الأسئلة المباشرة، هل يعتقد أنّ وزير الخارجيّة المنهك بالصّراعات الدّاخليّة قادر على التفاوض لإطلاق سراح الرّهائن؟ هل تستحقّ خطوة كهذه المتابعة؟ هل باستطاعة الوكالة تأمين عدد من الإجتماعات على المدى البعيد تكون سريّة لا تنفذ إليها آذان الإعلام؟ ذكر أيمز أنّه لم يقابل قطب زاده خلال مهمّته السّريّة إلى طهران في شهر أغسطس الماضي، لكنّه يعرف من هو. ربّما ذكر أيضا أنّه قابل بهشتي، رئيس المجلس الثوري، وأشار إلى أنّ بهشتي قد دافع عن قطب زاده حين تعرّض وزير الخارجيّة إلى انتقاد من قبل الطلبة. وعد أيمز جوردن بأنّه سيواصل الاتّصال، وأنّه شعر بالكثير من التّشجيع.

أوكل أيمز لأحد معاونيه، وهو تومس برامن، بأنْ يبقى على اتّصال دائم مع جوردن. شعر برامن بالغبطة لهذه الفرصة للتّواصل مع البيت الأبيض، وكتب فيما بعد يقول: «لقد حقق ذلك هدفين. أوّلا، جعلنا جوردن يفهم بشكل واضح أنّ نشاطاته معروفة لدى الوكالة. وثانيا، إنّها اعطتني الفرصة للتّواصل على مستوى عالٍ، وهو أمر يمكن توظيفه في حواري السّياسي بين المخابرات وضبّاط العمليّات داخل الوكالة. إنّ ضابطا أقلّ رتبة من بوب احتفظ لنفسه بمسألة البيت الأبيض وجوردن». اعتقد برامن أنّ أيمز هو «اللاعب الكبير في هذا الفريق». لقد أتى أيمز ببرامن إلى «الحلقة» لكنّه لم يقطع اتّصاله مع جوردن.

أعدّت الوكالة خلال الأسابيع القليلة التّالية ملفّات عن قطب زاده ووسيطيه إلى بنما، بورغيه وفيلالون. بتاريخ 25 يناير 1980، إلتقى جوردن بكلا الرّجلين في البيت الأبيض. كان للمبعوثين غير الرّسميّين خطة وضعاها بكل مهارة، واعتقدا أنّها ستقود إلى إطلاق سراح الرّهائن. أوّلا، تُشكّل الأمم المتّحدة هيئة للتّحقيق لمراجعة شكاوى إيران ضدّ الولايات المتّحدة. تقوم إدارة كارتر بانتقاد الفكرة ولكنّها لن تعارض تشكيل الهيئة. ثانيا، تسافر هيئة البحث عن الحقائق إلى إيران وتقوم بإجراء تحقيق علني، حيث يمكن للإيرانيّين رفع شكاواهم والإفصاح عنها. وأخيرا، وكما ذكر مارك بودن في كتابه عن أزمة الرّهائن بعنوان ضيوف آية الله، «عندئذ ستكون لهذه الهيئة السّلطة الأخلاقيّة للقول إنّ الإبقاء على الرّهائن فعل غير إسلامي». ستعطي تلك المبادرة آية الله الخُميني المبرّر الذي يحتاج إليه ليأمر بإطلاق سراحهم. عبّر جوردن وغيره من موظفي إدارة كارتر عن شكوكهم، لكنّهم أفصحوا عن عدم اعتراضهم على إعطاء الفرصة لتنفيذ خطة المشروع. وُضعت خطة تفصيليّة عمّا يُقال وعن موعد البدء بتنفيذها، كما اتّفق الجميع أنْ تتمّ المصادقة على تلك الخطة بترتيب لقاء مباشر بين جوردن ووزير الخارجيّة قطب زاده.

استقل جوردن طائرة الكونكورد متوجّها إلى باريس فوصلها بعد منتصف الليل بقليل صباح يوم الأحد 17 فبراير. وصل متنكّرا بشعر مستعار أبيض وشارب مصطنع ونظارة زودته بها الوكالة. اصطحب معه في تلك الرّحلة مسؤولا من وزارة الخارجيّة اسمه هنري برشت. نقلتهما سيّارة إلى شقّة تعود إلى هكتر فيلالون حيث تقابلا مع قطب زاده. ذكر وزير الخارجيّة الإيراني أنّه يجب المحافظة على سرّيّة هذا اللقاء لأنّه لو تسربت الأخبار عنه، «سأخسر وظيفتي وبعد ذلك سأفقد حياتي».

شعر جوردن بسرعة أنّ الأمور لا تجري كما خُطط لها، عندما همس قطب زاده قائلا: «من السّهل حلّ الأزمة. كلّ ما يُطلب منكم هو قتل الشّاه». أخذت المفاجأة جوردن على حين غرّة، فردّ قائلا: «إنّ ذلك مستحيل». غير أنّ قطب زاده عاد ليؤكّد بأنّ الرّهائن سيُطلق سراحهم في غضون أسابيع من إنجاز هيئة الأمم المتّحدة لمهمّتها، وهو امر اتّفق عليه الطّرفان. عاد جوردن إلى واشنطن،

وأعلنت إدارة كارتر أنّها لا تعارض قيام هيئة التّحقيق. بدأت الأمم المتّحدة العمل على تشكيل الهيئة لتباشر مهامها. ومن الجانب الإيراني، أعلن آية الله بهشتي أنّ الهيئة ستضع حدّا سريعا لأزمة الرّهائن. بدا أنّ الخطة تسير على ما يُرام حتّى ألقى الخُميني خطابا قال فيه إنّ الأزمة ستنتهي بعد انتهاء التّصويت في الإنتخابات البرلمانيّة، المجلس. بدا واضحا أنّ قطب زاده لم يحظ بمساندة آية الله. وهذا ما دفع الرّئيس كارتر للقول بغضب وهو يخاطب مدير مكتبه: «هام، هؤلاء حفنة من المجانين». احتلّ أيمز المقعد الأمامي لمشاهدة ذلك الفصل المخيّب للآمال من تلك المسرحيّة الفاشلة(*).

قابل أيمز مدير الوكالة الأدميرال ستانسفيلد تيرنر على الأقلّ مرّة في الأسبوع. وهو خريج كليّة آمهرست وعضو في جماعة رودس. كما أنّه ينتمي إلى الكنيسة العلميّة Christian Scientist، وعليه فهو لا يشرب القهوة ولا الشّاي ولا الكحول. لم يكن المدير محبوبا في قسم العمليّات لأنّه فضّل المخابرات الإلكترونيّة على المخابرات البشريّة. ولذلك، فإنّه فصل 852 ضابطا من ضبّاط العمليّات السّرّيّة بسبب عدم الكفاءة خلال العامين 1978-1979. لم يتّفق أيمز مع آراء تيرنر السّياسيّة ولا نظرته للعالم. ذكر ديفد لونغ، أحد أصدقاء أيمز، «إنّ بوب مثلي، يميل إلى الحلول العمليّة وليس الأفكار الأيديولوجيّة. ولذلك، فإنّه عندما كنّا نتحدّث عن السّياسة كانت أحاديثنا تدور حول السّياسات الخارجيّة، وليس حول القضايا المحليّة الدّاخليّة. لقد اتّخذ كلّ من كارتر وريغن قرارات سياسيّة ممتازة، لكنّهما أيضا أقدما على قرارات سياسيّة غبيّة. لقد اتّفقنا أنّ أخلاقيات كارتر لا تتقبّل الأعمال القذرة التي تقوم بها الوكالة أحيانا، وأنّ تعيينه تيرنر كان برأينا تحديدا سيئا لنشاطات الوكالة. والحقيقة أنّ تعيين جيمس شلزنجر مديرا للوكالة خلال إدارة نيكسون كان أسوأ».

ومع ذلك، فإنّ تيرنر أعجِب بأيمز ووثق بآرائه. لقد وقع على ترقيته مرتين

(*) ألقي القبض على قطب زاده في شهر إبريل عام 1982، وحُكم عليه فيما بعد بالخيانة، فأعدِم رميا بالرّصاص بتاريخ 15 سبتمبر. صادق الخُميني بنفسه على قرار تنفيذ الإعدام، وبدأت الثورة تأكل أبنائها.

خـلال فتـرة إشـغاله منصب مدير الوكالة. في الأولـى رقاه لدرجة GS-16. وفي عام 1980 رقّاه إلى رتبة ضابط متميّز في المخابرات الوطنيّة SIS بدرجة SIS-3، وهذا ما جعل منصبه يعادل منصب جنرال بنجمة واحدة.

كانت علاقة أيمز بالأدميرال تيرنر جيّدة، إلّا أنّه شعر بالضّيق من أداء إدارة الرّئيس كارتر وفريقه. فبرأيه هم يميلون في الغالب إلى القرارات المؤقتة وكانوا بالغـي الحـذر. ومـن جهـة أخرى كان معجبا جدّا بتصميـم كارتر وإصراره على تحقيـق النّتائـج الإيجابيّـة التـي تمخّضت عنها محادثـات كامپ ديفد. بذل أيمز السّـاعات الطّـوال وهـو يعـدّ تقارير الوكالة لكلّ اجتمـاع من تلك الاجتماعات. وقيـل فيمـا بعـد أنّ الرّئيـس كارتر اعتقـد أنّ تقييمات أيمز عن شـخصيتي بيغن والسّادات«كانت صائبة وفي محلّها».

التقى أيمز خلال السّـنتين 1979- 1980 بشـكل منتظم مع الشّـخص الذي عيّنه الرّئيس كارتر ليتولى قضيّة الشّرق الأوسط في مجلس الأمن القومي، وهو السّـفير روبرت هنتر، المحلل الذكي للسّياسـة الخارجيّة، الذي عمل سـابقا في مكتب السّناتور إدورد كندي. أصبح هنتر بسرعة كثير الثّقة بآراء أيمز. قال عنه «اتّصلُ به مرّة واحد في اليوم، فيوافيني بما أريد معرفته منه. بإمكانه أن يخبرك عـن ظهـر قلـب عما يجـري داخل المجلس الثوري في إيـران. كان يعرف كافّة التّفاصيـل. وكنـت علـى ثقة بأنّه يزوّدني أوّلا بأوّل، عن الخلافات والمناقشـات داخـل مجتمـع المخابـرات أيضـا. لم يختلق إطلاقا أيّ شـيء، وكان من أفضل رجال المخابرات الفاعلين الذين قابلتهم في حياتي».

حين غزا الإتّحاد السوفياتي فغانستان أواخر شهر ديسمبر 1979، عمل السّفير هنتـر وأيمـز لوضـع صيغـة ردّ نـوى الرّئيس كارتر إعلانه بتاريـخ 23 يناير 1980 خلال الخطاب القومي الذي يلقيه عادة مرّة في العام أمام الكونغرس الأمريكي. أصبح يُطلق على ذلك الخطاب مبدأ كارتر، وذكر هنتر أنّ غالبيّة نصّ الخطاب قد اعدّه أيمز، باستثناء الفقرة الرّئيسيّة التي وضعها مستشار الرّئيس لشؤون الأمن القومي، زبغنيو برجنسـكي. «دعوني افصح عن موقفنا بمنتهى الوضوح. إنّ أيّة محاولة من قبل أيّة قوى خارجيّة للسّيطرة على منطقة الخليج الفارسي، سنعتبرها هجومـا علـى المصالـح الحيويّة للولايات المتّحـدة، وأنّ محاولة من هذا النّوع

ستُردع بكل السّبل الضّروريّة، بما فيها القوّة العسكريّة».

شعر أيمز، وهو ضابط العمليّات السّرّيّة لوقت طويل، بالغبطة من موافاة الفرصة لوضع السّياسة. ولكن لو دققنا في الأمر، لوجدنا أنّ مبدأ كارتر بدا وكأنّه أثر قديم من آثار الحرب الباردة. كان الهدف منه تحذير الإتّحاد السوفياتي بعدم تهديد شحن إمدادات النفط في منطقة مضيق هرمز، ممّا يعني أنّ الأمر يتعلق بالنّفط. غير أنّه في الوقت نفسه بدأت إدارة كارتر عمليّة سريّة كبيرة لإمداد السّلاح للمجاهدين الأفغان. تطوّر هذا البرنامج بسرعة ونجح في النّهاية على إجبار الإتّحاد السوفياتي على الإنسحاب من أفغانستان. وهذا طبعا أدّى إلى قيام نظام رجعي جدّا هو نظام طالبان، الذي تحالف مع جماعة سلفيّة صغيرة لم يُعرف عنها الكثير واسمها القاعدة. غير أنّ تلك النّتيجة قد تبلورت بعد عدّة سنوات.

في احد الأيام في مطلع ربيع عام 1980، دخل روبرت أرل، وهو احد نائبي بوبإلى مكتب رئيسه وأخبره أنّه سمع إشاعات عن خطة محتملة لإنقاذ الرّهائن. لم تكن اكثر من «ضوضاء»، لكنّ أرل اعتقد أنّه يجري الإعداد لشيء ما. عرف أيمز أنّه لم يُخوّل لإخبار نائبه بأيّ شيء عن مهمّة الإنقاذ. ادرك أرل فيما بعد أنّه فعل ذلك «كي يحافظ على سرّيّة العمليّة. تجاهل أيمز تعليقي، وغيّر مسرى الحديث نحو موضوع آخر. علمت فيما بعد أنّ أيمز قد ساعد في وضع خطة مهمة الصّحراء رقم1 الفاشلة. كان من بين عدد صغير من مسؤولي الوكالة الذين احيطوا علما بها». طبعا كانت العمليّة فشلا ذريعا، وأدّت لمقتل 8 افراد من القوّات المسلحة عندما ارتطمت إحدى الطائرات المروحية الثمانية بطائرة C -130 الجاثمة في الصّحراء الإيرانيّة وانفجرت. القى تحقيق رسميّ باللوم على غياب التّنسيق والتّعاون بين مختلف صنوف القوّات المسلحة المشاركة في العمليّة. غير أنّ تعقد الخطة كان حقيقة في جوهر فشلها. صرّح احد مسؤولي وزارة الخارجيّة بأنّ «الجهود اعتمدت كثيرا على الوكالة». ومن الطبيعي أنّ أيمز اصيب بخيبة امل كبيرة. ومن خلال التّعاون مع مصطفى زين تمّ إقناع عرفات كي يستعمل نفوذه في طهران لاستعادة جثامين الضّحايا الأمريكيّين الذين لقوا حتفهم خلال تلك العمليّة الفاشلة. كانت مبادرة صغيرة لإظهار المواساة. اعتقد

الرّئيس كارتر أنّ الفشل الذريع لعمليّة الإنقاذ قد ساهم بشكل كبير في خسارته في انتخابات الرّئاسة في شهر نوفمبر 1980.

من الواجبات الرّئيسيّة لأيمز، باعتباره ضابطا في المخابرات الوطنيّة أن يحصل على إجماع حول كل تقييم أو تقرير رسمي يُقدّم للرّئيس ومستشاريه. يتذكّر روبرت أرل أنّ الحصول على إجماع كلّ شخص على ما يُقدّم في ذلك التّقرير امر بالغ الصّعوبة. لكنّ بوب كان قادرا على بلورة ذلك الاجماع. «وافتخر بوب بمقدرته على كتابة المذكّرات المُحكمة. ولم يجد بُدّا من أن يكتب شخصيّا أيّ جزء من التّقرير الذي يكون مثار إشكال وخلافات». يقول لندزي شرون، المحلل في الوكالة، «كان دائما يرغب في الإستماع إلى وجهات نظر الآخرين. كان ممتازا في دفع الأشخاص الجالسين حول الطاولة كي يعبّروا عن آرائهم دون أيّ وجل. وفي نهاية الإجتماع، يكون قد توصّل إلى وضع تحليل يقوم بصياغته بشكل واضح» لقد تمكّن من فعل ذلك لأنّه لم ينو إطلاقا أنْ يجعل شعر الآخرين يقف، حتى حين كان يطرح مناقشة قويّة. ذكر روبرت هنتر، «لم يكنْ في شخصيّته طرف حادّ».

ونظرا لكونه ضابطا في المخابرات الوطنيّة فقد تمّت دعوته للإدلاء بشهادته في الكونغرس امام لجنة مجلس الشّيوخ للإشراف على المخابرات. غير أنّ تلك الشّهادات كانت تجري خلف الأبواب المغلقة، وأنّ كلّ تقاريره امامها بقيت طيّ الكتمان. كان فرد هتز، وهو المستشار الرّئيسي للقضايا التّشريعيّة في الوكالة، هو الذي ساعد أيمز في الإعداد للإدلاء بشهاداته امام اللجنة المذكورة. وهو طبعا كان على علم بالخطأ الذي ارتكبه دك هلمز من قبل امام تلك اللجنة. كان يعرف بالضّبط كم يفشي من الأسرار امامها والطريقة لذلك. يتذكّر هتز، «بأنّ الطلب عليه كان كثيرا». وكان في كلّ مرّة يترك انطباعا قويّا بأنّ منطقة الشّرق الأوسط منطقة عسيرة».

كما أنّ واجبه كضابط للمخابرات الوطنيّة فرض عليه أنْ يتعامل مع الإسرائيليّين. كانوا يعرفونه باعتباره الشّخص، الذي خلق القنوات الخلفيّة مع

منظمة التّحرير الفلسطينيّة، وكانوا يتحرّقون شوقا لمقابلته. يتذكّر دوف زِيت، وهو ضابط مخابرات إسرائيلي كبير كان عمله في الموساد هو التّواصل مع وكالات المخابرات الأجنبيّة، قائلا: «أحببت بوب لدرجة كبيرة. كان يميل لمصاحبة الثوريّين ويبحث عن الأشخاص الذين سيغيّرون الأمور، أيْ الرّواد الطليعيّين». اعتقد زِيت إنّ ذلك شيء معقول في ميدان عمل ضابط المخابرات. كما أحسّ زِيت بأنّ هذا الجاسوس الأمريكي يفهم الورطة الإسرائيليّة. قال: «إنّ تعاطف بوب مع إسرائيل نابع ببساطة عن طيبته».

ونتيجة لاتّفاقيّة رسميّة، كانت إسرائيل والولايات تتبادلان المعلومات المخابراتيّة. وطبقا لتلك الإتّفاقيّة فإنّ فريقا من كلّ من البلدين يجتمعان مرّتين سنويّا بالتّناوب ما بين واشنطن وتل أبيب. يتذكّر بروس رِدل، وهو المحلل الرّئيسي في الوكالة قائلا: «سافرت إلى تل أبيب معه في أوّل زيارة رسميّة له مع الموساد. كان الإسرائيليّون يتطلعون للقاء هذا الشّخص.» كانت لحظة عصيبة لأنّ أيمز كان متزمّتا. ووفقا لما ادلى به روبرت هنتر، فإنّه تكلم مع الإسرائيليّين بصراحة وقال لهم بالحرف الواحد إنّ اغتيال علي حسن سلامة كان خطأ. ذكر لهم، «إنّ حاجتنا إليه حيّا كانت اكبر من حاجتكم إليه قتيلا». اختلف الإسرائيليّون الذين كانوا يجلسون حول الطاولة معه، لكنّهم أعجِبوا بآرائه الصّريحة المباشرة». اضاف هنتر، «اظهر الإسرائيليّون له الإحترام ونال ثقتهم.» كان أيمز يفضّل دائما النّقاش الجيّد. وليس من العجب أنّه شعر بالفرحة وهو يتناول الطعام والشّراب مع ضبّاط الموساد. كانوا خصوما له، لكنّهم خصوم اذكياء. ذكر غرام مولر، «لقد احبّ أيمز أنْ يتجادل ويتشاحن معهم، كمن يدخل احشاء الوحش.» كان صريحا جدّا معهم. يذكر لندزي شِرون أنّه بعد توقيع اتّفاقيات كامپ ديفد، «اخبر الإسرائيليّين بأنّه سوف لن يكون هناك تبادل للمعلومات المخابرتيّة بشأن مصر. يمكن أنْ يكون في ساعة الجدّ صلب الموقف».

وجدت إسرائيل مشكلة حقيقيّة مع منتسبي وكالة المخابرات المركزيّة من المستعربين، وكان الشّعور متبادلا. يقول جون مورس، ضابط العمليّات السّرّيّة الذي يعرف أيمز جيدا، «باستثناء موضوع الإرهاب، ليس لدى الإسرائيليّين أيّ فهم للمواضيع الأوسع والإتّجاهات السّياسيّة في العالم العربي. اجد ذلك

غريبا لأنّهم يعيشـون في تلك الجّيرة. لا اعتقد أنّهم يفهمون ذلك». في إحدى رحلاتـه إلـى تـل أبيب اصطحبه ضبّاط الموسـاد إلـى مطعم في يافا. يقول بوب لايتن، المحلل الذي كان معاونا له، «تحوّل الحديث فجأة إلى حديث فظّ. انتابه الغضب لأنّ احد الإسرائيليّين اتّهم محللي الوكالة بالتّحيّز في تقديراتهم للتّوافق مع اولويّات سياسـة واشـنطن. انتقد أيمز ذلك الضّابط قائلا: إنّ المحترفين لا يتّهمون المحترفين الآخرين بطبخ معلوماتهم المخابراتيّة».

اكّد يورام هِسـل، ضابط الموسـاد الكبير تلك الرّواية قائلا، «بالتّأكيد أنني كنت هناك، ويبدو أنّ من قال ذلك هو أنا». لقد دفع هِسل ضيفه إلى أنْ يحتدّ فـي مناقشـته، لكنّـه فـي الوقت نفسـه أعجِب به. يتذكّر قائـلا: «ما زالت صورته ماثلة في ذهني، طويلا وسيما يستطيع التّحدّث عن معرفة. كان يعرف أنّه عنصر خاصّ، وقد عاملناه بالخشية والرّهبة. وما جعله عزيزا علينا هو قدرته في رواية القصص، وملمّ بالكثير من الشّائعات. عندما يصل إلى المدينة، كنّا نتطلع لقضاء وقت لطيف. كانت له تلك الحاسّـة المُميّزة التي جعلته قريب الشّـبه لأن يكون لورنس الأمريكي. لورنس الذي يلتف بعلم النّجوم والخطوط المقلمة. لقد خلق لنفسـه شـخصيّة أسـطوريّة». تعامل هِسـل مع أيمز خلال العامين 1978- 1979 حين كان مديرا لمخابرات الشّرق الأدنى. كان يحبّ أيمز لكنّه كان لديه بعض التّحفظ حول خبرته المشوبة جدّا بالتّعاطف مع العرب. قال هِسل: «إنّ التّعاطف فـي عالـم المخابـرات امر خطير، لأنّ ضابـط المخابرات ليس داعية لأيّة قضيّة. عندما حضر بوب إلى تل أبيب كان عليه أن يستمع إلينا ويقارن إن كان ما يعرفه يتطابق مع الحقيقة. لكنّه كان متعاطفا بشكل واضح مع العرب. كنّا طيلة الوقت نشـعر أنّه يقدّم لنا الأشـياء وفق منظور خاصّ. لم نعتبره خصما، لكنّه بالتّأكيد يأتي من مكان مختلف».

لم ينفجر أيمز غضبا في غالبيّة الأوقات، لأنّ ذلك سلوك غير مُستحسن. يقـول بـوب لايتـون: «كان يعـرف أنّـه لا يمكنـه التّفاهـم مـع الإسـرائيليّين عن طريـق الحلـم والإعتـدال، لأنّهم لا يتعاملون مـع بعضهم البعض بتلك الطريقة. تُغضبهم جدّ الإنفجار اليوم، ولكنّ كلّ شـيء يبدو عاديّا في اليوم التّالي. ومع ذلك كانت الحيرة تملأُهم حول كيفيّة التّعامل معه. كانوا يعرفون أنّه قريب من

الدّوائـر السّياسـيّة ويعرفـون تاريخـه الطويـل في العمليّات السّـريّة. فهو لا يبدو شـخصا مبتدئـاً فـي المهنـة، لكنّه لا يتردّد في طـرح رأيه ويعرف جيّدا ما يقول، ويترك الإنطباع لدى كل من يستمع إليه أنّ الرّجل ملمّ بالأمور».

أمّا أوري أوبنهايم، الذي قضى مدّة 21 عاما في نشـاطات الموسـاد السّـرّيّة خارج البلاد قبل أنْ يُنقل إلى قسم المباحث، فقد قابل أيمز خلال دورات اللقاء مرّتين كلّ عام. يصل أيمز عادة إلى تل أبيب مصحوبا بعدد من ضبّاط الوكالة، فيجلسون مع نظرائهم الإسرائيليّين من ضبّاط الموساد. يتذكّر أحد هؤلاء بأنّهم اخبِروا بعدم رواية النّكات بالعربيّة فيما بينهم، لأنّ أيمز يعرف تلك اللغة جيّدا. يتذكّـر أوبنهايـم: «كان بإمكانـه روايـة القصـص لكنّـه ما كان قـطّ داعياً، وكانت الإبتسامة تطغى على وجهه دائما». علّق ضابط آخر منهم بأنّ أيمز كان متفهّما للأشياء التي يتحتّم على الإسرائيليّين فعلها، ولم يكن يلقي علينا محاضرات في القيم الأخلاقيّة. كان يعرف المنطقة بشعابها».

كان لأيمز ميل نحو المزاح المشـوب بالسّـخرية حول بيروقراطيّة الوكالة. يتذكّـر جـون مـورس قائلا: «دعاني في احد الأيّام وبدأ يقرأ على مسـامعي نص تقرير لتقييم ادائي، وكان موضوعه، احسن ثاني كاتب تقارير في القسم. ضحكتُ لأنّي اعلم أنّه عنى بأنّه هو الأوّل». أمّا بل فسك، الذي قابل أيمز خلال إجلاء الرّعايـا الأمريكيّيـن عـن بيـروت عام 1976 بعد اغتيال السّـفير هناك فيقول: «إنّ لبوب شـخصيّة جذابة لا تُصدّق، غير أنّني قد سـمعت أنّه عندما كان شـابا لم يتردّد عن طعن الآخرين غيلة. وقد ساعد على ذلك جوّ المنافسة المُرعب السّائد في الوكالة آنذاك، وكان هو من بين الطموحين جدًا. غير أنّه عندما حصل على منصب افضل في الوكالة، فإنّه لم يتردّد أو يتخوّف في الدّفاع عن الأشـخاص الذين كانوا بإمرته.

والآن، وهـو يشـغل منصبـا مرموقـاً داخـل الوكالـة لإعـداد التّقارير وإدلاء الشّهادات امام الكونغرس، ما زال على اتّصال بالعمليّات السّرّيّة. «في الحقيقة، إنّه لم يتخلَ عن وظيفته كضابط عمليّات»، حسب ما ذكر لندزي شِرون.» كان دائما يسـافر إلى مدينة أخرى للقاء أحد مصادره. كنّا نمزح معه بأنّه كان دائما

غير موجود هنا عندما تشتعل الأزمات في مكان ما... ردّ يقول إنّه كان في نيويورك. لكنّه لم يكن هناك. لقد افترضت أنّه يذهب للقاء العناصر التي جنّدها للخدمة في الوكالة».

كان دائما يعالج مواضيع عدة في أيّ وقت من الأوقات. عندما قامت الحرب العراقيّة الإيرانيّة لم يُفاجئ أيمز بها، لكنّه اعتقد أنّه من السّخافة أنْ يلجأ الطرفان إلى الحرب. وحسب ما تذكّر شِرون قائلا: «ولكن حين اندلعت الحرب في سبتمبر 1980، كان يتعيّن علينا تحويل الكثير من مصادرنا نحو ارض المعركة».

في عام 1980، كان أيمز لا يزال عضوا في الحزب الجمهوري. شعر بكثير من الإرتياح عندما اختار ريغن جورج بوش نائبا له. وكغيره من اغلب ضبّاط العمليّات السّرّيّة، اعجِب أيمز بجورج بوش عندما عمل مديرا لوكالة المخابرات المركزيّة تحت إدارة الرّئيس فورد. ومن الطبيعي، فضّل أيمز أنْ يفوز ريغن ونائبه بوش في انتخابات ذلك الخريف. وفي الوقت نفسه، كان يعمل خلال سنة الإنتخابات تلك على تأمين إطلاق سراح الرّهائن في طهران، عن طريق مشاركته في وضع خطة الإنقاذ الفاشلة في ربيع ذلك العام وفي المفاوضات التي تلت ذلك لإطلاق سراحهم. في صيف 1980 كان الإعتقاد السّائد في واشنطن بأنّ أمل كارتر للفوز في الإنتخابات معلق على إيجاد حلّ ناجح في آخر دقيقة لتلك الأزمة. أمّا مخططو حملة ريغن الإنتخابية فقد كانوا يخشون من احتمال إجهاض نصيب ريغن في الفوز، إذا ما حدث ما سُمّي «مفاجأة اكتوبر» التي عنت إطلاق سراح الرّهائن بشكل مفاجئ.

كان أيمز يعرف أنّ ياسر عرفات والمنظمة لهما قنوات اتّصال مع النّظام الثوري في طهران. لقد أرسل عرفات السّلاح والرّجال لمساعدة الثّورة وطار لمقابلة الخُميني بعد وصول آية الله إلى طهران بوقت قصير. كما أنّه توسّط عند بدء الأزمة بنجاح لإطلاق سراح 13 من الرّهائن، ضمّ كافة النّساء والأمريكيّين الأفريقيّين اواخر شهر نوفمبر 1979. وفي ربيع عام 1980 ساعد أيضا في استعادة جثامين الجنود الأمريكيّين الذين قتِلوا خلال عمليّة الإنقاذ الفاشلة. من الواضح

أن المنظمة شكّلت قناة خلفيّة للتّفاوض مع الإيرانييّن. اضف إلى ذلك، أنّ عرفات كانت لديه كلّ الأسباب لكي يعتقد أنّه إذا نجح بلعب دور لإطلاق سراح الرّهائن المتبقين، فإنّ تدخّلا من هذا القبيل سيفتح الباب لواشنطن كي تعترف بالمنظمة.

عرف أيمز من خلال لقاءات الصيف التي أجراها مع مصطفى زين أنّ عرفات يحاول فعلا استخدام نفوذه في إيران للتّوصّل إلى حلّ لأزمة الرّهائن. قام أيمز وزميله في مجلس الأمن القومي روبرت هنتر بإخبار مصطفى أنْ يعمل كلّ ما في وسعه لدفع عرفات لعمل ذلك. اجتمعا معه اكثر من مرّة في المبنى القديم المجاور للبيت الأبيض، وقدّما له خلاصة جهود إدارة كارتر الدّبلوماسيّة. كان زين يعرف جيّدا أهميّة القنوات الخلفيّة لإدارة كارتر من جهة والمنظمة من جهة أخرى.

ولكن في مطلع ذلك الصّيف، عرف زين عن طريق الصّدفة ما يبدو أنّه محاولة يقودها مسؤولو حملة ريغن الإنتخابيّة لإفشال جهود كارتر الدّبلوماسيّة لإطلاق سراح الرّهائن. حين حضر إلى نيويورك، جاء لزيارته صديق له من ايام الدّراسة في نيبرفل، وهو القسّ ميلو فوندراسك. اقترح القسّ عليه الإتّصال بابنه الذي يعمل في مركز الدّراسات السّتراتيجيّة العالميّة CSIS، وهو مركز معروف في العاصمة واشنطن. جاء زين إلى العاصمة لمقابلة أيمز وهنتر، كما تناول خلال تلك الزّيارة الغداء مع جون فوندراسك. في اليوم التّالي اتّصل جون وشجّعه أن يقابل صديقا له يعمل في حملة ريغن الإنتخابيّة. حين سأل عن السّبب، قال جون: «إنّ هذا الرّجل واسمه جاك شو مرشح أنْ يحتلّ منصب بوب هنتر في مجلس الأمن القومي NSC في حالة فوز الجمهوريّن في الإنتخابات». إزداد اهتمام زين بالموضوع ووافق على لقاء جاك شو.

التقى زين مع شو البالغ من العمر 41 وتناولا الغداء في احد مطاعم واشنطن. بدأ حديثهما بالتّطرّق إلى شؤون الشّرق الأوسط، إذ كان شو قد عمل نائبا لوزير الخارجيّة في إدارة فورد. كان أحدث منصب له هو نائب رئيس شركة بوز ألن وهاملتن العالميّة، التي لها عقود بالغة القيمة مع السّعوديّة. في عام 1980 شغل منصبا رفيعا في مركز الدّراسات الاستراتيجيّة، حيث يعمل جون

فوندراسـك، واصبحـا صديقيـن وزميليـن فـي العمـل. هذا وكان شـو قد التقى بأيمز في إحدى محاضرات المركز التي تناولت الأوضاع في الشّـرق الأوسـط. كان في تلك السّنة ضمن الفريق الذي يجمع التبرّعات لحملة ريغن الإنتخابيّة، وعلى اتّصال مباشـر بمدير الحملة وليم كَيسـي. يتذكّر زين أنّه وشـو ناقشـا أزمة الرّهائـن الجاريـة، وهـي موضـوع لا زال يطغى علـى عناوين الصّحف في ذلك الصّيف. وحين تبرّع زين بالإفصاح عن أنّ الفلسـطينيّن يعملون ما في وسـعهم لحلّ الأزمة، قال شو إنّه من الأفضل للفلسطينيّن أن يتولى ريغن رئاسة البلاد محلّ كارتر. في نهاية الغداء دعاه ليزوره في بيته في اليوم التّالي لتناول الغداء ومواصلـة الحديـث. وافـق زيـن لأنّـه شـعر بأنّ شـو يهـدف أنْ يُخبره شـيئا ما. عندمـا حضـر لزيـارة شـو في منزله الواقع في إحـدى ضواحي العاصمة، احضر معه الحقيبة المزوّدة بجهاز تسجيل سرّي التي أهداها له علي حسن سلامة قبل عدّة سنوات. ذكر زين أنّه سجّل المناقشة التي جرت بينهما كاملة.

تناول الرّجلان وجبة من الدّجاج والخضروات أعدّتها طبّاخة شو الأسبانية. قال شو إنّه يعرف كيسي جيّدا، ثمّ سأل زين عن معرفته بأيمز. لم يكن لدى زين ما يخفيه فأخبره أنّه يعرفه منذ أكثر من عشر سنوات. يتذكّر أنّ جاك شو أخبره مؤكّدا، «أنّ كيسي عرف أنّ زين وأيمز كانا حلقة الاتّصال الخلفيّة مع عرفات». ثمّ حوّل الحديث إلى علاقة المنظمة وياسر عرفات مع النّظام الثوري في إيران. أوضح شـو بشـكل لا يقبل الإلتباس بأنّه على علم بدور عرفات لإطلاق سـراح الرّهائن الثلاثة عشر في الخريف الماضي. ووفقا لما ذكره زين، سأله شو إن كان عرفات لا زال يعمل على تأمين حريّة الرّهائن المتبقين. حين ردّ زين بالإيجاب، اقتـرح شـو إن كان مـن الممكـن إقناع عرفات بتأخير جهـوده لحين الانتهاء من الإنتخابات. برّر ذلك بالقول: «إنّ مصلحة الفلسطينيّن هي بيد رئيس قويّ مثل ريغن الذي سـيدفع إلى سـلام عادل ودائم في الشّـرق الأوسـط». سـأله زين إن كان يريـد منـه أن ينقـل تلك الرّسـالة إلى عرفات لكي يؤجّل جهوده حتى نهاية الإنتخابات، ردّ شو بالقول «نعم». وعد زين بأنّه سيقوم بذلك على الفور.

بعـد مـرور 33 عامـا يقول شـو إنّـه «لا يتذكّر» تناول غداء مع زين. ثمّ عاد وافصـح، «لا انكـر تمامـا إنّنـي التقيت به. اعرف أنّني تناولت الغداء مع العديد

من الأشـخاص في تلك المرحلة من حملة الإنتخابات، وأنّ جون فوندراسـك صديق جيّد قدّمني لكثير من الأشـخاص». غير أنّ شـو يدّعي أنّ زين لـم يفهم قصـده. كان فقـط يعبّـر عـن رأيه بأنّ حال الفلسـطينيّين مع ريغن افضل. ثمّ زاد على ذلك أنّ رئيسـا قويّا سـيخلق الفرصة للتّوصّل إلى سـلام حقيقي في الشّرق الأوسـط. «مـن الممكـن أنّنـي اخبرت زين بذلك، لأنّه رأيـي في ذلك الوقت». لكنّه قال بأنّه من المؤكّد أنّ كيسـي لم يطلب منه إبلاغ عرفاتبرسـالة منه، ولا يتذكّر نقاشا حول الرّهائن. «كلّ تعاملي مع كيسي في ذلك الصّيف كان سياسيّا محضا، وحديثنا كان ينصبّ على الحملة الإنتخابيّة. لا اتذكّر أنّني تحدّثت معه عن الشّـرق الأوسـط. طبعا كان يعرف اهتمامي بتلك المنطقة، لكنّه لم يتطرّق إلى هذا الموضوع». غير أنّه اعترف قائلا، «معروف عن كيسي أنّه يعمل بشكل غير مباشر. ربّما كنت قد نقلت الرّسالة بالطريقة التي ذكرتها.... إنّني اعرف أنّ كيسي لم يفاتحني بهذا الموضوع، لكنّه لاعب يرمي الكرات ويجعلها تقفز هنا وهناك لتستقرّ في الأماكن التي يريدها، دون أنْ يترك عليها بصمات اصابعه».

يصـرّ زيـن أنّهمـا تحدّثا عن الرّهائن وإقناع عرفات بتأجيل جهوده لإطلاق سـراحهم. يقول إنّه حضر من بيروت قبل أسـبوعين وأنّه ما كان ليطير لمقابلة عرفات لولا تأكيد شو أنّه كان يعمل لحساب كيسي. كان متحمسا لنقل رسالة شو إلى عرفات لأنّها بمثابة «طلب رسمّي من كيسي». ولذلك فإنّه بعد تناول الغداء مع شـو، حاول زين أن يعرف كيف يتّصل بجون شـاهين، وهو صديق لكيسـي وعملا معا في دائرة الخدمات الاسّتراتيجيّة OSS خلال الحرب العالميّة الثانية. جون شاهين امريكي من أصل لبناني عمل في ميدان تجارة النّفط، وكان كيسي واحد من شـركائه، وقد قابل زين كلّا من كيسـي وشـاهين في مطلع السّـبعينات عندمـا احتاجـا إلى نصيحة حول مشـروع اسـتثمارات فـي منطقة الخليج. يدّعي زيـن: «لقـد اكّـد لـي شـاهين بعـد التّحدّث مع كيسـي بأنّ جاك شـو كان ممثلا لكيسـي. يتذكّـر أنّ مقابلـة شـاهين قـد كلفتـه 15 الـف دولارا لأنّه اسـتغلّ تلك المناسـبة لجمع التّبرّعات لحملة جون أندرسـن للرّئاسة. بالمناسبة، دفع عرفات المبلغ المذكور لزين.

في شهر اغسطس وإثر لقائه مع شاهين، طار زين راجعا إلى بيروت ونقل

إلـى عرفـات مـا قالـه «ممثل كيسـي». ثم اسـمعه نـصّ تسـجيل الحديث خلال زيارتـه لبيـت شـو. حيـن سـأل رئيس المنظمة زين عـن رأيه، كتـب مذكّرة قال فيهـا، «ضاعـف جهـودك لإطلاق سـراح الرّهائـن لأنّ الإدارة القادمة إن فاز بها الجمهوريّـون سـتكون الشّـيطان بذاتـه. إنّ ريغـن وبوش شـخصان لاثقان، لكن المايسترو الذي يقود الفرقة لا يأمن له جانب». وبعد وقت قليل اخبر عرفات زين أنّه علم بأنّ الإيرانيّين قد عقدوا صفقة مباشرة مع كيسي خلال لقاء جرى في إسبانيا في اواخر يوليو. طلب عرفات من زين أن يعود ثانية لمقابلة ممثل كيسي وإطلاعـه بـأنّ منظمـة التّحريـر الفلسـطينيّة قد عملت ما طلـب منها. يقول زين: «أردنـا أن نحصـل على بعض المكاسـب، في حالـة فوز ريغن في الإنتخابات». توجّه زين إلى واشنطن وقابل شو لينقل إليه «الأنباء السّارّة» بأنّ عرفات سيوقف كافّة جهوده من اجل إطلاق سراح الرّهائن.

من الطبيعي أنّ قصّة زين فيها شيء من الغموض وتقوم على القيل والقال رغم أنّه يؤكّد أنّ اشرطة التّسجيل ونصوص ما دار من الحديث مع شو وشاهين محفوظـة بيـن سـجلّات المنظمـة فـي تونس. غير أنّ هـذه الوثائق ما زالت طي الكتمان، توفي شـاهين عام 1985 نتيجة إصابته بمرض السّـرطان. كما أنّ جون فوندراسك توفي هو الآخر عام 2005. وما زال شو يصرّ أنّ كلّ ما اخبر به زين كان ببساطة آرائه، ولا علاقة لها بأيّ دفع من كيسي.

كتب العديد من الصّحفيّين تحقيقات حول شائعات دارت عن لقاء إسبانيا بيـن كيسـي مـع ممثـل لآية الله الخُميني في شـهر يوليو عـام 1980، وطُبع لحدّ الآن كتابـان عـن مفاجـأة اكتوبر. غير أنّ التّحقيقات تلاشـت بمرور الوقت. نظر الكونغرس في اتّهامات وُجّهت لكيسي وتوصّل إلى قرارات غير حاسمة. يذكر زين أنّه لم يتطرق إطلاقا إلى تسجيلاته في بيت شو حين قابل أيمز فيما بعد(*). لكنّـه كان علـى اعتقـاد بـأنّ بوب يشـكّ في امر ما. سـأله مـرّة إن كان يعتقد أنّ الرّهائن سيُطلق سراحهم في آخر لحظة، فأجابه بالنّفي.

(*) م يُعيّن جاك شو في مجلس الأمن القومي، وأصبح المنصب من حصّة جفري كامب. غير أنّه اصبح مسؤولا عن علاقات البيت الأبيض بوزارة الخارجيّة وقت عمل القاضي وليم كلارك مديرا لمكتب الرّئيس.

وطبعا فاز ريغن في الإنتخابات، ولربّما كان قد فاز حتّى لو كانت هناك مفاجأة اكتوبر فعلا. ولكنْ ربّما كان بل كيسي مصمّما على ألّا يُفاجأ بمثل ذلك. ومن المثير للإهتمام، أنّ عرفات قد ناقش الموضوع مع الرّئيس جِمي كارتر. يقول المؤرخ المعروف دُغلاس برنكلي أنّه كان حاضرا بتاريخ 22 يناير 1996 في اجتماع جرى في مدينة غزّة بين كارتر وعرفات الذي قال: «سيدي الرّئيس هناك امرٌ بودّي أن ابوح به لسيادتكم. يجب أنْ تعرف أنّه في عام 1980 اتّصل الجمهوريّون بي وعرضوا عليّ صفقة سلاح، إذا ما عملت على تأخير إطلاق سراح الرّهائن في إيران لما بعد الإنتخابات. بودّي أنْ تعرف أنّني رفضت عرضهم».

وبحكم حاله كحال العديد من ضبّاط العمليّات السّرّيّة، كان لبوب رأي ينمّ عن عدم الرّضا أو الإعجاب بفترة الأدميرال تيرنر كمدير للوكالة خلال رئاسة كارتر. ومع ذلك كان تيرنز معجبا بمواهب بوب. قبل شهر من حصول الإنتخابات الرّئاسيّة في عام 1980، وبالضّبط يوم السّبت الموافق 4 اكتوبر اصطحبه الأدميرال إلى مدينة مدلبرغ في فرجينيا لإبلاغ المرشح الرّئاسي الجمهوري بخلاصة عن قضايا الشّرق الأوسط. كان حاكم كاليفورنيا السّابق رونالد ريغن يقيم لعدّة ايّام في مزرعة وكسفورد، وهي مزرعة لتربية الخيول خارج مدلبرغ، كانت في السّابق ملكا لجاك وجاكي كندي. حين وصل تيرنر وأيمز وضابطان آخران من الوكالة، اخِذوا جميعا إلى غرفة استقبال واسعة، وتمّ تقديمهم إلى ريغن ومستشاريه. كان من بين الموجودين بوش والمستشار القانوني أدور ميس وقائد الحملة الإنتخابيّة وليم كيسي، وكذلك ريجرد ألن مستشار ريغن لشؤون الأمن القومي. وصف أحد المشاركين في اللقاء الموقف وكأنّه «مشهد سينمائي تشوبه الفوضى» حيث كانت الكراسي موزّعة في ارجاء الغرفة. وكان موظفو الحملة يذهبون ويجيئون بشكل مستمر. كان الحال كمثل «سرك» صاخب.

بدأ أيمز تقريره باعطاء مسح موجز للسّياسات الدّاخليّة في السّعوديّة وإيران، وتحدّث تيرنر عن إمدادات النّفط العالميّة، وشرح الضّابط الآخر تطوّرات

الحرب العراقيّة الإيرانيّة التي اندلعت قبل شهر حين اصدر صدّام حسين الأوامر بغزو جنوب إيران. سأل بعدها ريغن بعض الأسئلة البسيطة، وأحرج ريچرد ألن الأدميرال تيرنر عندما سأله إنْ كانت الوكالة تزوّد المتمرّدين بالسّلاح لمقاتلة القوّات السّوفياتيّة في افغانستان. وجدير بالذكر، أنّ الإتّحاد السوفياتي كان قد غزا افغانستان في ليلة عيد الميلاد عام 1979. أعطاه تيرنر جوابا غامضا. ذكر تيرنر فيما بعد، «لم تكن القصّة الأفغانيّة قد تسرّبت بعد، وكانت لدينا خشية حول الأوضاع في باكستان».

استمرّ اللقاء ساعة واحدة بالضّبط. ومن الغريب أنّه لم يُثر احد سؤالا حول الرّهائن الأمريكيّين في إيران. وفي اليوم التّالي قام الفريق نفسه بتقديم التّقرير ذاته للمرشح المستقل جون أندرسن، الذي أخذ تيرنر جانبا وذكر له بأنّ احد الوسطاء الإيرانيّين قد أخبره حديثا بأنّ الرّهائن سيُطلق سراحهم مقابل تزويد إيران بالسّلاح الذي يمكن أن تستعمله في حربها مع العراق. نقل تيرنر تلك الأخبار إلى وزارة الخارجيّة. ولم يقم أحد بإجراء تحقيق حول ما ذكره أندرسن.

بعد أن هزم ريغن كارتر في الإنتخابات، عادت الوكالة لتقدّم التّقارير الموجزة للرّئيس المُنتخب. كان الموضوع ثانية قضية الشّرق الأوسط، غير أنّ تيرنر اصطحب معه هذه المرّة مارثا نف كسلر، وهي ضابطة مساعدة للمخابرات الوطنيّة للشّرق الأوسط وجنوب آسيا. انضمّت كسلر إلى الوكالة عام 1970، وترقت بسرعة في إدارة المخابرات. كانت محللة وليست ضابطة في العمليّات السّرّيّة. كان تخصّصها في شؤون ليبيا وسوريا، غير أنّ اهتمامها الرّئيسي هو الصّراع العربي الإسرائيلي. عملت مع أيمز في خريف عام 1978 بعد أن تمّ تعيينه ضابطا في المخابرات الوطنيّة.

بتاريخ 19 نوفمبر 1980، التقى تيرنر وكسلر مع الرّئيس المُنتخب ريغن وفريق العاملين معه من المستشارين حول طاولة طعام في مقرّ سكنه المؤقت في بيت جاكسن المجاور للبيت الأبيض. وعقب تقديم التّقرير، سأل ريغن بعض الأسئلة البسيطة حول هضبة الجولان السّوريّة وعن أوضاع الفلسطينيّين السّياسيّة. وفي لحظة معيّنة، فوجئ تيرنر بالرّئيس المُنتخب وهو يسأله عن اسم

المرتفعات كما ورد في الإنجيل. لم يكن تيرنر يتوقع هذا السؤال الكنسي في اختبار يصلح ليوم الأحد. وفي لحظة اخرى قالت كسلر إنّ «من المحتمل أنْ نخسر السّادات». كان الإفصاح بشيء من هذا القبيل على لسان محللة في الوكالة ملاحظة خطيرة. سأل ريغن على الفور، «ماذا تقصدين أنْ نفقد السّادات؟» اوضحت للجميع أنّ مصر ليست بمعزل عن الوضع غير المُستقرّ في الشّرق الأوسط، واضافت أنّه يمكن أن يسقط من السّلطة، مثلما حدث للشّاه، أو يتعرّض للإغتيال. تحقق توقع كسلر بعد اقلّ من عام حين اغتالته خليّة إسلاميّة متطرّفة في الجيش المصري.

لم يتّفق أيمز وكسلر وغيرهما من الضّبّاط الذين ساهموا في تقديم تقارير الوكالة مع ما تردّد في وسائل الإعلام عن جهل ريغن في الشّؤون العالميّة. ولكن بدا واضحا أنّ الرّئيس الجديد يفهم المعلومات وكأنّها حكايات ونوادر. ذكر أيمز لأحد اصدقائه، «يمكنك أنْ تستحوذ على انتباهه لمدة ثلاث أو أربع دقائق، ثمّ يقاطعك بحكاية أو نادرة. المسألة الثانية، أنّه جاء الى المكتب البيضاوي ولديه احكام وقناعات مسبقة معيّنة». ذكر بيتر دكسن ديفز، المحلل في الوكالة، «أنّ المشكلة مع ريغن هي أنّ قناعاته مسبقة ثابتة، مثله مثل الكلب الطاعن في السّنّ». فأفكاره عن الفلسطينيّين راسخة مثلها مثل الكونكريت. في إحدى المرّات وقبيل موعد تنصيبه رسميّا، اصدرت الوكالة مذكّرة في محاولة منها لدفع الرّئيس المّرتقب للإسراع بإيجاد حل لمعضلتهم. حاولت المذكّرة أنْ توضح مختلف المجموعات داخل الحركة الفلسطينيّة، التي تسعى للإستقلال، والتي تضمّ الرّاديكاليّين الرّافضين والإتّجاه الذي برز حديثا وينادي بحلّ الدّولتين، وكذلك المتطرفين المصابين بالسّعار من اتباع (أبو نضال)، الذين كانوا يقومون من حين لآخر باغتيال أيّ فلسطيني يظهر رغبة للتّفاهم مع الإسرائيليّن. قرأ ريغن تلك المذكّرة، وبحسب قول دكسن ديفز، «أمضى عشر دقائق وهو يقرأها، وفي النّهاية تساءل ما الجديد في الأمر؟ كلهم إرهابيّون، أليس كذلك؟ شعرت وكأنّ قلبي قد هبط».

الفصل الحادي عشر

بل كيسي ورونالد ريغن

حين دخل بل كيسي مبنى الوكالة في لانغلي بتاريخ 28 يناير 1981، وجد نفسه على رأس وكالة مخابرات ضعيفة معنوياً. فبفضل عمليّات الفصل تحت إدارة شلزنجر وبعد ذلك الأدميرال تيرنر، تقلص عدد العاملين فيها إلى ما يقرب من 14 ألف وانخفضت ميزانيّتها إلى 6 بلايين دولار. يقول روبرت غيتس، الذي عمل مساعدا تنفيذيّا لتيرنر، «إثر فصل وإبعاد وإغراء البعض للتّقاعد، أصبح نصف محللينا ذوي خبرة أقلّ من خمس سنوات. لم تكن تحليلاتنا حادّة أو تنظر للمستقبل واحياناً خارجة عن السياق. كانت قدراتنا شبه العسكريّة ميتة. وإن قمنا بعمليّة سريّة، نفذناها بمنتهى الحذر وقلة الإبداع». ثمّ اختتم غيتس قوله «كانت الوكالة منزوية في وضع دفاعي يائس».

كان أيمز من بين الضّبّاط الذين اعتراهم الشّكّ البالغ في مهمّة الوكالة. اصبح مصابا بالإحباط وعابسا وساخرا. ذكر لندزي رِشرون عنه أنّه، «لم يكنْ سعيدا بعمله وقال إنّ كلّ من ترك الوكالة لم يشعر أنّه انجز فيها شيئا جيّدا». اخبر احد المقرّبين من اصدقائه، وهو ضابط آخر اسمه بوب هيدلي، وكأنّه يحسّ بساعة موته: «عندما نمضي سيرفعون قبّعاتهم احتراما، وتلك نهاية الأمر». كان قلقا حول الوضع المالي لأسرته وذهب يطلب الرّأي من مستشار مالي، اخبره بصراحة أنّه إذا كان يهدف فعلا بأن يحصل اولاده على تعليم جامعيّ، فينبغي عليه أن يترك وظيفته الحكوميّة، ويبحث عن عمل في القطّاع الخاصّ. ذكر لأحد أصدقائه أنّه سيبقى في الوكالة لغاية عام 1984، حيث سيبلغ الخمسين من العمر ويستحقّ التّقاعد المبكّر، ثمّ سيسعى للحصول على وظيفة تؤمّن له دخلا عاليا.

قبل أنْ يترك روبرت هنتر منصبه في مجلس الأمن القومي هاتف خلفه جفري كمپ، الذي اصبح مسؤولا عن ملف الشّرق الأوسط في إدارة ريغن،

واخبره قائلا: «بودّي أنْ ابلغك بأنّي اعتقد أنّ بوب أيمز هو اكثر الأشخاص في لانغلي معرفة واطّلاعا في شؤون الشّرق الأوسط. وعلى المستوى الشّخصي فهو إنسان رائع». في مطلع فبراير عام 1981، ذهب أيمز بصحبة چك كوغن ليقدّم نفسه إلى كمپ. كان كوغن في حينها مسؤولا عن شعبة الشّرق الأدنى وجنوب آسيا في إدارة العمليّات.

وبعد وقت قليل من تلك المقابلة التي تمّت في البيت الأبيض، طلب كيسي مقابلة أيمز. لقد حدث ذلك في فترة لقاءات التّعارف المبكّرة. سمع كيسي عن قدرات أيمز كضابط عمليّات، فأحبّ أنْ يرى ذلك بنفسه. وفي الوقت نفسه كان أيمز يعرف ما الذي يحبّ كيسي أنْ يسمعه. حين سأله لماذا يبدو أنّه يوجد لأمريكا اعداء كثيرون في الشّرق الأوسط، اخبره أيمز قصة صداقته مع الزّعيم اليمني الجنوبي عبد الفتّاح اسماعيل، الذي تلقى تعليما وتدريبا على أيدي السّوفيت، واصبح فيما بعد رئيسا للنّظام الماركسي في عدن. تذكّر كيسي فيما بعد تأكيد أيمز على أنّ استراتيجية السّوفيت في المنطقة تتلخّص في التّحرّر من أدران التّقاليد البالية. وهذا يعني «التّقليل من تأثير دور الدّين في المنطقة». إنّ هذه القصّة التي تؤكّد على تدخّل السّوفيت في شؤون المنطقة قد وجدت اذنا صاغية عند كيسي. ولذلك فإنّه اعتمد على أيمز في كلّ ما يتعلق بالشّرق الأوسط.

كما فضّله لأنّه ضابط عمليّات اصلا وانتقل إلى الجانب التّحليلي. كان كيسي يريد أنْ يزيل الحواجز بين فرعي المخابرات والعمليّات، بدا أيمز كضابط نموذجي لهذا التّحوّل. طبعا، كان ضابط عمليّات ممتاز، كما كان يمتلك قدرة فائقة في إعداد التّقارير وتقديمها. احتاج كيسي لهذا الصّنف من المساعدين، لأنّه يفتقر إلى القدرة على التّعبير. كان حين يتحدّث يتمتم. في مطلع عام 1981 كان يقدّم التّقارير اليوميّة للبيت الأبيض. وحين استرسل مدير الوكالة في الكلام احد الأيّام، كتب ريغن ملاحظة وسلمها خلسة إلى مساعده مايك ديفر قال فيها: «هل فهمت كلمة ممّا قاله؟». ذكر ديفر فيما بعد، «كان موقفا مريحا حين يسافر كيسي ويأتي نائبه ليقدّم تقرير الوكالة الصّباحي في المكتب البيضاوي. نفهم حينها ما كانوا يريدون أن يقولوا لنا». ونُقل عن وزير الخارجيّة جورج شولتز،

«يقول البعض إنّه الشّخص الوحيد في واشنطن ممّن لا يحتاج إلى هاتف سرّي».

حتى أيمز وجد نفسه احيانا غير قادر على فهم كيسي. يبدو للوهلة الأولى أنّ اختيار مثل هذا الشّخص لإدارة الوكالة امر غريب. بالتّأكيد، الجميع عرفه منذ أيّام OSS، غير أنّ ذلك كان قبل أربعين عاما. عمل خلال تلك السّنوات على جمع ثروة طائلة حين اشتغل في سوق الأموال وول ستريت وفي الوقت نفسه مع الجمهوريّين المحافظين، وكانت ثروته عام 1981 تُقدّر بحوالى 10 ملايين دولار. كان محافظا جدّا، غير أنّ الجميع اتّفق على ذكائه. ذكر جون بروس، وهو ضابط في العمليّات السّرّيّة في فترة تأسيس الوكالة، أنّ كيسي جمع بين منتهى الرّقة وقسوة القلب. أمّا دك هلمز فكان يسميّه «المتواطئ». وقال كلير جورج عنه، «احبّ كيسي رغم جنونه».

كانت نظرته للعالم واثقة صارمة، واراد من محللي الوكالة أنْ ينظروا إلى العالم للتّفريق بين الأبيض والأسود، ولا شيء بينهما. قال في إحدى المرّات، «لا أحبّ الإستنتاجات المتردّدة... أنا لا أبحث عن وجهة نظر يتّفق عليها الجميع». كان إلى جانب استخدام التّكنولوجيا في نشاطات الوكالة، لكنّه يعرف جيّدا أنّ صور الأقمار الصّناعيّة والمعلومات المخابراتيّة التي يتم اعتراضها، نادرا ما تفصح شيئا عن نوايا الخصوم. قال كيسي: «إنّ الحقيقة تسبّب الإرتباك احيانا، لأنّ الصّورة الخطأ لا تساوي ألف كلمة».

في مطلع شهر إبريل من عام 1981، زار أيمز بصحبة كيسي الرّباط والقاهرة وعمّان، وعندما توجّها إلى تل أبيب التحق بهما الكسندر هيغ، وزير الخارجيّة. كان الإسرائيليّون دائما في حيرة من امر كيسي، لأنّهم لا يفهمون كلامه. يتذكّر احد ضبّاط الموساد الكبار أنّ الشّخص الذي كان يدوّن الملاحظات خلال الإجتماع قد سأله، «ماذا يقول هذا الرّجل بحقّ السّماء؟».

كانت رحلة متعبة. وفي القاهرة، لم يجد كيسي كتابا يقرأه، فهو كأيمز يحبّ المطالعة. بعد ظهر يوم الجمعة، قال كيسي إنّه يريد الذهاب إلى مكتبة لبيع الكتب في القاهرة. ذكر چالز إنغلهارت، معاون مدير محطة الوكالة في ذلك

الوقت، «انطلقنا في شارع هليوپولس حتّى وصلنا المكتبة. كانت الأبواب مغلقة لأداء صلاة الجمعة. قام ضابط الأمن المصري المرافق بالدّق على الباب. جاء رجل مصري اشعث الشّعر، وامتلكه الفزع حين شاهدنا، فأسرع واحضر المفتاح ليفتح باب المكتبة. نظر كيسي في رفوف الكتب واختار كتابين عن مصر». كان كيسي مشكلة أينما ذهب.

في تل أبيب، التقى الوفد الأمريكي مع رئيس الموساد الميجر جنرال إسحق هوفي في بيته وشـرح له كيسـي نية إدارة ريغن ببيع طائرات أيواكس AWACS للمراقبة بمبلغ 8.5 بليون دولار للسّعوديّة. وكما كان متوقعا لم يكن الإسرائيليّون سـعداء بحصول السّـعوديّين على هذه التّكنولوجيا المتقدّمة. سـأل كيسي هوفي صراحة: «عمّا تريدنا إسـرائيل أنْ نفعل مقابل منع اللوبي الإسـرائيلي من إيقاف الصّفقة عند عرضها على الكونغرس الأمريكي؟». ردّ هوفي قائلاً: «سيكون من المفيد لنا التقاط صور جويّة لموقع مشـروع الطاقة الذريّة في العراق». عُقدت صفقة حول ذلك الموضوع. وبعد شهرين من هذا الإتّفاق وبتاريخ 7 يونيو 1981 أغارت المقاتلات الإسرائيليّة على المفاعل النّووي العراقي الذي لم يكتمل بعد ودمّرته بالكامل.

في طريق العودة إلى واشنطن، توقف كيسي ومعه أيمز في مدريد. في صباح اليوم التّالي جلس أيمز مع جفري كمپ، مسـؤول الشّـرق الأوسـط في مجلس الأمن القومي، ليتناولا الفطور، فبدأ كلّ منهما يبثّ شكواه للآخر. كتب كمپ في مذكّراته: «إحدى المشاكل الحقيقيّة في هذه الرّحلة هو عجز المسؤولين الكبار عـن إعـلام بعضهـم ومـا دونهم بمجريات الأمور. فمثلا ذهـب أيمز إلى الرّباط لمقابلة كيسـي ولديه القليل من المعلومات من وزير الخارجيّة هيغ، فليس من العجب أن تتناقض الرّسائل المتبادلة. لا أحد يولي هذه القضيّة بعضا من وقته. واعتمادا على ما أخبرني به أيمز فإنّ قسم الشّرق الأوسط في وزارة الخارجيّة لا يطيق ما تقوم به الوكالة. ثانيا، لا تزوّد وزارة الخارجيّة أيمز بأيّة معلومات. ثالثا، لا يتبادل هيغ المعلومات مع كيسي. رابعا، قد يصرّح كيسي بأشياء تختلف عمّا يقوله هيغ. خلاصة الأمور، هناك مشـكلة». أصبح العاملون في إدارة ريغن في

ذلك الوقت يطلقون على هيغ بسخرية لقب «الحبر الأعظم». واعتقد كل من كان يعمل في لانغلي أنّ هيغ يحاول أنْ يعزل الوكالة عن سياسـة البلاد الخارجيّة. وبالتّدريج اصبح كيسي يعتمد على أيمز لكي يتصدّى لتلك المحاولة ويفشلها.

في اواخر مايو من عام 1981، سافر بوب عائدا إلى إسرائيل من اجل مزيد من الإجتماعات مع ضبّاط الموساد. وكما هو غير متوقع، فقد رافقته إيفون في تلك الزّيارة. سافرت على طائرة منفصلة فوصلت إلى تل أبيب بتاريخ 30 مايو 1981، والتحقت بزوجها الذي كان ينتظرها في الفندق. لقد قاما بزيارة القدس معا في العام 1966، حين قاد بوب سـيّارته من دمشـق، غير أنّها احبت أن تزور الأرض المقدّسة ثانية. كانت زيارة سريعة، ذهبا خلالها إلى المواقع السّياحيّة في المدينة القديمة وعادت إثرها إلى واشـنطن بتاريخ 4 يونيو، في حين بقي بوب ليسـتكمل اللقاءات مع زملائه في الموسـاد. قبل أن يترك متوجّها إلى إسـرائيل، شعر أيمز بأنّه حان الوقت أنْ يخبر ابنته الكبرى، كاثي، عن عمله الحقيقي. كان عمرها عشرين عاما وكانت طالبة في كليّة محليّة كي تبقى مع اسرتها. لم يكن أيّ مـن الأبنـاء والبنـات الآخرين يعرفون طبيعة عمـل والدهم الحقيقيّة كضابط فـي الوكالـة. اعتقـدوا جميعـا أنّه يعمل فـي وزارة الخارجيّـة. كانت تلك ذريعة ضروريّـة. فـي الصّيـف الماضي رتّب بوبـلابنته كاثـي أن تمضي صيفها للعمل متدرّبـة فـي وزارة الخارجيّة. كان يصطحبها بالسّـيّارة إلـى الوزارة فيوصلها إلى المدخل، ويتظاهر بأنّه يذهب لمكتبه بعد ركن السّيّارة في المرأب، في حين أنّه حقيقيـة يتوجّـه إلـى فرجينيـا للوصول إلى مكتبه في لانغلي. لذلك، فإنّ الأخبار وقعـت علـى كاثـي وقوع الصاعقة. يقول مائير هارل، وهو المدير العام السّـابق للموسـاد، الذي عرف أيمز: «يشـعر الأطفال عادة بشـيء ما مخفيّ عليهم وأنّه ليس من المتوقع أن يُسـأل عنه. في الحقيقة يتعلمون ألّا يسـألوا اسئلة كثيرة. ولكن من جهة أخرى، قد يدفعهم ذلك بألّا يُشـركوا والديهم في مشـاعرهـم». كان ضابـط الموسـاد هـذا يتكلـم عن تجربته مـع أولاده. ولكن ذلك قد يصدِق على كافة الأولاد الذين يعمل آباؤهم في سلك المخابرات.

لم يعرف ابناء أيمز الخمسة الآخرون عن طبيعة والدهم. إنّهم ليسوا بحاجة إلى أن يعرفوا ذلك، غير أنّه في هذه المرّة عندما ذهب أيمز وإيفون في رحلة إلى الشّرق الأوسط في صيف 1981، كانت كاثي على الأقلّ تعرف أين تتجه لطلب المساعدة إذا حدث شيء لوالديها.

مع وصول الإدارة الجديدة إلى البيت الأبيض، كان أيمز يأمل في الحصول على الفرصة ليصبح مسؤولا عن قسم الشّرق الأوسط في دائرة العمليّات. غير أنّ تلك الفرصة تعدّته وقيل أنّه «اكثر كفاءة» من متطلبات العمل. أحسّ بالإحتقار لمثل تلك الأعذار وأحسّ بأنّه عوقب لأنّه «كفوء». لقد تميّز بأدائه عندما كان رئيسا قائدا لشعبة العمليّات. إنّ أولئك الذين عرفوه يعلمون جيّدا أنّه اخترق منظمة التّحرير الفلسطينيّة وخلق عنصرين متعاونين هما علي حسن سلامة وباسل الكبيسي. غير أنّ معظم ضبّاط شعبة العمليّات قد عرفا الاثنين من خلال اسميهما المُستعارين فقط. ومن الطبيعي، فإنّ بعض ضبّاط العمليّات مثل ديوي كلارج كانوا دائما كثيري الشّكوى لأنّ سلامة لم يُجنّد وإنّما كان وسيطا. يتذكّر بوب لاتين قائلا: «لي رأي مفاده أنّ بوب قد احتكّ ببعض شخصيّات قسم العمليّات بطريقة خاطئة. كان أيمز ضابط عمليّات حتّى العظم، غير أنّه لم يتوغّل إطلاقا في خصوصيّات شعبة العمليّات». ذكر بوب غيتس لكاتب سيرة حياة كيسي، المؤلف جوزف پرسيكو فقال:

> يجب أنْ تعرف أنّ ثقافة العمليّات السّريّة وأجوائها، هي ما تجعل الوكالة تتفرّد في خصوصيتّها. إنّ العاملين فيها اناس يكرّسون حياتهم وعندهم استعداد لتنفيذ المهام. إنّهم مستقلّون ومدفوعون داخليّا. يقدّمون التّضحيات العظيمة في حياتهم الخاصّة من أجل قضية اكبر. يواجهون المخاطر في كلّ يوم يذهبون فيه للعمل وهم يحسنون معاملة النّاس. جدول وقتهم مرن، يتحرّكون بسرعة ويتأقلمون للموقف دون تردّد، وهم يعرفون ما يجري في العالم من حولهم. إنّهم أذكياء وشديدو الإنتباه. إنّي اشبّه عملهم بأعمال القساوسة، وهذه جميعا هي الجوانب الإيجابية.

وهنـاك جوانـب سـلبيّة فـي اجـواء هذه المهنة وثقافتها. تسـودها علاقات أخويّة مغلقة، موقفهم ازاء الآخرين يشبه موقف سكان ولاية مَين أو منطقة كَيب كود نحو من يأتي لزيارتهما في موسم الصّيف. إنْ لم تكن وُلدت ونشـأت هنـاك، فأنـت غريـب، لأنّـك لـم تعانِ ما عاناه اهل تلك المناطق حيـن مـرّوا بأوقـات عصيبـة جـدّا خلال الفصول الأخرى. لا يسـتطيعون التّحـدّث عمّـا يقومـون بـه أو مـا ينجزونـه. قد ينتهـي بعضهم للعمل في لندن أو باريس، لكنّهم قبل ذلك ذاقوا الأمرّين في بلدان العالم الثالث، حيث لا يوجد طبيب بالمستوى الغربي لمعالجة أطفالهم حين يمرضون. لديهم شعور قويّ بأنْ لا احد إطلاقا يقدر على فهمهم أو ماذا يفعلون. ولذلك فإنّهم يأخذون موقفا دفاعيّا.

تربّى أيمز في تلك الأجواء، لكنّه في الوقت نفسه كان خارجها، وهو امر شـائع. فهو لم تبدر منه شـكوى عن ظروف العمل في العالم الثالث، بل على العكـس كان يفضّلهـا. لـم يكـن راغباً بالعمل في لنـدن أو باريس، وحتّى إيفون فضّلـت السّـكن فـي عـدن على بيـروت والكويت على طهـران. ولذلك فإنّه لم يشعر بالإحتقار للحياة هناك، كما يشعر به بعض ضبّاط العمليّات، ممّن اعتبروا أنّ العمل هناك يُعتبر تضحية من جانبهم. بالنّسبة إليه لم يعتبر العمل المخابراتي تضحية بل واجبا. لا بُدّ أنّ البعض من زملائه قد خبروا مشاعره تلك ولم يقابلوا موقفه بالإرتياح. ليس الأمر أنّ أيمز كان مثقفا، بل أنّ مشكلته أنّه احبّ اولئك العرب حبّا كثيرا، وتعاطف معهم إلى اقصى الحدود.

تلقـى أيمـز فـي مطلـع شـهر سـبتمبر 1981 معلومـات موثقة بـأنّ خطة قد وُضعـت لاغتيـال رئيـس وزراء إسـرائيل مناحيم بيغن عند زيارته أميركا لحضور الجمعيـة العامّـة للأمـم المتّحـدة. اتّصل على الفور بزين وطلب منه الإستفسـار من عرفات نفسـه على جناح السّـرعة. يدّعي زين أنّه نقل الرّسـالة مباشـرة إلى عرفات الذي أكّد وجود مثل تلك الخطة. «اعطاني عرفات رسالة موقعة تطلب مـن هـذا الرّجـل. أيمز، أن يحضر فورا لمقابلتـه». اتّصل زين ليخبر صديقه بأنّ الخطة قد اجهِضت. «غير أنّ بوب كان يريد دليلا على ذلك. فأخبرته أنّه في يوم

افتتاح جلسات الجمعية العامّة يجب أن يتأكّد من وجود كاميرات الفيديو لمراقبة الوفد الإسرائيلي». عرف أيمز أنّ مصطفى قادر أن يقوم بعمل مثير، لكنّه عمل بنصيحته. وفي اليوم المقرّر للإفتتاح، حضر زين إلى مبنى الأمم المتّحدة وهو يحمل بطاقة سماح بالدّخول باعتباره مستشارا لوفد الجامعة العربيّة في الأمم المتّحدة. اقترب زين من صديق قديم هو جيمي زيادة وهو شرطي سابق في نيويورك من اصل لبناني كان يعمل رئيسا لحماية وفد منظمة التّحرير في الأمم المتّحدة. طلب إستعارة مسدّسه بعد إفراغه من الإطلاقات. قام زيادة باعطائه المسدّس الذي وضعه زين في حزامه وأسرع الخطى نحو مقصورة وفد الكويت المجاورة لمقصورة الوفد الإسرائيلي. ضمّ الوفد رئيس الوزراء مناحيم بيغن ووزير الخارجيّة إسحق شَمير ووزير الدّفاع أريل شارون. لاحظ زين أنّ المقعد الذي يجلس عليه شارون لم يتناسب مع حجم الوزير. ثمّ يمضي للقول بأنّه قام بحركة سريعة بدت عفويّة فأسقط الوزير من مقعده، لكنّه سرعان ما ساعده على الوقوف على قدميه واعتذر منه وصافحه، كما صافح بيغن وشَمير، وغادر المقصورة بعد أنْ تسبّب في تلك الفوضى، وهو متأكّد بأنّ كاميرات المراقبة قد أظهرت أنّه يحمل مسدّسا.

شاهد أيمز الموقف كاملا، واخبر زين فيما بعد قائلا: «اوشكت أنْ تسبّب لي سكتة قلبيّة». اطلع أيمز جون مكماهون، مدير العمليّات في ذلك الوقت، على محتوى الفيديو..وشرح له أنّ زين قام بتمثيل عمليّة الإغتيال التي كان مقرّرا لها أنْ تجري ذلك اليوم.

قرّر كيسي في خريف عام 1981 أنْ يقوم بحركة انقلاب داخل الوكالة. لم يكن سعيدا بتحليلات دائرة المخابرات، وعبّر عن عدم رضاه حول الجوّ السّائد الحذر جدّا. كان يريد المزيد من العمل والقليل من الكلام. كان جون مكماهون مدير العمليّات، وهو رجل له خدمة تبلغ 30 عاما في الوكالة صلبا وماهرا، غير أنّ كيسي اعتقد أنّه في ظلّ تحقيقات الكونغرس وامام لجنة چرچل، تصرّف بشكل جليّ يظهر أنّه يبغي حماية سمعة الوكالة. كان ينوي استبداله بماكس هوغل، وهو رجل اعمال لا خبرة له في المخابرات. ولتحقيق ذلك اقنع كيسي

المتمنّع مكماهون أنْ يتولى إدارة المخابرات. كان امرا غير مألوف أنْ يتولى ضابط له خبرة طويلة في العمليات قيادة المخابرات. غير أنّ مكماهون كان محبوبا يثق به الجميع وهو ما جعله يخضع للضّغط. اثبت تعيين هوغل بأنّه كارثة، فتم نقله إلى شعبة أخرى في الوكالة.

وفي الوقت نفسه وجد كيسي ومساعده التّنفيذي روبرت غيتس نفسيهما على خلاف دائم مع هلن بوتنر، وهي مديرة الشّرق الأدنى وجنوب آسيا في قسم المخابرت. تبادلت مع غيتس عددا من المذكّرات الحادّة اللهجة التي ادّت إلى فصلها من العمل. وهي إقتصاديّة كانت تشغل اعلى منصب لامرأة في الوكالة. غير أنّ البعض اعتقدوا أنّها سريعة الإنفعال ولها «ذوق خاص». أياً يكن الأمر، في اواخر خريف 1981، اختار غيتس أيمز ليحلّ محلها. كان المستشار الخاص لكيسي، وهو فردرك هاچنسن هو الذي اقنع كيسي وغيتس أنْ يختارا أيمز. وفي نهاية العام اصبح أيمز مدير المخابرات في مجلس الأمن القومي، ورُقي غيتس نفسه البالغ من العمر 38 عاما إلى معاون مدير المخابرات. وبهذا اصبح الرّئيس المباشر لأيمز. وكوّنا بذلك ثنائيّا متحابّا. وكما ذكر فيما بعد، «اعتقد أنّ افضل التّعيينات التي قمت بها في كلّ حياتي في الوكالة كان تعيين بوب أيمز ونقله من الخدمات السّرّيّة ليكون على رأس محللي الوكالة الذين يعملون في شؤون الشّرق الأوسط».

كان ونستن وايلي، المحلل في الوكالة، يبلغ من العمر36 عاما عندما دعته هلن بوتنر إلى مكتبها بعد قليل من صدور الأمر بفصلها. كان أيمز يجلس عند الطاولة المقابلة لطاولتها فقالت لوايلي: «هذا بوب أيمز الذي سيكون مسؤولا عن الشّرق الأدنى وجنوب آسيا». تصافح أيمز مع وايلي وقال له: «ذكرت هلن أشياء جيّدة عنك». ثمّ أضاف قائلا إنّه يعرف أنّ وايلي ينوي الإنتقال إلى عمل آخر ووعده: «إنّني سأساعدك في أن تحصل على ما تودّ، ولكنّي احتاج إلى مساعدتك». قال وايلي: «احببت أن اعمل معه منذ اللحظة التي قابلته فيها. لقد استطاع أن يضمن موافقتي في تلك اللحظة».

يختلف عالم المخابرات تماما عن عالم العمليّات. كان أيمز على معرفة

بأنّ البعض من زملائه قد تساءلوا إن كان بإمكانه أن يكون موضوعيّا. ذكر بوب لايتن، الذي اصبح معاونا له في شهر فبراير من عام 1982: «كان بوب على علم اكثر من منتقديه بمشاكل كلّ شخص مثله يأتي إلى قسم المخابرات. لقد تحدّثنا عن هذا الموضوع صراحة وتوصّلنا إلى اتّفاق. وبموجب ذلك كنت أقوم اوّلا بمراجعة ما يكتبه المحللون. وإن لم تكن هناك مشكلة، فإنّه لن يتدخّل في الموضوع. كان فقط يريد أنْ يتأكّد أنّ كلّ موضوع تجري مناقشته بالشّكل المطلوب». لقد اوصت هلن بوتنر بأن يعمل لايتن مع أيمز. امضى لايتن حياته كاملة كمحلل، بدأ منذ ايّام فيتنام اعتبارا من 1965 لغاية 1976، وهو لا يعرف شيئا عن الشّرق الأوسط. غير أن ذلك لم يضايق أيمز في شيء، لأنّه واثق من نفسه». حسب ما قال محلل آخر. قام بإدارة قسم المخابرات وكأنّه مدرب لفريق رياضي. اوضح للجميع أنّ موضوع النّزاع العربي الإسرائيلي هو لبّ اهتمامه، لكنّه اظهر أنّه يمكن أنْ يكون موضوعيّا وغير متحيز إزاء هذا النّزاع.

يتذكّر لايتن أنّ: «بوب دافع عن تحليلاته. وإذا تطلب الأمر اصرّ على رأيه امام كبار مسؤولي الوكالة في الطابق السّابع. لكنّه فعل ذلك دون أن يدخل في صدام مع غيتس. وإذا كانت هناك خلافات، لجأ أيمز إلى تجاهل غيتس. ولم يتحدَ غيتس تحليلات أيمز، خاصّة فيما يتعلق بالموضوع الإسرائيلي الفلسطيني. ورغم أنّه وسط نشاطات التّحليل، إلّا أنّه لم يتخلَ عن مقابلة مصادره السّابقين». ذكر لايتن لم يتحدّث أيمز عن اتّصالاته في قسم العمليّات، لكنّي أعرف أنّه حتّى بعد اغتيال سلامة، استمرّ أيمز الالتقاء بمصادر المنظمة. كان ميّالا أن يشقّ طريقه الخاصّ به.

ذكر فرد هچنسن، الذي كان له مكتب في الطّابق السّابع باعتباره مستشارا لكيسي: «كان أيمز سعيدا بعمله في شعبة الشّرق الأدنى وجنوب آسيا.» كان يراه على الأقلّ مرّة في الأسبوع في قاعة طعام كبار مسؤولي الوكالة. أضاف يقول: «كانت علاقتي بكيسي دافئة جدّا، وكنت دائما ادافع عن أيمز واذكره بالخير». يتذكّر هچنسن بوضوح المرّة الأولى التي قابل فيها أيمز فيقول: «كان يرتدي سترة من صنع بروكس برذرز، خجولا بعض الشيء وتطغى على وجهه ابتسامة

خفيفة. كانت لديه كريزما خاصّة، وترك في نفسي انطباعا أنّه صلب جدّا. فيما بعد وخلال اللقاءات مع كيسي، كان هذا يبالغ احيانا في مناقشاته، إلّا أنّ أيمز كان رابط الجأش».

ذكر پول پيلار، وهو من الذين عملوا معه في مجلس المخابرات الوطنيّة NIC: «من الواضح أنّ سجله المهني حافل في مجال العمليّات، لكنّه كان يشعر بالإرتياح في ميدان التّحليلات». فخلفيّته في العمليّات السّرّيّة اعطته فوائد كثيرة. قد تكون تقديرات التحليلات المخابراتيّة جافّة، لكنّ أيمز كان قادرا على توضيح تلك التّقديرات المجرّدة باللجوء إلى تجربته الخاصّة.

وباعتباره واحدا من 13 ضابطا في المخابرات الوطنيّة، كان أيمز من وقت لآخر يقدّم التّقارير الموجزة لصانعي السّياسة في إدارة كارتر. ولكن باعتباره معاونا لمدير مخابرات الشّرق الأدنى فإنّه على اتّصال دائم مع المسؤولين الكبار في البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي ووزارة الخارجيّة. ذكر جورج كيف، وهو الضّابط الذي عمل معه في قضايا الثورة الإيرانيّة: «احبّ أيمز الجانب التّحليلي من عمله وكان ممتازا فيه للغاية. لقد وجد اخيرا ضالته، ووصل إلى الحدّ الذي بدأ فيه كبار واضعي السّياسة يستأنسون برأيه».

وحسب ما ذكر لندزي شرون: «هناك اختلاف كبير. فبدلا من تجنيد الوكلاء وتنظيم اللقاءات معهم، اصبح يقدّم المساعدة لوضع سياسات حقيقيّة على المستوى العالي. وكذلك هناك فرق كبير بين من تلتقي بهم ومن تحيهم». لقد كان الأمر السّائد في الوكالة هو الفصل بين مهام المخابرات والسّياسة. اعتقد أيمز أنّ ذلك تفريق مصطنع سخيف. كان الشّعار الدّائم في الوكالة هو «عدم تلويث المخابرات بالسّياسة». ولكن وفقا لاعتقاد هچنسن وأيمز القويين فإنّ المخابرات يجب أن تشكّل السّياسة. وبموجب ذلك، يصبح ضروريّا على ضبّاط المخابرات أن يفهموا الحاجات والدّوافع والتّحيّزات لدى من يستعمل معلوماتهم المخابراتيّة من واضعي السّياسة. فالسّياسيّون كما هو معروف عنهم يفكّرون دائما بالأمور القريبة المدى. يشرح هچنسن بأنّ: «أيمز كان جيّدا في تفسير الآثار البعيدة المدى للمعلومات المخابراتيّة لواضعي السّياسة. إنّه يفعل

ذلك بالضّبط لأنّه يأخذ بعين الإعتبار تحيّزاتهم الخاصّة وفترة تفكيرهم التي تمتدّ إلى فترة اربع سنوات، حتّى تحين الإنتخابات من جديد».

في مطلع عام 1982، اصبح أيمز «رجل الشّرق الأوسط» في الوكالة لدى إدارة الرّئيس ريغن. أمضى معظم وقته في واشنطن، غير أنّ الزملاء في المكتب لاحظوا أنّه يداوم الذهاب إلى مدينة نيويورك. اخبرهم أنّه يذهب لمقابلة مصادره، غير أنّ اكثرها كانت لمقابلة صديقه مصطفى زين الذي قرّر اخيرا أن يغادر بيروت بسبب الحرب الأهليّة لكي يستقرّ في نيويورك. لقد استطاع زين أن يجمع ثروة لا بأس بها خلال العقد الماضي، وعليه كان باستطاعته أن يشتري شقة جميلة رقم 372 في الجادة الخامسة تطلّ على الحديقة المركزية. يتذكّر زين فيقول: «لقد ساعدني أيمز في الحصول على بطاقة الإقامة الخضراء»، حيث تكون حصّة الوكالة 100 بطاقة منها سنويًا. قام شخص اسمه إدوارد، يعرفه زين كضابط للوكالة في الأمم المتّحدة، بتسليم البطاقة له شخصيًا. وحين يكون أيمز في رستن أو الكويت أو طهران، فإنّه كان دائم الإتّصال بزين عن طريق الهاتف أو البريد، واصبح زين يزور أيمز وإيفون من وقت لآخر.

التقى زين وأيمز ورئيسه السّابق دك هلمز لتناول الغداء في واشنطن خلال تلك السّنوات. كان هلمز يقوم بدفع كلفة تلك الوجبات. في احد الأيّام حضر زين إلى طاولة الغداء وهو يحمل هديّة لهلمز. كانت مسبحة من الكهرمان اشتراها حديثا في بيروت مقابل ألفي دولار «احبّها هلمز كثيرا».

كان على أيمز أن يستبق التّطوّرات التي تجري في الشّرق الأوسط. غير أنّ ما كان يجري في بيروت قد استحوذ على جلّ اهتمامه. هدأت الحرب لبعض الوقت، ولكن في شهر يوليو عام 1981 اطلقت فصائل من المنظمة المئات من صواريخها صوب شمال إسرائيل. ردّت إسرائيل بقصف المباني التي تشغلها المنظمة في وسط بيروت، ممّا تسبّب في وقوع المئات من القتلى والجّرحى. وافقت المنظمة بتاريخ 24 يوليو على وقف لإطلاق النّار وأنْ تضع حدّا لعمليّات القصف عبر الحدود من جنوب لبنان نحو شمال إسرائيل، وهو الأمر الذي جلب الهدوء للمنطقة فترة استمرت ما يقارب عشرة أشهر.

دعا أيمز في شهر إبريل من عام 1982 ثلاثة من افضل المحللين معه لمقابلة زين، واستأجر لذلك جناحا في فندق هلتن إلى الشّمال قليلا من ساحة دو پونت في العاصمة واشـنطن. طلب لهم وجبة غداء جيّدة وطلب منهم أن يناقشـوا إن كانت ستجري جولة أخرى من الحرب في الشّرق الأوسط. وبعد مداولات بين الأخـذ والـرّدّ توصّـل المحللون الثلاثة إلى القول: «لا». غير أنّ، «الإسـرائيليّن سيستمرون في إنهاك عرفات عسكريّا» من خلال استنزاف متواصل. اشاروا إلى أنّ خـروج المنظمـة مـن لبنان سـيحرّر عرفات من التّعامل مع مسـتنقع بيروت. اختلـف زيـن معهـم قائلا: «لقد درسـت شـارون جيّدا وهو ينتظـر الفرصة لغزو لبنان وإخراج المنظمة منها. سيدفع بارتال دباباته وعرباته المصفّحة عبر الطريق السّاحلي واخرى عبر المنطقة الجبليّة، وسيدفع بها حتى الوصول إلى بيروت».

قـام محللـو الوكالة بمناقشـة السّـيناريو الذي وضعه زيـن وتوصّلوا إلى أنّه إذا كانت هناك نيّة للغزو، فإنّ شـارون سـيتوقف عند نهر الليطاني إلى الجنوب مـن بيـروت. وفـي نهايـة اليوم اخبر أيمز زين بأنّ يـدوّن توقعاته ويبعث بها إلى عرفات مباشرة، «اخبرْ عرفات أنّ أيمز يريدك أنْ تطلع على هذا».

بتاريخ 3 يونيو من عام 1982 جرت محاولة لاغتيال السّفير الإسرائيلي في لندن شلومو أرغوف، فأصيب بجراح بليغة. القت إسرائيل باللوم على المنظمة. في الحقيقة، كانت المحاولة من تدبير عناصر منظمة أبو نضال وهو من ألدّ أعداء عرفات. حين تمّ إشعار رئيس الوزراء بيغن بها، ردّ قائلا: «كلّهم من اتباع منظمة التّحرير سواء كانوا أبو نضال أو أبو شميدال. يجب أن نضرب منظمة التّحرير».

لـو تأملنـا الأحـداث الماضية، لبدا واضحا أنّه ولعدّة سـنوات مضت كانت إسـرائيل تبحـث عـن مبرّر لتصفية وجـود المنظمة في لبنـان. إنّ وزارة الليكود اليمينيّة برئاسـة بيغن توصّلت إلى اسـتنتاج بأنّ إتّفاقيات كامپ ديفد لعام 1979 قد ألغت احتمال أنْ يتصاعد هجوم عسكري على المنظمة في لبنان إلى حرب شاملة. لقد خرجت مصر من حلبة الصّراع، وهو ما أعطى بيغن الحريّة للتّحرّك ضدّ المنظمة. في شهر ديسمبر من عام 1981 ناقش بيغن مع وزير دفاعه شارون خلال اجتماع وزاري خطة غزو اطلق عليها اسـم اشـجار الأرز الكبيرة. لم يتمّ

إقرار الخطة حينها، غير أنّ شارون كان مصمّما على استخدام أيّ استفزاز من قبل المنظمة كعذر لإنزال ضربة قاضية بها. كتب فيما بعد في مذكّراته: «إنّ محاولة اغتيال السّفير أرغوف كانت فقط الشّرارة التي اشعلت الفتيل».

بتاريخ 6 يونيو 1982 تحرّكت قوّة إسرائيليّة كبيرة اشتملت على 1500 دبابة وغزت لبنان. اخبر بيغن وشارون مجلس الوزراء الإسرائيلي أنّ القوّة الضّاربة ستتقدم إلى مسافة 40 كيلومترا داخل الحدود اللبنانيّة بقصد تدمير مواقع المليشيات الفلسطينيّة وتحصيناتها. غير أنّه بعد ثلاثة ايّام وصلت قوّات شارون إلى مشارف بيروت. وكما كتب جورج شولتز في مذكّراته: «إنّ هدف إسرائيل الحقيقي هو تدمير منظمة التّحرير وقيادة الحركة الفلسطينيّة».

ظهر فيما بعد أنّ شارون قد حصل على الضّوء الأخضر من قبل وزير الخارجيّة الأمريكي الكسندر هيغ عندما التقيا في واشنطن بتاريخ 19 و20 مايو. وبناء على ما ذكره المؤرّخ الإسرائيلي بني مورس فإنّ هيغ وصف الخطة الإسرائيليّة لغزو لبنان وطرد المنظمة بأنّها «عمليّة جراحيّة». وحين سُئل شارون كم يجب أنْ يتوغّل داخل لبنان، ردّ قائلا: «إلى ابعد ما يتطلبه الأمر».

احتقر أيمز وزير الخارجيّة هيغ، لأنّه اعتقد أنّ إعطاء شارون مثل ذلك السّماح اللامحدود لغزو لبنان عمل غير مسؤول إطلاقا. خلال تناول الغداء مع هلمز وزين في المطعم الفرنسي في واشنطن، وصف أيمز الفوضى التي كان شاهدا عليها في العلاقة بين البيت الأبيض ووزارة الخارجيّة. بعد عدّة ايّام بعث زين مذكّرة إلى أيمز حول رأيه بصدد الأزمة اللبنانيّة قال فيها: «إنّ إسرائيل بقوّتها العسكريّة العالية تخلق كالعادة حقائق جديدة في الشّرق الأوسط. إنّ الأنظمة العربيّة، بما فيها المحافظة والرّاديكاليّة، وجهان لعملة واحدة. إنّها تتميّز بالفساد والطغيان والعجز ولا يمكنها بأيّ حال من الأحوال مواجهة التّحدّيات الإسرائيليّة السّياسيّة والعسكريّة». لقد لخّص زين الوضع بأنّه يوجد في العالم العربي إتّجاهان أحدهما يساري راديكالي والآخر إسلامي متشدّد. اعتقد أنّ الحرب اللبنانيّة تزيد من قوّة المتديّنين المتشدّدين، وتنبئ بسيطرة الحركة الإسلاميّة، وحذّر أنّ مثل هذا الإنتصار «سيكون كابوسا يطارد امريكا وإسرائيل معا». كما

اشـار إلى أنّ سياسـة إسـرائيل حيال المنظمة قصيرة النّظر. كتب بصراحة يقول: «إنّ تصفية القضيّة الفلسـطينيّة تقتضي من إسـرائيل أن تصفي كلّ فلسـطينيّ في الوجـود». كان امـام واشـنطن خيـار واضح. «بإمكانها أنْ تسـتمرّ في مسـاعدتها اللامحدودة ومساندتها اللامشروطة للسّياسة الإسرائيليّة في المنطقة، أو أن تأخذ طريقا مسـتقلا مسـتخدمة الحرب اللبنانيّة كفرصة لبناء سـلام عادل في الشّـرق الأوسـط». كان زيـن مثاليّـا عنيـدا مثـل بوب أيمـز. اتّفق الاثنـان وحاولا خلال الأشـهر التّالية ما اسـتطاعا لكسـر قيود واشنطن وتحريرها من مساندتها الرّوتينيّة للسّلوك الإسرائيلي.

علـم شـارون بسـرعة أنّ فـرض حصـار كامـل على بيروت سـيكون مكلفا للغايـة. اسـتطاع مقاتلـو المنظمـة أن يعـدّوا مقاومـة عنيفـة كبّدت الإسـرائيليّن خسـائر تجـاوزت المتوقـع، وكانت هناك دلائل على تصاعـد الموقف واحتمال دخول السّـوريّين المعركة بسـلاحهم السّـوفياتي. واكثر من ذلك، سـارعت إدارة ريغن للتّعبير عن عدم تحمّسها للطموحات الإسرائيليّة. اتّصل ريغن ببيغن وابلغه شـكوى امريكا لأنّ القوّات الإسـرائيليّة قد «توغّلت إلى ابعد بكثير ممّا وصفوه لي». طلب وقف إطلاق نار مباشـر، غير أنّ بيغن وشـارون لم يكلفا نفسـيهما بالرّدّ. بعث ريغن موظفا مخضرما من وزارة الخارجيّة اسمه فيليب حبيب ليبدأ مفاوضـات حـول وقـف النّـار، لكنّ القوّات الإسـرائيليّة اسـتمرّت في حصارها لبيروت، وكان وقف إطلاق النّار غير مستقرّ.

فـي منتصـف الأزمـة اللبنانيّة وخلال شـهر يونيو اعلـن ريغن تعيين جورج شـولتز خلفا لألكسـندر هيغ وزيراً للخارجيّة. كان شـولتز حينها رئيسـا لشـركة بكتـل وهـي شـركة لهـا اسـتثمارات عالية في العالـم العربي. اعتقـد البعض أنّ ذلك قد يكون إشـارة نقديّة لتحيّز واشـنطن الطاغي لإسـرائيل. كتب شولتز فيما بعد: «مقارنة بهيغ الموالي جدّا لإسرائيل، قام الآخرون بتصنيفي بأنّني مستعرب، لأنّ شركة بكتل تقوم بمشاريع بناء واسعة في السّعوديّة ومنطقة الخليج».

شولتز جمهوريّ محافظ حدّ العظم، لكنّه غير متطرّف. وهو ليس من النّوع

الذي يفهم تاريخ التّشرد الذي تسبّب في بروز الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة. يعتقد أنّ منظمة التّحرير الفلسطينيّة قد لجأت إلى الإرهاب السّياسي الذي جعل من المستحيل أن يُجرى أيّ نوع من الحوار مع ممثليها. احاط نفسه بشلة من المحافظين الجُدد من قبيل بول وولفوتز ودوغلاس فايث (صهيونيان معروفان - المترجم) اللذين أقنعاه بأنّ المصالح الاسّتراتيجيّة الإسرائيليّة تتطابق تماما مع المصالح الأمريكيّة.

ومع ذلك فإنّ مجيئه لهذا المنصب وسط الأزمة اللبنانيّة جعله يصرّح بأنّه مستعدّ لسماع أيّة افكار جديدة ذلك لأنّه اعتقد أنّه مفكّر عملي. بتاريخ 16 يوليو 1982 رافقه ريغن إلى حديقة الزّهور في البيت الأبيض لأداء اليمين. ذهب الوزير الجديد إلى مقرّ وزارته بعد ذلك وقام بمخابرة عدد من الأشخاص، كان أيمز هو الثاني بينهم. لقد سمع عنه وعرف أنّه مهنيّ يحظى بالإحترام. قبل أسبوعين من تلك المكالمة وبتاريخ 2 يوليو كان كيسي قد رقّى أيمز إلى درجة SIS-4. كما اخبر نائب وزير الدّفاع في إدارة ريغن، وهو فرانك كارلوچي، الوزير أنّه إذا اراد أنْ يفهم الشّرق الأوسط، فعليه الإستماع إلى أيمز، «لأنّه معتدل في آرائه وليس انانيّا». بعد عدّة اشهر إلتقى شولتز بصديقه كارلوچي فقال له: «من افضل النّصائح التي تلقيتها منك، هي الإستماع إلى بوب أيمز».

اجتمع شولتز مع أيمز عدّة مرّات خلال شهر يوليو، فاعتبره «على رأس متخصّصي الوكالة في القضايا العربيّة». كتب يقول: «اعجبني فهمه للمشهد العربي السّياسي والثقافي. أخبرته في إحدى المرّات أنّه يذكّرني بمهندسي شركة بكتل المستعدّين دائما لإيجاد حلول للمشاكل التي تواجههم». غير أنّه أفصح عن استيائه عندما علم «أنّ أيمز يجري حوارا مع قيادة المنظمة من خلال وسطاء لمدة تقرب من عام». من الواضح أنّه لم يعرف أنّ أيمز منغمس في هذه العلاقة منذ عام 1969. حاول أيمز من جانبه أنْ يقنع شولتز أنّ حصار بيروت يعطي الإدارة فرصة للوصول إلى حلّ. ذكر له أنّ المنظمة مستعدّة للإستجابة لطلب واشنطن بقبول قرار الأمم المتحدة رقم 242، والإعتراف بحقّ إسرائيل في الوجود، «وانسحاب القوّات الإسرائيليّة من أراضي احتلّتها في حرب 1967».

كان لعرفات شرط واحد فقط. إنّه يطلب في المقابل أن تصدر الولايات المتّحدة إعلانا لمساندة الفلسطينيّين في حقّ «تقرير مصيرهم». اعتبر شولتز أنّ ذلك يعني القبول بدولة فلسطينيّة مستقلة. كتب فيما بعد، «إنّ ذلك الطلب لم يكن إشارة بل خطة جبّارة، ولست على استعداد للنظر فيها». اخبر أيمز أنّ رسائل المنظمة مراوغة وغير واضحة. واكثر من ذلك، عندما اشار أيمز أنّه على وشك اللقاء مع ممثل المنظمة، يتذكّر شولتز، «اخبرته بألّا يكون هناك أيّ لقاء».

غير أنّه بعد ايّام قليلة، وبالذات بتاريخ 19 يوليو ذهب أيمز للقاء ممثل المنظمة بموافقة خاصّة من مدير الوكالة كيسي. اعتقد الرجلان أنّ الوكالة يجب ألّا تكون بمعزل عمّا يجري على السّاحة في بيروت، ومن الضّروري أن يكونوا على اتّصال بلاعب رئيسي في ازمتها. اعلن عرفات حينها أنّ المنظمة مستعدّة لإجلاء قيادتها ومعظم مقاتليها، غير أنّه لم يكن واضحا إن كانت الدّول العربيّة مستعدّة لاستضافته ورجاله. لقد عمل كيسي وأيمز بما اعتقدا أنّه ضروري. غير أنّ شولتز علم في اليوم التّالي أنّ تعليماته قد تمّ تجاهلها تماما. كان ذلك هو الدّرس الذي تلقاه حين «ادرك أنّ كيسي والوكالة يتصرّفان بشكل مستقلّ».

قرّر شولتز في ذلك الصّيف أنْ يلتقي مع كيسي على الغداء مرّة في الأسبوع، فهو يعرفه منذ حوالى عشر سنوات. غير أنّ تلك اللقاءات توقفت بعد فترة قصيرة، لأنّ الرّجلين ادركا بسرعة أنّهما لا يحبّان بعضهما. قال شولتز لمراسل نيويورك تايمز تم وينر: «إنّ لهذا الرّجل برنامج كبير ومن الخطأ أن يكون للوكالة برنامج معيّن. المطلوب منهم جمع المعلومات الإستخباراتيّة، وإذا كان لديهم برنامج ما، فإنّه سيتمّ تحريف تلك المعلومات». حين انتهت فكرة الغداء الأسبوعي، عاد شولتز يعتمد على أيمز باعتباره حلقة الوصل مع الوكالة.

ألقى شولتز باللائمة على عاتق كيسي وليس أيمز، وفي الوقت نفسه استمرّ الأخير في علاقاته مع المنظمة. ومن النّاحية العمليّة، ادرك شولتز أنّه من الضّروري المحافظة على تلك القناة مفتوحة. تهاوى وقف إطلاق النّار في بيروت في اواخر يوليو، وبدأت القوّات الإسرائيليّة تقصف المدينة ثانية. كان فيليب حبيب مندوب الرّئيس لا يزال في بيروت حين اتّصل بشولتز ليخبره: «أنّ

مدافعهم تطلق القذائف على بعد مئات الأمتار من مقرّي. باستطاعتي أنْ امشي نحوهم إلى قمة التّل واطلب منهم أنْ يتوقفوا». استنتج شارون أنّ المنظمة تجرّ اقدامها وليس لديها نيّة لترك بيروت، فأخبر قادة وحداته أنْ يستعدّوا لقصف المدينة دون رحمة.

اثبتت قناة أيمز مع المنظمة اهمّيتها وجدواها. حين شنّت المقاتلات الإسرائيليّة هجوما قصفت فيه موقع عرفات، ارسل رسالة إلى أيمز عبّر فيها، حسب قول شولتز، عن استعداده للتّفاوض من اجل الإجلاء. «إنّ حبيب يتكلم فقط عن مغادرتنا، لكنّه لا يذكر كيف وأين؟ أين نذهب؟ سوريا لا تقبلنا. إنّني لست مهتمّا بإنقاذ حياتي فقط».

جرت اتّصالات أيمز حينها مع المنظمة مباشرة مع عرفات ومدير مكتبه أبو جهاد. أمّا حلقة الإتّصال الرّئيسيّة فهو هاني الحسن، وهو الذي تقابل مع الجنرال والترز في الرّباط عام 1973. يُعتبر الأخوان الحسن من العناصر «الواقعيّة» في المنظمة. وهاني الحسن معروف لدى عدد من المراسلين الأجانب الذين يتردّدون على فندق الكومودور في رأس بيروت. كان هاني يحضر إلى الفندق بانتظام ليقدّم تقارير عن الحصار. ومن خلال تصريحاته العامّة، كان واضحا أنّه اعتقد أنّ بقاء المنظمة يعتمد على قدرتها على تغيير نفسها من منظمة شبه عسكريّة إلى منظمة سياسيّة. دعا دائما إلى حوار مع الولايات المتّحدة. إنّ بعض الرّسائل بين أيمز وهاني الحسن وغيره من قياديي المنظمة كانت تنتقل عبر جوني عبدو، وهو رئيس المخابرات اللبناني للفترة من 1977 إلى 1983. نشأ عبدو كماروني، لكنّه مع ذلك حافظ على علاقة صداقات واسعة مع عدد كبير من الطّوائف اللبنانيّة الأخرى. كان صديقا شخصيّا للزعيم الدرزي كمال جنبلاط، كما أنّه في الوقت نفسه على علاقة وثيقة ببشير الجميّل. كان وسيطا امينا بين مختلف الفئات المتحاربة، وضمّت مصادر معلوماته رجالا جيّدين وآخرين سيئين من مختلف الجماعات والفئات.

كان فيليب حبيب دبلوماسيّا من الطراز الأوّل، ولكن في لبنان اجبِر أن

يتفاوض مع الفلسطينيّين دون أن يُسمح له بمقابلتهم، وهو وضع سيريالي. كان منع التّحدّث مع منظمة التّحرير ساري المفعول، لكنّه على علم بالقناة الخلفيّة ودور أيمز فيها. وجد أنّ ذلك لم يكن بديلا كافيا عن التّواجد في بيروت ومحاولة التّفاوض حول بنود اتّفاقيّة إجلاء المنظمة من بيروت. فهم حبيب أنّه لا يمكن أن يتفاوض وجها لوجه مع عرفات «لأنّ بيغن سينفجر غضبا إذا علم أنّه يتحدّث مع الإرهابيّين». كما أنّ شارون قد حذره أنّه إذا وجده يتفاوض مباشرة مع المنظمة، فسيبعث بقوّاته إلى غرب بيروت.

لذلك اقترح حبيب ماسماه «محادثات متقاربة». سيقوم جوني عبدو بتوفير مكان آمن، حيث يمكن لعرفات وحبيب أنْ يجلسا في طابقين مختلفين، ويقوم عبدو بدور ناقل للرّسائل بينهما. اكّد حبيب لبيغن: «إنّهم سيكونون في الطابق الأوّل وسنكون أنا وفريقي في الطابق الثاني. لن نشاهدهم ولن تكون هناك مصافحات». غير أنّ بيغن ردّ بحدّة أنّه لا يوافق على مثل تلك التّرتيبات. من الغريب أنّ بيغن نفسه الذي اتّهِم بأنّه إرهابي فجّر في عام 1946 فندق الملك داود في القدس وقتل 91 شخصا، يفهم أنّ «المحادثات المتقاربة» تعطي نوعا من الشّرعيّة للإرهابي عرفات! كان موقفا تمثيليّا وجدت الولايات المتّحدة نفسها فيه تواصل محادثاتها رغم معارضة بيغن.

استمرت الأزمة لأسابيع كان شارون يهدّد خلالها بغزو غرب بيروت ودخول صبرا وشاتيلا. بتاريخ 1 اغسطس 1982 صعّد من هجومه واطلق حوالى الف قذيفة إسرائيليّة على غرب بيروت في غضون 14 ساعة فقط. قتِل المئات من الضّحايا المدنيّين، وهو نفس اليوم الذي سأل فيه احد الصحفيّين ريغن: «الم تفقد صبرك بعد مع إسرائيل؟» اجاب، «لقد فقدت صبري منذ امد بعيد، وسفك الدّماء الجّاري يجب أنْ يتوقف».

اخيرا وفي وسط شهر اغسطس بدا واضحا أنّ المنظمة تستعدّ للرّحيل. طلب عرفات وجود قوّات دوليّة متعدّدة الجّنسيّة في غرب بيروت حتّى يغادر هو والآلاف من مقاتليه على ظهر سفن تحملهم إلى تونس، وهي اصغر بلد عربي في شمال افريقيا. وعد حبيب أنّ القوّات الدّوليّة ستحمي باسم الولايات

المتّحدة المدنييّن الفلسطينييّن في مخيّمات اللاجئين في المدينة.

في لحظة معينة سأل حبيب جوني عبدو عن رأيه في العدد المطلوب من القـوّات الدّوليّـة الذين يحتاجهم لحماية الفلسـطينييّن بعـد مغادرة المنظمة، فردّ 250 ألفا. اعتقد أنّه يداعبه. في النهاية، اقترح 800 من رجال المارينز الأمريكييّن و800 جنديّ فرنسيّ و400 جنديّ من القوّات الإيطاليّة. اثبتت الأحداث أنّ العدد لم يكنْ كافيا بشكل محزن.

جلـس أيمـز فـي مقعـده فـي لانغلي يراقـب الدّرامـا الجاريّة فـي بيروت. ادرك أنّ صور الحرب مرعبة، لكنّه اعتقد أنّ ذلك الرّحيل سيهيء فرصة لخلق ديناميكيّة جديدة. كان يشـاهد ويسـمع عددا كبيرا من مسـؤولي إدارة ريغن وهم يعبّرون عن اسـتيائهم، وسـمع شـولتز يرفع صوته غضبا وانزعاجا من تصرّفات الإسـرائيلييّن. كتـب فيمـا بعـد: «لقد تولاني الغضب من سـلوك بيغن وشـارون المخادعين». اسـتغلّ أيمز تلك الفرصة لكي يشـجّع الوزير الجديد على التّفكير بما يجب أنْ يحدث في الشّرق الأوسط بعد رحيل عرفات والمنظمة من بيروت. دعا في نهاية الشّـهر مجموعة من المستشـارين للنّظر فيما دعاه «بداية جديدة» لسياسة الولايات المتّحدة إزاء المشاكل الطويلة الأمد المتعلقة بالحرب والسّلام في الشّـرق الأوسـط. دعا الوزير ثمانية من الأشـخاص العارفين ذوي الخبرة أنْ يجتمعـوا بـه فـي القاعـة المقابلـة لمكتبـه في الـوزارة. ضمّـت المجموعة أيمز ومستشـار الأمـن القومي بد مكفارلن والمسـؤول المتمـرّس في الوزارة لورنس إيغلبرغـر وچالـز هـل ووليم كربي وألن كرزكو ونيكولاس فلويتز. اقسـم هؤلاء على سريّة مهمّتهم. كتب الوزير فيما بعد، «إنّ أيّة إشارة بأنّ الولايات المتّحدة تعيد تقييم موقفها من القضيّة الفلسـطينيّة سـيكون لها مردود سـلبي على جهود فيليب حبيب لإخراج المنظمة من بيروت، وأيضا على قدرة الولايات المتّحدة في التوصل إلى شيء إيجابي ناجم عن هذه الحرب المرعبة».

غيـر أنّ المشـكلة هـي أنّ شـولتز يريـد «بدايـة جديدة» لا تعتـرف بعرفات ولا بالمنظمة، دعك من قيام دولة فلسطينيّة. وفي نفس الوقت لم يكن مستعدّا لإضعاف موقف الملك حسـين أو عمل أيّ شـيء لإحلال دولة فلسـطينيّة محل

المملكة الهاشميّة. خلال الفترة الممتدّة بين اواخر يوليو وطوال شهر اغسطس، اجتمع شولتز وفريقه بشكل منتظم. ولأجل المحافظة على السّريّة، غالبا ما اجتمعوا خلال عطلة نهاية الأسبوع. كانت المناقشات حادّة في بعض الأوقات. وفي إحدى المرّات حذر احدهم شولتز (في اعتقادي إيغلبرغر – المترجم) بأنّ «أي اقتراح نتوصّل إليه سوف لن يحظى بقبول إسرائيل». ردّ شولتز: «إنّ أيّ شيء قيم ليس مقبولا من قبل أيّ شخص في الشّرق الأوسط، لكنّ الجميع يتوقع منّا أن نطرح افكارا. يجب أنْ نكون من يضع الأجندة».

رغب شولتز في طرح افكار متكاملة. فمن جهة كان يأمل أن يحصل الفلسطينيّون، كغيرهم من النّاس، على حقّ «تقرير مصيرهم»، لكنّه يعرف أنّ ذلك يعني دولة فلسطينيّة في الضّفة الغربيّة وغزّة. ولذلك قال لنفسه إنّ قيام دولة فلسطينيّة في المناطق المحتلة ليس ممكنا اقتصاديّا، وتوصّل إلى استنتاج بأن «تقرير المصير» يجب أنْ يكون ضمن ترتيب سياسي مع المملكة الأردنيّة.

تحدّث العديد من الجهات المختلفة ولسنوات عن «الحلّ الأردني». عرف أيمز وغيره ممّن يتذكّرون حرب ايلول الأسود الأهليّة، أنّ قناعة الفلسطينيّن ضمن الدّولة الأردنيّة ممكنة إذا اصبح الأردنّ دولة ديمقراطيّة. ولكنْ نظرا لأنّهم يشكّلون الغالبيّة الكبرى من السّكّان، فإنّ «الحلّ الأردني» يعني سقوط مملكة حسين الهاشميّة. وطبعا، أوضح شولتز منذ البداية أنّه ليس مستعدّا لإضعاف موقف الملك. ومع ذلك رأى أيمز منفعة كبيرة في تصميم شولتز لدفع إدارة ريغن لوضع خطة سلام امريكيّة. ولذلك فإنّه وقف إلى جانبه وشجّعه للمضي في جهوده.

في منتصف شهر أغسطس وضع شولتز وجماعته السّرّيّة مبادئ الخطة. وكما ورد في اتّفاقيّات كامپ ديفد، فإنّ الفلسطينيّن في الضّفة الغربيّة وغزّة سيحصلون على استقلال ذاتي خلال فترة أمدها خمس سنوات، تجري خلالها انتخابات محليّة. تقوم إسرائيل بتجميد نشاطات الإستيطان خلال تلك الفترة. فهم أيمز اهميّة ذلك، فمع تجميد بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة، تصبح قضيّة تقرير حقّ الفلسطينيّن مسألة واقعيّة. وطبعا، عبّر شولتز بوضوح

أنّ الولايات المتّحدة تعارض قيام دولة فلسطينيّة، فالكيان الفلسطيني المقترح جزء من الأردن. فهم أيمز أيضا أنّ شولتز يحاول عن طريق الحيلة والدّهاء السّياسي تلطيف موقف صعب. وهذا بالنّسبة له كافٍ في وقته. إنّ «البداية الجديدة» التي يريدها الوزير ليست جديدة، لكنّها خطوة إلى الأمام. وباعتباره ضابط مخابرات، فهم أيمز أنّ واضعي السّياسة من قبيل شولتز يعملون وفق تقييدات سياسيّة.

كان الوزير يشكّك في أيّة مذكّرة تفوح منها رائحة الإتّفاق المصطنع. اعتقد أنّ اغلب تقديرات المخابرات الوطنيّة القادمة من الوكالة، ليست اكثر من «إتّفاقات» مثيرة للملل. ولذلك، فإنّه من حين لآخر، كان يتّصل ببوب غيتس ويطلب منه الحضور إلى مكتبه برفقة عدد من افضل المحللين معه. كان شولتز يخبرهم قائلا: «أنتم ترون أنّ للمحللين آراء مختلفة. وهذا شيء مفيد وباعث على زيادة الإهتمام». كان أيمز نجما ساطعا في التّحليلات التي تُطرح.

كان يعرف أنّ الوزير يوليه اذنا صاغية، وأنّه مصدر لا غنى عنه. يمضي بعض ضبّاط الوكالة حياتهم كاملة دون أن يكون لهم حقيقة أيّ تأثير أو قوّة على واضعي السّياسة في البلد. يقول لندزي شِرون: «إنّها مهنة صعبة، خاصّة عندما تكون بين امرين. هل تريد البقاء وفياً لمعتقداتك؟ أم هل تريد أن يكون لك تأثير من نوع ما؟ وفي ساعة معيّنة يتوقف الآخرون عن الإستماع إليك». اعتقد هو وغيره من ضبّاط الوكالة أنّ أيمز يخدع نفسه. «إنّهم في الحقيقة يطرحون البديل الأردني. والجميع يعرف أنّ ذلك لن يتحقق. لكنّ بوب كان يقول إنّه يجب أن نحافظ على وجودنا داخل اللعبة. بودّي أنّ أعتقد أنّ لديه فكرة اوسع. إنّه يقول لنفسه، لو استطعنا إقناع الإسرائيليّين أنْ ينهوا الإحتلال، فلربّما سيطلّ علينا السّلام في آخر المطاف».

أمّا بروس رِدل، وهو محلل الوكالة الذي عمل مع أيمز في مبادرة السّلام، فاعتقد أنّ أيمز كان على صواب: «اعتقد بوب بفكرة أنّ القضيّة الفلسطينيّة تشكّل تهديدا للمصالح الوطنيّة. وانطلاقا من ذلك، يجب عمل شيء ما لحلها. كانت المبادرة حلا وسطا بين اولئك الذين يطالبون بأن تطرح امريكا خطة للسّلام،

والآخرين الذين يقولون إنّه يجب عدم إغضاب إسرائيل. كانت خطوة كبيرة إلى الأمام حتى وإنْ اقتصرت على البديل الأردني». ومع ذلك اعتقد البعض أنّ أيمز يشرب عصيره المفضّل، وقال آخرون إنّه: «اصبح يشعر بأنّه أكبر من حجمه حقيقة». ووصل الحدّ إلى أنّ رئيسه المباشر كيسي بدأ ينظر بسلبيّة للتّقارب بين شولتز وأيمز. يذكر رِدل: «إنّ حقيقة كون أيمز اصبح ضمن الحلقة المقرّبة جدّا من شولتز ادّت لخلق بعض التّوتّرات».

بتاريخ 14 اغسطس اخذ شولتز أيمز وعددا آخر من اعضاء فريقه الى كامپ ديفد ليقدموا تقريرا موجزا للرّئيس ريغن حول تقدّم مهمّتهم. تناولوا الغداء مع الرّئيس في غرفة جميلة. كان ريغن يلبس حذاء كاوبوي اسود وبنطلون جينز وقميص پولو احمر داكنا. بعد تناول الغداء، انتقل الجميع إلى غرفة الجلوس حيث قام شولتز بإعطاء الرّئيس موجزا عن مبادرته السّلميّة. ثمّ طلب من أيمز وفليوتس أن يتبادلا الأدوار ويمثلا المبادرة كمسرحيّة يشارك فيها بيغن والملك حسين والرّئيس مبارك، وكيف ستكون ردود فعل هؤلاء القادة. يتذكّر شولتز أنّ «الممثلين أدّيا دورهما بفاعليّة». كانت التّمثيليّة شادّة للأعصاب ولم يُفترض حلّ سريع للمشكلة. اثارت المسرحيّة اهتمام «الممثل» السّابق ريغن، ولربّما كان ذلك هو السّبب الذي جعل شولتز يعرض القضية بهذا الشكل التّمثيلي. كان على ثقة أنّ المبادرة ستكون موضع خلافات حادّة في الرأي، ولذلك فإنّه اراد أن يكون على ثقة بأنّ الرّئيس يؤيّدها، لكي يعرف كيف يختار طريقة عرضها على الأطراف المعنيّة.

بعد ايام قليلة، دعا شولتز السّفير الإسرائيلي موشيه أرنز إلى مكتبه. ودون أنْ يكشف له خطته السّرّيّة، اقترح أنّ مغادرة عرفات للبنان على وشك أنّ تتمّ، وأنّه قد حان الأوان للبدء بعمليّة سلام. اعترض أرنز بنبرة حادّة فقال، «اسمعْ. لقد دمّرنا المنظمة وازلناها من المشهد. وها أنتم الأمريكيّون تلتقطونها من الأرض وتزيلون عنها الغبار وتنفخون فيها روحا مصطنعة».

طمأن أيمز الوزير أنّ ردّ أرنز خطأ. أخبره أنّ عرفات يجمع صفوفه ويقوّي مركزه السّياسي بعد الهزيمة التي حلت به وبرفاقه وإجلائهم من ساحة المعركة

في بيروت. اصرّ أيمز أنّ: «للمنظمة نفس طويل وستنبض بالحياة». تنبّأ بأنّ عرفات سيطوف العواصم العربيّة يجمع من حوله التّأييد والعون السّياسي والمالي، وأنّ موقع المنظمة في تونس سيحرّر عرفات من الإعتماد على دكتاتوريّة \الأسد ويخلصه منها، وأضاف قائلا: «إنّ هزيمة المنظمة قد قوّت من ساعد الجّناح المعتدل، وأنّ هؤلاء القادة المعتدلين الواقعييّن سيغيّرون عرفات ويحوّلونه إلى قائد اكثر فاعليّة على المسرح العالمي». واكثر من ذلك، اعتقد أنّه شعر من خلال اللقاءات في تل أبيب أنّ محللي الموساد اتّفقوا أنّ عرفات يحكم قبضته الآن على المنظمة، وأنّه لن يختفي من المشهد، ولن تختفي المشكلة أيضا.

لم يشكّ شولتز بتحليلات أيمز وتوقعاته، لكنّه لم يزل يعتقد أنّه لا يمكن الإعتماد على المنظمة كلاعب موثوق به. وبالتّأكيد لم يقتنع بأنّ المنظمة أصبحت معتدلة. وهذا هو السّبب الذي جعله يعتقد بضرورة إشراك الملك حسين ليكون في وسط المشهد. لقد وثق شولتز بأيمز واعجِب به، غير أنّ جزء من تفكيره، لم يعرْ تفاؤل أيمز انتباها، بسبب خلفيّته كمستعرب. بتاريخ 24 أغسطس عقد اجتماعا مع فريقه السّرّي ليستمع لتقرير من نك فليوتس عن زيارته للملك حسين. من وجهة نظر شولتز، فإنّ الحصول على تأييد الملك وموافقته على المبادرة امر اساسيّ. غير أنّه تبيّن من خلال تقرير فليوتس، أنّ الملك حذر جدّا إزاء القضية. نعم، هو يحبّ مبادرة الوزير، غير أنّ الوزير فهم من رسالة الملك التي كتبها بعناية فائقة أنّه يفضّل أنْ تتولى الولايات المتّحدة التّفاوض مباشرة مع المنظمة، وتحاول إجلاء الإسرائيليّن عن المناطق المحتلة. ذكر فليوتس،: «كانت الرّسالة معبّرة. الملك راغب جدّا في السّلام، لكنّه يريد حماية ظهره. إدّعى أيمز أنّ الملك حسين يأخذ دائما مثل هذا الموقف في البداية، إلا أنّه يتحوّل في نهاية الأمر».

شعر شولتز أنّ رأسه يدور: «شعرت أيضا أنني ارى التّفاؤل المهني الذي قد يصل إلى حدّ الأمنيات، المعروف به كلّ المستعربين في الحكومة... إنّ كافة المستعربين من المستشارين حولي لا تعجبهم ردود فعلي. ويعتقدون انّني افتقر

إلى الفهم الضّروري لأسبر غور العقليّة العربيّة». كان على حقّ، فالمستعربون ومنهم أيمز يفهمون بشكل جيّد سبب تمنع الملك. كان أيمز هو من يوفّق بين الآراء المختلفة خلال الإجتماعات حول موقف المملكة الهاشميّة. غير أنّه احتفظ هذه المرّة برأيه لنفسه، وحاول أنْ يشجّع الوزير أن يمضي في مبادرته التي يعرف الجميع بأنّها ستكون موضع خلاف.

صُدم شولتز لأنّ أيمز قام بإطلاع عرفات على ملخص مبادرة السّلام حتّى قبل أنْ يطلع عليها ريغن نفسه. قبل ايام من مغادرة بيروت، دفع أيمز مصطفى زين ليطير إلى قبرص من نيويورك وهو يحمل نسخة موجزة من مبادرة السّلام تقع في صفحتين مطبوعتين. كانت بيروت لا تزال تحت الحصار والمطار مغلق. ولذلك كان على زين أن يستقلّ باخرة متوجّهة إلى ميناء جونيه الواقع تحت سيطرة الموارنة. خاف زين أنْ يقوم الجنود الموارنة أو الإسرائيليّون بتفتيش حقائبه عند الوصول. ولذلك، فإنّه اقنع طبيبا مصريّا كان معه على ظهر الباخرة كي يحمل حقيبته اليدويّة وهو يجتاز قسم الجمارك. وصل زين يحمل هويّة مزوّرة على أنّه مستخدم في محطة تلفزيون ABC. نجحت الخطة، واستلم حقيبته بعد أن غادر الطبيب المصري قسم الجمارك. كان أيمز قد أرسل برقيّة الى مدير محطة الوكالة في بيروت كِن هاس لكي يستقبل زين. كان هاس يقود سيارة مرسيدس بيضاء قديمة، وكان الوقت مساء حين اخذ زين إلى فندق الكسندر، الذي كان مركزا للصّحفيّن الأجانب والمحليّن في شرق بيروت.

لاحظ هاس لدى اقتراب سيّارته من مدخل الفندق وجود عدد من رجال الموساد. سلّمه زين الحقيبة وفتح باب السّيّارة واتّجه مسرعا نحوهم قائلا: «مرحبا يا شباب، أنا أعمل مع محطة تلفزيون ABC وبودّي أن اتحدّث معكم». أدار الإسرائيليّون وجوههم وذهبوا في الإتّجاه المعاكس لتحاشي الكلام مع أيّ شخص له علاقة بالإعلام. تعجّب هاس وهو يراقب المشهد، فهو لم يقابل زين من قبل ولكن سمع عنه. ضحك وهو يروي الموقف لأيمز وكيف أنّ زين «طارد رجال الموساد ففروا منه في جونيه!».

عبر زين صباح اليوم التالي الى بيروت الغربيّة تاركا هاس هناك. دفع لسائق

يعمل لنقل مستخدمي محطة تلفزيون ABC مبلغ 500 دولار لينقله عبر الخط الأخضر بين جانبي بيروت الشّرقي تحت سيطرة الموارنة والغربي الواقع تحت سيطرة المسلمين. حين اجتاز منطقة المتحف، وجد في انتظاره ثلة من فدائيي القوّة 17 الذين رافقوه ليقابل عرفات.

ذكر زين لعرفات خلاصة المبادرة وسلمه وثيقة بعنوان «وجهات نظر الولايات المتّحدة حول تسوية سلميّة للمستقبل اشتملت على ما يلي:

1. قيام حكومة استقلال ذاتي في الضّفة الغربيّة وقطاع غزّة لأكثر من مليون مواطن فلسطيني.
2. إلغاء الحكم العسكري والإداري الإسرائيلي، لتحل محله حكومة فلسطينيّة ينتخبها الفلسطينيّون في الضّفة والقطاع.
3. تعتبر الولايات المتّحدة القدس وضواحيها منطقة محتلة، مثلها مثل المناطق المختلفة الأخرى التي سيطرت عليها إسرائيل عام 1967، وتعتبر كلّ التّغييرات التي اجريت على وضعها غير قانونيّة.
4. لا تعترف الولايات المتّحدة بمنظمة التّحرير الفلسطينيّة لأنّها ترفض قبول قرار الأمم المتّحدة رقم 242.

ازعجت الفقرة الأخيرة عرفات، غير أنّ زين دافع عن الفقرات الأخرى باعتبارها خطوة هامّة نحو الأمام. اتّفق معه، رغم علمه بأنّ رفاقه في المنظمة سيحكمون على المبادرة بأنّها لا تحقق الحدّ الأدنى من السّلطة الفلسطينيّة على جزء صغير متبقٍّ من ارض فلسطين. واكثر من ذلك، ادرك عرفات أنّ هزيمة المنظمة في بيروت قد تركت له رأسمالا سياسيّا محدود القدر.

بتاريخ 30 أغسطس استقلّ عرفات سفينة من بيروت ابحرت به إلى تونس. وقف مصطفى زين على رصيف الميناء ليودّع القائد، الذي غادر معه حوالى 8500 مقاتل فلسطيني، تحت مراقبة عيون القنّاصة الإسرائيليّين. شعر حبيب بفرحة غامرة، فجهوده المضنية التي استمرت لثلاثة اشهر أتتْ ثمارها.

اعتقد البعض أنّه ما كان على المنظمة أنْ ترحل من بيروت، وأنّ عرفات

«مسخها» حسب وصف الصّحفي المخضرم ديفد هرست، الذي يعمل في صحيفة مانشستر غارديان، إذ قال: «كانت المنظمة على وشك أنْ تحقق لحظة بطولة حقيقيّة. كان النّاس على استعداد للمضي فيها، لكنّه ضيّعها». اتّفقت الصّحفيّة المستقلة جانت لي ستيفنز، التي كانت تعمل في بيروت، مع ما ذهب إليه هرست. كانت تبلغ من العمر 32 عاما وحضرت إلى بيروت عام 1981 وبدأت تبعث تقاريرها إلى عدد من المجّلات والصّحف التي تصدر بالإنكليزيّة ومنها مورننغ ستار والصّحيفة اليابانيّة اساهي. بعد اجتياح القوّات الإسرائيليّة للبنان نشرت مقالة في مورننغ ستار بعنوان «مسلخ لبنان». وصفت فيها أحوال آلاف المدنيّن من الضّحايا الذين جُرحوا أو اصبحوا معاقين بسبب إصاباتهم، دعك من اولئك الذين فقدوا حياتهم. كما أنّها كتبت تقارير حول حقوق الإنسان بعثت بها إلى منظمة حقوق الإنسان.

وُلدت ستيفنز عام 1951، وكانت حين سافرت إلى بيروت طالبة دكتوراه في جامعة پنسلفانيا. حصلت على زمالة من مؤسسة فُلبرايت، وكانت في وقت سابق زوجة لكاتب مسرحي تونسي اسمه توفيق جبالي. بحلول عام 1982، كانت جانت تتحدّث العربيّة بطلاقة ولا تجد مضاضة للعمل في صفوف اللاجئين الفلسطينيّن في مخيّماتهم، فعاشت معهم وبينهم ذلك الصّيف. وعندما بدأ الإجتياح ووقعت بيروت تحت الحصار الإسرائيلي، رفضت بعناد أنْ تغادر. كانت مؤمنة بقضيّتهم ومؤيّدة لهم. اعتبرها الآخرون صحفيّة «متحيّزة». ولم يتورّع البعض من اتّهامها بأنّها تعمل لصالح وكالة مخابرات تابعة لجهة ما. فمثلا اعتقدت لورين جنكز مراسلة واشنطن پوست أنّها تعمل لحساب وكالة المخابرات المركزيّة. تناولت العشاء معها عدّة مرّات في فندق الكونكورد. «لكنّ جانت صحفيّة شابّة متحمّسة آمنت بقوّة في قضيّة اللاجئين الفلسطينيّن». أمضت الكثير من وقتها في صبرا وشاتيلا وتطوّعت للعمل في مستشفى عكّا ومستشفى غزّة الموجودين داخل المخيّمين. كانت شخصا معروفا لدى الجميع. كان سكّان المخيّمات يسمّونها \الآنسة جانت. وبسبب قوّة رأيها المعلنة اطلق البعض عليها لقب «ضاربة الطبل الصّغيرة».

قالت آن دامرل، وهي مسؤولة السّفارة في الوكالة الأمريكيّة لشؤون التّنمية العالميّة USAID عنها: «إنّ جانت لم تكن مبهرجة تخطف الأنظار... كانت امرأة شابّة جادّة».

وظّفها الرّوائي البريطاني ديفد كورنيل المعروف باسم جون لو كاريه لتكون «دليلا ومترجما وفيلسوفا لا مسؤولا،» عندما جاء إلى بيروت عام 1982. زار لو كاريه بيروت عام 1980 ليجري بحثا عن رواية يكتبها بعنوان «ضاربة الطبل الصّغيرة»، وهو عنوان اختاره الكاتب لعمل جانت في المخيم كمساعدة معلمة. قابل عرفات خلال تلك الزّيارة، كما التقى بضبّاط الموساد في إسرائيل. قابل ستيفنز عندما عاد ثانية عام 1982 ليبحث عن اماكن مناسبة لتصوير فيلم مستوحى من روايته. كتب لو كاريه فيما بعد عن صداقته مع ستيفنز: «نحن جميعا احببنا جانت وبسرعة عيّناها معلمة لنا، وحتّى كبوصلة اخلاقيّة عاطفيّة لنرى حقا الألم والخراب الذي نشهده بأعيننا». اخذت جانت لو كارية إلى صبرا وشاتيلا ليرى بنفسه الظروف التي يعيش فيها النّاس: «لقد كانت حسّاسية جانت هي التي قادتنا ونحن نتجوّل في صبرا وشاتيلا وفي مستشفى غزّة والمخيّمات في الجنوب. لقد كانت قدرة جانت الفائقة للوصول إلى الفقراء ومعاونة المشرّدين هي التي جعلتنا نحسّ بتطلعاتهم، ونرى التزامها الراسخ نحوهم».

اعجِب لو كاريه وستيفنز ببعضهما. احبّ فيها احساسها المرهف وصراحتها اللامتناهية. كان يداعبها مرّة فقال إنّه عندما يدركها العمر الطويل فستكون لها تقوى الامّ تيريزا وبِرّها. لم تعجبها تلك المقارنة. اصبح لهما الموقف نفسه إزاء الصّراع العربي الإسرائيلي. صرّح لصحيفة مورننغ ستار قائلا: «أعتقد أنّ الإسرائيليّن يتصرّفون بشكل مشين. لا يهمّني من يعرف ذلك أو من لا يعرفه».

أجرت جانت مقابلات عدّة مع عرفات. دخلت بتاريخ 8 اغسطس 1982، حوالى ثلاثة اسابيع قبل رحيل المنظمة، موقعه الحصين تحت الأرض، وتوسّلت إليه ألّا يوافق على إجلاء الفدائييّن إلى تونس. طلبت منه الوقوف ومقاتلة الإسرائيليّن. قالت للزّعيم الفدائي: «يجب أنْ تقاوم كما قاومت ستالينغراد النّازييّن. الرأي العالمي معك... يجب ألّا تصدّق كلام إدارة ريغن أو تثق به. أبو

عمّار! النّساء والأطفال يرتعدون فزعا خوفا ممّا سيحدث لهم بعد رحيل الأزواج والآباء والإخوان. من سيحميهنّ واطفالهنّ؟». فهم عرفات توسّلاتها وحاول أن يطيّب خاطرها، لكنّها لم تتمالك نفسها فبدأت بكاءً وعويلا يمزّق القلب. وضع عرفات ذراعيه حولها بينما كانت تضرب برفق على كتفه بقبضة يدها، تتوسّل، «ارجوك، ارجوك!» كان هناك شهود حضروا ذلك الموقف الدّرامي، من بينهم شابّ لبناني عمره 20 عاما اسمه عماد مغنيّة، كان علي حسن سلامة قد جنّده قبل أربع سنوات وجعله في وحدة المخابرات القوة 17. في عام 1982، كان مغنية ضمن الحرس الخاصّ المرافق لعرفات. حين غادر الأخير بيروت، بقي الشّاب اللبناني الشّيعي هناك. لم يمض وقت طويل حتّى انضمّ مغنية إلى ميليشيا سرّية اسمها حركة أمل الإسلاميّة. كان لحضوره ذلك المساء ومشاهدته لما جرى في مقرّ عرفات تأثير بالغ.

في اليوم الذي غادر فيه عرفات بيروت، كان أيمز يجلس مع كاتب خطابات الرّئيس يعدّان ما سيقوله ريغن للشّعب الأمريكي مساء يوم 1 سبتمبر 1982. بدأ الرّئيس بالقول الصّريح: «إنّ الخسارة العسكريّة لمنظمة التّحرير الفلسطينيّة لن تنتقص من تطلعات الشّعب الفلسطيني لحلّ عادل لقضيّته». ثمّ شدّد على مسألة غير قابلة للإختلاف حولها وهي «أنّ الشّعب الفلسطيني القاطن في الضّفة الغربيّة وغزّة يجب أنْ يحصل على استقلال تام لإدارة شؤونه خلال السّنوات الخمس القادمة». ووفقا لاتّفاقيّة كامپ ديفد عام 1978، كان يجب أن تكون هذه الخطوة قد استكملت منذ وقت بعيد. غير أنّه دعا بشكل خاصّ إلى «التّجميد الفوري لبناء المستوطنات الإسرائيليّة في المناطق المحتلة». كان ذلك موضوع خلاف، غير أنّه قال أيضا: «إنّ الولايات المتّحدة لا تؤيّد سياسة الضّمّ وسيطرة إسرائيل الأبديّة على تلك المناطق المحتلة. إنّ مستقبل هذه المناطق النّهائي سيكون موضوعا للمباحثات». اضاف ريغن: «إنّ الولايات المتّحدة تؤمن إيمانا عميقا بأنّ الحكومة المستقلة في الضّفة الغربيّة وغزّة ستكون مرتبطة بالأردن، وأنّ ذلك سيكفل افضل فرصة لسلام دائم وعادل».

استقبل العالم خطاب ريغن بالتّرحاب، باستثناء بيغن العابس، الذي كتب رسالة غاضبة إلى الرّئيس الأمريكي، قال فيها: «الصّديق لا يعمل على إضعاف صديقه، والحليف لا يضع حليفه في موضع الخطر». رفض المبادرة رفضا قاطعا. لكنّ شولتز لم يتزحزح قيد أنملة. كان يعرف أنّ «ما اعلنه ريغن فيه تدمير لأحلام بيغن والمحيطين به... لأنّهم يرون أنّنا سحبنا البساط من تحت اقدامهم». اخبره احد مساعديه، وهو راي سيتز: «كلّ شيء يسير حسب الخطة الموضوعة. الإسرائيليّون سلبيّون جدّا، والعرب مرتبكون، ونحن في موقف دفاعيّ جيّد». غير أنّ ذلك لم يدمْ لوقت طويل.

سرعان ما رمت الحوادث بخطة شولتز الجّيّدة عبر الحائط. في اواخر شهر اغسطس 1982 تمّ انتخاب زعيم الكتائب بشير الجميّل بأقليّة محدودة كرئيس للبنان، وهو كان المرشّح الوحيد أصلاً، والجميع يعرف إنّه مرشح إسرائيل وامريكا سويّة. والحقيقة هي أنّ وزارة الخارجيّة قد وضعت ميزانيّة لمساعدة الجميّل لشراء بعض الأصوات في معركته الإنتخابيّة. قالت الوكالة إنّه لا حاجة لذلك، إلّا أنّ السّفير روبرت دلن استعمل نفوذه لإقناع النّواب المسلمين في البرلمان أنْ يصوّتوا لصالح الجميّل في آخر لحظة. اعترف دلن فيما بعد قائلا: «لقد ساعدنا في انتخاب بشير بطريقة خفيّة. وإذا ما اخذنا بنظر الاعتبار أيّ من الأشخاص الذين كان يمكن أن يترشّح، فإنّ بشير كان الأفضل... كنت التقي به كثيرا وكان شابّا لطيفا، يأتي إلى بيتي في وقت متأخّر مساء فنمضي ساعات في الحديث».

اعتقد الأمريكيّون أنّ الجميّل البالغ من العمر 34 عاما هو الزّعيم المسيحي الوحيد القادر على عقد صفقة مع طوائف السّنة والشّيعة والدّروز. من جهة أخرى، اعتقد الإسرائيليّون أنّه سيوطّد اركان السّيطرة المارونيّة على البلاد وسيعقد معاهدة سلام شامل معهم. وبعد اسبوع من انتخابه طلب بيغن مقابلته، فأحضِرت طائرة مروحيّة إسرائيليّة إلى بيروت نقلت الجميّل إلى منتجع نهاريّا قرب حدود لبنان الجنوبيّة. وجد بشير بيغن وقد استبدّ به الغضب. وبّخه بقسوة

لأنّه لم يعترف لحدّ الآن بأفضال إسرائيل عليه على رؤوس الأشهاد، وطلب منه أن يوقع معاهدة سلام مع إسرائيل حال تنصيبه. خرج بشير من الإجتماع وهو يرتعد غاضبا، وقال لمساعديه إنّ بيغن يريد أن يحوّل لبنان إلى دمية.

عاد إلى بيروت وهو مصمّم على إبعاد نفسه عن الإسرائيليّن، فشجّعه الأمريكيّون على ذلك لاعتقادهم بأنّه لن يحصل على الاعتراف الضّروري ليحكم بلده بفاعليّة، إذا ما رأى العالم العربي أنّه اصبح دمية في يد بيغن. وفي سوريّا قرّر حافظ الأسد بأنّه يجب إيقاف صعود بشير، لأنّ الماروني الشّاب شديد التّقارب مع إسرائيل ومتحالف معها. بتاريخ 14 سبتمبر 1982، وضعت حقيبة تحتوي على قنبلة شديدة الإنفجار في مقر حزب الكتائب. حين وصل بشير ليترأس الإجتماع الأسبوعي لحزبه والذي يُعقد عصر كلّ يوم ثلاثاء، انفجرت القنبلة فقتلته ومعه 26 عنصرا من الكتائب.

كان جنود البحريّة الأمريكيّة وافراد القوّات المتعدّدة الجّنسيّة قد اكملوا انسحابهم من بيروت. اعتقد وزير دفاع إدارة ريغن، كاسپر واينبرغر، أنّه لم تعد هناك حاجة لبقائهم هناك رغم أنّ الأمريكيّن قد وعدوا أنّ قوّاتهم ستبقى لبعض الوقت في بيروت لحماية المدنيّن الفلسطينيّن بعد مغادرة عرفات ورجاله بيروت. في صباح اليوم التّالي لاغتيال الجميّل دخلت القوّات الإسرائيليّة غرب بيروت واقامت نقاط تفتيش. اتّصل بيغن بالقنصل الأمريكي موريس دراپر ليخبره أنّ القوّات الإسرائيليّة قد تحركت «وهدفها المحافظة على الهدوء والحيلولة دون وقوع حوادث تعكّر السّلام». غير أنّه بعد أن عاد دراپر بثلاث ساعات من حضور جنازة الجميّل كان باستطاعته أن يرى أنّ «دخان الحرائق بدأ يرتفع في اجواء المدينة». كانت الدّبابات والمدفعيّة الإسرائيليّة تقصف بعض احياء بيروت الغربيّة. اسرع دراپر إلى مركز القيادة الإسرائيليّة خارج بيروت، فأخبروه بلطف: «كلّ شيء على ما يُرام».

ذكر دراپر فيما بعد: «أخبرني بيغن باعتباري ممثلا لحكومة الولايات المتّحدة أنّ الإسرائيليّن لن يدخلوا قلب بيروت. لقد كذب عليّ وعلى الحكومة الأمريكيّة مئة بالمئة. في اليوم التّالي، واجه شارون وطلب منه تفسيرا عن مخالفة

إتّفاق وقف إطلاق النّار. فردّ شارون: «سيّدي، لقد تغيّرت الظروف». ثمّ اضاف قائلا: «إنّ المنظمة قد ابقت 2500 إرهابيًا في المخيّمات». لم يصدّق درايبر ذلك الإدّعاء ودارت بينهما مناقشة حامية. تُشير نصوص اللقاء مع شارون الذي اصرّ قائلا: «إنّنا تقدّمنا لأنّه يتواجد ما بين 2000 - 3000 إرهابيّ، وعندنا قوائم بأسمائهم».

ردّ درايبر قائلا: «احبّ الإطّلاع على تلك القوائم. إنّ ما تقوله ليس اكثر من كذا وكذا. وإذا كان الأمر كما تدّعي. فإنّ القوّات الحكوميّة اللبنانيّة ستتولى امر هؤلاء».

اجاب شارون بسخرية: «قوّات الحكومة اللبنانيّة! إنّنا نهتمّ بأمورنا الخاصّة بطريقتنا». وهنا تدخّل الجنرال رافائيل إيتان، قائد الأركان فقال: «هل يمكنني أن اذكر شيئا. إنّهم (يقصد الجّيش اللبناني) غير قادرين على انجاز المهمّة. لبنان يوشك أنْ ينفجر في موجة ثأر عاتية لا احد يستطيع إيقافها. تحدّثنا امس مع قادة الكتائب وعن خططهم. ليس عندهم قيادة مركزيّة. إنّهم مأخوذون بفكرة الثأر. يجب أن تعرف العرب جيّدا لكي تفهم ما يعني ذلك... دعني اخبرك أنّ بعض قادتهم جاءوا لزيارتي، وكان باستطاعتي أنْ أرى شرر الإنتقام يتطاير من عيونهم، وستكون هناك مذابح. حدثت بعض اعمال الإنتقام اليوم واستطعنا إيقافها. ومن حسن الحظ لم يكن هناك وجود للجيش اللبناني».

هُلع درايبر حين فهم أنّ الإسرائيليّين يخططون للسّماح للكتائب بدخول المخيّمات الفلسطينيّة. يبدو أنّه حتى الجنرال إيتان كان يعرف بأنّه ستجري «مذابح دامية». اعتقد أنّ ذلك لا يحقق شيئا، وما كان على الجيش الإسرائيلي أن يدخل غرب بيروت اصلا، وما كان يجب أن يُحاصر مخيّمات اللاجئين. لم تشكّل تلك المخيّمات خطرا على الإسرائيليّين. «كان يوجد بعض الرّجال المسلحين في المخيّم»، كما ذكر فيما بعد. «كان هناك حوالى 60-70 رجلا من كبار السّنّ. ربّما كانت عندهم بنادق صيد قديمة. لكنّهم لم يشكّلوا إطلاقا أيّ خطر. الحقيقة هي أنّ المخيّمات كانت منزوعة السّلاح».

حين كان درايبر وشارون يتناقشان في السّاعة 6 مساء يوم الخميس 16

سبتمبر، دخلت وحدة تألفت من 150 عنصرا من الكتائب مخيّمي صبرا وشاتيلا. كانت الوحدة بإمرة إيلي حبيقة(*) قائد مخابرات الكتائب والمسؤول الشّخصي عن أمن الرئيس القتيل. كان معروفا بوحشيّته، وقد وصفه السّفير بوب دلن مرّة بأنّه «قاتل مريض». اشرف حبيقة على المذبحة بالتّنسيق مع ضابط الخط الإسرائيلي الأمامي المتقدّم الذي كان موقعه في الطابق الثاني من بناية تقع مقابل سفارة الكويت. في السّاعة 7 استلم حبيقه رسالة بالرّاديو من احد ضبّاطه داخل المخيّمين. سمع احد الضّباط الإسرائيليّين نص المحادثة. حين سأل ضابط الكتائب حبيقة عمّا يفعل بحوالى 70 امرأة وطفلا تمّ احتجازهم، صرخ حبيقة: «هذه آخر مرّة تسألني فيها مثل هذا السّؤال. أنت تعرف ما يجب عليك أن تفعله». نقل الضّابط الإسرائيلي مباشرة ما دار لقائده البريغادير جنرال أموس يارون، الذي لم يفعل شيئا.

خلال اليومين والليلتين التّاليتين قتل رجال حبيقه ما بين 1000- 2500 شخص، اغلبهم من النّساء والأطفال والشّيوخ الطّاعنين في السّنّ(**). حرست القوّات الإسرائيليّة طوال تلك الفترة حدود مخيّمي صبرا وشاتيلا، كما وفّرت

(*) (قبل جريمة صبرا وشاتيلا، قاد إيلي حبيقة عام 1977 مذبحة في قرية يارين في جنوب لبنان قتل فيها حوالى 80 مدنيّا. عمل خلال الغزو الإسرائيلي كضابط اتّصال مع الموساد. بعد الجريمة استخدمته وكالة المخابرات المركزيّة لتنفيذ خطّة لاغتيال الشّيخ محمد حسين فضل الله في شهر مارس عام 1985. اعتبرت الوكالة الشّيخ مسؤولا عن خطة تفجير مقرّ قوّات المارينز في بيروت في اكتوبر عام 1983 والتي نجم عنها مقتل 241 عسكريّا. جرت محاولة اغتيال الشّيخ باستخدام سيّارة مفخّخة قرب بيته ادّت إلى مقتل عدد من الأبرياء ولم يُصب الشّيخ بأذى. انهت الوكالة علاقتها مع حبيقة إثر ذلك، فانقلب لمساعدة السّوريّين وقاتل ضدّ الميليشيات المسيحيّة بقيادة جعجع وقوّات عون. حصل على عفو عام بعد انتهاء الحرب الأهليّة فأسس حزب الوعد وخاض الإنتخابات عام 1991. تولّى عددا من المناصب الوزاريّة في الفترة الممتدة بين عامي 1992-1996. حين اقام المحامي الماروني اليساري شبلي ملاّط عام 2001 الدّعوى في بلجيكا ضدّ أريل شارون بتهمة ارتكاب جرائم حرب في لبنان، كان حبيقة في طليعة من طُلبتهم المحكمة البلجيكيّة للشّهادة. ابدى استعداده للحضور لكشف الكثير من الأسرار، غير أنّه بتاريخ 24 يناير من عام 2002 قتِل حبيقة نتيجة تفجير سيّارة مفخّخة قرب بيته في حي الحازميّة في ضواحي بيروت. كما قتِل في الإنفجار ثلاثة اشخاص بينهم إثنان من حراسه، وجُرح 6 اشخاص آخرين – المترجم)

(**) أشارت دراسة موثوقة نُشرت عام 2004 أنّ قائمة الضّحايا ضمّت أسماء 2463 شخصا. لكنّه يوجد إضافة إلى ذلك عدد آخر من الأشخاص الذين القي القبض عليهم أو اختطفوا ولم يُعرف لهم أثر.

الأضـواء السّـاطعة ليـلا لمسـاعدة الكتائب في إكمـال مهمّتهم. ومن حين لآخر كانوا يطلقون قذائف ضوئيّة في الجوّ لإنارة منطقة المخيّمين. كانت آن دامارِل تراقب العرض الضّوئي من مقرّ إقامة السّـفير الأمريكي في منطقة اليرزة، وهي قرية جبليّة في جنوب شرق بيروت. كان تبلغ من العمر 44 عاما وتعمل مديرة لمكتب المعونة الأمريكيّة USAID منذ سنتين. وقفت ذلك المساء تراقب إطلاق القنابل الضّوئيّة. «اطلِق عدد كبير من تلك القنابل في الجو»، كما ورد في نصّ رسـالة لها. «كان الضّوء المنبعث منها يميل إلى الصّفرة... نظرت وأنا مأخوذة بجمال المنظر. لا افهم لماذا سحرني ذلك». غير أنّها علمت فيما بعد ماذا كانت تراقب. «كانت تلك الليلة هي التي هاجمت فيها الميليشـيا المسـيحيّة مخيّمات الفلسطينيّين العُزّل في صبرا وشاتيلا، بينما كان الإسرائيليّون يقفون حرسا لمنع أيّ كان مـن الهـروب. قُتِـل المئـات، ربّمـا الآلاف لأنّهـم كانـوا عـزّل وضعفاء وفقراء. نساء واطفال وشيوخ... لا شيء يبرّر هذا الإنتقام».

كما وقف الصّحفي البريطاني روبرت فسك مراسل صحيفة تايمز في شرفة شـقته مسـاء اليوم التّالي عندما بدأت القنابل الضّوئية تُنير سـماء بيروت الغربيّة، فكتـب يقـول: «كانـت الأضواء فضيّـة تميل إلى الإصفرار وكان باسـتطاعتي أن اقرأ كتابا وأنا هناك. كانت بقايا القنابل جميعا تقريبا تتساقط بمهل على مخيّمي صبرا وشاتيلا في منتصف الليل». عمل فسك في بيروت منذ عام 1976. إلتقى مسـاء يوم الجمعة مع لورين جنكنز، مراسـلة صحيفة واشـنطن پوسـت. وقالت له: «إنّ شـيئا ما يجري في المخيّمات. لقد احضر الإسـرائيليّون معهم الكتائب الأشـرار». اتّفقا أنْ يجريا تحقيقهما عن الشّـائعات صباح اليوم التّالي. انضمّت إليهما كرست تفيت، مراسلة راديو النّرويج صباح يوم السّبت الموافق 18 سبتمبر، حيث دخلوا جميعا صبرا وشاتيلا مشيا على الأقدام.

صُـدم الصّحفيّـون المخضرمـون بمـا رأوا. كانت الجّثـث ملقاة في الأزقّة، وشاهدوا مقبرة جماعيّة حُفرت على عجل واستُعملت البلدوزرات لدفع الجثث فيها. كان المئات من القتلى ما زالوا في الشّوارع. استمرّ الصّحفيّون في تجوالهم بين اكوام الجثث ولاحظوا أنّ الجنود الإسرائيليّين يراقبونهم باستعمال المناظير

من بناية عالية مطلة على صبرا وشاتيلا. صرخت جنكنز بجزع وهي تنظر إليهم، «شارون، يا ابن الزّانية!».

حضر راين كروكر البالغ من العمر 34 عاما ويشغل منصب مستشار سياسي في السّفارة، وهو يحمل معه راديو للاتّصال استعمله وبدأ يتنقّل في ارجاء المخيّمين واصفا لزملائه في السّفارة ما وقعت عليه عيناه. أخبرهم أنّه استطاع أن يحصي على الأقلّ 50 جثّة. في نهاية ذلك اليوم، حضرت الصّحفيّة جانت لي ستيفنز إلى الموقع فكتبت: «شاهدت جثث النّساء القتيلات وهن في بيوتهن وقد رُفعت اثوابهن وعُرّين حتى الخصر. كانت سيقانهنّ مفتوحة. شاهدت جثث العديد من الشّباب وقد صفّوا أمام حيطان الأزقّة واعدموا رميا. شاهدت اطفالا وقد تمّ ذبحهم ونساء حوامل بُقرت بطونهنّ ولاحظت أنّ عيونهنّ ما زالت مفتوحة ووجوههن السّوداء وكأنّهنّ يصرخن بفزع صامت. شاهدت اطفالا صغارا وآخرين رُضع وقد طُعنت اجسادهم الغضّة بالسّكاكين والحراب وقطّعت اوصالهم وتمّ جمعها كأكوام القمامة». وقفت ستيفنز مذهولة مصدومة، في حين كان متطوّعو الصّليب الأحمر يجمعون الجثث ويدفنونها في مقابر جماعيّة.

شعرت ستيفنز بغضب طاغ وأمضت ما تبقّى من حياتها القصيرة تحقّق في المذبحة وتوثّق معلوماتها عنها، وكذلك مساعدة من نجا منها. لم تخشَ مواجهة الذين وُجّهت إليهم الإتهامات بالقتل. فبعد اسابيع من المجزرة ترصّدت جوزف حدّاد المعروف بأنّه مسؤول الكتائب، ورأته خارج مقر حزبه في شرق بيروت فتقدّمت منه وهي تصرخ «قاتل، قاتل!» نظر حدّاد في عيني الشّابة الأمريكية ولم يقل شيئا بل اكتفى بعمل شارة الصّليب باصابعه. وكما يتذكّر جون لو كاريه، فإنّ «جانت لم يستطع احد كبحها».

كما أنّ عاملة وكالة العون الأمريكيّة آن دامارل زارت هي الأخرى موقع المذبحة في مخيّمي اللاجئين ذلك اليوم. اخذت تنتقل من مكان لآخر وهي تلتقط الصّور. قابلت نساء نجين من المذبحة وكنّ ينحن ويبكين افراد عائلاتهنّ واقاربهنّ. كتبت تخبر عائلتها في الولايات المتّحدة: «امضيت الأيّام الأربعة الماضية داخل مخيّمي صبرا وشاتيلا في المساعدة على دفن القتلى. وبعد أنْ

اكملنا دفن الجثث الظاهرة، كان علينا أنْ نزيل الجثث التي بدأت تتعفّن تحت السّقوف الكونكريتيّة والأنقاض. اعتقد أنني سأصبح من اتباع كويكرز الذين ينبذون كلّ اشكال العنف. مع حبّي». استخدمت نفوذها لدى السّفارة والسّلطات اللبنانيّة وطلبت إرسال الآلات الثّقيلة والبلدوزرات لحفر الأرض ودفن الضّحايا في مقبرة جماعيّة. ذكرت دامارل: «أردنا أنْ نعرف عدد الأفراد الذين قتِلوا، لكنّ السّلطات اللبنانيّة رفضت الطلب، فتلك السّلطات لا تريد إجراء جرد من هذا النّوع».

أدان العالم شارون والولايات المتّحدة. حين عُرض شريط فيديو لعرفات ليشاهده، اخبر المراسلين بغضب، « فيليب حبيب قد وقّع شخصيّا على تعهّد بحماية المدنيّن الفلسطينيّن الذين يعيشون في المخيّمات». ما قاله الرّجل هو عين الحقيقة، كما اكّد حبيب نفسه: «وقّعت على ورقة تضمن أنّ اولئك النّاس في بيروت الغربيّة سوف لن يلحق بهم الأذى. لقد تلقيت هذه التّأكيدات من بشير ومن الإسرائيليّن، من شارون». اتّفق وزير الخارجيّة شولتز مع ما صرّح به حبيب فقال: «الحقيقة المرّة هي أنّنا مسؤولون جزئيا عن المذبحة». كان مذهولا وغاضبا صباح ذلك اليوم الذي نقل فيه إلى ريغن ما جرى، فسأله إنْ كان تسرّع في سحب المارينز. لم يعرف الرّجلان ماذا يمكنهما أنْ يفعلا، غير أنّ الرّئيس اضاف: «إذا اظهرنا انفسنا بأنّنا لا نستطيع عمل شيء ما في هذا الموقف، فماذا تتوقع الأطراف في الشّرق الأوسط منّا في عمليّة السّلام العربي الإسرائيلي؟».

ذهب شولتز لرؤية أيمز الذي كان سمع الأخبار صباح السّبت بتوقيت واشنطن فأسرع إلى لانغلي ووجد الزملاء وقد صُدموا بشدّة وفي وضع وجوم. كان البعض منهم يبكي. عندما وصلت اخبار المذبحة كانت المحللة كارولن كوفار، التي تعمل مع أيمز في قضايا لبنان، تعمل في نوبة عطلة نهاية الأسبوع. تتذكّر قائلة: «بدأت اتّصل بزملائي وطلبت منهم الحضور ذلك الصّباح. كنت أُداري دموعي لأنّ التّقارير كانت مرعبة. سمعت الكثير من الغضب إزاء إسرائيل ذلك اليوم، لكنّنا اعتقدنا أيضا أنّ امراء الحرب المسيحيّن اظهروا أنّهم يدمّرون

وطنهم أيضا». قال أيمز لشولتز: «نحتاج أنْ نقوم بعمل سريع. إذا لم يكنْ ردّ الإدارة قويّا، فإنّ واشنطن ستخسر أيّ تأييد من العالم العربي حول مبادرة السّلام». أمّا جفري كِمپ، مستشار الأمن القومي، فقال: «يقول الجميع، يا إلهي، يجب أنْ نقوم بشيء ما!».

أمّا وزير الدّفاع كاپ واينبرغر فقد عارض إرسال مشاة البحريّة الأمريكيّة (المارينز) إلى بيروت مدّعيا: «إنّ عمليّة محدودة في بيروت ستكون ذات مخاطر عديدة». غير أنّ ريغن أعلن يوم الاثنين الموافق 20 سبتمبر 1982 أنّه سيرسل المارينز إلى بيروت ثانية ضمن القوّة الدّوليّة المتعدّدة الجّنسيّة. وصلت الوحدة واتّخذت إحدى البنايات القريبة من المطار ثكنة لها. يذكر جفري كِمپ: «بدا واضحا بسرعة أنّ قوّاتنا قد دخلت وسط المستنقع اللبناني».

إنّ اجتياح إسرائيل للبنان كارثة حلّت بكافة الأطراف. أصبح لبنان ساحة حرب لشارون، كما أصبحت صبرا وشاتيلا مذبحة شارون، رغم أنّ الإسرائيليّين لم يقتلوا بأيديهم احدا خلال تلك الأيام الثلاثة المرعبة. ذكر الرّئيس ريغن، «إنّ الإسرائيليّين لم يعملوا شيئا لمنع تنفيذها، ولم يفعلوا شيئا لوقفها». أمّا بيغن فقد انكر (كالعادة) أيّة مسؤوليّة عن المذبحة. غير أنّه في اليوم التّالي تظاهر ما يقارب 300 ألف من الإسرائيليّين في شوارع تل أبيب احتجاجا على المجزرة، وهو الأمر الذي دفع الحكومة لتأليف هيئة مستقلّة للقيام بتحقيق. وبعد اربعة شهور وفي شهر فبراير من عام 1983 توصّلت لجنة كاهان إلى ما يلي:

> إنّ قرار السّماح بدخول الكتائب إلى مخيّمات اللاجئين (دون ذكر اسمهم) قد اتّخذ دون الأخذ بنظر الإعتبار الخطر، الذي كان يجب على من اتّخذ ذلك القرار ونفّذه ملزما أنْ ينظر في النّتائج المحتملة، بأنّ الكتائب سيرتكبون مذابح ويقومون بأعمال ضدّ سكّان المخيّمات».

وضعت اللجنة المذكورة اللوم على عاتق شارون في اتّخاذ ذلك القرار، وتوصّلت إلى رأي «أنّه يتحمّل المسؤوليّة الشّخصيّة». نصحت اللجنة بيغن أنْ ينظر في إقالة وزير الدّفاع في حكومته. رفض شارون في البداية أنْ يستقيل من

منصبه، إلّا أنّه اضطر في النّهاية إلى فعل ذلك. غير أنّ بيغن سمح له أنْ يبقى في الحكومة كوزير بلا حقيبة. وبعد 19 عاما، أصبح رئيسا لوزراء إسرائيل.

تُعتبر مجزرة صبرا وشاتيلا حدثا مأساويّا كبيرا، لكنّها اصبحت معلما تاريخيّا ونقطة تحوّل. اصبحت ترمز إلى الخطأ الفادح الذي ارتكبته إسرائيل بغزو لبنان، الذي اضحى احتلالا استمرّ 18 عاما. لم ينسحب الإسرائيليّون انسحابا كاملا من الجنوب اللبناني حتّى عام 2000. لقد فشل شارون فشلا تامّا في فرض نظام ماروني موالٍ لإسرائيل، وبدلا من ذلك تحوّل لبنان إلى فيتنام إسرائيل، حيث خسرت 675 عسكريّا خلال سنوات احتلالها للبلاد، وقُتل من اللبنانييّن حوالي 18 الف خلال عام 1982 وحده. (لا ذكر لعدد الضّحايا الفلسطينيّين من المقاتلين والمدنيّن - المترجم) عندما اجبِر الإسرائيليّون على الإنسحاب من وسط لبنان عام 1985، اندلعت موجة جديدة من الإقتتال في الحرب الأهليّة، انتهت بهزيمة كاسحة للموارنة. لم يوقع لبنان معاهدة سلام مع إسرائيل، لكنّ الغزو دفع منظمة التّحرير الفلسطينيّة لمغادرة لبنان والإنتقال إلى تونس. والحقيقة هي أنّ الغزو أدّى إلى ظهور عدوّ جديد في لبنان. إنّ الغزو ومذبحة المخيّمات خلقا قوّة لبنانيّة جديدة هي أمل الإسلاميّة، وهي منظمة تحوّلت تدريجيّا إلى ما يُسمى الآن حزب الله. يتذكّر بروس رِدل قائلا: «افترض الإسرائيليّون أنّهم سيغزون لبنان وينصّبون حكومة مارونيّة، وأنّ الشّيعة سوف لن يعنيهم الأمر. غير أنّ الغزو الإسرائيلي هو الذي اطلق العنان للشّيعة».

يعترف الأمين العامّ لحزب الله الشّيخ حسن نصر الله، بأنّه لولا الغزو عام 1982 لما ظهر حزبه للوجود. «لا أعرف إن كان شيء اسمه حزب الله قد يولد. أشكّ في ذلك». لقد رحّب الشّيعة في الجنوب اللبناني بدخول الإسرائيليّن. غير أنّ الإحتلال المتعجرف واستخدام الدّبابات والمدفعيّة قد تسبّب في ايقاع الخسائر الكبيرة في صفوف المدنيّن. كما أنّ عددا كبيرا من الشّيعة قتلوا داخل مخيّمي صبرا وشاتيلا. صرّح لندزي شِرون قائلا: «لا اعتقد أنّ هناك أيّ فهم واقعي لما كان يجري في جنوب لبنان. إنّنا نركّز على الفلسطينيّن والموارنة، لكنّني اتذكّر حينها أنّ دور الشّيعة كان يتزايد بمرور الوقت. لم يفكّر احد بما سيأتي المستقبل به، وكان صعبا حقّا أن تجد من يسمعك حين تذكر شيئا من

هذا القبيل. لا احد يريد أن يسمع بأنّ الشّيعة لم يكونوا راضين بذلك الإحتلال المهين والواقع المرير».

كان اسـم احد الشّـيعة الغاضبين عماد مغنية البالغ من العمر عشـرين عاما ومن اعضاء الحماية الخاصّة لعرفات، وممّن كانوا حاضرين عندما قابلته جانت لي سـتيفنز في موقعه الحصين تحت الأرض وتوسّـلت إليه باكية ألّا يغادر قبل شـهر تقريبا. إزداد حقد مغنية وغضبه حين شـاهد بأمّ عينيه ما جرى في صبرا وشـاتيلا. لقـد كان الضّحايـا الأبريـاء مـن جيرانـه. وحـدث أنْ قامـت في ذلك الخريـف موجـة مـن الإغتيالات والإختطاف طالت بعض الشّـخصيّات الشّـيعيّة والسّنيّة اليساريّة، وهو الأمر الذي زاد من غضبه. كما اختفى المئات من النّاس غير المسيحيّين السّاكنين في المناطق المسيحيّة على يد عصابات تابعة للقوّات المسـيحيّة اليمينيّـة. وجـرى العديد من حـوادث القتل في غرب بيروت ومناطق اخرى من العاصمة التي كان من المفترض أنْ تكون تحت مراقبة قوّات المارينز الأمريكيّة وحمايتها. وهناك تقرير يقول إنّ مغنية قد اصيب بجروح ذلك الخريف عندما صبّت مدافع القوّات المسيحيّة المارونيّة حممها على منطقته في ضاحية بيروت الجنوبيّة. جرى ذلك القصف تحت سمع وبصر القوّات المتعدّدة الجنسيّة للمحافظة على السّلام، التي لزمت مواقعها دون حراك في مخيّمها القريب. وفي رأي مغنية والشّـيعة الآخرين أنّ الأمريكيّين وغيرهم من قوّات «حفظ السّـلام» شريك متواطئ له يد بنشاطات القوّات اللبنانيّة المسيحيّة.

عـرف عمـاد مغنيـة أنّ المئـات مـن المتطوّعيـن من افراد الحـرس الثوري الإيرانـي قـد وصلـوا ذلك الخريف إلى وادي البقاع اللبناني القريب من الحدود السّـوريّة. كان هؤلاء الشّـيعة مؤيدين لثورة آية الله الخميني. بتاريخ 21 نوفمبر 1982 قامـت وحـدة مـن ذلـك الحرس بالتّحالف مع الشّـيعة اللبنانيّين المحليّين الذين يعتبرون انفسـهم اعضاء في حركة أمل الإسـلاميّة بمهاجمة موقع للجيش فـي مدينـة بعلبـك التّاريخيّة. قـام عناصر الجيش اللبنانـي الضّعيف المتواجدون في ثكنة الشّـيخ عبد الله بتسـليمها للمهاجمين دون قتال. اصبحت تلك الثكنة مركـزا للحـرس الثـوري الإيراني خـلال الحقبة القادمة. وجديـر بالذكر أنّ احد اعضـاء الحـرس الثـوري مـن الذيـن خدموا فيهـا اصبح فيما بعد رئيسـا لإيران،

وهـو محمـود أحمـدي نجاد. بعد فترة قليلة التحق مغنية بحامية الحرس الثوري ليعـرض خدماتـه. ويُشـاع أنّه قابل هناك مسـؤول المخابـرات في الحرس، وهو شـاب عمره 25 عاما اسـمه علي رضا أصغري. وكانت تلك بداية شـراكة طويلة بين الرّجلين منذرة بالسّوء. وظّف عسكري مغنية وكانت مهمّته جمع المعلومات عن الغربيّين المقيمين في بيروت.

كان أيمز مشغولا جدّا بالأزمة اللبنانيّة، غير أنّ عمله كمحلل ومدير لقسم الشّـرق الأدنى وجنوب آسـيا تطلّب منه أن يتابع التّطورات خارج العالم العربي أيضا. بتاريخ 1 اكتوبر عام 1982 كتب رسالة لابنته الثانية أدريَن فقال: «سأتوجّه الليلة إلى الهند ثمّ پاكسـتان ولن أعود قبل يوم 19 اكتوبر. إنّ مشـاكل الشّـرق الأوسـط تشـغلني طوال الوقت وتحاصرني بحيث ابدو وكأنّي غريب حتّى في بيتـي». كانـت البنـت فـي السّـنة الأولى فـي الكليّة. أمّا ابنته الكبـرى كاثرن فقد تزوّجت حديثا. كما أنّه لا يزال يذهب بصحبة ولديه إلى مباريات كرة السّلة التي يلعبها فريق مدرستهم الثانويّة في رُستن، ويذهب معهما في عطلة نهاية الأسبوع ليلعبا كرة القدم. أمّا بنتاه الأخريان فكانتا في مرحلة المراهقة. كان يقف ويبدي الملاحظات حول شخصيّة ولديه وكيف يجب أنْ يلعبا في المباريات. قال عنه ابنه أندرو فيما بعد: «كان مدرّبي ومثالي... لقد علّمني كلّ شيء وأنا انتقل من مرحلة عمريّة إلى مرحلة اخرى». وقالت عنه بناته بأنّه: «رقيق وعطوف ومحب جداً».

توقّـف أيمـز بتاريـخ 11 ينايـر عام 1983 في البيت الأبيض حوالى السّـاعة 3:00 بعد الظهر ليتحدّث طويلا مع نائب رئيس مجلس الأمن القومي لشـؤون الشّـرق الأوسـط جفـري كمـپ. كتب كمـپ في مذكّراته بأنّ أيمـز اعطاه تقييما إيجابيّا جدّا عن وضع سياستنا حول الشّرق الأوسط، إلّا أنّ هناك متابعة ليست كافية وتفتقر إلى الفاعليّة. كانت تلك المحادثة هي ما دفع كمپ أن يكتب مذكّرة اخرى إلى مدير مكتب الرّئيس ريغن القاضي وليم كلارك يحثّه فيها على إيجاد سبل بديلة.

عاد ثانية يوم الثلاثاء المصادف 22 فبراير ليقدّم للرئيس تقريرا مطوّلا عن منظمة التّحرير الفلسطينيّة. كتب القاضي كلارك بعد ذلك رسالة شكر قال فيها: «يودّ الرّئيس ريغن أنْ يمتدحك لمراجعتك الواضحة المعالم لموضوع هامّ ومعقّد». ثمّ اضاف معبّرا عن امتنانه شخصيّا: «لمساعدتك المستمرّة لمبادرة الرّئيس بتاريخ 1 سبتمبر. إنّنا لا شكّ سندعوك في القريب العاجل ونحن ندفع إلى الأمام هذه السّياسة الخارجيّة الحيويّة». دُعي أيمز للحضور إلى البيت الأبيض بعد اقلّ من شهر ليقدّم للرّئيس تقريرا يوم الثلاثاء المصادف 17 مارس. كان الموضوع حول إمكانيّة مهادنة الإسرائيليّين وحتّى التّملق لهم لكي ينسحبوا من لبنان، وكذلك أيضا ليتوقفوا عن بناء المستوطنات في الضّفة الغربيّة. كان ريغن على وشك أنْ يقابل وزير الخارجيّة الإسرائيلي إسحق شَمير، وقال إنّه لا يريده: «أنْ يغادر دون أنْ يسمع منّي مرّة اخرى عن قلقنا المتزايد حول سياسة إسرائيل الإستيطانيّة، وعن تصميمنا لتحقيق مبادرتنا التي اعلنّاها بتاريخ 1 سبتمبر». استمع شَمير لما قاله ريغن إلا أنّ حكومة الليكود لم تفعل شيئا. اصبح هذا الموقف اصدق خلاصة للعلاقة الثنائيّة بين البلدين.

ورغم ذلك حاول أيمز أنْ «يكون اكثر تفاؤلا في الوصول إلى حلّ، عمّا كان عليه وضعه يوم الأحد». كتب رسالة إلى والدته وهو على وشك أن يغادر إلى باريس في زيارة عمل لمدة اربعة أيّام خلال عطلة الأسبوع التّالي: «لست مرتاحا ولكنّي سأحاول لدى عودتي أنْ احضر إلى فيلادلفيا في زيارة قصيرة». لم يستطع أنْ يقوم بتلك الزّيارة الموعودة لأمّه.

كان وضعه يتفاوت بين الإحباط والإبتهاج. لم تكن الأخبار القادمة من لبنان تبشّر بالخير. بدا في مطلع تلك السّنة وكأن الحرب الأهليّة ستُستأنف، غير أنّه من جهة أخرى شعر بالقوّة لأنّه أصبح من السّهل عليه أنْ يتّصل بالبيت الأبيض مباشرة. وفجأة صدر الأمر بتقييم حسن ادائه على المستوى العالي. بتاريخ 13 يناير 1983 اصدر كيسي «شهادة الخدمة المتميّزة» في الوكالة، وهذه هي اعلى تشريف يمكن أن يحظى به ضابط كبير في المخابرات. قدّم كيسي بنفسه شهادة التّقدير لأيمز بغلافها الجلدي المزخرف في احتفال عُقد ذلك الشّهر. جاءت شهادة التّقدير هذه مرفقة بمبلغ كبير من المال قدره 20 ألف دولار هديّة. غير

أنّ البعض من الزملاء اعتقدوا أنّ آرائه غير واقعيّة على الإطلاق. فمثلا، ذكر كلير جورج وهو ضابط قديم في قسم العمليّات عيّنه كيسي ليكون حلقة اتّصال بين الوكالة والكونغرس، قائلا: «قابلت أيمز في مطلع عام 1983 فأسمعني خطبة لخمس أو ستّ دقائق عن كيفيّة حلّ الصّراع العربي الإسرائيلي. اعتقدت أنّها تتميّز بالسّذاجة لا غير».

الفصل الثاني عشر

قدَر بيروت

اصدر الرّوائي البريطاني المعروف ديفد كورونول المسمّى جون لو كاريه، فـي مطلـع شـهر مارس عـام 1983 رواية جديدة بعنوان ضاربـة الطّبل الصّغيرة. يفضّـل أيمـز عـادة الكتـب غيـر القصصيّـة، غيـر أنّـه عـرف أنّ روايـة لـو كاريه الجاسوسـيّة تـدور فـي بيروت، ومـن الطبيعي أنّ هذا قد اثـار اهتمامه. تتحدّث الرّواية عن تجنيد الموساد لامرأة بريطانيّة شابّة كي تقوم بدور في عمليّة اغتيال إرهابـي فلسـطيني. اخبـر أيمـز زميله في مجلس الأمـن القومي جفري كمپ أنّه أحـبّ تلـك الرّوايـة. لـم يكـن يعـرف أنّ لو كاريـه قد اقتبس عنـوان روايته عن صحفيّة امريكيّة شابّة اسمها جانت لي ستيفنز، يعرفها الفلسطينيّون في مخيّمات اللاجئين باسم «ضاربة الطّبل الصّغيرة».

قرّر أيمز في اواخر ذلك الشّهر وبعد قليل من مقابلة الرّئيس ريغن بتاريخ 17 مارس، أنْ يقوم برحلة إلى الشّرق الأوسط الذي غاب عنه لمدة تقرب من خمس سنوات، وكانت تلك برأيه فترة طويلة. اخبر بوب لايتن، احد مساعديه، أنّه يشعر بأنّه اصبح بعيدا عن امور المنطقة ويحتاج العودة إليها. قرّر في البداية أنْ تقتصر زيارته على الإتصال بزملائه من الموساد في تل أبيب، غير أنّه اضاف بيروت في الدّقائق الأخيرة من عمليّة التّخطيط لتلك الزّيارة. كان يودّ أنْ يلتقي بزين الذي رجع من شقته في نيويورك بشكل مؤقت لإنجاز بعض اعماله. كان زين يريد من أيمز أنْ يلتقي برئيس لبنان الجديد، امين الجميّل وهو اخ الرّئيس الذي انتُخب واغتيل بشير الجميّل. كان امين لا يشـبه بشـير في أيّ شـيء. لقد املت إسرائيل إرادتها بأنْ يحلّ امين محلّ بشير وقالوا: «نحن الإسرائيليّين نريد أنْ تكون هذه الفترة هي فترة عائلة الجميّل».

تناول أيمز في يوم الجمعة الموافق 15 ابريل وقبل يوم من سـفره، الغداء مع صديقه القديم سام وايمن، الذي كان وقتها مسؤولا عن مكتب شبه الجزيرة

العربيّة في قسم العمليّات. أخبره أنّه قد اضاف بيروت إلى جدول زيارته وادّعى أنّه ليس عنده حقيقة أيّ عمل رسمي هناك. سأل صديقه وايمن إنْ كان يعتقد بأنّه يجب أنْ يذهب إلى محطّة الوكالة في السّفارة. اجاب وايمن: «طبعا، وإلّا فانّهم سيعتقدون أنّك تزدريهم».

كما اجرى حديثا مطوّلا مع لندزي شِرون. اختلفا في الرأي، لكنّ ذلك لم يُفسد للودّ قضيّة. كان نقاشا جادّا حول السّياسة. ذكر شِرون: «إنّ خلافنا قائم على اعتقادي بأنّ لديّ شكّ كبير جدّا حول مبادرة ريغن ولم اشعر أنّها ستخطو خطوة واحدة لأنّها كانت (الحلّ الأردني) بشكل مقنّع». اعتقد شِرون أنّ أيمز لا يمانع في النّقاش الجاد: «اخبرته أنّه يقوم بمهمة حمقاء، يحاول فيها دفع الحلّ الأردني الذي يعرف جيّدا أنّه لا يمكن تحقيقه. كان رأيه منقسما حول ذلك بين الشّكّ واليقين. ولكن حين استعيد تلك المحادثة، فإنّي اشعر بالأسف لأنّها جرت». حسب قوله. كانت مشاعر أيمز موزّعة بين حذره الطّبيعي ورغبته أن يرى الأشياء تتحوّل نحو الأفضل. اخبر والدته هلن منذ وقت ليس ببعيد: «نعتقد أنّه باستطاعتنا أنْ نخفّف من حدّة الخلافات هناك. لكنّنا في كلّ مرّة نصطدم بجدار عالٍ».

كما عبّر عن هذا الموقف المتشائم لزميله بروس رِدل، وهو الشّابّ الذي رافقه في مهمّته لمقابلة فريق الموساد في تل ابيب. يتذكّر رِدل قائلا: «اخبرني انّه حذّر بأنّنا والإسرائيليّين لا نستطيع فرض دولة مارونيّة على الشّيعة. شعر بأنّه يجب أنْ يذهب إلى بيروت لعله يجد فكرة يمكن أنْ تغيّر واقع الحال. غير أنّه كان على علم تامّ بخطورة الموقف. لقد ناقشنا حقيقة أنّ الأمور اصبحت خطرة جدّا(*)». ذكر أنّه قبل عدة اشهر اقتحمت سيّارة مفخّخة سجن ومركز للتّحقيق يعود للجيش الإسرائيلي في مدينة صور، وكانت تلك هي المرّة الثانية التي تُستعمل فيها مثل هذه الوسيلة لمهاجمة المباني في لبنان. قُتل في ذلك الإنفجار 75 إسرائيليّا مع عدد من السّجناء الفلسطينيّين واللبنانيّين. إدّعت

(*) حين نزل بروس رِدل من الطائرة المروحيّة اثناء زيارة لبيروت في السّنة التّالية، كان أوّل سؤال طُرح عليه، وبدا كأنّه سؤال روتيني، إنْ كان يرغب في اقتناء بندقية أم يكتفي بمسدّس يحمله اثناء تلك الزّيارة.

إسـرائيل أنّ الإنفجار نجم عن خلل عرضي في انابيب الغاز، لكنّ الوكالة كان لهـا رأي آخـر(*). أمّـا المـرّة الأولـى فكانت عندمـا انفجرت سـيّارة نقل صغيرة فدمّـرت السّـفارة العراقيّـة في بيـروت. إعتبر رِدل تلك الحوادث علامات شـرّ، واتّفق أيمز معه.

توقّف قبل مغادرة لانغلي في قسم العمليّات ليودّع بعض الأشخاص هناك. إلتقى بشخص يعرفه منذ ايّام التّدريب الأولى في «المزرعة»، وهو تومس براهن الذي كان وقتها ضابط استخبارات لدى كيسي مباشرة. كان هو وأيمز قد عملا معـا فـي السّـنوات الأخيـرة فـي إيران. فقد عُيّن في طهـران في اواخر 1978 مع بدء قيام الثّورة. وقبل أنْ يتوجّه إلى طهران اخبره أيمز أنْ «يلتزم الحذر». ألقي القبـض علـى براهـن فـي شـهر فبراير مـن عام 1979 واسـيئت معاملتـه من قبل الحرس الثوري الإيراني الذي اسـتولى بشـكل مؤقت على السّـفارة في طهران. ومنـذ ذلـك الوقـت، وحيـن يذهب احدهما في مهمة، يوصيـه الآخر بأنْ «يلتزم الحذر». اصبحت تلك العبارة شعارا بين الصّديقين. يتذكّر براهن قائلا: «عندما جاء بوب ليودّعني كانت آخر كلماتي له بأنْ يلتزم الحذر».

هاتـف والدتـه ذلـك المسـاء ليخبرهـا أنّه سـيطير إلى بيروت صبـاح اليوم التّالي. تعود الذكرى لهلن أيمز فتقول: «تلك كانت طريقته لكي يجعلك تشعر أنّ كلّ شيء على ما يُرام». ودّع أولاده صباح يوم السّبت واخبر اندرو كعادته، «اهتم بأمك». وحدث أنّ الولد البالغ من العمر 14 عاما كان حينذاك غاضبا من والده لسبب ما. لم يتذكّر فيما بعد لماذا، فأدار اندرو وجهه وترك المكان صامتا. تجاهل الأب الصّبور سـلوك ولده المراهق، فمشـى صوب السّـيارة حيث كانت إيفون في الإنتظار. اخذته إلى المطار وكانت تعرف أنّه سيتغيّب لمدة اسبوعين واعتبرتها زيارة قصيرة لبيروت. لا شيء يمكن أن يُقارن بالإيفادات التي تستمرّ شهرين أو ثلاثة إلى بيروت أو اليمن. كانت تبدو زيارة اعتياديّة.

حفل عام 1983 ببعض التّغيّرات. فقد تزوّجت ابنته الكبرى كاثرن البالغة من

(*) من النّادر أنْ يكتب رئيس المحطة برقيّة طويلة لتقييم الموقف، غير أنّ هذا النّوع من البرقيّات الطويلة التي نادرا ما تُرسل إلى لانغلي، والتي يُشار اليها في قسم الشّرق الأوسط AARDWOLF، ربّما إشارة إلى ذلك الحيوان الأفريقي الذي يأكل النّمل الأبيض.

العمر 21 عاما، وبنته الثانية ادرين البالغة من العمر 19 عاما اكملت سنتها الأولى في كليّة كنكورديا الكاثوليكيّة في اوستن عاصمة ولاية تكسس. أمّا بقيّة الأولاد وهم كرستن 18 عاما وكرن 15 واندرو 14 والأصغر كفن 11 عاما، فما زالوا يعيشون مع امّهم. كان بوب يواظب القيام بواجباته الأسريّة ويحضر نشاطات أولاده المدرسيّة والإجتماعيّة. «كان مدرّبا لفريق كرة السّلة في المدرسة،» كما تتذكّر إيفون. «كان معنا دائما خلال عطل نهاية الأسبوع. وكان يذهب مع الأولاد دائما حين يذهبون للعب كرة القدم... يغادر البيت في الصّباح في الوقت المعيّن ويعود إلى البيت وقت العشاء. كان الحجر الأساس في بناء العائلة».

وصل بوب بيروت صباح يوم الأحد 17 ابريل ونزل في غرفة رقم 409، وهي غرفته المفضّلة في فندق مَيفلاور قرب شارع الحمرا في رأس بيروت. كان الطقس غائما ممطرا، وهو طقس اعتيادي للبنان في فصل الرّبيع. ذكرت سوزن مورغن، ضابطة الوكالة التي كانت تزور لبنان في ذلك الأسبوع، أنّه كان سعيدا للغاية بعودته. كانت متخصّصة في الإقتصاد وانضمّت حديثا للوكالة كمحللة في الشّؤون اللبنانيّة. وصلت إلى بيروت بتاريخ 11 ابريل في مهمّة قصيرة، وكانت تلك هي مهمّتها الأولى خارج الولايات المتّحدة. كان أيمز مدير دائرتها، غير أنّها لم تكن على علم بمجيئه إلى بيروت وتقول كنت، «سعيدة أنْ أراه هناك». مساء يوم وصوله التقى معها ومع عدد آخر من ضبّاط الوكالة في حفلة عشاء في شقة جيمس ومونيك لويس. شغل جيمس منصب نائب مدير المحطة، وكانت زوجته الفيتناميّة الأصل قد اجتازت لتوّها «تحقيق الأمن» لتعمل سكرتيرة في الوكالة، وكان يوم الاثنين سيكون اوّل يوم لها للعمل في محطة الوكالة.

يشير دليل الهاتف في السّفارة أنّ جيمس لويس البالغ من العمر 39 عاما يعمل كضابط سياسي، وكان ذلك طبعا غطاء له. عمل في السّابق في وحدة ذوي القبّعات الخضراء، وكان من افضل العاملين في قسم العمليّات من حيث الخبرة والتّجربة. كان يجيد الفرنسيّة والفيتناميّة، وكانت مهارته في العربيّة اكثر من جيّدة، وله تاريخ مهني حافل. قاد خلال سنوات خدمته في فيتنام وحدة من القوّات الخاصّة الفيتناميّة المسمّاة Montagnard، وقاد مرّة اخرى وحدة من القوّات الخاصّة للقيام بمهام المراقبة عميقا داخل حدود فيتنام الشّماليّة.

حصل على 4 ميداليات برونزيّة وميدالية القلب الأرجواني وميدالية القوّة الجويّة وصليب الشّجاعة. انضمّ لويس للوكالة عام 1970 وتمّ إرساله الى جنوب شرق آسيا. جُرح جيمس بتاريخ 11 ابريل 1975، عشيّة سقوط سايغون، بنار قذيفة صاروخيّة والقت قوّات العدو القبض عليه. امضى ستة شهور معتقلا في سجن فيتنام الشّماليّة الشّهير سونتاي، حيث ضُرب وعُذِب. واطلِق سراحه في اواخر اكتوبر عام 1975، فكان بذلك آخر اسير امريكي يعود إلى بلاده، ويكون قد امضى حوالى 13 عاما يقاتل الفيتناميّين الشّماليّن في معركة خاسرة.

اعطته الوكالة لدى عودته إجازة دراسيّة لمدة عامين لدراسة الأدب الفرنسي في جامعة جورج واشنطن. حصل على الشّهادة الجامعيّة عام 1977، قابل بعدها مونيك نيوت وتزوّجها. وهي شابّة فيتناميّة جميلة درست الصّيدلة في سويسرا وفرنسا. انتقل الزّوجان الى شيكاغو حيث التحق جيمس بالجامعة لدراسة العربيّة. بحلول عام 1982، وجدت الوكالة أنّ مهارته في اللغة العربيّة كافية لتعيينه في بيروت. كانوا هناك بحاجة الى شخص ذي مهارات عسكريّة. وصل لويس بيروت بتاريخ 13 اغسطس 1982. كانت المدينة تئن تحت الحصار الإسرائيلي، وكان عرفات على وشك أنْ يغادرها بصحبة فدائيّي المنظمة.

اضحت بيروت حقيقة قطعة من جهنّم، ولم يكن ذلك الشّعور مقصورا على اللبنانيّن فقط. في صيف عام 1982 تمّ اختطاف ديفد دوج رئيس الجامعة الأمريكيّة من قبل حركة أمل الإسلاميّة التي احتفظت به لمدّة عام. بحلول خريف ذلك العام كان هناك المزيد من التّفجيرات كلّ اسبوع تقريبا. كان الإسرائيليّون يقومون بتسيير دوريّات عسكريّة في بعض احياء المدينة، وكان التّوتّر قائما بين الإسرائيليّن وقوّات حفظ السّلام الدّوليّة. في إحدى الحوادث اوقف ضابط مشاة البحريّة الأمريكي چالز جونز رتلا من ثلاث دبّابات اسرائيليّة. سحب مسدّسه وصوّبه نحو الدّبابة الأولى وامر قائدها أنْ يعود ادراجه. قال الضابط جونز: «لن تمرّوا!» وفي اليوم التّالي اصبحت تلك الصّيحة عنوان الصّحف ومنها نيويورك تايمز وغيرها من صحف العالم، كدليل على تزايد العداوة بين الحليفين.

تواجدت المليشيات في كلّ مكان. في اليوم الأوّل لوصوله الى بيروت،

فتح عريف المارينز چالز ألن لايت شبّاك غرفة نومه في السّفارة فشاهد مجموعة من الأشخاص تهاجم رجلا وبدأوا يضربونه ضربا مبرّحا حتّى سقط جثة هامدة فتركوه ملقى على رصيف الشّارع.. أمّا العريف روبرت مكموف البالغ من العمر 21 عاما فكان يمشي في احد الشّوارع في مطلع شهر ابريل عام 1983 حين انفجرت سيّارة والقته على الأرض، غير أنّه لم يُصب بأذى. بتاريخ 14 ابريل اطلق احدهم قذيفة صاروخيّة نحو السّفارة فانفجرت في احد المكاتب الفارغة ولم يُصب أحد بأذى.

رغم أنّ بيروت بدت مدينة خطيرة، إلّا أنّ الوكالة سمحت لمونيك زوجة جم لويس أنْ تلتحق به. وكما ذكرنا، كان مقرّرا أنْ تبدأ أوّل يوم عمل لها كسكرتيرة في السّفارة يوم الاثنين الموافق 18 ابريل. ولذلك فإنّ دعوة العشاء التي اقيمت مساء الأحد لتكريم أيمز كانت في الوقت نفسه احتفالا ببدء مونيك عملها الجديد. تعلم جم الطبخ الفرنسي والفيتنامي خلال سنوات تواجده في جنوب شرق آسيا، وامضى ذلك اليوم ساعات طويلة في اعداد الأكلات لتلك المناسبة. دعا جم كافّة افراد المحطة للعشاء في شقته التي تبعد مسافة عشر دقائق مشيا من السّفارة، إذ كان الجميع يشكّلون حلقة قويّة من الأصدقاء.

كان من بين المدعوّين كنيث هاس الذي بدا صغير السّن ليتولى إدارة محطة الوكالة في بيروت. حصل على الدّكتوراه في الفلسفة عندما كان عمره 25 عاما ودرّس في جامعة هاملاين في مدينة سَينت پول عاصمة ولاية منيسوتا لبضع سنوات. انضمّ للوكالة في مطلع السّبعينات واعتُبِر حينها نجما صاعدا. وُلد ابنه الكس عام 1975 وبعد اشهر قليلة تمّ تعيين كنيث في منصب خارج الولايات المتّحدة. عمل في طهران لبضع سنوات قبل قيام الثورة ونُقل ليكون مدير محطة الوكالة في عُمان. غير أنّ زوجته كانت قلقة ورأت في قبوله تلك المسؤوليّات خطرا عليها وعلى طفلها فازداد التّوتر بينما وقاد ذلك الى الطّلاق عام 1980. في شهر يوليو عام 1982 تزوّج كنيث ثانية من ألسن وغادر بعد ايّام الى بيروت، والتحقت به في شهر اكتوبر، رغم الفوضى وغياب الأمن. اعتقدتْ أنّ الحياة في بيروت مغامرة مبهجة. قالت فيما بعد: «كانت الحياة الإجتماعيّة لطيفة. فالخدم يقومون بواجبات البيت والطبخ وهناك سائق خاصّ واشياء كثيرة متوفّرة. كانت

اللقاءات والحفلات تجري كلّ ليلة تقريبا. وبسبب الوضع القائم وقرب الشّقق من السّفارة، كان هناك تقارب قويّ وبدا الأمر وكأنّ الجميع افراد في عائلة واحدة، حيث تصبح شديد القرب من الآخرين بسرعة عجيبة».

كان بين الحضور الى دعوة العشاء في شقة لويس ضابط آخر اسمه فرانك جونسن البالغ من العمر 46 والذي اصطحب زوجته آرلت البالغة من العمر 23 عاما. وهي فلسطينيّة تحمل الجنسيّة الإسرائيليّة لأنّها مولودة في النّاصرة. رغم أنّ العربيّة هي لغتها الأمّ فقد كانت تلك هي اوّل مرّة تعيش فيها داخل بلد عربي. قالت عن زوجها فرانك: «هو حبّي الأوّل. هو زوجي، بل عالمي بكامله». عرفت أنّه ضابط متمرّس في الوكالة حين التقيا في ناد للعب البولنغ في ألمانيا. تواعدا لمدة ستة اشهر ثمّ تزوّجا بتاريخ 26 اكتوبر 1982. وصلا الى بيروت في شهر يناير 1983، ولأسباب امنيّة كانا يتنقلان في بيروت داخل سيّارة مصفحة. ورغم ذلك فقد احبّت آرلت بيروت لأنّها، «تحدّثتُ العربيّة وشعرتُ أنّ لبنان بلدي أيضا.» كان فرانك قد عمل تحت إمرة كنيث هاس في إيران قبل قيام الثورة، فنشأت بينهما صداقة قويّة وكان فرانك يتطلع للعمل معه ثانية. كان من بين الحضور امرأة تبلغ من العمر 30 عاما واسمها دبرا هكسن. كانت وصلت بيروت قبل ايّام في مهمّة خاصّة قصيرة تمتدّ لفترة ستة اسابيع. قال عنها كلير جورج رئيسها المباشر حينئذ «كانت امرأة محبوبة». نشأت دبرا في كولورادو وعمل والدها طيّارا في احدى شركات الطيران. كانت تجيد الفرنسيّة، وقالت عنها ألسن هاس: «إنّها امرأة شابّة مليئة بالحيويّة». احبت هكسن عملها في بيروت وشعرت بأهمّيته بحيث أنّها طلبت حديثا تمديد مدّة إيفادها.

كانت فِلس فراسي من بين الحضور، وهي عازبة تبلغ من العمر 44 عاما، واعتبرت وظيفتها كسكرتيرة في الوكالة مثل مغامرة حياتيّة تنتقل فيها من مكان لآخر. ارسلتها الوكالة الى مناطق مختلفة من العالم كان من بينها أنّها امضت عدّة سنوات في جنوب فيتنام. كانت احد آخر اربعة اشخاص تمّ اجلائهم من منطقة دلتا ميكونغ عندما سقطت سايغون في شهر ابريل عام 1975.

كان بين الحضور ايضا وليم شيل البالغ من العمر 59 عاما، وكان ضابطا خدم في وحدة ذوي القبّعات الخضراء من القوّات الخاصّة. مثله مثل جم لويس،

انضمّ للوكالة بعد انتهاء خدمته العسكريّة في جنوب شرقي آسيا. كانت له قدرة ممتازة في اجراء التّحقيقات لأنّه من خلال اسلوب رقيق وخبرة طويلة يستطيع بيسر الحصول على المعلومات من المخبرين الأجانب. عُيّن في واشنطن غير أنّه سافر مرّات عديدة في مهام قصيرة الأمد بتكليف من الوكالة. كان يعمل متعاقدا، وفي السّنوات الأخيرة عرفت عائلته أنّه امضى الكثير من الوقت في امريكا الوسطى يعمل مع الكونترا المعادية للحكومة في نيكاراغوا. اعتقد ابنه أنّه كان هناك، لكنّ الحقيقة هي أنّه وصل في شهر ابريل الماضي الى بيروت.

اعجب الضّيوف بأصناف الطعام الفيتناميّة الشّهيّة التي اعدّها جم لويس لكنّه بمرور الوقت بدأ حديث الضّيوف يتأزّم تدريجيّا. تتذكّر آرلت جونستن، «كان العشاء لذيذا للغاية، الّا أنّ الجوّ بدا متوتّرا للغاية. كان هناك شيء يدور لكنّني لم افهمه»، كما كتبت في مذكّراتها. «يبدو أنّ هذا الضّيف (تقصد أيمز) عنده اخبار سيّئة، ولربّما هو غير سعيد بما كانوا يقومون به... اصبح الجوّ كئيبا». تذكّرت ألسن هاس، زوجة رئيس المحطة فقالت: «الزّوار الكبار القادمون من واشنطن عادة ما تكون لديهم نظرة تختلف عمّا يراه العاملون في بيروت». وطبعا عنت هنا أيمز، فقد كان هو الزّائر الكبير القادم من واشنطن، فالكلّ يعرف أنّه يلتقي بشكل متكرّر بوزير الخارجيّة شولتز والرّئيس ريغن.

كما أنّ كافة ضبّاط الوكالة الموجودين يعرفون أنّه هو الذي اعدّ مبادرة ريغن للسّلام وكتبها. كانت خطته ومثاليته وطبيعته المتفائلة هي التي اقنعت الرّئيس أنْ يخاطر بسمعته خلف خطّة تطالب اسرائيل بالإنسحاب من المناطق المحتلة التي سيطرت عليها في حرب عام 1967 مقابل سلام شامل مع جيرانها العرب. وطبعا أبدى الضّبّاط ذوو الخبرة وهم كن هاس وجم لويس وفرانك جونستن تحفّظهم حول مدى فاعليّة اقناع امراء الحرب اللبنانيّن لكي يلعبوا دورا عقلانيّا في الخطّة. وماذا عن الإسرائيليّين الذين كانوا يجوبون خلسة شوارع ضواحي بيروت؟ هل تعتقد إدارة ريغن حقّا أنّه بإمكانها أنْ تخرجهم من لبنان؟ احتدّ النّقاش حول هذه المسائل وغيرها من التي وردت في المبادرة.

جلس ضيوف لويس في ضيق وزاد تناول المشروبات حتّى ساعة متأخرة من الليل الوضع تأزّماً. وحين غادروا إلى بيوتهم شعروا أنّ الأمسية لم تجرِ

بمثـل مـا توقـع الجميـع. عاد أيمز الى غرفته فـي فندق مَيفلاور وهو على قناعة بأنّه في اليوم التّالي يجب أنْ ينظر الى واقع بيروت عام 1983 كما يراه الزملاء بأعينهـم. كان لقـاء صعبـا، فبيـروت لم تعـد هي المدينة التـي خبرها في اواخر السّتينيات واوائل السّبعينيات.

عندما استلقى فرانك جونستن في فراشه، سمعته زوجته يتمتم. سألته:

ماذا تقول؟

إنّني أناجيه.

من؟

الرّب. عندما اموت سأناجيه كثيرا واخبره....

قاطعته قائلة:

رجاء، لا تتكلم بهذا الشّكل!

لا يهمّكِ! ستكونين ارملة جميلة ثريّة.

لم تنم آرلت جيّدا في تلك الليلة، خاصّة عندما سمعت صوت بومة تنعق، ففـي النّاصـرة تُعتبر البوم علامة شـؤم. اسـتيقظت صباح اليـوم التّالي الذي كان غائما ويبدو أنّ السّماء ستمطر. استيقظ فرانك قبلها ولبس ملابسه وكان مستعدّا للذهاب للعمل. جاء إلى الفراش وقبّلها، فسألته إن كان يفضّل أنْ تحضر للسّفارة ليتناولا الغداء معا، غير أنّها اضافت، «أم ترجع للبيت وسأعدّ لك غداء لذيذا؟» وافق على اقتراحها وقبّلها ثانية. وعندما اوشـك أنْ يغلق الباب خلفه، صاحت به بدلال، «تعال وقبّلني مرّة اخرى!».

في الوقت الذي جرت فيه حفلة العشاء في شقة لويس، كانت هناك حفلة اخرى في شقة إليزابث بتلر، وهي مسؤولة منظمة المساعدات الأمريكيّة USAID في السّفارة. دعت إليزابث افراد مشاة البحرية العاملين كحرس في السّفارة من الذين لم يكونوا في مناوبة تلك الليلة. اكلوا المعكرونة وشـربوا، وحين عادوا الى مبنى السّفارة كان الوقت حوالى الواحدة بعد منتصف الليل. وكالعادة كانوا صاخبين. فتح الحارس المناوب البوّابة لهم فاسـتقلوا المصعد إلى شـققهم في الطابـق السّـادس. كان لـدى العريـف روبرت مكماوفعددا مـن قناني البيرة في

شقته. حين القى بنفسه على الفراش بكامل ملابسه، كان يعرف أنّه يجب أنْ ينهض في السّابعة ليقف حرسا عند البوّابة. ولمّا جاء إلى البوّابة في الوقت المحدّد كان وجهه ممتقعاً. اعترف لزميله الكابتن روني تومولو بأنّه لا يزال سكرانا وعرض عليه مبلغ 300 ليرة لبنانيّة إذا وافق أن يأخذ مكانه في المناوبة. اوشك تومولو على قبول العرض المالي المغري، لكنّه تذكّر بأنّه يجب عليه اوّلا أن يوقظ عريف الحرس المسؤول ليحصل على موافقته. اخبر بوبي، «لا اعتقد أنّ ذلك ممكن الآن، وسأنظر في القضيّة فيما بعد».

كان بوبي مكماوف ثاني أصغر الحراس سنّا في السّفارة وربّما كان اكثر الجميع شعبيّة. كان من عادته أنّ يقدّم ورودا حمراء لكل السّكرتيرات الجميلات في السّفارة صباح كلّ يوم. ورغم أنّه لم يكن مرتاحا ذلك الصّباح، لكنّه لم يتخلف عن عادته. نشأ مكماوف في منطقة مناسس في ولاية فرجينيا، وامضى والده أرل فنسنت مكماوف معظم حياته في وكالة المخابرات. كان يعرف في ذلك الرّبيع أنّ والديه على وشك الطلاق، وهو أمر اقلقه. في الأسابيع الأخيرة استعمل هاتف السّفارة المجّاني ليتّصل بأسرته. كان بشكل خاصّ قريبا من اخته الصّغرى تريسا آن مكماوف. في الحقيقة اتّصل بها مساء اليوم الماضي وتحدّثا عن طلاق والديهما الوشيك. كان يودّ أن يعرف إن كانت اخته منزعجة ليخفّف عنها. سمعتْ خلال حديثهما ضجيجا واصوات عالية فسألته، «ما هذه الضّوضاء؟» اخبرها أنّها اصوات انفجارات تسبقها عادة اضواء ساطعة في السّماء. كانت في الثانية عشرة من عمرها، وليست لديها فكرة عمّا يجري في لبنان. سألته عن الحياة في بيروت، فقال لها بإيجاز إنّه قابل فيها «أناسا لطيفين». كانت تلك هي آخر مكالمة بينهما.

في السّاعة السّابعة صباحا من يوم 18 ابريل 1983، مشى بوب أيمز المسافة القصيرة التي تفصل ما بين فندق مَيفلاور وفندق الكومودور لتناول الفطور مع مصطفى زين في جناحه. كان يوما غائما مظلما حيث غطّت الغيوم السّوداء الماطرة القادمة من البحر الأبيض المتوسط سماء المدينة. قفز الصّديقان من مقعديهما لحظة عندما تعالت اصوات الرّعد المصحوب بالبرق. ذكر بوب

لصديقه المناقشة الحامية التي دارت بينه وبين مدير المحطة كن هاس والآخرين في الليلة الماضية. ثمّ فتح حقيبته واخرج منها مذكّرة طلب من مصطفى أنْ يقرأها. كانت موجزا غير رسميّ لخطة سلام مقترحة بين إسرائيل ولبنان. تنصّ المبادرة على انسحاب القوّات الإسرائيليّة تدريجيّا من جنوب لبنان. ذكر لزين أنّ هناك مشكلة في تطبيق الاتّفاقيّة، وهي أنّ الإسرائيليّين سينسحبون إذا قامت سوريا بسحب قوّاتها من لبنان. كان كلاهما يعرف أنّ سوريا ليست طرفا في الاتّفاقيّة وأنّها غير ملزمة بتطبيق بنودها. سأل بوب زين عن رأيه.

ابتسم زين في مكر وقال: «إنّ الورق سميك جدّا، ولعله من النّاحية العمليّة سيكون افضل لو أنّ الخطة قد طُبِعت على ورق اخفّ. فأجاب بوب، «اعرف أنّ شيئا ما سيحدث، وإنّي اكره أنْ اسال، ومع ذلك فإنّي اريد أنْ اعرف السبب».

ردّ مصطفى، «حتّى يسهل على احد ما أنْ يمسح مؤخّرته بها فلا تؤذيه!»

ضحك بوب ضحكة عالية وكاد يغصّ بالشّاي الذي يشربه. إنّ مصطفى كان على حقّ برأيه عن تلك الإتّفاقيّة. فأي معاهدة للسّلام مع اسرائيل امر غير مرغوب فيه إطلاقا بين المواطنين اللبنانيّين الشّيعة والسّنة على السّواء، لأنّهم ينظرون «للكيان الصّهيوني» باعتباره قاعدة استعمارية غربيّة متقدّمة. لقد وقّع رئيس مصر انور السّادات معاهدة سلام مع اسرائيل فكان اغتياله عام 1981 عبرة لمن يعتبر بين كلّ السّياسيّين العرب في كلّ مكان، بأنّهم يخاطرون بأنْ يلقوا المصير نفسه إذا اقدموا على خطوة مماثلة. وعليه اتّفق أيمز مع زين بأنّ معاهدة سلام بين إسرائيل ولبنان لن تقوم لها قائمة. ونظرا لأنّ السّوريّن ليسوا طرفا في تلك الإتفاقيّة فمن غير المتوقع أن تغادر القوّات الإسرائيليّة الجنوب اللبناني. إنّ ما يدعى معاهدة سلام ستسقط خلال عام لأنّ اسرائيل وسوريا ستستمرّان في احتلال اجزاء من لبنان للسّنوات القادمة.

بعد أنْ أكمل تناول فطوره، مشى أيمز متّجها نحو السّفارة في شارع الكورنيش، وقد استغرقه الطريق 10–15 دقيقة. حاول زين اقناعه بأنْ يتناولا طعام الغداء سويّة في احد مطاعمه المفضّلة، وهو (مطعم العجمي). لم يكنْ بوب متأكّدا، وهو ما دعى زين أنْ يتوقف في بهو السّفارة بدقائق قليلة بعد

منتصف النّهار ليتّصل به. تحدّثا قليلا وكرّر زين دعوته واخبره أن يأتي بهاس وأيّ من زملائه الآخرين الى المطعم. قال بوب إنّهم مشغولون جدّا ومن الأفضل أن يلتقيا على العشاء. غادر زين البهو حوالى 12:40. عندما اجتاز البوّابة كان العريف بوبي مكماوف لا يزال في مناوبته.

أمضى أيمز ذلك الصّباح مع كافّة ضبّاط الوكالة في الطابق الخامس من مبنى السّفارة. تحوّل الإجتماع إلى حديث «نزاع». انزعج رئيس المحطة كن هاس إلى حدّ أنّه اتّصل بزوجته ليخبرها أنّه يفضّل أنْ يتناولا غدائهما في وقت مبكّر. كانت ألسن قد وصلت وقتها المبنى. ورغم أنّها لم تكن مستخدمة هناك، إلّا أنّها تعوّدت أن تحضر كلّ يوم وتقدّم المساعدة لكل من يحتاج اليها. كانت تحضر معها غداء لكي يتناولاه معا. فرغا ذلك اليوم من تناول غدائهما في السّاعة 12:45. اخرجت ألسن تفاحة وبدأت بتقشيرها، إلّا أنّ كن اوقفها وقال لها، «إنّني منزعج جدّا. ضعي التّفاحة جانبا». اخبرها أنّه يحتاج أنْ يكتب برقيّة طويلة إلى واشنطن، تُسمّى عادة AARDWOLF. «لا ادري كيف يمكنني عمل ذلك. اذهبي أنت الى الشّقة وخذي غفوة وسأعود حال انتهائي من الكتابة».

حين قامت ألسن واقفة وهي تستعدّ للخروج، امسك كن بوجهها بكلتا يديه وقبّلها «قبلة رومانسيّة طويلة». تركت الغرفة وتوقفت في طريقها عند مكتب الحجز لتسأل عن بطاقتي السّفر إلى قبرص في الأسبوع القادم، غير أنّ المكتب كان مغلقا خلال فترة الغداء. ارادت أن تحصل على إبرة تلقيح ضد الكوليرا، غير أنّ العيادة كانت مغلقة أيضا. نزلت إلى الدّور التّحتاني وتوجّهت إلى مخزن التّموين، الذي كان هو الآخر مغلقا لنفس السّبب. تركت مبنى السّفارة في السّاعة 12:55 وركبت سيّارتها متّجهة إلى الشّقة. سمعت حوالى السّاعة 1:04 دويّ انفجار، فقالت لنفسها، «ذلك انفجار هائل».

في الطابق الأوّل حيث توجد الكافتيريا، جلست آن دامارل مع بوب بيرسن يتناولان الغداء. عمل الاثنان معا في مكتب المعونة الأمريكي. طلبت آن سَلطة. كان مقرّرا لها أنْ تنتقل بعد اسبوع من بيروت إلى مركز جديد في سريلانكا

وكان زميلها يودّ معرفة من تحبّ أنْ يدعو لحفلة توديعها. طلبا الغداء وجلسا في ركن قصي من الكافتيريا خلف الأعمدة الكونكريتيّة التي تسند السّقف.

جلس على طاولة اخرى قريبة من مدخل الكافتيريا وليم ماكنتاير مدير مكتب المعونة يتناول الغداء مع جانت لي ستيفنز، الصّحفيّة المستقلة. ورغم كونها حاملا شرعت في اجراء تحقيق موسّع حول مذبحة صبرا وشاتيلا. اخبرت قبل يومين صديقها فرانكلن لامب أنّها تعمل جاهدة للحصول على وثائق تُدين الجنرال أريل شارون باقتراف جرائم حرب. وصلت إلى مبنى السّفارة حوالى السّاعة 12:45 وكان مقرّرا لها أنْ تطير في اليوم التّالي إلى قبرص لتقابل صديقها الكاتب جون لو كارية.

حضر إلى مبنى السّفارة في وقت متأخّر من ذلك الصّباح صحفي آخر هو ديفد إغناطيوس وهو ابن پول إغناطيوس الوزير السّابق للبحريّة الأمريكيّة، الذي كان يعمل حينها مدير إدارة صحيفة واشنطن پوست. أمّا ديفد نفسه فكان يعمل مراسلا لصحيفة وول ستريت جورنال. كان مراسلا جيّدا واقام شبكة واسعة من العلاقات في بيروت. اجرى في صباح 18 ابريل مقابلة في الطّابق السّادس مع ضابط في دائرة التّعاون العسكري. اراد إغناطيوس أن يعرف المزيد عن جهود الحكومة الأمريكيّة لإعادة بناء الجيش اللبناني وتحديث سلاحه. قدّم له الضّابط المذكور تقريرا إيجابيّا بأنّ الجيش اللبناني، «سيكون قوّة وطنيّة للتّوفيق بين مختلف الطوائف السّنيّة والشّيعيّة والمسيحيّة». فكّر ديفد لحظة وهو يدوّن في دفتر ملاحظاته، «يكاد الأمر يصبح حقيقة، ولربّما ستعود الأوقات الجميلة... لقد تعرّضت المدينة للقصف والتّدمير طوال ثماني سنوات من الحرب الأهليّة التي تبعها الإجتياح الإسرائيلي ثمّ مذابح الفلسطينيّن في صبرا وشاتيلا. أمّا الآن فقد وصلت الولايات المتّحدة الى مرحلة تكون فيها حامية للبنان». انتهت المقابلة فاصطحبت السّكرتيرة ربكّا مكّالوف الصّحفي إغنَيشس الى الطابق الأوّل. كانت تبلغ من العمر 24 عاما وقد تزوّجت حديثا. استرجع إغناطيوس جواز سفره الذي احتفظ به حرس الباب الخارجي لدى دخوله للمبنى. لاحظ إغناطيوس العريف بوبي مكماوف وهو يقف عند البوّابة شامخ القامة وكانت الأزرار النّحاسيّة على بدلته الزّرقاء الدّاكنة اللون تشعّ تحت اشعّة الشّمس، وكذلك بنطاله الأزرق

الغامق الذي يزيّنه شريط احمر برّاق. غادر الصّحفي السّفارة ومشى باتّجاه التّلة التي يقع عليها فندقه في رأس بيروت.

عاد العريف بوبي مكماوف إلى موقع واجبه في السّاعة 12:55 ليتولى حراسة البّوابة بعد فترة غداء قصيرة. حاول أن يقنع العريف ماسينغل ليحلّ محلّه لفترة ما بعد الظهر، غير أنّ الأخير اعتذر قائلا إنّه متعب، ثمّ استقلّ المصعد نحو شقته في الطابق السّادس. أمّا السّكرتيرة ربكّا مكّالوفالتي رافقت إغناطيوس الى الطابق الأوّل فقد توقفت عند طاولة الحرس وتبادلت النّكات مع بوبي. قالت وهي تداعبه بأنّها ستُخبر زوجها بأنّ العريف الشّابّ يتغزّل بها. اطلقا ضحكة عالية وتذكّرت أنّها يجب أنْ تعود الى مكتبها فغادرت حوالى السّاعة 1:00. ودّعت بوب ثمّ استقلت المصعد إلى الطابق السّادس.

مرّت في تلك اللحظات سيّارة من نوع GMC بجانب انقاض فندق السان جورج في شارع الكورنيش. لبس الشّاب الشّيعي اللبناني الذي يقودها سترة جلديّة سوداء. وكان القسم الخلفي من السيّارة يحمل ما يقارب الفي رطلا من المواد الشّديدة الإنفجار وقد غُطيّت بمشمّع. كانت السّيارة تنوء بثقلها وتسير ببطء. وعلى مسافة من السّفارة وقفت على جانب الطّريق سيّارة مرسيدس خضراء اللون. حين اجتازت سيّارة الـ GMC تلك السّيارة انار السّائق اضوائها إشارة للمضيّ. ابطأ سائق سيّارة الـ GMC حركة سيّارته ثمّ انعطف بها من الطريق العام نحو مدخل السّفارة وضغط بقوّة على دوّاسة الوقود فانطلقت بأقصى سرعتها. تجاوزت سيّارة السّفير السّوداء المصفحة المركونة هناك وقفزت الرّصيف باتّجاه المدخل الزّجاجي فصدمته وهشّمته واستقرّت في البهو قرب طاولة الحرس لحظة ثمّ انفجرت في الدّقيقة 1:04 محدثة دويّا هائلا دمّر البناية التي يشبه لونها لون سمك السّلمون.

كان السّفير الأمريكي روبرت دِلن واقفا جنب طاولته في الطّابق الثامن يتحدّث مع مصرفي الماني حول بعض استثمارات لمؤسّسة جي بي مورغن. وحين كان يستمع لذلك الشّخص، كان في الوقت نفسه يحاول أن يلبس قميصا

احمر يلبسه عادة رجال البحريّة، لأنّه ينوي أن يذهب للهرولة ساعة. وفي اللحظة التي ادخل فيها رأسه في فتحة القميص تطايرت شظايا زجاج شبّاك مكتبه. لم يسمع قطّ صوت الإنفجار ولربّما حمى القميص وجهه من تلك الشّظايا. غير أنّه وجد نفسه وقد القي به على الأرض وقد دُفن حتّى منتصفه بالطّوب والأنقاض التي تساقطت من السّقف. بدأ يسعل ويشتم، حيث امتلأ المكتب بالدّخان والغبار. اعتقد أنّ قذيفة صاروخيّة قد اصابت مكتبه، فقال: «اللعنة، لقد أفلت منهم قبل اربعة ايام، لكنّهم هذه المرّة ادركوني». شعر للحظة أنّه فقد ساقيه.

مرّ روبرت پوف معاون السّفير، بالتجربة نفسها في الغرفة المجاورة. لقد انفجر زجاج الشّبابيك نحو الدّاخل، لكنّه لا هو ولا السكرتيرة لم يُدفنا تحت الأنقاض. وبعد دقيقة أو دقيقتين، شقّ پوف طريقه بين الأنقاض نحو مكتب السّفير. فوجد انّ احد الجدران قد تهاوى عليه. ومن الغريب أنّ العلم الأمريكي المثبّت قرب طاولته قد سقط عليه وغطّاه. استعان بسارية العلم ليرفع الأنقاض عن ساقيه. ادرك السّفير حينها أنّه لا يزال يحتفظ بساقيه وأنّه يستطيع الوقوف عليهما. كان الغبار والخدوش والدّماء تغطّي جسمه، لكنّه شعر أنّه ما زال حيّا. ثمّ غطّت المكان سحابة كثيفة من الغاز المسيل للدّموع نتيجة انفجار القنابل التي يحتفظ بها الحرس في الطابق السّادس لحالات الطوارئ. ثمّ هبّت بعض النّسمات عبر الشّبابيك المفتوحة الآن واجلت تلك السّحابة، فاستطاعوا أن يروا بعضهم بعضا ويتنفّسوا بسهولة. حاولوا أنْ يتوجّهوا نحو المصعد فأدركوا أنه قد تداعى إلى الأسفل، فاستداروا نحو سلم مفتوح في نهاية المبنى. حين وصلوا إلى الطابق الثاني، ادركوا حجم الضّرر الذي احدثه الإنفجار. شاهد السّفير اوّلا ماري لي ما كنتاير، زوجة مسؤول وكالة العون الأمريكيّة مطروحة على الأرض وهي مصابة بجرح عميق فوق عينيها الدّامعتين. لم تقل شيئا حين رفعها بين ذراعيه وذهب بها نحو الشّباك حيث قام بتسليمها لشخص كان يقف على مصعد لفرقة الإنقاذ.

حين استدار همس احدهم باذنه أنّ، «بل ماكنتاير قد قُتل. شاهدت جثمانه قبل دقائق.» قُتل ماكنتاير وهو يتناول الغداء مع الصّحفيّة جانت لي ستيفنز،

التي فقدت حياتها، هي الأخرى(*). حين وصل السّفير اخيرا إلى مقدّمة المبنى لاحظ أنّ القسم الأوسط من المبنى قد دُمّر وتهاوى. ادرك دِلِن بأنّه لا بُدّ أنّ عدد الضّحايا كبير وأنّ البعض لا يزال حيّا تحت الأنقاض. وبعد مرور خمس ساعات، تمكّن آخر شخص حيّ أنّ يغادر انقاض السّفارة.

اعتقدت آن دامارِل أنها قُتلت. كانت موظفة في مؤسّسة العون الأمريكيّة وجلست تتناول الغداء مع بوب پيرس. سمعتِ انفجارا مدويّا واحسّت بحرارة عالية اعقبهما سكون مطلق. شعرت آن أنّ برقا صعقها. «فكّرتُ فقلتُ لنفسي حسنا. إنّني ميّتة، سأنحني نحو بوب لأخبره بذلك». لكنّه لم يكن لديها صوت ولم تقدر على الحركة. شعرت وكأنّ فيلا قد سحقها. ثمّ وجدت نفسها اخيرا وقد حُملت على نقّالة وسمعت ضجيج النّاس من حولها وهم يصرخون «يلله، يلله!» لمحها السّفير فقال في نفسه «تبدو وكأنّها قطعة همبرغر». ادار وجهه لأنّه لم يطقْ النّظر إليها وهي على تلك الحال. اعتقد أنّها لنْ تنجو. التقطت لها صورا شعاعيّة في مستشفى الجامعة الأمريكيّة فوجِد أنّ 19 عظمة من عظامها قد كُسرت. شملت الكسور حوضها وذراعيها وساقيها وبعض اصابعها وعظم التّرقوة. كما انغرز العديد من شظايا الزّجاج المتطاير في رقبتها وذراعيها. ومع ذلك، فقد نجت من الموت بأعجوبة.

ترك العريف چالز لايت زميله بوبي مكماوف في موقعه عند البوّابة وعاد لمكتبه في الطابق الأول، ثمّ حصل الإنفجار فقذفه عبر الحاجز إلى الغرفة المجاورة. وبعد ستّ أو سبع دقائق بدأ يسمع صوت بعض الذخيرة التي بدت تتفجّر بفعل الحرارة العالية. نظر إلى الطّاولة المصنوعة من خشب البلوط والتي تحوّلت إلى ما يشبه عيدان تنظيف الأسنان. حين وقف على قدميه لاحظ أنّ جزمته قد خُلعت من قدميه، وحين شقّ طريقه إلى مقدمة البهو سمع صراخ امرأة احرق الإنفجار بشرة وجهها وكانت تنزف بشكل غزير. وضع ذراعه حولها

(*) طار جون لو كاريه من قبرص بعد يومين. نزل في فندق الكومودور وذهب لزيارة حطام مبنى السّفارة. كتب بتاريخ 29 ابريل رسالة مؤثرة الى والدي جانت عبّر فيها عن عزائه لفقدها. وعندما اكمِل فيلم ضاربة الطّبل الصّغيرة في شهر اكتوبر عام 1984، أهداه لها واعترف بدورها في انجاز ذلك الفيلم الوثائقي.

محاولا تطمينها. لم يعرف في البداية كيف يجد طريقه خارج ذلك الدّمار. ولكن لمح حين زال الدّخان والغبار ضوء الشّمس من خلال فتحة في الرّكام. ونظرا لأنّه رأى لهيبا من تلك الفتحة حملها وتحرك في الاتجاه المعاكس للنّجاة. عندما نظر إلى ما كان سابقا مدخل السّيّارات الدّائري امام السّفارة، لاحظ بعض الأطراف البشريّة مبعثرة هنا وهناك. عاد لايت إلى المرأة وقادها نحو مؤخّرة البهو حيث كان الماء ينزل من الطّوابق العليا. وقفا تحت الماء المتساقط وكأنّهما يغتسلان حتّى تبللت ملابسهما تماما. وهنا ادركا أنّه بالإمكان أنْ يزحفا عبر اللهب في تلك الفتحة، ويصلا إلى الطّريق قرب سيّارة كانت تحترق.

توقّف العريف لايت لينظر ما في داخلها خاصّة وأنّه عرف تلك السّيّارة لأنّها سيّارة حماية السّفير. كان السّاق الملقى على إسفلت الطّريق يعود للعريف مارك سالازار احد اعضاء فريق حماية السّفير، الذي كان ما يزال موجودا داخلها. ذكر لايت في شهادته، «حين نظرت إليه كانت عيناه قد جحظتا،» وكان صديقه المقرّب حارس الأمن اللبناني محمد الكردي يحاول جاهدا أن يسحب سالازار باستعمال عمود حديدي يمتلك نهاية معقوفة، لكن تلك المحاولات فشلت. ربّما كان سالازار قد فارق الحياة، إلّا أنْ صديقه سحب مسدسه واطلق طلقة في رأسه لكي يضع حدّا لعذابه. عاد لايت إلى المرأة المصابة التي اخرجها من الرّكام. كانت موظفة لبنانيّة تعمل في القنصليّة. قادها إلى الشّارع واوقف سيّارة تاكسي، غير أنّ السّائق اوقف سيّارته وارجعها للخلف، ممّا حدا بلايت أنْ يصوّب مسدسه نحو السّائق المذعور الذي اوقف السّيّارة. فتح لايت الباب الخلفي واجلس المرأة المصابة في المقعد ورمى بعض النّقود إلى السّائق، وهو يصرخ، «إلى المستشفى!».

حين التفت، شاهد لايت لأوّل مرّة منظر ركام السّفارة كما بدا من الشّارع العام. كانت توجد جثث محترقة على جانب الطريق ووسطه، وتحوّلت السّيّارات القريبة من مدخل السّفارة حينها إلى كتل حديديّة ملتوية ومحترقة. والدّبابة اللبنانيّة التي كانت تقف على الجانب الآخر من الكورنيش امام السّفارة قد سقطت في البحر، وكان باستطاعته أن يرى عددا من الجثث الطّافية. كانت الطّوابق الثّمانية في منتصف المبنى قد تهاوت إلى الأرض. ثمّ تذكّر أنّه بعد أنْ

استعاد رشده بعد الإنفجار سمع «صوت انهيار الركام».

ركض لايت حول ركام المبنى يبحث عن النّاجين. وجد أنّ قسم القنصليّة قد تحوّل إلى كومة من الأنقاض. لاحظ وجود امرأة رمتها قوّة الإنفجار فانغرس ساقاها داخل مجرّات طاولة في مكتبها. كانت لا تزال حيّة. ساعده رجال اسعاف الهلال الأحمر في الوصول إليها فاستطاع سحبها. كان ساقاها قد كُسرتا وكانت ذراعها اليمنى قد انفصلت عن جسمها، إلّا أنّها ما زالت معلقة بالجسم من خلال بقايا الجلد. اصيبت بجرح عميق في صدرها وانغرز الكثير من قطع الزّجاج في وجهها. رفعها لايت بين ذراعيه. «كانت تتحدّث إلى شخص ما باللهجة اللبنانيّة. حملتها حتّى فارقت الحياة. وضعتها على الأرض وذهبت داخل ما تبقى من مبنى السّفارة».

حين سمع ديفد إغناطيوس مراسل وول ستريت جورنال صوت الإنفجار، كان على مسافة ميل واحد تقريبا من مبنى السّفارة. «إهتزّت الشّبابيك وشعرت كأنّني في دوّامة، شيء يشبه الخوف ولكن يتجاوزه». ركض نحو اسفل التّلة باتّجاه شارع الكورنيش. في الوقت الذي وصل فيه المكان، كان رجال المارينز يحاولون عزل المبنى. انجلى الدّخان فشاهد إغناطيوس جثمانا معلقا لرجل بملابس الرّياضة وقد انحشرت ساقاه بين بقايا طابقين متهاويين.

شاهد العريف لايت نفس المنظر المرعب وامضى السّاعات الأربع القادمة يساعد رجال اسعاف الهلال الأحمر، وقد تدلّى من حبل لرفع الجثة من بين الأنقاض. كانت جثة المتعاقد الخاصّ وليم شيل البالغ من العمر 59 عاما والذي خدم في فرقة ذوي القبّعات الخضراء، وهو المحقق الذي عمل لصالح الوكالة في مناطق مختلفة من العالم. لم يوفّق لايت في محاولته. «كانت ساقاه محصورتين بين قطعتين كبيرتين من الكونكريت. لم يتمّ سحب جثة الضّحية إلا بعد مرور يومين أو ثلاثة. كانت الجثة معلقة بين الطّابقين الخامس والسّادس. واخيرا تمّ جلب رافعتين، قامت إحداهما برفع بقايا الطّابق السّادس في حين قام العاملون على الرافعة الأخرى بلف الجثمان بالسّلاسل الحديديّة لانزال إلى الأرض. «كان منظرا مؤلما حين تسبّبت السّلاسل في سحب بنطاله فبانت

مؤخّرته بتلك الصّورة المكشوفة وهو على تلك الحال. شعرت بالإحراج البالغ». حسب قول لايت.

فـي الولايـات المتّحـدة، كانـت شـرل لـي شـيل تتابع الأخبار على شاشـة التّلفزيـون، لأنّ اختهـا قـد اتّصلت لتخبرها أنّ والدهما موجود فعلا في بيروت. قلقت على سلامته وهي تراقب الصّور الحيّة المنقولة من موقع الإنفجار. «أتذكّر احد الضّحايا وقد تعلقت جثته عند الشّرفة. كانت عدسات المراسلين تركّز عليها بين فترة واخرى، فقلت لنفسي أنّه يجب انزال تلك الضّحيّة. كانت السّترة على الجثة تُشبه سترة اشتراها والدي عندما كان في شيكاغو خلال الكرسمس. قلت في نفسي اتمنّى ألّا يكون ذلك جثمان والدي». لكنّه كان.

أمّا نورا\ بسـتاني مراسـلة واشـنطن پوسـت فقد حضرت راكضة في شـارع الكورنيـش حيـن سـمعت اخبار الانفجار. تتذكّر فتقـول: «كانت تلك هي المرّة الأولى التي فقدت فيها قدرتي على الكلام. لم اسـتطع قول شـيء، بل وقفت مصدومة انظر إلى جثامين الضّحايا وقد صُفّت على رصيف الشّارع».

سـمعت ألسـن هاس زوجة مدير المحطّة كنت هاس صوت الإنفجار ولم يخطر ببالها أنْ يكون الأمريكيّون مستهدفين. سمعت قبل شهر انفجارا في نهاية الشّـارع حيث تقع شـقتها، فوقعت بعض شـظايا الحطام المتطاير على شـرفتها، وقُتـل العديـد مـن النّـاس. ولذلـك فإنّهـا قالت لنفسـها، إنّ ذلك ليـس اكثر من انفجار آخر في بيروت. مشت إلى حانوت قريب واشترت علبة سجائر لزوجها. شاهدت لدى عودتها حشدا من النّاس المتجمّعين وهم يشيرون إلى سحابة من الدّخان الأبيض. سمعت بعضهم يقول بالعربيّة «إنّها السّفارة الأمريكيّة». اسرعت إلى الشّقة وتناولت الهاتف لتتّصل بزوجها، لكنّ الإشارة التي تلقتها اشارت أنّ الخطّ مشغول. فتحت المذياع فسمعت تقريرا تحدّث عن إنفجار جرى في قسم القنصليّة وتسبّب في جرح إثنين أو ثلاثة اشخاص. انتظرت حتّى السّاعة 3:00، واخيرا ركبت سيّارتها واتّجهت إلى موقع السّفارة. كان عليها أن توقف السّيّارة علـى مسـافة لأنّ الطّريـق كان مغلقـا. ترجّلت وشـرعت تركض في حين حاول عـدد مـن المارينـز إيقافها دون جدوى. واخيرا اسـتطاع موظف من السّـفارة أن يوقفها ليسـألها عمّن كان في محطة الوكالة ذلك الصّباح عندما كانت موجودة

هناك. اخبرته أنّ الجميع كانوا هناك باستثناء فرانك جونستن إذ لم تشاهده. في تلك اللحظة كانت قد اصيبت بموجة من الهيستريا، لأنّهم لم يسمحوا لها أنْ تقترب من المبنى لكي ترى حجم الضّرر الذي اصاب الواجهة. اخذها احدهم من يدها ونقلها بسيّارة إلى محلّ إقامة السّفير.

عاد السّفير دِلِن في وقت مبكّر من مساء ذلك اليوم إلى بيته، فانحنى امامها على إحدى ركبتيه ليخبرها أنّهم لم يتمكّنوا لحدّ الآن من العثور على كن. شرح لها أنّ مكتب المحطة في الطابق الخامس قد تلقى عصف الإنفجار. قالت له: «ربّما يكونون احياء متواجدين في جيوب تحت الأنقاض». في ساعة متأخّرة من ذلك المساء نُقلت ألسن إلى شقتها حيث وجدت أنّ احدهم قد جلب آرلت زوجة فرانك جونستن إلى هناك. سمعت آرلت وهي في شقتها صوت الإنفجار القويّ الذي هزّ الشّبابيك. ركضت نحو السّفارة لترى أنّ كلّ شيء قد دُمّر. رأت ظلمة ودخانا اسود. كتبت فيما بعد في مذكّراتها، «تحوّل النّهار إلى ليل». في الوقت الذي وصلت فيه ألسن إلى شقّتها كانت آرلت قد عرفت أنّ زوجها قد قُتل. سلّمها احدهم محفظة نقوده، كدليل على أنّهم وجدوا جثته. لم يخبرها تفاصيل موته وكيف عثروا عليه. بعد أن انزاحت موجة الدّخان والغبار التي تلت الإنفجار، لاحظ المارينز شخصا محصورا بين قطعتين من الكونكريت. كان جونستن لا يزال على قيد الحياة. تمكنت فرق الإنقاذ من سحبه بسرعة لكنّ جسمه قد سُحق بشكل فظيع. اوصى قبل أن يلفظ انفاسه الأخيرة أن يسلّموا محفظة نقوده لزوجته.

كان ضروريّا أن تُعطى آرلت حبوبا منوّمة وحقنة لكي تهدأ وتنام. غير أنّ ألسن لم تستطع النّوم حتّى بعد أن اعطاها طبيب البحريّة حقنة ثانية. في السّاعة الثالثة من فجر يوم الأربعاء، حضر موري مكّين، وهو احد ضباط الوكالة الثلاثة الذين لم يكونوا موجودين داخل مبنى السّفارة ساعة الهجوم، وأخبرها أنّهم وجدوا زوجها. فسألته «هل هو على قيد الحياة؟». وأجابها مكّين «لا».

استطاع نائب السّفير بوب پوف من التّعرّف على رفات خمس من الضحايا رسميّا، واكّد مقتل جم ومونيك لويس ودبرا هكسن وكن هاس وفِلِس فراسي. يتذكّر پوف، «أنّ جثثهم كانت سليمة لم تتشوّه وربّما فارقوا الحياة نتيجة

للإختنـاق بسـبب الحطـام والغبـار اللذين نجمـا عن الإنفجار. بـدوا وكأنّهـم قد ماتوا وهم نيام».

كانت ضابطة الوكالة سـوزن مورغن الموفدة الى بيروت في مهمّة قصيرة تتناول غدائها في مدينة صور عندما اخبرتها مضيفتها بوقوع انفجار في السّفارة. اعتقـدت مورغـن أنّ صديقتهـا تمـزح، غير أنّ ضيفة اخرى اخبرتها أنّ مثل هذه الإنفجارات تحدث بشكل متكرر في لبنان، «لقد تعوّدنا عليها». وعليه سارعت سـوزن وموظف آخر في السّـفارة كان معها في ركوب سـيّارتهما وتوجّها نحو بيروت في رحلة استغرقت حوالى السّاعة. كان بوب قد اتّصل بها ذلك الصّباح ليدعوها للعشاء مع «رجل اعمال لبناني شيعي» هو مصطفى زين. اتّفقا أنْ يلتقيا في فندق مَيفلاور في تمام السّـاعة 7:30 مسـاء. شـعرت سـوزن وهي في طريق العودة بشيء من الغثيان، لأنّها كانت تعلم أنّ بوب كان في طريقه إلى السّفارة.

وصلـت فـي السّـاعة 4:00 بعـد الظهر، وصُدمت حين وقعـت عيناها على مبنى السّفارة المهدّم. كانت البلدوزرات تقوم برفع الأنقاض بقصد نقلها. «رأيت الجرحـى وهـم يمشـون وكنت ابحث عن الوجوه التـي أعرفها»، كما دوّنت في مذكّراتهـا بعنـوان «يوميّـات بيروت» شـاهدت احد موظفـي الخارجيّة ممّن كان داخل المبنى فسـألته إن كان يعرف شـيئا عن أيمز فهزّ رأسـه بالنّفيّ. ثمّ اضاف، «لقـد قُتـل العديـد من النّاس». رجعت سـوزن للفندق على أمل أنْ تجد رسـالة من أيمز، ولم تكن هناك رسـالة. تركت له رسـالة على أمل أن يسـتلمها حين يعود. خطرت لها فكرة أنّه ربّما نُقل إلى مستشفى الجامعة الأمريكيّة، فأسرعت فـي الذهـاب إلـى هناك. كانت قاعة الطوارئ مليئة بالجرحى والمصابين، وحين راجعت قائمة الموجودين منهم لم يكن اسمه بينهم. «سألتُ إحدى الممرّضات ولم احظَ بجواب. كنت في قرارة نفسي اعلم أنّ ما اخشاه قد وقع فعلا».

عادت سوزن إلى موقع السّفارة في تمام السّاعة 9:00 لتراقب الوضع. «لم يتغيّـر شـيء فـي الموقف، سـوى أنّ قنابل الغاز المسـيل للدّمـوع الموجودة في المبنى بدأت تسرّب محتوياتها. بدأتُ أبحث بين الأنقاض، لكنّني انسحبت بفعل تصاعـد ذلـك الغـاز». احضروا أنوار كشّـافة لإنارة المنطقة وحتّى تستطيع فرق

الإنقاذ الإستمرار في مهامها. وقف بوب يوف امام الرّكام واشار إلى جثة معلقة بين الطابقين العلويّين. «تمعّنت فيها وفي بالي أنّني ابحث عن بوب أيمز». مرّت السّاعات وبدأ الجو يبرد. ولذلك تركت المنطقة وذهبت إلى شقة قريبة تعود لصديقة لها كي تستعير سترة، وعادت على جناح السّرعة خوفا من أنْ يعثروا على بوب وهي غير موجودة. في الحقيقة، لم تعثر فرق الإنقاذ على احد منذ السّاعة 6:00 مساء.

وفجأة وفي السّاعة 2:30 من فجر اليوم التّالي سمعت جلبة وشاهدت حركة وتجمّع الموجودون في بقعة معيّنة. قال احدهم إنّ رجال الإنقاذ وجدوا جثة ضحيّة داخل المصعد. اتوا بنقالة وجلبوها للخارج. صاح احدهم على سوزن لكي تأتي لتتعرّف على هويّة الضّحيّة. «القيتُ نظرة سريعة وقلتُ وانا اكفكف دموعي إنّه بوب أيمز. ناولوني محفظة نقوده وجواز سفره. من الغريب أنّه لم تكن توجد أيّة آثار على جسمه أو ملابسه، واستنتجت فيما بعد أنّه فارق الحياة نتيجة إرتجاج دماغي بسبب الإنفجار».

ربما كان بوب أيمز قد فارق الحياة لوحده. سمعت ابنته كِرن فيما بعد خلال مراسم تأبين والدها وغيره من الضّحايا، شخصا يقول إنّه: «وُجد ملقى على وجهه فوق درجات السّلم، وكانت عيناه مغلقتين. ربّما كان قد غادر الكافيتريا متوجّها إلى الإجتماع. لقد فارق الحياة بسبب الإنفجار ولم تقع عليه أيّة أنقاض. كان هناك جرح صغير على رقبته فقط».

ذكّر احد مسؤولي السّفارة سوزن مورغن أنْ تستعيد كافة اوراق بوب وممتلكاته من الغرفة في الفندق. غير أنّها كانت مصمّمة على مرافقة الجثمان الذي حملته سيّارة الإسعاف إلى المشرحة. تبعت سيّارة الإسعاف فوصلت هناك حوالى السّاعة 3:30 فجرا. كان مشهدا مؤلما، وحاول الحرس أنْ يقنعوها بعدم الدّخول دون جدوى. وجدت جثمان بوب مسجّى على الأرض إلى جانب خمس جثث أخرى. «انحنيتُ وصليتُ وطلبت من احدهم أن يساعدني في نزع خاتم الزّواج من إصبعه. لا ادري لماذا توقفت دموعي عن السّيلان. ربّما هول الصّدمة لمشاهدة شخص على هذا الحال، كان مفروضا أن اكون تناولت

العشاء معه قبل ساعات!» كما استرجعتْ أيضا قلادة كان يضعها على رقبته(*).
وبعد نصف ساعة وضعت سوزن يدها برفق على كتف زميلها مودّعة ثمّ مشت نحـو فنـدق مَيفـلاور باكية. كان هناك عدد مـن الموظفين فاخبرتهم «عمّن مات ومـن لا يـزال علـى قيـد الحياة»، كما كتبت في مذكّراتهـا. اخبرت مدير الفندق أنّها تودّ استعادة ممتلكات بوب الموجودة في الغرفة، للتأكّد من عدم تسرّب أيّة وثيقة سريّة من تلك الغرفة. وبعد أن اكملت ذلك اتّصلت بلانغلي لتخبرهم بأنّها تعرّفت على جثة بوب أيمز بين الضّحايا. كان الوقت حوالى الخامسة صباحا في بيروت، وفي واشنطن لا زالت السّاعة العاشرة مساء من يوم الاثنين.

كان مصطفـى زيـن يتوقـع مقابلة أيمز ذلك المسـاء. اتّصل بمطعم العجمي وحجز لأربعة اشخاص هم بوب وكن هاس وسوزن مورغن ونفسه. كان عصر ذلك ذلك اليوم يقود سيّارته في طريقه لموعد مع ابن عم الرّئيس امين الجميّل. شـاهد الدّخان يتصاعد من منطقة السّـفارة فاصابه القلق مؤقتا على اصدقائه في شارع الكورنيش. ومع ذلك ذهب إلى المطعم في الموعد المقرّر وجلس ينتظر حتّى السّاعة 2:00 بعد منتصف الليل. قال فيما بعد، «لم اعرف دربي ذلك اليوم».

وصـل عصـر يـوم الثلاثـاء پيـت غالانت إلى بيـروت قادما مـن اثينا. وهو موظف في وزارة الخارجيّة يبلغ من العمر 34 عاما، انيطت به مسـؤولية اعداد تقريـر عـن الانفجار. كتب يقول: «انحسـر الدّخـان، غير أنّ الدّم واطراف بعض الضّحايا كانت تنتشـر في كلّ مكان. لا يمكن للفرد أنْ ينسـى الرّوائح المنبعثة من المكان». تمّ انتشـال محرّك السـيّارة التي اسـتخدمت في العمليّة ورمته شدة الإنفجـار بعيـدا فوقـع فـي مياه البحـر المقابلة لمبنى السّـفارة. علم غالانت من ضابط امن السّفارة دك غانن بوجود مانعين ما زالا في مخزن السّفارة. كان مقرّرا وضعهما في الطريق المؤدي من الشّارع إلى مبنى السّفارة خلال الأسبوع التّالي.

بعد ثلاثة ايام من الإنفجار، ذهب العريف چالز لايت والكابتن براين كورن لاستعادة صندوق في مكتب المارينز في الطابق الأرضي حيث يُحتفظ بجوازاتهم الدّبلوماسيّة. وجدا الصّندوق واستعادا الجوازات ثم امضيا 45 دقيقة يحفران بين

(*) تسلّمت إيفون أيمز الخاتم الذي كان لا يزال ملطخا بالدّم. اعطت القلادة لابنتها كِرِن التي كانت تبلغ من العمر حينئذ 15 عاما. وبعد مرور عشرين عاما. قالت كِرِن، «لا زلت أضعها».

الأنقاض للبحث عن جثمان حارس البوابة. ذكر كورن في شهادته أنّهما وجدا «الحارس في وضع وقوف يسنده الرّكام المتساقط، إلّا أنّه كان منحني الرّأس وقد تهشّم تماما. إنكسرت يداه ورجلاه وكان هناك عمود من الفولاذ مغروزا في صدره». لا شكّ أنّ بوبي مكماوف مات ميتة سريعة لكنّها كانت فظيعة.

بلغ عدد القتلى 63 شخصا والجرحى 120، كانت آثار بعض جروحهم وإصاباتهم ستبقى معهم طيلة حياتهم. قُتل 17 امريكيّا و32 لبنانيّا من موظفي السّفارة و14 زائرا كانوا في المبنى للحصول على تأشيرات لدخول الولايات المتّحدة. كما كان بعض الضّحايا من المارّة في الشّارع. من بين القتلى الأمريكيّين السّبعة عشر 8 ضبّاط من الوكالة، وهي اكبر خسارة تمنى بها الوكالة في حينها(*).[5] أمّا بقيّة الضّحايا فضمّت عنصرا من المارينز و4 جنود و3 موظفين من منتسبي وكالة العون الأمريكيّة، وكذلك الصّحفيّة المستقلة جانت لي ستيفنز.

حين انفجرت السيارة المفخّخة داخل بهو مبنى السّفارة، كان الوقت في بيروت هو 1:04 بعد الظهر وفي واشنطن حوالى 6:00 صباحا. استفاقت إيفون مبكرة ذلك الصّباح وذهبت لممارسة السّباحة. كان ذلك النّشاط جزء من فعالياتها اليّومية. عادت واخذت الأولاد للمدرسة. في حدود السّاعة 9:00 تلقت مكالمة من مقر الوكالة وسألها المتحدّث إنْ كانت تتابع الأخبار على التّلفزيون. ردّت بأنّها لم تفتح التّلفزيون بعد. اخبرها أنّهم تلقوا اخبارا عن استهداف السّفارة، لكنّ ليست لديهم تفاصيل عمّا حدث بالضّبط. لم تعرف إيفون ماذا تقول، فانتهت المكالمة. كان ذلك هو «يوم العمال» وكانت قد اعدّت اكلة لتأخذها الى الإحتفال في مكتب عملها، حيث تعمل سكرتيرة في شركة حسابات آرثر يونغ. «امضيت يومي وكأنّ شيئا لم يكنْ،» إلّا انّها عبّرت عن قلقها لإحدى صديقاتها وتلقت مساء ذلك اليوم مكالمة من بيروت. كان المتحدّث هو زين الذي سألها إنْ كانت سمعت شيئا من بوب. كان انزعاجه واضحا إلى الحدّ الذي بدأت فيه

(*) نجا من الإنفجار ثلاثة ضبّاط آخرين لم يكونوا داخل المبنى لحظة التّفجير. كانت سوزن مورغن تتناول الغداء مع صديقة لها في مدينة صور اللبنانيّة الجّنوبيّة. ثمّ كان هناك مودي مكيّن الذي ترك السّفارة ليتفحّص ثانية سجّادة فارسيّة كان ينوي شرائها. أمّا الثالث فهو الكسندر ماكفرسن الذي اوفد إلى بيروت في مهمة خاصّة وطُلب منه تحاشي الإقتراب من مبنى السّفارة.

إيفون تهدّأ من روعه، واخبرته أنّ بوب لم يتّصل لأنّه مشغول فقط. لم تسمع بعد من الوكالة، فقرّرت أنْ تذهب لتناول العشاء في بيت صديقة قريبة. تركت الأولاد في البيت وأعطتهم رقم تلفون الجارة ليتصلوا بها إنْ احتاجوا ذلك. لم يسمع الأولاد شيئا لحدّ الآن عمّا جرى في بيروت، ولم تكن إيفون راغبة في إثارة قلقهم دون معرفة اخبار مؤكّدة.

في السّاعة 10:00 من مساء ذلك اليوم صعدت كرستن البالغة من العمر 18 عاما إلى غرفة نوم والديها لتراقب التّلفزيون فشاهدت تقريرا عن انفجار بيروت. كانت تعرف أنّ والدها موجود في الشّرق الأوسط، لكنّها لم تعرف بالضّبط إنْ كان في بيروت. وحين ذكرت ذلك لأخيها كفن البالغ 11 عاما من العمر وكِرن البالغة من العمر 15 عاما، اعتقدا أنّ والدهما ربّما لم يصل بيروت بعد. بعد دقائق سمعوا جرس الباب يرنّ. حين فتحته كرستن شاهدت شخصين غريبين هما تومس براامن وزوجته ليلِيَن. قدّما نفسيهما بأنّهما صديقان لوالدها وسألا إنْ كانت امّها موجودة. حين علما أنّها ليست في البيت قرّر براامن أنْ ينتظرا عودتها. وبعد دقائق سأل تومس كرستن إنْ كانت شاهدت الأخبار عمّا جرى في بيروت. حين اجابته بالإيجاب، اخبرها أنّ والدها كان في المبنى وربّما يكون قُتل في الإنفجار.

قالت كرستن، «والدي ليس في بيروت ولم يُقتل».

ردّ براامن، «نحن نعتقد أنّه هناك، ونعتقد أنّه قُتل».

صاحت كرستن، «لا!».

وهنا تدّخلت ليلِيَن قائلة، «في الحقيقة نحن لا نعتقد أنّنا نعلم علم اليقين أنّه قُتل».

انفجرت كرستن في موجة عويل هستيري. كان كفن في غرفته حين سمع صراخها. قال فيما بعد، «كان نواحها من النّوع الذي يجعلك تشعر أنّ شيئا فظيعا قد وقع».

أمّا اخته كَرِن فكانت في تلك اللحظات تراجع واجبها المنزلي لدرس الفرنسيّة. «كنت في الصّفحة الأولى حين سمعت الصّراخ فشعرت بقشعريرة تسري في بدني. نظرت فإذا بأخي الأكبر اندرو يقف عند باب غرفتي وقد وضع

يديه في جيبي بنطاله وقال، (لقد مات!) وفرّ من المكان على عجل». تناولت كِرْن التّلفون واتّصلت بصديقة لها تسأل، «ما العمل؟ لقد قُتِل والدي».

يتذكّر اندرو الموقف بطريقة تختلف قليلا. سمع زعيق اخته وهو في غرفته، فركض نحو غرفة الإستقبال وشاهد الضّيفين الغريبين يقفان عند الباب مع أخيه كفن واخته كرستن وكانوا جميعا يبكون. «ذهبت إلى غرفة اختي كِرْن. وقفت عند الباب فنظرت إليّ وعرفت ما حدث. سألتني إنْ كان قُتل. انحنيت بالإيجاب، وعدت مسرعا إلى غرفتي». كان من الصّعب على الولد الصّغير كفن أنْ يفهم ما جرى. ذهب إلى غرفة الجلوس وجلس على كرسي والده الهزّاز. بقي هناك لوقت طويل يهزّ الكرسي بحركة منتظمة وهو يقبض بشدة على مسندي اليدين.

قام احد الأولاد بالإتّصال بأمّهم التي كانت قد علمت بالموضوع. اسرعت للبيت واجتازت الباب ودموعها تسيل. لم تعد تتذكّر شيئا. كان كلّ شيء يبدو مشوّشا، إلّا أنّها تتذكر أنّها تناولت الهاتف لتنقل الخبر لوالدة بوب وأختيه ووالديها. «ومنذ تلك اللحظة وطوال الأسبوعين القادمين كان البيت مليئا بالنّاس. لم يعطونا فرصة لنكون لوحدنا لكي نتأسّى سويّة، ولكي نصل إلى حالة تقبّل الأمر الواقع». كان الجيران يأتون بالطّعام وكانوا يمرّون قرب سيّارة ليموزين سوداء تقف في الشّارع وفيها رجال من الوكالة. حضر مدير الوكالة وغيره من المسؤولين للمنزل لتقديم العزاء شخصيّا لأفراد العائلة. شعر الأولاد بحزن عميق وفوجئوا حين اكتشفوا أنّ والدهم يعمل في الوكالة وليس في وزارة الخارجيّة. كان شعورهم خليطا من التّعجب وعدم التّصديق أنّ والدهم قد كذب عليهم طوال تلك السّنوات. لكنّهم في نفس الوقت شعروا بالفخر عندما بدأوا يعرفون تدريجيّا ما كان قدّم من خدمات.

انتشرت الأخبار بسرعة في اروقة لانغلي أنّ ثمانية من منتسبي الوكالة قد لاقوا حتفهم. يقول كلير جورج، «عندما سمعت الأخبار ركضت على غير هدى وأنا أصرخ إن كان احد يعرف ماذا يجب أنْ نفعل». وكان سام وايمن قد تلقى مكالمة تلفونيّة من دائرة مراقبة العمليّات. اخبروه أنّ إحدى ضبّاط الوكالة الثلاثة في بيروت قد اتّصلت لتقول أنّ منتسبي محطة الوكالة قد أبيدوا عن بكرة ابيهم. يتذكّر وايمن فيقول: «بكيت واتّصلت بزوجتي التي شاركتني البكاء.

اصبـت بصدمـة ووقعـتْ الأخبار عليّ وقوع الصّاعقة. كان امرا لا يُصدّق». كان وقتها مديرا لشعبة عمليّات شبه الجزيرة العربيّة، فأنيطت به بسرعة مهمّة التّحقيق في الانفجار. أمّا شِرون لندزي فقد سمع اخبار الصّباح عن تفجير السّفارة، لكنّه اعتقد أنّ بوب لم يُصب بأذى. ومع مرور الوقت في ذلك اليوم بدأ القلق يأكله. وفي المسـاء تلقى مكالمة اأّد المتكلم فيها أنّ بوب قد قُتل. بكاه شِـرون أيضا. وفي اليوم التّالي قاد سـيّارته متوجّها للعمل. وحين وصل موقف السّـيّارات في مركز الوكالة، شـعر بأنّه لا يستطيع دخول المبنى، فقفل راجعا. كان يعلم، «أنّ الوكالة لا تعرف كيف تتعامل في موقف كهذا».

فـي تـل أبيـب، كان دوف زِيـت يتنظـر وصول أيمز حسـب جـدول زيارته المقـرّرة فـي نهايـة ذلـك الأسـبوع. يتذكّر قائلا: «سـمعنا الأخبار عـن التّفجير، فغمرنا نحن الذين نعرفه حزن عميق. معروف عنّا بأنّنا أجلاد، لكنّنا نكون احيانا عاطفيين جدّا». في صباح اليوم التّالي كتب جف كامپ في مذكّراته، «بوب أيمز ضمن القتلى في بيروت. نعتقد أنّ إيران تقف خلف العمليّة. شعرت بحزن عميق لفقد بوب».

بعد مرور خمسة ايام وبتاريخ 23 ابريل، استقلّ الرّئيس ريغن طائرة مروحية تابعة للمارينز فوصل الى قاعدة اندروز الجويّة ليكون في استقبال الطائرة التي عـادت بجثاميـن 16 شـخصا هـم ضحايـا العمليّـة. أمّـا الضّحية رقـم 17 البرت فوتـاو، الموظّـف فـي وكالـة العون، فقد طلبت اسـرته حرق رفاتـه في بيروت. كانت التّوابيت ملفوفة بالأعلام الأمريكيّة وقد صُفّت على ارضيّة إحدى قاعات القاعـدة. لـم يُفصَـح عن اسـماء من وجدوا داخل التّوابيـت. وقف الأقارب في صـفّ وهـم يبكـون وتحـدّث الرّئيس بإيجاز وكان الحـزن البالغ باديا عليه. بعد أنْ مرّ امام التّوابيت المصفوفة وصافح معزيّا اسر الضّحايا غادر المكان بصحبة زوجته. كتب في مذكّراته ذلك المساء، «كانت تجربة مؤثرة. التقيت أنا ونانسي اقارب الضّحايا وافراد عوائلهم. كنّا جميعا نبكي، وكنت فقط اشدّ على اياديهم، لأنّني لم اكنْ قادرا على الكلام». توقف الرئيس قليلا وهو يصافح إيفون معزّيا. كانت تضع خمارا اسود قصيرا يغطّي عينيها. اخبره احدهم أنّها ارملة بوب أيمز مع أولاده. تتذكّر كِرّن أنّ، «الحزن بدا طاغيا على وجه الرّئيس وعينيه. وقام هو

وزوجته باحتضاننا واحدا تلو الآخر».

بوب أيمز هو الوحيد الذي يعرفه الرّئيس شخصيّا من بين كلّ الضّحايا. لقد قابله منذ حوالى الشّهر في البيت الأبيض بتاريخ 17 مارس 1983. حين علم بأنّ أيمز احد الضّحايا، كتب في مذكراته، «لقد فقدنا اليوم أيمز (ثمّ شطب على الاسم)، وهو على رأس قائمة رجالنا العارفين بأمور الشّرق الأوسط». اخبر فيما بعد احد معاونيه أنّ مراسم استقبال جثامين الضّحايا كانت من اشقّ الأمور عليه. في صباح اليوم التّالي، الأحد 24 ابريل، وُضِع نعش أيمز على عربة عسكريّة تجرّها أربعة جياد، وخلف العربة قاد احد رجال المارينز حصانا ابيض خرّ فارسه صريعا في بيروت. توجه الموكب إلى المقبرة الوطنيّة في آرلنغتن. جلست إيفون وأولادها تحت خيمة نصبت قرب القبر الذي سيّدفن فيه جثمان الفقيد. طار مصطفى زين بسرعة من بيروت لحضور الجنازة. جلس معها ومع الأولاد في سيّارة الليموزين السّوداء التي جلبتهم إلى المقبرة وكان معهم تحت الخيمة. اطلقت ثلة من المارينز نيران البنادق تحيّة للفقيد قبل أن يدفن، ولفّ المارينز العلم وسلموه لإيفون. لم تتذكّر كثيرا ممّا جرى حولها، «لقد كنت هناك بجسدي، لكنّ فكري كان في مكان آخر. سألتْ كِرِن إنْ كان بإمكانها لمس تابوت والدها أو وضع وردة عليه، فاخبرونا أنّنا لا نستطيع فعل ذلك». عادت هي وأولادها السّتة إلى البيت في رستن. «كنت فاقدة للإحساس بسبب الخوف والحزن. كنت كمن يلتقط صورة ثمّ يمزّقها ويحاول تجميعها مرّة اخرى، وذلك امر مستحيل».

إنّ حقيقة أنّهم لفّوا التّوابيت بالأعلام ولم يسمحوا للعائلات أن تلقي النّظرة الأخيرة على رفات ضحاياها قد جعل الأمر غاية في الصّعوبة. كان عليهم في قاعدة اندروز الجويّة أنْ يتطلعوا إلى التّوابيت دونْ أن يعرفوا أي جثة يحتوي كل تابوت. سألت إيفون إن كان بإمكانها أو احد من العائلة أنْ يتعرّف على الجثمان فأخبروها أنّ ذلك غير ممكن. قالت في عام 2003، «القضيّة بالنّسبة لنا لم تُغلق بعد. لو كنّا شاهدنا جثة بوب... لكنّا اعتقدنا أنّ الموضوع قد انتهى. لقد امضيت هذه السّنوات العشرين وأنا افكّر أنّه ربما لا يزال على قيد الحياة يقوم بمهمّة خاصّة سريّة لا يعرف بها احد، ولم يخبرونا بالموضوع حماية لنا. تبدو المسألة جنونا، لكنّ هذه هي حقيقة افكاري. أنّه في مكان ما». اعتقد الأولاد جميعا أنّ

والدهم ما يزال على قيد الحياة. تقول كرسِتن: «اعتقد أنّ الفكرة التي وضعناها في اذهاننا أنّه يقوم بعمل مشرّف نعتزّ به حماية لنا، وهو في الحقيقة قد فارق الحياة. ومع ذلك فهو يحاول أن يحمينا من الذين يريدون أن يضعوا حدّا لحياته. غير أنّه حي يُرزق في مكان ما... هناك امل». حضر يوم الثلاثاء الموافق 26 ابريل اكثر من 3100 دبلوماسيّ وموظف حكوميّ ومواطن القدّاس الذي اقيم في الكاتدرائيّة الوطنيّة في واشنطن على أرواح الضّحايا. دامت المراسيم 45 دقيقة، وحضرها نائب الرّئيس جورج بوش، كما حضرها وزير الدّفاع كاسپر واينبرغر. اختلى بوش بإيفون وقدّم لها وللأسرة العزاء.

إنّ تفجير السّفارة في بيروت في شهر ابريل 1983 قد ضاع تقريبا في ذاكرة تاريخ الولايات المتّحدة في الشّرق الأوسط، إلّا أنّه من ناحية اخرى شكّل بداية تحدّ دموي مع الحركة السّياسيّة الإسلاميّة، كما أنّه شهد مولد كيان شيعي نسمّيه الآن حزب الله. تفيد إحدى وثائق الوكالة التي رُفعت السّرّيّة عنها، «إنّ الثورة الايرانيّة عام 1979... والغزو الإسرائيلي للجنوب اللبناني الذي تسكنه غالبيّة شيعيّة قد شحذا همم الشّيعة واعدّا المسرح لظهور جماعات متطرّفة لا تتردّد في ارتكاب الأعمال الإرهابيّة. «إنّ شباب الشّيعة في الجنوب اللبناني الذين اصابهم الأذى نتيجة للغزو الإسرائيلي، بدأوا ينظرون للأمريكيّن على أنّهم شركاء في ذلك الغزو»، حسب ما جاء في شهادة السّفير روبرت دِلِن عام 2003. الذي أضاف قائلا: «كان هناك المزيد من الكره والإحتقار للإسرائيليّن، خاصّة في جنوب لبنان».

كان السّفير روبرت أوكلي واقفا في مكتبه في السّفارة الأمريكيّة في مقديشو عاصمة الصّومال حين وصلته برقية عن تفجير بيروت. قال فيما بعد: «لم يفاجئني الأمر لأنّنا كنا نعلم بمعاناة الشّيعة وردود فعلهم على الغزو الإسرائيلي لأراضيهم عام 1982. ثمّ لحق ذلك مذابح الفلسطينيّن في صبرا وشاتيلا. لقد اصبحوا ينظرون إلينا كحلفاء لإسرائيل وشركاء في كلّ ما تقوم به. ثمّ اصبحنا اعداء للإسلام واعداء لإيران عندما وقفنا مع صدّام حسين في حربه ضدّها. لقد كان للإيرانيّن سبب وجيه أنْ يخرجونا من هناك. بدأ النّاس في الشّرق الأوسط، وخاصّة في لبنان، ينظرون إلينا كعدو رقم واحد بعد الإسرائيليّن».

مـن المؤكّـد أنّ الأمريكييّـن تكبّدوا بعـض الضّحايا في تلك المنطقة من العالم. لقد تمّ اغتيال بعض السّـفراء، ولكنّ يوم 18 ابريل من عام 1983 شـهد تكتيكا جديدا تمثّل باستخدام سيّارات مفخّخة ضدّ اهداف كبيرة مثل السّفارة الأمريكيّة. وصفهـا الرّئيـس الأمريكـي ريغن في مذكّراته بأنّها «عمل وحشـي جبان». ودعا شولتز إلى، «ضرورة اعداد انفسنا لمنازلة الإرهاب». لكنّ تلك التّصريحات لم تكـن اكثـر مـن كلمـات فقـط. لم يتحدّث احد عن معاقبـة الفاعلين لأنّه لا احد يعرف بالضّبط من هم. كتب الرّئيس في مذكّراته، «سامحني ياربي، لمقدار الكره الذي احمله لهؤلاء البشـر الذين ارتكبوا مثل هذا العمل الشّـرير الجبان». لكنّه كان يعرف أنّه لا يستطيع أنْ يقوم بأيّ شيء.

في المراسم التي اجريت داخل مركز الوكالة لتأبين الضّحايا، وصف كيسي الفقيد أيمز بأنّه، «كان اقرب شيء إلى رجل لا يمكن تعويضه.» ثمّ اضاف، «إنّه ورفاقه لم يفقدوا حياتهم هباء». لكنّ الواقع هو أنّ السيّارة الصّغيرة التي قادها انتحاري واحد قد عرّت ضعف امريكا سياسيّا وعسـكريّا في الشّـرق الأوسـط. ويـرى البعـض أنّ ذلـك اشـارة إلـى أنّـه ليس لأمريكا مكان فـي تلك البقعة من العالـم. قابلـت سـوزن مورغـن فـي بيـروت احد ضبّـاط الجيـش الأمريكي من الذين كانوا كانوا يقومون بتقديم المساعدة لإعادة بناء الجيش اللبناني وتسليحه. اخبرها أنّه وزملائه يشعرون، «بأنّنا توهّمنا حين حضرنا إلى هنا وكلّ يحمل عقليّة الممثـل الأمريكـي جـون وَين بأنّه يمكننا انقاذ لبنان، لنجد انفسـنا وسـط تقاطع النّار بين الإسرائيليّن والعرب، والجميع يصوّب ناره نحونا». ثمّ اضاف، «يجب أنْ ننسـحب ونتـرك الجانبيـن يتقاتلان. إنّهما يسـتحقّان بعضهمـا». يوم الأربعاء الموافق 27 ابريل قامت مورغن من نومها بعد منتصف الليل استعدادا للذهاب إلى المطار. كان الوقت 3:00 بعد منتصف الليل. «نظرت من شبّاك غرفتي في الفندق نحو السّفارة الواقعة على السّاحل والتي تبعد حوالى نصف ميل. كانت الأضواء السّاطعة تنير المنطقة تماما، وما تبقى من المبنى بدا أسود يلفّه الضّباب، وكأنّه بقايا مسرح. شعرت أنّه قد حان الوقت لأدير ظهري لبيروت وابتعد عنها وسط الظلام». قدّمت مورغن استقالتها من الوكالة بعد ذلك بوقت قصير.

الفصل الثالث عشر

لغز عماد مغنية

كان الغضب باديا على وجه بل كيسي خلال الأيام التي أعقبت الهجوم على السّفارة. طلب من ضبّاطه إجراء تحقيق. كان يريد أنْ يلقى الفاعلون الجزاء جراء ما اقترفوه في بيروت. غير أنّ الأمر لم يكن سهلا. يقول جون مكماهون، نائب كيسي: «إنّ اهداف الإرهاب تتغيّر باستمرار. في وقت من الأوقات، كانت منظمة التّحرير الفلسطينيّة، وهي منظمة كبيرة يمكن اختراقها. ولكن ما نجده الآن في لبنان عمليّات مجموعات صغيرة أو فرديّة تظهر هنا وهناك. ما لم تكن عضوا في تلك العوائل، لا يمكنك أنْ تدخل تلك التّنظيمات. وعليه اصبح من المستحيل اختراق مثل هذه التّنظيمات».

أعادت وكالة الأمن القومي فحص البيانات التي تجمّعت لديها عن تلك الفترة حول المحادثات التّلفونيّة التي ورد فيها ذكر للسّفارة باعتبارها هدفا. وكلّ ما وُجِد لا يتعدّى اتّصالات مشفّرة بين وزارة الخارجيّة الإيرانيّة في طهران وممثليها من الدّبلوماسيّن في دمشق. لربّما اعترضت الوكالة محادثة تلفونيّة بين ضبّاط الحرس الثوري في بعلبك والسّفارة الإيرانيّة في دمشق. تمّ اعتراض برقيّة من وزارة الخارجيّة الإيرانيّة عن تحويل مبلغ 25 ألف دولار ارسِلت إلى لبنان قصد تنفيذ عمليّة غير محدّدة(*). وحين اعيد النّظر في تحليل تلك المعلومات بدا منطقيّا أنّ تلك المراسلات كانت عن استهداف السّفارة.

في اواخر فصل خريف ذلك العام، تمّ إيقاظ الرّئيس ريغن من النّوم في السّاعة 2:30 من صباح يوم 23 اكتوبر عن طريق مكالمة تلفونيّة لإخباره أنّ قنبلة اخرى انفجرت وضربت هذه المرّة بناية قرب مطار بيروت اتّخذها المارينز ثكنة

(*) أشار الصّحفي المعروف جاك اندرسن إلى عمليّات اعتراض المراسلات، فغضب كيسي اشدّ الغضب حول تسرّب تلك المعلومات السّرّيّة. حين علم الإيرانيّون بأنّ مراسلاتهم قد تمّ اعتراضها، حاولوا جهدهم تلافي تلك المشكلة، فتلاشى إثر ذلك هذا المصدر من المعلومات.

لهـم باعتبارهـم جـزء مـن القوّة الدّوليّة. كان هذا التّفجير اكبر من السّـابق الذي دمّر السّـفارة قبل سـتة اشـهر. كانت قوّته تعادل 21 الف رطلا من مادة TNT، وهو أكبر تفجير بعد التّفجير النّووي. كانت النّتيجة مصرع 241 عسكريّا امريكيّا. كتـب ريغـن فـي مذكّراتـه: «إنّنا جميعا نعتقد أنّ إيران كانت خلف هذا الهجوم، تماما كما فعلوا في سفارتنا في شهر ابريل».

وبشكل عام، فإنّ مثل هذا الحكم ربّما صواب، غير أنّ حقيقة العمليتين ما زالت سـرّا. فإدارة ريغن لا تعرف حقيقة من خطط الهجومين ونفذهما. يتذكّر وزير الخارجيّة شولتز فيقول: «لقد أُصِبنا بالشّلل نتيجة شكّنا في أنفسنا».

سـأل كيسـي مستشـاره الخاصّ في الوكالة فردرك هچنسن، أنْ يشرف على تحقيـق حـول الهجـوم. قـال هچنسـن: «عندمـا قُتل بـوب طلب كيسـي منّي أنْ اعطيه صورة كاملة لما حدث ولماذا». بدأ هچنسن عام 1974 عمله في الوكالة بمنصب كبير من الدّرجة GS-16، فقد عيّنه كيسـي ونقله من وزارة الدّفاع. وُلد عام 1933 وكان أحد الضّبّاط الذين اقنعوا كيسـي لترقية أيمز كي يصبح رئيسـا لقسـم الشّرق الأوسـط وجنوب آسـيا في الوكالة. كتب هچنسـن تقريرا من 25 صفحة حول الهجوم على السّـفارة، لا يزال سـريّا. غير أنّه يتذكّر فحواه: «ينتقد السّياسة الأمنيّة لوزارة الخارجيّة، لأنّ السّفارة كانت دائما مفتوحة لأيّ هجوم». بعد ساعات من تنفيذ الهجوم اتّصل احدهم بوسائل الإعلام في بيروت ليدّعي مسؤولية منظمة الجهاد الإسلامي عن الهجوم. لم يكنْ أحد سمع من قبل بهذه المنظمة. إعتقد هچنسـن إنّها تغطية واقعية لحركة أمل الإسـلامية التي انشـقت عن حركة أمل التي يقودها الزعيم الشّـيعي ورئيس الحزب السّياسـي نبيه برّي. يذكـر هچنسـن أنّ المخابـرات اللبنانيّـة ألقت القبض على أربعة اشـخاص ممّن شـهدوا الإنفجار، لكنّه تمّ اطلاق سـراحهم بعد يومين. اخبروا الشّـرطة اللبنانيّة أنّهم شـاهدوا شـابّا يرتدي سـترة جلديّة سـوداء وهو يقود السـيّارة ويفجّرها بعد اقتحام الواجهة الزّجاجيّة للسّفارة.

غيـر أنّـه تـمّ القبـض على عـدد آخر من الأفراد بينهم مصري اسـمه حر ب الذي يعتقد هچنسن أنّه المسؤول الرّئيسي عن تجميع القنبلة ووضعها في مؤخّرة السـيارة الصّغيـرة. وفـي مرحلـة لاحقة من التّحقيق طُلـب من ضابط متعاقد مع

الوكالة اسـمه كيث هول البالغ من العمر 32 عاما أنْ يطير إلى بيروت ليسـاعد فـي التّحقيـق مـع الأشـخاص الذيـن اعتقلوا من قبـل المخابـرات اللبنانيّة. كان ذلـك المكتـب بإمـرة ضابـط لبناني اسـمه جوني عبدو. خدم هول مـع المارينز وعمل شرطيّا في كاليفورنيا قبل عمله في الوكالة عام 1979. وهو حاصل على شـهادة الماجسـتير في التّاريخ، عُيّن في البداية في قسـم التّحقيقات والتّحليلات فـي الوكالـة. طُلـب منه الحضور إلى الطابق السّـابع من مبنى الوكالة، واخبروه، «نريدك أنْ تذهب إلى بيروت لتعرف من فجّر السّـفارة، وكيف فعلوا ذلك. إنّ الرّئيس نفسه سيقرأ البرقيّات التي تبعثها. لا بُدّ أنْ نقوم بمعاقبة الفاعلين».

روى هـول قصّتـه فيمـا بعـد للكاتـب مـارك بودن من مجلـة اتلانتك. طار الـى بيـروت واعطـوه مكتبا في مديرية المخابرات اللبنانية. اعترف هول للكاتب بودن بأنّه ساهم دون تردّد في عمليّة تحقيق وحشيّة «مع الرّجال اللبنانيّن الذي القي القبض عليهم». اشـار المعتقلون إلى شـخص اسـمه الياس نمر ووصفوه بأنّه «المموّل الرّئيسي» لعملية التّفجير. القي القبض على نمر فاظهر في البداية تحدّيـا. كان لـه مـن العمـر 28 عامـا وكان الجميـع يخافونه. بعد سـنوات كتب المحقـق الصّحفـي كرسـتفر دكـي فـي مجلة نيوزويك أنّ نمـر «كان عميلا ثنائيا وثلاثيّـا ومزدوجـا، وتـمّ تدريبه على يد الإسـرائيليّن، لكنّـه اتّهم بالعمل لصالح السّوريّن، وبالتّالي مسؤولا عن تمويل العملاء الذين يعملون لصالح إيران».

سـمح اللبنانيّـون لهـول أنْ يزودّهم بالأسـئلة التي طرحوهـا على المعتقل، وخلال فترة عشـرة ايام تولى التّحقيق معه بنفسـه. ووفقا لتقرير بودن فإنّ هول اخبـر نمـر حيـن انفـرد بـه لأوّل مرّة: «إنّنـي ضابط مخابـرات امريكي. لا اعتقد انّك لـم تفكّر بأنّك تقتحم سفارتنا وتفجّرها، وأنّنا سنقف مكتوفي الأيدي، أليس كذلـك؟» حـذره قائـلا بأنّ جماعته من اللبنانيّن لن يقدروا على انقاذه. «حياتك في يدي، وأنا الذي سيتّخذ القرار بما سيحدث لك. من الأفضل لك أنْ تتعاون معـي». حيـن رفـض نمر الكلام، أخِذ إلى زنزانة وجعلوه يقف على قدميه لمدة يومين.

عندمـا احضـروه لجولـة تحقيق اخرى واجلسـوه على كرسـي، رفس هول الكرسي فوقع نمر على الأرض، لكنّه رفض أنْ يفتح فمه. «ارسلته إلى الزّنزانة

وبـدأوا يصبّـون فـوق رأسـه مـاء بين فترة واخرى في حين كانت مروحة سـقفيّة تدور وتجعله يشعر ببرد شديد لمدّة 24 ساعة. عندما احضِر للتّحقيق كان مزاجه قـد تغيّـر. شـعر أنّـه لـن يغادر ذلك السّـجن، ولن يسـتطيع احـد إخراجه منه أو يختطفه من تلك الزّنزانة».

خلال جولات التّحقيق التّالية، اشرف هول على ضابط لبنانيّ وهو يستعمل عصا غليظة ويضرب بها ساقي نمر بقوّة. فعل التّعذيب فعله في نمر واقتنع بأنّه يجب عليه أنْ يُخبر هول ما يحبّ أنْ يسمعه. اعترف أنّه كان ضمن الفريق الذي خطـط للهجـوم علـى السّـفارة واعدّ له. كما اعترف بدور لـه في اغتيال الرّئيس اللبناني بشير الجميّل في الخريف الماضي. اعترف بأنّه كان يتلقّى التّعليمات من عملاء المخابرات السّـوريّة. قام هول بتسـجيل اعترافات نمر وعاد إلى لانغلي معتقدا أنّه توصّل إلى حلّ لغز تفجير السّفارة.

علـم هـول بعـد فتـرة قصيرة أنّ نمر قد فارق الحياة في زنزانته. افترض أنّ مسـؤولي الأمن اللبناني قد امروا بقتله للتّغطية على الجهات الأخرى المتورّطة في اقتحام السّـفارة. قام احدهم بنشـر الأخبار أنّ ضابطا في وكالة المخابرات الأمريكيّة قد شـارك في عمليّات تحقيق خشـنة وحشـيّة قادت لموت شـخص متّهم، وهو ما جعل الآخرين يتندرون على هول ويصفونه باسم «ضابط الموت».

يتذكّر فرد هچنسـن أنّ كيسـي غضب غضبا شـديدا حين علم بموت نمر. لم يكن هول هناك حين فارق نمر الحياة لكنّه أشـرف على تعذيبه وأسـهم فيه. اعتقد كيسي أنّ القضيّة ستُحرج الوكالة فأمر بطرد هول من الخدمة مباشرة. قال هچنسن: «طلبنا من وزارة العدل أنْ تنظر في إمكانية محاكمة هول. اخبرونا أنّه ليست هناك قضيّة، فالرّجل قد مات. لذلك اكتفينا بفصله». تقدّم هول بشكوى ضدّ الوكالة لفصله دون ذنب، لكنّ الشّكوى اهمِلت».

لا يزال هول غاضبا يملأه الوهم. من الواضح أنّه لـم يأسـف على معاملة نمر بتلك القسوة، ويعتقد أنّ الوكالة قد ارتكبت خطأ لأنّها رفضت أنْ تقدِم على أيّة خطوة استنادا إلى تحقيقاته. اطلقت السّلطات اللبنانيّة سراح كافة الأشـخاص الذين ألقي القبض عليهم، ويقول هول بمرارة: «لم يُعاقب أحد سواي».

للأسـف، إنّ الأدلـة ضـد نمـر كانـت اقـلّ وضوحـا ممـا اعتقـده «ضابـط

الموت». اشـار مراسـل مجلة نيوزويك دكي أنّه في عام 1985 قام قاض بتسـمية نمر كمسـؤول عن تفجير السّـفارة. غير أنّ دكي أضاف أنّ: «البعض من زملاء نمر القدماء قالوا إنّه كان ضحيّة خصومات وصراعات داخليّة بين امراء الحرب السّـريين، وليس له أيّة علاقة بالقضية». وطبعا، فإنّ اسـتخدام «ضابط الموت» لأساليب التّعذيب قد قلّل من قيمة اعترافات نمر. ولو وضعنا الإعترافات جانبا، فليس هناك أيّة أدلة تربطه بتفجير السّفارة. لقد كانت في الحقيقة قضيّة مفبركة.

كما لم يُعر بعض ضبّاط الوكالة الآخرين الأدلة التي استحصل عليها هول من نمر اهتماما. ومن هؤلاء روبرت باير، ضابط الوكالة الذي انتسب إلى إدارة العمليّات عام 1976، وامضى السّنوات العشرين التّالية في الهند والشّرق الأوسط. لم يقابل أيمز في حياته لكنّه آلى على نفسه أنْ يحقق في تفجير السّفارة خلال السّنوات التّالية. كتب خلاصة استنتاجاته عام 2002 في كتاب عنوانه كي لا ترى شـرّا. لم يُشـر الكتاب إلى تحقيقات هول، لكنّه أتى بفرضيّة جديدة مفادها أن «إيران هي التي امرت بالعمليّة وأنّ شبكة من منظمة فتح قامت بتنفيذها». وحين ذكر الشّـبكة فإنّه عنى عماد مغنية النّاشـط اللبناني الحذر، الذي انضم إلى فتح فـي مقتبـل عمـره. خلـق بايرعلاقة افتراضيّة للقضيّة تقوم علـى أنّ مغنية كان لا يزال على اتّصال برفاقه القدامى في فتح عندما حصل الهجوم على السّفارة.

تـمّ تعييـن سـام وايمن بعد مقتل أيمـز بفترة قصيرة ليكون على رأس إدارة العمليّات للقضايا العربيّة الإسرائيليّة وفي هذا يقول: «طُلب منّي أنْ اتكتّم على كلّ ما يتعلق بالتّحقيق في تفجير السّفارة، ذهبت إلى بيروت وقابلت ضبّاطا من الشّـرطة والأمـن اللبنانـي. قرأت كافـة التّقارير، لكنّني لا اتذكّر أنّني عثرت على دليل ثابت لا سـبيل لإنكاره حول مسـؤولية الفاعلين وهويتهم». وحتّى في عام 2001، اخبر وزير الدّفاع الأسـبق كاسـبر واينبرغر محطة تلفزيون PBS «ما زلنا نجهـل مـن دمّـر ثكنـة المارينز في مطار بيـروت. وبالتّأكيد لم نكن نعرف حينها من فعل ذلك». غير أنّه بمرور السّـنوات، ظهر اتّفاق تدريجي يلقي المسـؤوليّة على عاتق عماد مغنية باعتباره المسـؤول في كلّ الرّوايات المتداولة عن تفجير السّفارة عام 1983. غير أنّه لحدّ الآن مازالت الأدلة مبهمة.

عاش مغنية في الظلّ. حتّى تاريخ ميلاده ومكانه نقطتا خلاف. يقول البعض أنّه وُلد بتاريخ 12 يوليو 1962 في قرية طير دبا، وهي منطقة جبليّة تشرف على ضواحي مدينة صور السّاحليّة في الجنوب اللبناني، وربّما وُلد بتاريخ 25 يناير 1962 في جنوب بيروت. ينتمي إلى اسرة شيعيّة فقيرة تعتاش على بستان صغير فيه اشجار زيتون وليمون. نشأ وترعرع في احياء جنوب بيروت الفقيرة المجاورة لمخيّمات اللاجئين الفلسطينيّين في صبرا وشاتيلا. سكنت عائلته في بيت صغير يفتقر إلى خدمات الماء. وصفه اصحابه بأنّه «ذكيّ جدّا وحذر للغاية». في الرابعة عشرة من عمره انضمّ هو وعدد من اقرانه إلى معسكر فتح لتدريب الشّباب قرب الدّامور على السّاحل الجنوبي للبنان. كان المعسكر باشراف ضابط اسمه أنيس نقاش. استمرت فترة التّدريب العسكري 21 يوما. ذكر نقاش للكاتب نيكولاس بلانفرد، الذي ألف كتابا عن تاريخ حزب الله بعنوان **المارد الشيعي يخرج من القمقم**: «إنّ عماد مغنية تميّز عن رفاقه. ففي الوقت الذي كان فيه الآخرون يتطلعون إلى نهاية التّدريب حتّى يبدأوا اطلاق النّار الحيّ، كان عماد يهتمّ اكثر بقضايا التّخطيط العسكري وفنون القتال. كان الوحيد الذي يقوم بتسجيل الملاحظات. لم يكنْ يهتم بمسألة اطلاق الرّصاص، مثل الآخرين».

قد يكون مغنية درس إدارة الأعمال في الجامعة الأمريكيّة في بيروت، غير أنّه وسط الحرب الأهليّة ربّما في اواخر 1978 حين غزا الإسرائيليّون لبنان للمرّة الأولى، قام علي حسن سلامة بضمّه للقوة 17. وفي وقت ما، ربّما يكون قد استفاد من التّدريب الذي وفرته وكالة المخابرات المركزيّة لجعل الحرس الشّخصي لعرفات «أكثر مهنيّة». عمل ضمن وحدة حماية عرفات وقاتل كقنّاص عند الخطّ الأخضر الفاصل بين شرق بيروت وغربها. قام بزيارته الأولى لإيران عقب الثورة في مطلع 1979، ويورد البعض أنّه ذهب لإداء فريضة الحجّ في مكّة عام 1980 برفقة آية الله محمد حسين فضل الله، المرجع الشّيعي. وكغيره من شباب الشّيعة اصبح عماد مغنية اكثر راديكاليّة حين اختفى الإمام الشّيعي المعروف موسى الصّدر في ظروف غامضة وهو يزور ليبيا عام 1978. ثمّ ازداد ثوريّة إثر حصار اسرائيل لبيروت صيف 1982. كان شاهدا على الموقف العاطفي لجانت لي ستيفنز وهي تتوّسل عرفات باكية ألّا يغادر بيروت. وطبعا كان شاهدا

على مجازر صبرا وشاتيلا في سبتمبر ذلك العام، والتي اثرت عليه تأثيرا بالغا. كان لتنامي قوّة ثوريّته اسباب عدة.

بحلول شهر ابريل 1983 كان مغنية يبلغ من العمر 21 عاما. وكما يتساءل ضابط الوكالة روبرت باير في كتابه: «كيف استطاع شاب فقير من عين الدّلبة أنْ يرتفع من رماد الغزو الإسرائيلي عام 1982، ليصبح خلال أقلّ من عام، قادرا أنْ يضع على الخارطة اكثر المنظمات الإرهابيّة دمويّة وتمويلا؟» يشير باير بهذا السؤال لما هو واضح بأنْ القضيّة لا يمكن تحقيقها أو تصديقها. كان مغنية لا يزال شابا يافعا فكيف يمكن أنْ يكون خطط وتفنّن وقاد الهجوم على السّفارة. ومع ذلك فإنّ اسمه اصبح خلال العقود القادمة مرتبطا بعدد من العمليّات الهجوميّة. القت الوكالة باللوم عليه في سلسلة طويلة من الهجمات الإرهابيّة خلال فترة استمرّت 25 عاما:

- الهجوم على ثكنة المارينز في بيروت الذي نجم عنه مقتل 241 عسكريّا بتاريخ 23 اكتوبر 1983.
- اختطاف مدير محطة الوكالة في بيروت وليم بكلي بتاريخ 16 مارس 1984، والذي بقي محتجزاً حتّى فارق الحياة.
- تفجير مبنى ملحق بالسّفارة الأمريكيّة في بيروت بتاريخ 20 سبتمبر 1984.
- اختطاف طائرة TWA رحلة رقم 847 بتاريخ 14 يونيو 1985وقتل جندي بحريّة امريكي اسمه روبرت ستيثم (وُجدت بصمات اصابع مغنية على الطائرة).
- تمّ اختطاف عدد من الغربيّين في لبنان خلال فترة الثمانينات.
- تفجير سفارة إسرائيل في بيونس آيرس ومقتل 29 شخصا بتاريخ 17 مارس 1992.
- تفجير المركز الثقافي اليهودي في الأرجنتين ومقتل 86 شخصا بتاريخ 18 يوليو 1994.
- تفجير ابراج الخبر في السّعوديّة ومقتل 19 عسكريّا امريكيّا ومدني سعودي واحد بتاريخ 25 يونيو 1996.

وإذا قمنا باحصاء القتلى الأمريكيّين في تفجيري السّفارة والثكنة، فإنّ عماد مغنية مسؤول عن اكبر عدد منهم لغاية هجوم 11 سبتمبر بتدبير من أسامة بن لادن والقاعدة. غير أنّ توجيه الإتّهام لمغنية في الإنفجارين المذكورين لم يُطرح حتى ساعة اختطاف طائرة TWA رحلة رقم 847. لقد ادين ذلك العام في محكمة امريكيّة عن دوره في اختطاف الطائرة المذكورة ومقتل جندي البحريّة روبرت ستيثم. إنّ خلاصة سيرته الشخصيّة الطويلة عن العمليّات التي جرت بعد عام 1985 قد قادت الكثير للإفتراض بأنّه لا بُدّ أنْ يكون هو من خطط لهجومي 1983 ونفذهما. وبحسب قول احد ضبّاط الوكالة الكبار المتقاعدين: «حين نكون في شكّ، ونحن دائما على تلك الشّاكلة، فإنّنا نلقي باللوم على مغنية».

أياً يكن الأمر، وفي الوقت الذي نعرف فيه الكثير عن المراوغ مغنية، فإنّه عرض خدماته بعد رحيل عرفات عن بيروت عام 1982 على القوّات السّياسيّة الشّيعيّة. لم يكن حزب الله موجودا بعد، على الأقلّ بالاسم، لكنّ المقاومة الشّيعيّة المتمثلة في أمل الإسلامية التي تأسّست ذلك العام بتأثير من الثورة الإيرانيّة كانت موجودة. كما وُجدت جماعة أخرى هي منظمة الجهاد الإسلامي. ربّما تكون نفس الشيء ولكن باسم آخر. اتّحدت المنظمتان لتُصبحا ما يُسمى الآن حزب الله. ولكن في اواخر عام 1982 كانت المقاومة الشّيعيّة ذراعا فعّالا للحرس الثوري الإيراني. وحين عرض مغنية خدماته على أمل الإسلامية، فإنّ ذلك يعني أنّه بدأ يعمل لصالح الحرس الثوري.

ووفقا لما كتبته هالة جبر عام 1997 في كتابها «حزب الله: ولد لينتقم»، فإنّ مغنية تحرّر من وهم منظمة التّحرير الفلسطينيّة، و«تحوّل نحو الحرس الثوري الإيراني الذي وصل لتوّه إلى لبنان». اشارت جبر إلى أنّ مهام مغنية الأولى كانت «جمع المعلومات التّفصيليّة عن السّفارة الأمريكيّة ووضع خطة تضمن إلحاق اكبر ضرر دون ترك ادلة عن الفاعلين».

وكما صرح عضو لبناني معروف في حركة فتح وهو بلال شرارة للصّحفي نيكولاس بلانفرد أنّ «مغنية مبدع». اتّصل به في خريف عام 1982 ليخبره «عن خطة جريئة وأنّه يحتاج لبعض المتفجّرات. وتساءل إنْ كان بحوزتي شيء منها. ثمّ شرح مغنية أنّه يوجد شخص مستعدّ لتنفيذ عمليّة انتحاريّة ضدّ الإسرائيليّين

مستخدما تلك المتفجّرات». يقول شرا\ره أنّه ضحك، «واعتقدت أنّه مجنون. من يفكّر في تفجير نفسه؟ لم يقمْ أحد بعمل من هذا القبيل في ذلك الوقت». ذكر بلانفرد في كتابه المارد الشيعي يخرج من القمقم الصادر عن الدار العربية للعلوم أنّ مغنية أقنع احد اصدقاء طفولته المدعو احمد قصير البالغ 17 عاما أنْ يقود سيّارة بيجو بيضاء مفخّخة ويقتحم مدخل مقرّ الجيش الإسرائيلي في صور. انفجرت السّيارة وقتلت 75 عسكريّا إسرائيليّا. جرى ذلك بتاريخ 11 نوفمبر 1982، أيْ خمسة اشهر قبل تفجير السّفارة وعشرة اشهر قبل تفجير ثكنة المارينز. وعليه، فإذا كان مغنية قد نظم الهجوم الإنتحاري في صيدا، فقد يكون من المؤكّد أنّه خلف تفجير السّفارة والثكنة في بيروت. توصّلت **الموساد** إلى قناعة تامّة بأنّ مغنية مسؤول عن ذلك. قال يورام هِسِل، وهو ضابط **موساد** كبير: «لقد عرفنا بعد ذلك أنّ مغنية مسؤول عن اعمال إرهابيّة أخرى. ولكن لا بُدّ من وجود داعم يقف خلف هذه النّشاطات».

في شهر مارس 1983 قاد مغنية سيّارته إلى دمشق ليقابل السّفير الإيراني في سوريا علي أكبر محتشمي بور. ووفقا لما جاء في كتاب جبر عن حزب الله أدار السّفير الإجتماع بحضور ضبّاط من المخابرات السّوريّة. وكان على جدول الأعمال خطة لإخراج الأمريكيّين والفرنسيّين، وغيرهم من قوات حفظ السّلام الدّوليّة من لبنان. اقترح مغنية سلسلة من التّفجيرات باستعمال انتحاريّين وسيّارات مفخّخة مثلما جرى في صور. وإذا كان ذلك صحيحا، فإنّ من نتائج ذلك الإجتماع هو الهجوم الإنتحاري على السّفارة في بيروت بتارخ 18 ابريل 1983.

عمل مغنية في أشدّ الظلال حلكة، وتمكّن تدريجيّا من انشاء شبكة من الأشخاص الذين يثق بهم ثقة تامّة لأنّهم اقارب له. ولمدة عقدين من الزّمن، نُشرت له صورتان فقط. يتذكّر مصطفى زين فيقول: «كان عماد شابّا وسيما نحيلا جدّا». فهو يعرفه من ايام عمله في **الوحدة** 17. «ما كان بإمكاني التّعرّف عليه من خلال الصّورتين بعد مرور تلك السّنين».

اختلف عماد عن زملائه من الشّيعة الآخرين، لأنّه لم يكن مدفوعا بالواعز الدّيني. استطاع الإسرائيليّون اعتراض مكالمة تلفونيّة لأحد اصدقائه الذي قال:

«لـم يكـنْ ورعـا إذا اخذنا الدّين بعين الإعتبار، لكنّ انجازاته العسـكريّة تعوّض عن ذلك وتضمن له مكانا في الجنّة».

تفيد بعض المصادر أنّه قد اجريت له عمليّة لتغيير معالمه، لكن مثل هذا القول جزء مشكوك فيه من اسطورته. عاش في بيروت إلّا أنّه اختلف عن طريقة علي حسـن سـلامة، لأنّه كان دائم الإنتقال بين الشّـقق والمدن، لأنّه عرف في منتصف الثمانينات بأنّه مستهدف. كتب روبرت باير فقال: «ربّما كان مغنية اكثر ذكاء ومقدرة من كلّ الذين نعرفهم، بما فيهم عملاء المخابرات السّوفياتيّة KGB أو أيّة وكالة أخرى. فهو يدخل من باب ليخرج من باب آخر، يغيّر سيّارته كل يوم ولم يعط موعدا لأحد باستخدام الهاتف، ولا يمكن التوقع بمكانه أو نواياه. كان يتعامل فقط مع الأشخاص الذين يمكن الوثوق بهم، ولم يسعَ لتجنيد أحد آخـر. إنّـه أمهـر الإرهابيّين، وهو مـن بحثنا عنه جاهدين منذ عام 1983». وصفه مدير سابق للموساد: «بأنّه داهية جدّا وموهوب للغاية... كان حلقة الوصل بين حزب الله وإيران وأمضى وقتا طويلا فيها». يُقال إنّه تعلم الفارسيّة وتكلّمها كأي إيراني، لدرجة أنّ الإيرانيّين منحوه جنسيّة بلدهم.

عرفه مصطفى زين، فكلاهما شيعي ومتعاطفان مع القضيّة الفلسطينيّة وهما أيضا معجبان بالرّاحل علي حسـن سـلامة. إلتقيا بتاريخ بتاريخ 16 مارس 1984 إثر اختطاف مدير محطة الوكالة في بيروت وليم بكلي. حين اختفى بكلي توسّل سـام وايمـن بزيـن ورجـاه أنْ يأتي من نيويورك ليتفاوض لاطلاق سـراح بكلي. عـرف زيـن أنّ فـي عودتـه لبيروت خطورة، لكنّه فعل ذلـك لأنّ الوكالة اطلقت على محاولة تخليص بكلي من الاختطاف اسـم «عمليّة بوب أيمز». عمل زين مـا بوسـعه. وفـي وقـت ما، التقى بعمـاد مغنية وجها لوجه لأجـل تحديد مكان احتجـاز بكلـي وغيـره من المختطفين الأمريكيّين. وممّا لا يُصدّق فيه أنّه حصل على صورة جماعيّة للمخطوفين وهم يحملون نسخة من مجلة نيوزويك، سلمها للوكالـة. بـدأت المفاوضات وطلب الخاطفون بشـكل واضح أنْ تطلق الكويت سـراح 22 رجـلا شـيعيّا حُكـم عليهـم بأنّهـم إرهابيّـون واطلـق عليهـم جماعـة الدّعوة 22.

في ربيع 1985 عاد زين إلى بيروت. اعتقد أنّه كان قريبا جدّا من عقد صفقة

لإطلاق سراح المختطفين الأمريكيّين. ولكن بتاريخ 8 مارس نجا بأعجوبة من الموت حين جرت محاولة لاغتيال آية الله محمد حسين فضل الله، الزعيم الرّوحي لحزب الله. كان الإثنان على وشك أنْ يستقلا سيّارة الشّيخ حين اوقفهما حارس في آخر لحظة. تحرّكت السّيّارة إلى المكان المقرّر لها. وعلى بعد حوالى 40 ياردة فقط من منزل فضل الله انفجرت سيّارة مفخّخة كانت مركونة إلى جانب الشّارع وفيها 440 رطلا من المواد المتفجّرة. تسبّب الإنفجار في انهيار بناية من سبعة طوابق وأدى لمقتل 80 شخصا، كان بينهم شقيق مغنية الذي عمل مرافقا للشّيخ، كما قُتل عدد من اصدقائه. لقد تمّ اخبار مدير الوكالة بأنّ فضل الله قد «بارك» السّائق الإنتحاري في حادث تفجير السّفارة الذي ذهب ضحيته بوب أيمز وعدد كبير آخر. افاد وودورد بأنّ اجتماعا جرى في واشنطن بين كيسي وسفير السّعوديّة بندر بن سلطان، واتّفق الإثنان على عمليّة مشتركة رُصدت لها ميزانيّة قدرها 3 ملايين دولارا. يُضيف وودورد قائلا: «كانا يعرفان أنّ الشّيخ فضل الله هو المرجع الروحي لحزب الله. لقد تمّ اقتران اسمه بالتّفجيرات الثلاثة للمباني الأمريكيّة في بيروت، وعليه يجب القضاء عليه. ووفقا لمصادر وودورد، فإنّ كيسي قد استحصل على موافقة الرّئيس ريغن على تنفيذ تلك العمليّة السّرّيّة. جُنّد عدد من افراد قوّات امن الكتائب وتمّ تدريبهم وتمويلهم من قبل الوكالة، ورُمز إلى هذه المجموعة باسم FWAU. كان هدفها شنّ عدد من الهجمات الإنتقاميّة ضدّ الإرهابيّن الذين دمّروا السّفارة وثكنة المارينز عام 1983.

فشلت المحاولة التي استهدفت فضل الله وانتهت بمقتل عدد كبير من الأبرياء، لكنّ وحدة FWAU لم يكن يعنيها كم يُقتل من النّاس الأبرياء. وطبعا لم يقصد كيسي ولا بندر بن سلطان قتل 80 مواطنا لبنانيّا. يشير وودورد إلى أنّه «حين شاهد بندر الأخبار اتّخذت السّفارة في واشنطن موقفا، وهو إلقاء اللوم على عاتق جهات اخرى. يقتبس وودورد قول بندر «اطلق عليك النّار، فتشكّ بأنّني الفاعل. لكنّني اسلم سائق سيّارتي للسّلطات واقول إنّه فعلها. ويجب أنْ تقتنع بأنّني لستُ متّهما». انكر بندر أيّ دور للسّعوديّة. وطبعا ليس لدى وودورد وثائق مسجّلة، ولكن لديه عدد لا يُصدّق من المصادر البشريّة المقرّبة

مـن الوكالـة. يعتقـد مصطفى زين أنّ كيسـي قد امر فعـلا بتنفيذ تلك المحاولة، ومصـدره هـو عمـاد مغنيـّه، الذي اخبره فيما بعد أنّهم القوا القبض على الرّجال الذين سـاهموا في التّفجير الذي قتل فيه شـقيقه، واعترفوا أنّ العمليّة كانت من تدبير وكالة المخابرات المركزيّة. ومرّة اخرى كما وجدنا في رواية وودورد أنّه توجد مصادر غير مكتوبة لرواية مغنية. قام روبرت باير وغيره من رجال الوكالة بانتقاد وودورد، والقوا باللوم على عاتق قوّات الأمن اللبنانيّة.

وضع تفجير بئر العبد نهاية للمفاوضات حول اطلاق المختطفين الأمريكيّين. علق مغنية ورفاقه في حزب الله لافتة بيضاء في مكان التّفجير كُتب عليها باللون الأسود «هذا من صُنع امريكا». انتهت مفاوضات زين وكان بكلي لا يزال حيّا في اواخر شهر يوليو عام 1985، لكنّه توفي في نهاية السّنة ربّما لإصابته بمرض التهاب الرّئة. أمّا المختطفون الأمريكيّون الآخرون فلم يُطلق سـراحهم إلّا بعد مرور عدد من الشّهور والسّنوات القادمة.

من المؤكّد أنّ لعماد مغنية البالغ حينها من العمر 21 عاما دورا في تفجير السّـفارة. رُبّما هو من اقترح الفكرة ونفذها آخرون. لقد كانت عمليّة معقّدة لا يمكن لشاب بعمره أنْ يقوم بتخطيطها وتنفيذها لوحده، حتّى وإنْ كان عضوا في قوة 17. يذكر زين أنّه في ربيع عام 1985 حين اوشك أن يُقتل في محاولة اغتيال آية الله فضل الله، أنّ مغنية اخبره أنّه ليسـت له علاقة بالهجوم على السّـفارة. ادّعى أنّ السيّارة الصّغيرة المفخّخة كانت اصلا متّجهة لتستهدف ثكنة المارينز، ولكن في اللحظة الأخيرة تمّ اشـعار السّـائق الإنتحاري بتنفيذ التّفجير في مبنى السّفارة. لم يكن يعرف لماذا. يقول زين أنّ مغنية أخبره أنّ العمليّة كانت «عمليّة علي رضا أصغري» إشارة إلى قائد الحرس الثوري الذي جنّده عام 1982.

توصّل المحققون الأمريكيّون إلى أنّ سـيّارة الشّـحن الصّغيرة، التي شـقت طريقها داخل بهو السّـفارة وتمّ تفجيرها هناك، كانت قد اشـتريت في تكسـاس وشُحنت إلى دُبي وانتهت بشكل أو بآخر في شوارع بيروت. وحملت ما يقارب من الفي رطل من المتفجّرات. والأسئلة هي من جمّع القنبلة واعدّها؟ من موّل العمليّة؟ من اشترى السّيّارة ودفع كلفة المتفجّرات؟

أخيرا، في شهر مارس عام 2000 قرأت آن دامارِل، وهي اشجع الذين نجوا

من التّفجير، في الصّحف أنّ الصّحفي تري أندرسن، الذي اختطِف في بيروت قد كسب دعوى ضدّ جمهورية إيران الإسلاميّة. حكمت المحكمة الفدراليّة في العاصمة واشنطن له بتعويض قيمته 41 مليون دولار للأضرار التي لحقت به طيلة فترة اختطافه واحتجازه لمدّة 6 سنوات. اتّصلت دامارِل بمحامي أندرسن الذي تولى القضيّة، وهو ستيوارت نيوبرغ، من مكتب محاماة كراول ومورنغ وطلبت منه أنْ يمثلها واسر ضحايا تفجير السّفارة. وافق نيوبرغ واقام عام 2002 دعوى باسم دامارِل ونيابة عن إيفون أيمز وأولادها وعدد آخر من المدّعين. عقدت المحكمة الفدراليّة في شهر سبتمبر عام 2003 واصدر القاضي جون بيتز حكمه أنّ جمهوريّة إيران الإسلاميّة مسؤولة عن تفجير السّفارة بتاريخ 18 ابريل 1983. توصّلت المحكمة الى أنّ الإعداد للتّفجير قد تمّ على يد فنيّين عاملين مع الحرس الثوري الإيراني في وادي البقاع، وأنّ التّحليلات الكيمياويّة للمتفجّرات المستخدَمة التي بلغ وزنها الفي رطل هي من نوع PETN، وهذه متفجّرات عسكريّة. توصّل المحققون إلى أنّ هذا النّوع غير متوفر للبيع في الأسواق في لبنان، وأنّ تلك الكميّة منه تُصنع في إيران للأغراض العسكريّة، وأنّ القنبلة التي تمّ اعدادها لم تكنْ سهلة التّركيب وأنّ المواد كافة قد جاءت من مصنع عسكري إيراني.

من المؤسف أنّه لا توجد وثائق استخباراتيّة علنيّة تتناول هذا الموضوع، لكنّه توجد قرائن على أنّ تفجير السّيّارتين المفخّختين في الثكنتين الأمريكيّة والفرنسيّة بتاريخ 23 اكتوبر 1983، قد ادّى إلى مقتل 299 من العسكريّين، وأنّ نوع المتفجّرات هو PETN، الذي استخدم في تفجير السّفارة. اعترضت وكالة الأمن القومي بتاريخ 26 سبتمبر 1983 بعض الرّسائل من وزارة الإستخبارات والأمن في طهران موجّهة إلى السّفير الإيراني في دمشق علي أكبر محتشمي بور. توجّه تلك الرّسائل السّفير لكي يتّصل بحسين الموسوي قائد المليشيا الشّيعيّة التي تأسّست حديثا وهي أمل الإسلامية، والطلب منه «أنْ يقوم بعمل معيّن ضد قوّات المارينز الأمريكيّة». كانت تلك الرّسالة بتاريخ 26 سبتمبر وتمّ العثور عليها بعد يومين من التّفجير بتاريخ 23 اكتوبر. يبدو أنّها برهان لا جدال فيه أنّ لإيران يد في العملية. وصف الأدميرال جيمس ليون تلك الرّسالة بأنّها

«وثيقة من الذهب الخالص».

بعد سنوات، ادلى عضو سابق في حزب الله واسمه السّرّي «محمود» بشهادة مسجّلة على الفيديو امام محكمة فدراليّة إدّعى فيها أنّ السّفير محتشمي بور قد اصدر الأوامر إلى ضابط في الحرس الثوري اسمه أحمد كنعاني أنْ يعدّ العدّة لهجوم على ثكنة المارينز. كان كنعان وقتها يعمل في ثكنة الشّيخ عبد الله في البقاع كقائد لعدّة مئات من الحرس الثوري المقيمين في بعلبك، وخدم هناك حتّى اواخر شهر يناير 1984. اضاف «محمود» أنّ كنعاني عقد اجتماعا في بعلبك مع حسين الموسوي والشّيخ صبحي طفيلي والشّيخ حسن نصر الله، وهم من القادة الأوائل لمنظمة أمل الإسلاميّة، التي اصبحت فيما بعد حزب الله. ادّعى «محمود» انّهم تلقوا الأوامر «فاجتمعوا وخططوا لمهاجمة الثكنتين الأمريكيّة والفرنسيّة في نفس الوقت... تمّ تجهيز السّيّارتين وتفخيخهما في ورشة في بئر العبد قرب محطة للوقود».

تضع تلك الشّهادة عام 2003 مسؤوليّة تفجير الثكنتين مباشرة على عاتق قائد حزب الله الحالي الشّيخ حسن نصر الله. كما استمعت المحكمة لشهادة مصدر مجهول، وهو ضابط في المخابرات الأمريكيّة، قال فيها إنّه يثق بقدرة «محمود» وصدقه. وطبعا لا يمكن تقييم مثل هذه الأدلة القادمة من الظلّ. تواصل الحكومة الأمريكيّة منذ عام 2003 ولحدّ اليوم سياسة خارجيّة مولعة بعدم الثقة بحزب الله. ومن جهة اخرى فإنّ كلّ شيء نعرفه عن أمل الإسلاميّة وفترة بروز حزب الله، أنّه خلال تلك الفترة الممتدّة بين عامي 1982-1983، تلقت هذه الحركة الشّيعيّة الوليدة الأوامر بشكل مباشر من الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

يعتقد فنسنت كانيسترارو، وهو ضابط متمرس متقاعد في الوكالة وخدم كضابط عمليّات سريّة في قسم الشّرق الأوسط وعمل في قضيّة مغنية في فترة الثمانينيات حين كان عضوا في لجنة داخل الوكالة تابعت مسألة المختطفين الأمريكيّين في لبنان، أنّ مغنية كان مساهما بشكل ما في تفجير السّفارة، لكنّه يضيف أنّه لم يكنْ وحده. «هل كان مغنية في ذلك العمر المبكّر مسؤولا عن تفجير السّفارة؟ لا... إيران هي التي زوّدت الفاعلين بالمتفجّرات».

جوهر القضيّة هو أنّ تفجير السّفارة وثكنة المارينز هما عمليتان بقيادة

طهران نفذهما ضبّاط من الحرس الثوري المتواجدين في بعلبك. لم يكنْ أحمد كنعاني هو ضابط الحرس الثوري الوحيد العامل في بعلبك في ذلك الوقت. كان أيضا العقيد مصطفى محمد نجّار، وهو ضابط آخر في الحرس الثوري في لبنان خلال حقبة الثمانينيات. كلّ هؤلاء الرّجال اشتركوا في تنفيذ قائمة طويلة من عمليات الإختطاف والهجمات باستعمال السّيّارات المفخّخة. ومعروف أنّ لكلّ هؤلاء الرّجال ارتباط بعماد مغنية.

ادلى السّفير روبرت دِلِن عام 2003 بشهادة امام محكمة فدراليّة، فقال: «اتذكّر أنّني علمت بوجود ضابط مخابرات إيراني كبير في بعلبك، وكان يتنقل احيانا بين تلك المدينة والعاصمة دمشق، وافترض من هناك إلى طهران. لا اتذكّر اسمه بالضّبط. اخبرني ضبّاط الوكالة فيما بعد أنّه حسب وصفهم الإرهابي الرّئيسي». وهذا يقترح بشكل واضح أنّه خلال فترة معيّنة اثناء التّحقيق في تفجير السّفارة، كانت لدى الحكومة الأمريكيّة ادلة حول تورّط ضابط مخابرات إيراني. ومن الغريب جدّا أنّه حتّى بعد مرور 30 عاما لم يُكشف النّقاب عن هويّة ذلك الضّابط. (الضّابط موجود حاليّا في الولايات المتّحدة. مُنح لجوء سياسيّا بعد أنْ انشّق على طهران خلال فترة حكم جورج بوش الابن- المترجم)

وعلى أيّة حال، فإنّ اسم مغنية تردّد باستمرار كلما مرّ ذكر تفجير السّفارة وغيرها من الأعمال الإرهابيّة. ظهر اسمه للعلن بعد أنْ ادين بتهمة اختطاف طائرة TWA الرّحلة رقم 847 بتاريخ 14 يونيو 1985. تمّ تنفيذ الإختطاف على يد عناصر من حزب الله انتقاما لتفجير بئر العبد الذي استهدف الشيخ فضل الله وكاد يودي بحياته بتاريخ 8 مارس 1985. في شهر اكتوبر 2001 وُضع مغنية على قائمة مكتب التّحقيقات الفدرالي ضمن مجموعة ضمّت اسماء 25 إرهابيا مطلوبا.

حاولت الولايات المتّحدة عدّة مرّات استهداف مغنية، وكادت تنجح في ذلك عام 1988 عندما كان في العاصمة الفرنسيّة، غير أنّ السّلطات هناك اصرّت أنّه تمكن من مغادرة البلد. في عام 1994 اغتالت الموساد فؤاد مغنية شقيق عماد وهو صاحب حانوت في جنوب بيروت. قتلت السّيّارة المفخّخة كذلك اربعة

مدنييّن. كانت الموساد تأمل أنّ عماد سيحضر جنازة شقيقه فتغتاله. غير أنّ الشّاب المراوغ احسّ بالفخّ المنصوب له، فغاب عن مراسم الجنازة.

علمت الوكالة بتاريخ 7 ابريل 1995 أنّه كان على متن طائرة الشّرق الأوسط اللبنانيّة القادمة من الخرطوم إلى بيروت، مع توقف في الرّياض. يبدو أنّ هناك ادلّة موثوق بها أنّه سافر إلى الخرطوم للقاء إسامة بن لادن، ليخبره عن التأثير الكبير الذي تركته الهجمات الإنتحاريّة على الأمريكييّن والفرنسييّن في مطلع الثمانينيات في لبنان. (هذا نموذج آخر من الهوس واللغو الإسرائيلي، وكأنّ بن لادن لا يعلم بالأمر شيئا حتّى حضر مغنية ليخبره بذلك! - المترجم) يستند الصّحفي الإسرائيلي برغمن في زعمه هذا مستندا إلى اعترافات علي عبد السّعود محمّد، وهو امريكي المولد مصري الأصل كان قد اعتقل فيما بعد لمشاركته في تفجير سفارتي امريكا في تنزانيا وكينيا، وهما اوّل هجومين للقاعدة. ادّعى محمّد أنّه سلم تفاصيل الهجوم خلال اجتماع بن لادن ومغنية الخرطوم. يؤكّد لورنس رايت الحائز على جائزة پوليتزر عن كتابه البرج الذي يلوح في الأفق: القاعدة والطريق إلى 9/11، أنّ مغنية اجتمع مع بن لادن وهو الذي اقنعه بأنّ «الهجمات الإنتحاريّة قد يكون لها تأثير فعّال». وبعد ذلك بعث بن لادن ممثله علي محمّد إلى بيروت، حيث تلقى تدريبا في فنون المتفجّرات على يد حزب الله. نفى الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله اتّهامات الولايات المتّحدّة لمغنية وكونه ضالعا في الأعمال الإرهابيّة. اخبر مراسل مجلة تايم نكولاس بلانفرد: «إنّها اتّهامات لا تتعدّى كونها اتّهامات... هل بإمكانهم تقديم دليل يدين مغنية؟» وصفه بأنّه: «محارب من اجل الحريّة»، واضاف: «كان له دور فعال في مقاومة احتلال إسرائيل للجنوب اللبناني». في الحقيقة، لعب مغنية دورا هاما كأحد قادة حزب الله العسكرييّن لإجبار الإسرائيلييّن على الإنسحاب من لبنان عام 2000. لقد ورد تقرير أنّه كان من روّاد وضع المتفجّرات التي تخترق الدّروع على جوانب الطرقات. وهي التي ادّت إلى مقتل المئات من الإسرائيلييّن في الجنوب اللبناني. كما أنّه ساهم في الحرب الإسرائيليّة اللبنانيّة في صيف عام 2006. كانت تلك الحرب مأساة حلت بلبنان، ومع ذلك فإنّ حزب الله ادّعى الإنتصار لأنّه تجاوز الهجوم الإسرائيلي الضّاري.

بتاريخ 12 فبراير عام 2008 كان مغنية يبلغ من العمر 45 عاما. حضر إلى دمشق ليشارك في احتفال مرور 29 عاما على الثورة الإيرانيّة. جرى الإحتفال برعاية السّفير الإيراني في ضاحية كفرسوسة في دمشق. ترك مغنية الحفل حوالى السّاعة 10:15 ومشى إلى سيّارته. وحين فتح الباب وجلس في مقعده انفجرت وسادة الرّأس. قال احد الشّهود إنّ جسم مغنية قد رُمي بفعل الإنفجار خارج السّيّارة وقد انفصلت اطرافه عن جسمه فمات في الحال. صرّح فنسنت كانيسترارو احد ضبّاط الوكالة الذي كان مسؤولا عن ملفه قائلا: «تمّ اغتيال مغنية على يد الإسرائيليّين ونحن الذين وفرنا لهم المعلومات عن تحرّكاته واماكن تواجده». غير أنّ ضابطا آخر في الوكالة اصرّ على أنّ العمليّة كانت من تدبير الوكالة وتمّت إدارتها من لانغلي. ذكر هذا الضّابط الذي لم يُكشف عن اسمه بأنّ مغنية قد اغتيل بفعل متفجّرة وُضعت في العجلة الإحتياطية في سيّارته. قام الإسرائيليّون بتوفير المعلومات عن مكانه، إلّا أنّ فريقا سرّيّا من الوكالة هو الذى نفذ عمليّة الإغتيال.

في تصريح لوزارة الخارجيّة الأمريكيّة، ادلى به المتحدّث باسمها شون ماكّورماك أنّ «العالم مكان افضل بدون هذا الرّجل. كان قاتلا بدم بارد وإرهابيّا تسبّب في مقتل عدد لا يُحصى من الأبرياء. وبطريقة أو بأخرى لقي الجزاء العادل». ذكر داني ياتوم وهو رئيس سابق للموساد بأنّ مغنية «كان من أشدّ الإرهابييّن خطورة». وقالت ضابطة للموساد كان لها دور في اغتياله لأحد الصّحفيّن الإسرائيليّين إنّها تحترم قدرته على التّجسّس ومهنيّته. «إنّ قصّته قضية نادرة عن شخص واحد استطاع أن يغيّر التّاريخ».

اتّهم حزب الله الموساد في اغتيال مغنية ووصفه على موقعه في الشّبكة بأنّه «قائد عظيم وشهيد». في حفل التّأبين الذي اقيم في بيروت قالت إحدى المعزّيات واسمها زهراء للصّحفي انطوني شديد مراسل نيويورك تايمز: «الشيء الذي لا يعرفونه أنّه في هذا اليوم تماما وباغتيال عماد مغنية سيولد مئات مغنية جُدد. كلما يقتلون واحدا منّا سيولد مائة آخرون. يعتبرونه إرهابيّا. بالنّسبة لنا، هو بطل سقط صريعا في ساحة الوغى يقاتل اعدائنا». في الحقيقة، وفي ربيع ذلك العام نشرت نيويورك تايمز خبرا مفاده أنّ ايران اصدرت طابعا بريديّا يحمل

صورة مغنية تخليدا لذكراه. في خريف عام 2008 افتتح حزب الله متحفا في جنوب لبنان في مدينة النّبطيّة للإحتفال بحياته واستشهاده. كتب روبرت وورث لصحيفة نيويورك تايمز: «للوهلة الأولى يبدو المتحف وكأنّه ملعب للأطفال. تشاهد عند المدخل نموذجا مكبّرا لقبّعته المشهورة، ثمّ تعبر جسرا صغيرا مبنيّا من ظروف اطلاقات المدفعيّة الفارغة. وهناك صندوق زجاجي عُلقت بداخله بدلته التي كان يرتديها لحظة اغتياله وهي ملطخة بدمائه. ويستطيع الزّائر أنّ يرى داخل الصّندوق الزّجاجي حزامه وحذائه وتلفونه المحمول. كما عُرضت السّجادة التي كان يصلي عليها وفرشاة شعر. وُضعت جميعا وكأنّها مقتنيات قدّيس يجب حفظها». حسب قول وورث.

وعليه، فإنّه في نظر بعض النّاس كان مغنية بطلا للمقاومة الشّيعيّة ومحاربا سقط في ساحة الوغى. وهذه قناعة حيّة موجودة لا سبيل لإنكارها. غير أنّ هذا السّرد يتعارض تماما مع حقيقة أنّه بتاريخ 18 ابريل 1983، لم يُقتل بوب أيمز و7 امريكيّين آخرين من منتسبي الوكالة فقط، بل قُتل ايضا 64 مدنيّا لبنانيّا. هؤلاء ابرياء، وكذلك كان بوب أيمز ورفاقه.

تمّت تصفية مغنية لكنّ ضباط الحرس الثوري الإيراني المتورّطين في الهجوم على السّفارة ما زالوا احياء طلقاء. اصبح احمد كنعاني الذي كان قائدا للحرس الثوري في بعلبك وقت تفجير السّفارة فيما بعد سفيرا لبلاده في مدغشقر. واصبح سفير إيران السّابق في دمشق محتشمي بور وزيرا للدّاخليّة، وهو اليوم قائد احد الأحزاب السّياسيّة في إيران. أمّا علي رضا أصغري، فيعتقد زين أنّه هو الذي جنّد عماد مغنية واعدّه اصلا لمحاربة الأمريكيّين. لقد اخبر مغنية صديقه زين أنّ الهجوم على السّفارة كان «عمليّة أصغري». وتبقى قضيّة أصغري هذا مسألة غير طبيعيّة.

وُلد أصغري بتاريخ 10 يناير 1957 في مدينة صغيرة في منطقة آدستان وسط محافظة اصفهان. إنضمّ إلى الحرس الثوري حال قيام الثورة عام 1979. وصل إلى دمشق بتاريخ 21 يونيو 1982 كعضو في الوفد الإيراني الرّسمي الذي ارسل لمناقشة المساعدة التي ستقدّمها إيران في الحرب ضدّ إسرائيل. رافق أصغري وزير الدّفاع الإيراني محمد سلامي مع ضابطين إيرانيّين آخرين. كان

عمر أصغري حينها 25 عاما وعمل كضابط مخابرات في الحرس الثوري. وكان في نفس الوقت عضوا كبيرا في «فيلق محمد رسول الله السّابع والعشرين». تمّ إرسال هذا الفيلق إلى لبنان لكنّه لم يشارك في أيّ قتال. طُلب في ذلك الخريف من كافة مقاتلي الحرس الثوري العودة إلى إيران لمواجهة القوّات العراقيّة. غير أنّه ابقيَ على حوالى 500 عضو من وحدتين في وادي البقاع. كان واحدا من عدّة قادة إيرانيّين تمّ ابقائهم في لبنان. كان تعاونه خلال وجوده في لبنان يجري بالتّنسيق مع العقيد إسماعيل أحمدي مقدّم، وهو القائد العام الحالي لقوّات الشّرطة. القى هذا المسؤول الإيراني الكبير خطابا بتاريخ 12 ديسمبر 2012 قال فيه إنّ أصغري ارسِل عام 1979 إلى المنطقة الكرديّة الإيرانيّة حيث ساعد في قمع الإنتفاضة هناك عامي 1979-1980. ثمّ ذهب للقول إنّ تنسيبه في الحرس الثوري تحوّل من المنطقة الكرديّة إلى لبنان في مطلع الثمانينيات. كما اوضح مقدّم أنّ أصغري بدأ برنامجا لتدريب الشّيعة اللبنانيّين على فنون القتال. وطبقا لقوله وهو صديق قديم له: «لعب أصغري دورا كبيرا في خريف ذلك العام بتأسيس حزب الله وجعله متكاملا من النّواحي العسكريّة والمخابراتيّة والثقافيّة والسّياسيّة». ووفقا لما يقوله زين فإنّ أصغري قابل عماد مغنية في تلك الظروف.

هذا وصرّح رئيس الموساد الجنرال داني ياتوم لصحيفة واشنطن بوست قائلا: «شغل أصغري منصبا عاليا لسنوات طويلة في لبنان. في الحقيقة، كان قائد الحرس الثوري هناك». ومن المؤكّد أنّه كان يتنقل ما بين لبنان ودمشق خلال صيف 1982 وخريفه. وصفته بعض التّقارير الصّحفيّة الإيرانيّة بأنّه قائد «فيلق القدس» وهو الفرع الخارجي للحرس الثوري. إنّ مهمّة هذا الفيلق هي نشر افكار الخُميني وثورته الإسلاميّة في مختلف انحاء العالم الإسلامي. حصل أصغري على ترقية في صفوف الحرس الثوري عام 1985، وامضى الحقبة بين الأعوام 1982-1992 وهو يتنقل ما بين بعلبك وطهران يقود النّشاطات السّياسيّة الإيرانيّة في لبنان، ويقوّي عود حزب الله وجاهزيّته للقتال. وطبعا كانت تلك السّنوات هي الفترة التي ازدادت فيها نشاطات اختطاف الأمريكيّين والفرنسيّين والبريطانيّين وغيرهم من الأوروبيّين حدّة. وُضعوا في ثكنة الشّيخ عبد الله تحت رقابة الحرس الثوري الإيراني، ومات بعضهم وهم رهن الإحتجاز.

امضى البعض منهم مدّة تزيد عن 6 سنوات في الحبس الإنفرادي. ذكر ضابط الوكالة السّابق روبرت باير لمجلة تايمز «إنّ أصغري كان قائد الحرس الثوري وقت جرت تلك الإختطافات والإغتيالات للغربييّن في لبنان في الثمانينيات.» كان هو المسؤول بالتّبعيّة عن نشاطات الإختطاف. اعترف بذلك خلال حديث له مع صحفي من جريدة السّفير بتاريخ 11 ابريل 1991 قال فيه: «تأمل إيران اطلاق سراح المحتجزين الغربييّن وكذلك الفلسطينييّن واللبنانييّن الذين تعتقلهم إسرائيل». لكنّ الولايات المتّحدة رفضت أن تدخل هذه الكوّة لأغراض إنسانيّة. إنّها ترغب فقط أنْ تناور من اجل مصالحها. كما اجريت معه مقابلة قصيرة في نفس العام في برنامج (صوت لبنان) في هيئة الإذاعة البريطانيّة حيث ذكر «قائد الپاسدران في لبنان» أي الحرس الثوري، أنّ هذا الحرس «ليس مليشيا. إنّ مهمتنا أنْ ندرب النّاس لمقاتلة إسرائيل». كتب باير عنه «بأنّه يعرف الأسرار القذرة... يعرف الكثير عن العمليّات التي امر بها الحرس الثوري والهجمات الإرهابيّة، بما فيها الهجوم على ثكنة المارينز عام 1983 في بيروت، وتفجير ابراج الخُبر في السّعوديّة عام 1996». ويبدو أنّ باير يتّفق مع اتّهامات مصطفى زين بأنّ أصغري كان المسؤول المباشر عن مغنية فيقول: «كان أصغري نقطة الإتّصال مع اشدّ الإرهابييّن دمويّة في العالم، عماد فايز مغنية». من الغريب أنّ دور أصغري في كلّ هذه الحوادث اللبنانيّة وعلاقته بمغنية قد ظلت طي الكتمان حتّى لحظة انشقاقه وهروبه للغرب عام 2007.

نال أصغري رتبة عقيد ومنصب نائب وزير الدّفاع في طهران عام 1997. استمرّ في مركزه هذا لغاية عام 2002 حين ترك وزارة الدّفاع ليشغل خلال العامين القادمين منصبا في شركة كالا الكهربائيّة، وهي مؤسّسة ذات علاقة وثيقة بالبرنامج الإيراني للطاقة الذريّة. تمّ اعتقاله عام 2004 وامضى 18 شهرا في السّجن. بعد أنْ اطلِق سراحه عمل في الأعمال الحرّة وتاجر بزيت الزّيتون وبدأ يكتب مذكّراته باللغة الفارسيّة. كان خلال تلك السّنوات مناوئا لسلطة حكم محمود أحمدي نجاد، زميله السّابق في الحرس الثوري، والذي اصبح رئيسا للبلاد عام 2005. ربّما يكون قد تمّ تجنيد أصغري من قبل المخابرات الغربيّة في وقت مبكر قد يكون عام 2003. وعلى أيّة حال. غادر طهران إلى دمشق بتاريخ

17 فبراير 2007 ومنها إلى اسطنبول حيث نزل في احد الفنادق، ثمّ اختفى عن الأنظار. اشار العديد من الصّحف أنّ وكالة المخابرات المركزيّة والموساد قد نقلتا الجنرال الإيراني إلى أوروبا ومن بعدها إلى الولايات المتّحدة. في تصريح للسّفير الإسرائيلي السّابق في إيران أوري لوبراني: «كانت عمليّة انشقاق منظمة. لقد تمّ الإعداد لكلّ شيء، حيث نُقلت عائلته إلى خارج البلاد قبل أنْ يفرّ هو». نقلت صحيفة واشنطن پوست عن مسؤول امريكي عال أنّ: «أصغري تعاون معنا بمحض إرادته».

صرّح ضابط العمليّات السّريّة في الوكالة فنسنت كانيسترارو لصحيفة الغارديَن اللندنيّة: «كان أصغري عميلا للمخابرات الغربيّة لوقت طويل. إنّه منشقّ ذو قيمة عالية لأنّه يعرف الكثير عن نشاطات إيران الإرهابيّة وبرنامجها النّووي». ذكر الصّحفي الإسرائيلي رونن برغمن أنّ أصغري زوّد الأمريكيّين بمعلومات نافعة مكّنتهم من اعتقال ضبّاط الحرس الثوري المتواجدين في مدينة اربيل في شمال العراق. كما اخبر ضابط أوروبي عمل في ميدان المخابرات المضادّة صحيفة فيغارو الفرنسيّة، «يتطلب هذا الصّنف من الإنشقاق على الأقلّ عمليّة تستغرق عامين... هذا ليس انشقاقا بل هو انقلاب في عالم الجاسوسيّة».

غير أنّ القصّة الحقيقيّة لانشقاق أصغري ربّما كانت اكثر من عاديّة. أعدّ الصّحفيان الألمانيّان ارك فولاث وهولغر ستارك تحقيقا عن القضيّة لمجلة دير شبيغل نُشر عام 2009. اعتمدا في معلوماتهما على منشقّ إيراني اسمه أمير فرشاد ابراهيمي، هرب من إيران عام 2003 وانتهى المطاف به في برلين حيث اصبح، وفق قصة نشرتها صحيفة لوس انجلس تايمز: «مصدرا هامّا لعدد من الوكالات الغربيّة والمحللين الذين يسعون للحصول على معلومات عن الجمهوريّة الإسلاميّة. كان مصدرا عاديّا للمسؤولين الغربيّين والمحافظين الجدد». اسّس ابراهيمي واصدقاؤه «لجنة الإنقاذ» لمساعدة المنشقين الإيرانيّين. ربّما يكون أصغري قد سمع بلجنة ابراهيمي هذه. غير أنّه من الواضح أنّه قد التقى به قبل عدّة سنوات في بيروت حين كان شابّا وعمل لوقت قصير كملحق صحفي في سفارة إيران في لبنان، وكان الاثنان قد التقيا هناك. ذكر ابراهيمي لأحد الصّحفيّين «كنّا في السّفارة الإيرانيّة في بيروت نعمل معا وسط التّسعينيات، وتعرّفنا على

بعض خلال تلك الفترة. وذلك هو السّبب الذي دعا الجنرال أصغري ليتّصل بي عندما وصل إلى دمشق... وذكّرني بأيّام لقائنا في بيروت». وضع ابراهيمي خطة بسيطة لنقل الجنرال. اخبره أنْ يستأجر سيّارة ويقودها بنفسه إلى اسطنبول. وكان على أصغري أنْ يدفع رشوة لحرس الحدود الأتراك مقدارها 1500 دولار ليسمحوا له بدخول تركيا دون تأشيرة رسميّة. اتّصل ابراهيمي بمسؤولي السّفارة الأمريكيّة ليقوموا باستقبال الجنرال المنشقّ.

نُقل الجنرال الإيراني جوّا إلى قاعدة رامشتاين الجويّة في فرانكفورت، حيث كان ابراهيمي في استقباله. اخبره أنّه جلب معه «جهاز الكومبيوتر الخاصّ، وفيه قصة حياتي كامل..» وبعد ساعات قليلة من وصوله إلى المانيا، نُقِل أصغري إلى العاصمة واشنطن على جناح السّرعة.

يُقال إنّه جلب معه وثائق للمخابرات الإيرانيّة تحتوي على معلومات عن حزب الله ولبنان وبرنامج إيران لتخصيب اليورانيوم. كانت الوكالة تعرف بالضّبط ما حصلت عليه. ذكر ضابط الموساد رام أغرا، «لقد عاش في لبنان وكان عمليّا هو الذي بنى حزب الله وطوّره وموّله في تلك السّنوات. إذا كان باستطاعته أنْ يقدّم شيئا للغرب، فإنّه كنز للمعلومات عن شبكة الإرهاب وحزب الله في لبنان».

احضروه ووضعوه في بيت آمن للوكالة قرب واشنطن العاصمة، وتمّ استجوابه بشكل مركّز وموسّع. من بين الأمور التي كشفها أنّ إيران بنت منشأة لفصل المواد الذريّة المخصّبة قرب مدينة نانتاز وأنّ المهندسين الإيرانيّين يحاولون تخصيب اليورانيوم باستعمال الليزر، وهي عمليّة مكلفة تستغرق وقتا طويلا. كما أنّه زوّد الوكالة بمعلومات اقنعت بعض منتسبي الوكالة أنّ إيران تقدّم المساعدة لسوريا لتطوير اسلحة نوويّة. كما كشف مسؤول الماني أنّ أصغري جلب معه ادلة أنّ إيران توفر التّمويل لنقل التّكنولوجيا الذريّة من كوريا الشّماليّة إلى سوريا. وهذه المعلومات هي التي مكّنت الطيران الإسرائيلي بتاريخ 6 سبتمبر 2007 من قصف المفاعل الذرّي السّوري وتدميره. وبشكل موجز، فإنّ أصغري برأي العديد من منتسبي المخابرات مصدر فائق لتوفير المعلومات عن الجمهوريّة الإسلاميّة.

ولربّما زوّد أصغري الموساد بالمعلومات التي احتاجتها لاغتيال عماد

مغنية، مثل رقم تلفونه المحمول واحدث صور التقطت له. كتب رونن برغمن في نيويورك تايمز: «ليس من قبيل الصّدفة أنّ عمليّة دمشق، ويقصد بها اغتيال مغنية، قد نُفِذت إثر انشقاق الجنرال الإيراني علي رضا أصغري الذي ساعد في الثمانينيات عماد مغنية وجعل حزب الله قوّة عسكريّة في لبنان».

امتنعت مصادر المخابرات في واشنطن عن نفي أو تأكيد الأخبار أنّ أصغري استلم مبلغ 5 ملايين دولار رصدته وزارة الخارجيّة لإلقاء القبض على مغنية أو اغتياله وفق برنامج مكافحة الإرهاب وتحقيق العدالة. لا يزال أصغري يعيش في الولايات المتّحدة ربّما تحت حماية برنامج الوكالة. قام بمهاتفة صديقه ابراهيمي مرّتين بعد انشقاقه، احدهما من واشنطن والأخرى «من مكان ما في ولاية تكساس». يُقال إنّه طلب من ابراهيمي أنْ يؤكّد لزوجته الثانية أنّه في صحّة جيّدة، وانقطعت اخباره بعد ذلك.

ربّما قوبل القرار بمنح أصغري لجوء سياسيّا وفق برنامج قانون الوكالة العام رقم 110 بمعارضة من قبل ضبّاط الوكالة المتقاعدين الذين لديهم معرفة بمسؤوليّته عن مقتل روبرت أيمز، لكنّ اصواتهم وصوت الوكالة قد اخرست من قبل إدارة جورج بوش ووكالة الأمن القومي. إنّ قرار منح أصغري لجوء سياسيّا ليس من النّوع الذي تقدر الوكالة على اتّخاذه، بما فيه مديرها، دون تدخّل السّلطات الأعلى في البلد. إنّ منح لجوء لرجل له تاريخ أصغري كان قرارا سياسيّا صدر عن البيت الأبيض. اعتقد البعض من مستشاري الرّئيس لشؤون الأمن القومي أنّ المعلومات التي حملها للإدارة الأمريكيّة، خاصّة المعلومات عن برنامج إيران النّووي، ضرورية للدّفاع الوطني. بعبارة أخرى، إنّ الحاجة الوطنيّة تسمو على الدّين الذي في رقبة الحكومة الأمريكيّة وذمّتها عن ذكرى روبرت أيمز وكافة ضحايا أصغري في السّفارة وثكنة المارينز في بيروت. كانت عمليّة حساب جرت بدم بارد. حين سُئل مسؤول مخابرات عالي الرتبة في البيت الأبيض عن الموضوع، ردّ قائلا: «لا استطيع التّعليق على الموضوع لأنّ القضيّة سرّيّة».

وحين سُئل ضابط مخابرات متقاعد يعرف أيمز جيّدا وكان من المعجبين به، عن وجود أصغري ذي التّاريخ المعروف، يعيش آمنا في الولايات المتّحدة، هزّ الرّجل كتفيه قائلا: «نعم، يحدث هذا في امريكا». اضاف فرد هچنسن

المستشـار العـام السّـابق فـي الوكالـة، وهو الذي اوصى بترقيـة أيمز عام 1981، قائلا: «إنّ قيمة المعلومات التي وفرها أصغري دليل رمزيّ على اهميّة انشقاقه فـي رأي الوكالـة، التـي كان عليها أنْ توازن بين ذلك وبين المشـاعر الشّـخصيّة حول مشاركته في الهجوم على السّفارة». لكنّ البعض فوجئوا بالقرار واعتبروه مثبطا للعزيمة. ذكر شمويل ليطاني، وهو ضابط موساد متقاعد، «حين تواجه في هذه الحياة شيئا لا يمكن شرحه، يمكنك أنْ ترجعه إلى السّخف أو المكر. غير أنّ التّوضيح الأفضل هو أنْ تقول ببسـاطة إنّه السّـخف. نعم أصغري يعيش في امريكا. لماذا؟ يجب أنْ تسأل الأمريكيّين انفسهم».

لا احد في واشنطن يرغب في الرّدّ على هذا السؤال. الجواب سرّ رسمي. ولكـن مـا حـدث لأصغـري سـرّ عام. إنّ التّعامل مع اشـخاص سـيّئين جزء من مهنة الجاسوسـيّة. إذا كنت تريد الحصول على معلومات عن اشـياء سـيّئة، فلا بُـدّ أنْ تبحـث عن اشـخاص سـيّئين. ولا بُدّ أن يكون هنـاك قرار للمفاضلة بين اختيار واختيار آخر. لقد صادق بوب أيمز الفلسطيني علي حسن سلامة، الذي كانت المعلومات عنه أنّه «شـخص مقيت». لكنّ اكثر النّاس ربّما يتّفقون اليوم أنّ حسابات بوب أيمز كانت ذات طابع أخلاقي. كان يريد أنْ ينقل سلامة من الظلام إلى مكان يسـتطيع فيه أنْ يضع للعنف نهاية، وأنْ يطرح تحديدا للعدالة التي يبتغيها لشعبه والمتمثلة بدولتين لإنهاء المشـكلة الفلسطينيّة.

لكنّ التّعامل مع أصغري معادلة مختلفة تماما. خلافا لما كان عليه سلامة، فإنّ هذا الرّجل قد ساهم في قتل مئات الأمريكيّين وآخرين غيرهم. وممّا لا شكّ فيـه أنّ بعـض ضبّـاط المخابرات يحاججـون بأنّه من خلال التّعامل مع أصغري اسـتطاعت امريـكا أنْ تتجنّـب حربـا وتنقـذ حياة البعض. ولكـن أيضا، اضحت المعلومـات السّـرّيّة التـي اتـى بها تافهة في اللحظة التي انشـقّ فيها عن طهران. ولربّما تصبح القضيّة قصة حزينة اخرى تجد انعكاساتها في غابة من المرايا.

المصادر

Abdul Hadi, Dr. Mahdi, ed. *Palestinian Personalities: A Biographic Dictionary*, Jerusalem: Passia, 2006.

Abrams, Elliott. *Tested by Zion: The Bush Administration and the Israeli–Palestinian Conflict*. New York: Cambridge University Press, 2013.

Aburish, Said K. *The St. George Hotel Bar*. London: Bloombury Publishing, 1989.

A Brutal Friendship: The West and the Arab Elites, New York: St. Martin's Press, 1998.

Abu Sharif, Bassam. *Arafat and the Dream of Palestine*. New York: Palgrave Macmillan, 2009.

Abu Sharif, Bassam & Mahnaimi, Uzi. *Best of Enemies: The Memoirs of Bassam Abu–Sharif & Uzi Mahnaimi*. Boston: Little, Brown & Company, 1995.

Agee, Philip & Wolf, Louis, eds. *Dirty Work: The CIA in Western Europe*. New York: Dorset Press, 1988.

Ajami, Fouad. *The Vanished Imam: Musa Sadr and the Shia of Lebanon*. Ithaca, New York: Cornell University Press, 1986.

The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey. New York: Pantheon Books, 1998.

Al–Hout, Bayan Nuwayhed. *Sabra and Shatila: September 1982*. London: Pluto Press, 2004.

Al–Hout, Shafiq, *My Life in the PLO: The Inside Story of the Palestinian Struggle*. London: Pluto Press, 2011.

Arnold, Jose. *Golden Swords and Pots and Pans*. New York: Harcourt, Brace & World, 1963.

Aust, Stefan. *The Baader–Meinhof Group: The Inside Story of the RAF. New York: Oxford University Press, 1985, 1987, 2008.*

Bar–Zohar, Michael & Haber, Eitan. *The Quest for the Red Prince*, Guilford, Conn., Lyon's Press, 1983, 2002.

Bar–Zohar, Michael & Mishal, Nissim. *Mossad: The Greatest Missions of the Israeli Secret Service*. New York: Ecco/HarperCollins, 2012.

Bergman, Ronen. *The Secret War with Iran: The 30–Year Clandestine Struggle Against the World's Most Dangerous Terrorist Power*. New York: Free Press, 2008.

Bill, James A. *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American–Iranian*

Relations. New Haven: Yale University Press, 1988.

Bird, Kai. *Crossing Mandelbaum Gate: Coming of Age Between the Arabs and Israelis, 1956–1978*. New York: Scribner, 2010.

The Color of Truth: McGeorge Bundy & William Bundy, Brothers in Arms. New York: Simon & Schuster, 1998.

The Chairman: John J. McCloy & The Making of the American Establishment. New York: Simon & Schuster, 1992.

Baer, Robert. *See No Evil: The True Story of a Ground Soldier in the CIA's War on Terrorism*. New York: Three Rivers Press, 2002.

Bakhash, Shaul. *The Reign of the Ayatollahs: Iran and the Islamic Revolution*. New York: Basic Books, 1986.

Black, Ian & Morris, Benny. *Israel's Secret Wars: A History of Israel's Intelligence Services*. New York: Grove Weidenfeld, 1991.

Blanford, Nicholas. *Warriors of God: Inside Hezbollah's Thirty–Year Struggle Against Israel*. New York: Random House, 2011.

Blight, James G.; Lang, janet M; Banai, Hussein; Byrne, Malcolm; Tirman, John. *Becoming Enemies: U.S.–Iran Relations and the Iran–Iraq War, 1979–1988*. Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2012.

Boykin, John. *Cursed is the Peacemaker: The American Diplomat Versus the Israeli General*. Belmont, California: Applegate Press, 2002.

Bowden, Mark. *Guests of the Ayatollah: The First Battle in America's War with Militant Islam*. New York: Atlantic Monthly Press, 2006.

Brinkley, Douglas. *The Unfinished Presidency: Jimmy Carter's Journey Beyond the White House*. New York: Viking, 1998.

Brzezinski, Zbigniew. *Power and Principle: Memoirs of a National Security Adviser, 1977–1981*. New York: Farrar Straus Giroux, 1983.

Bullock, John. *The Making of a War: The Middle East from 1967 to 1973*. London: Longman Group Ltd., 1974.

Burton, Fred & Bruning, John. *Chasing Shadows: A Special Agent's Lifelong Hunt to Bring a Cold War Assassin to Justice*. New York: Palgrave Macmillan, 2011.

Byman, Daniel. *A High Price: The Triumphs and Failures of Israeli Counterterrorism*. New York: Oxford University Press, 2010.

Cambanis, Thanassis. *A Privilege to Die: Inside Hezbollah's Legions and Their Endless War Against Israel*. New York: Free Press, 2010.

Cannon, Lou. *President Reagan: The Role of a Lifetime*. New York: Simon & Schuster, 1991.

Carter, Jimmy. *White House Diary*. New York: Farrar, Straus and Giroux,

2010.

Keeping Faith: Memoirs of a President. New York: Bantam Books, 1982.

Clarridge, Duane R. with Diehl, Digby. *A Spy for All Seasons: My Life in the CIA*. New York: Scribner, 1997.

Colby, William & Forbath, Peter. *Honorable Men: My Life in the CIA*. New York: Simon & Schuster, 1978.

Coll, Steve. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2011*. New York: Penguin Books, 2004.

The Bin Ladens: An Arabian Family in the American Century. New York: Penguin Press, 2008.

Cooley, John K. *Green March, Black September: The Story of the Palestinian Arabs*. London: Frank Cass, 1973.

Copeland, Miles. *The Game of Nations: The Amorality of Power Politics*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1969.

Corn, David. *Blond Ghost: Ted Shackley and the CIA's Crusades*. New York: Simon & Schuster, 1994.

Crile, George. *Charlie Wilson's War: The Extraordinary Story of the Largest Covert Operation in History*. New York: Atlantic Monthly Press, 2003.

Crist, David. *The Twilight War: The Secret History of America's Thirty-Three Year Conflict with Iran*. New York: Penguin Press, 2012.

Crumpton, Henry A. *The Art of Intelligence: Lessons from a Life in the CIA's Clandestine Service*. New York: Penguin Press, 2012.

Cubert, Harold M. *The PFLP's Changing Role in the Middle East*. London: Frank Cass, 1997.

Dallek, Robert. *Nixon & Kissinger: Partners in Power*. New York: HarperCollins, 2007.

Deacon, Richard. *The Israeli Secret Service*. New York: Taplinger Publishing Company, 1977.

Dean, John Gunther. *Danger Zones: A Diplomat's Fight for America's Interests*. Washington, DC: Vellum/New Academia Publishing, 2009.

Deeb, Marius. *Syria's Terrorist War on Lebanon and the Peace Process*. New York: Palgrave, 2003.

Dobson, Christopher. *Black September: Its Short, Violent History*. New York: Macmillan Publising Company, 1974.

Eban, Abba, Ed. *The Beirut Massacre: The Complete Kahan Commission Report*. New York: Karz-Cohl, 1983.

Eveland, Wilbur Crane. *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East,* New York: W.W. Norton, 1980.

Fisk, Robert. *Pity the Nation: The Abduction of Lebanon.* New York: Atheneum, 1990.

The Great War for Civilization: The Conquest of the Middle East. New York: Alfred A. Knopf, 2005.

Friedman, Thomas L. *From Beirut to Jerusalem.* New York: Farrar Straus Giroux, 1989.

Geraghty, Colonel Timothy J. *Peacekeepers At War: Beirut 1983—The Marine Commander Tells His Story.* Washington, DC: Potomac Books, 2009.

Gilbert, Martin. *Israel: A History.* New York: William Morrow and Company, 1998.

Glass, Charles. *Tribes with Flags: A Dangerous Passage Through the Chaos of the Middle East.* New York: Atlantic Monthly Press, 1990.

The Tribes Triumphant: Return Journey to the Middle East. New York: HarperPress, 2006.

Gup, Ted. *The Book of Honor: The Secret Lives and Deaths of CIA Operatives.* New York: Anchor Books, 2000, 2001.

Halevy, Efraim. *Man in the Shadows: Inside the Middle East Crisis with a Man who Led the Mossad.* New York: St. Martin's Press, 2006.

Hammel, Eric *The Root: The Marines in Beirut, August 1982–February 1984.* St. Paul, MN: Zenith Press, 1999, 2005.

Hamzeh, Ahmad Nizar. *In the Path of Hizbullah.* Syracuse: Syracuse University Press, 2004.

Hart, Alan. *Arafat: Terrorist or Peacemaker?* London: Sidgwick & Jackson, 1984.

Hatem, Robert. *From Israel to Damascus*, La Mesa, CA: Pride International Publications, 1999

Helgerson, John L. *CIA Briefings of Presidential Candidates, 1952–1992*, Center for the Study of Intelligence, CIA, Washington DC, 1996

Helms, Richard with Hood, William. *A Look Over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency.* New York: Ballantine Books, 2003.

Hersh, Seymour. *The Price of Power: Kissinger in the Nixon White House.* New York: Summit Books, 1983.

Hirst, David. *Beware of Small States: Lebanon, Battleground of the Middle East.* New York: Nation Books, 2010.

The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle

East. New York: Thunder's Mouth Press/Nation Books, 1977, 1984, 2003.

Holden, David. *Farewell to Arabia*. London: Faber and Faber, 1966.

Holden, David & Johns, Richard. *The House of Saud*. London: Sidgwick & Jackson, 1981.

Holm, Richard L. *The Craft We Chose: My Life in the CIA*. Mountain Lake Park, Maryland: Mountain Lake Press, 2011.

Ignatius, David. *Agents of Innocence*. New York: W.W. Norton & Company, 1987.

Iyad, Abu with Rouleau, Eric. *My Home, My Land: A Narrative of the Palestinian Struggle*. New York: Times Books, 1981.

Jaber, Hala. *Hezbollah: Born with a Vengeance*. New York: Columbia University Press, 1997.

Jeffreys–Jones, Rhodri. *The CIA & American Democracy*. New Haven: Yale University Press, 1989, 2003.

Jonas, George. Vengeance: *The True Story of an Israeli Counter–Terrorist Team*. New York: Simon & Schuster, 1984.

Jordan, Hamilton. Crisis: *The True Story of an Unforgettable Year in the White House*. New York: G.P. Putnam's Sons, 1982.

Kahlili, Reza. *A Time to Betray: A Gripping True Spy Story of Betrayal, Fear and Courage*. New York: Threshold Editions/ Simon & Schuster, 2010.

Kaplan, Robert D. *The Arabists: The Romance of an American Elite*. New York: Free Press, 1993.

Katz, Samuel M. *Soldier Spies: Israeli Military Intelligence*. Novato, California: Presidio Press, 1992.

Kazziha, Walid W. *Revolutionary Transformation in the Arab World: Habash and his Comrades from Nationalism to Marxism*. New York: St. Martin's Press, 1975.

Kean, Thomas H. & Hamilton, Lee H. *The 9/11 Report: The National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States*. New York: St. Martin's Press, 2004.

Kessler, Ronald. *Inside the CIA*. New York: Pocket Books, 1992.

Khalidi, Rashid, *Under Siege: PLO Decision–Making During the 1982 War*. New York: Columbia University Press, 1986.

Kissinger, Henry. *Years of Upheaval*. New York: Simon & Schuster, 1982.

Klein, Aaron J. *Striking Back: The 1972 Munich Olympics Massacre and Israel's Deadly Response*. New York: Random House, 2005.

Kramer, Stephen. *Surrogate Terrorists: Iran's Formula for Success*.

Lanham, MD: University Press of America, 2010.

Lacey, Robert. *The Kingdom: Arabia & The House of Saud.* New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1981.

Large, David Clay. *Munich 1972: Tragedy, Terror and Triumph at the Olympic Games.* New York: Rowman & Littlefield Publishers, 2012.

Little, Douglas. *American Orientalism: The United States and the Middle East Since 1945.* Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2002.

Livingston, Neil C. & Halevy, David. *Inside the PLO: Covert Units, Secret Funds, and the War Against Israel and the United States.* New York: William Morrow and Company, 1990.

McDermott, Anthony & Skjelsbaek, Kjell, eds. *The Multinational Force in Beirut 1982–1984.* Miami: Florida International University Press, 1991.

MacFarquhar, Neil. *The Media Relations Department of Hizbollah Wishes You a Happy Birthday: Unexpected Encounters in the Changing Middle East.* New York: Public Affairs, 2009.

Mackintosh-Smith, Tim. *Yemen: The Unknown Arabia.* Woodstock,NY: Overlook Press, 2000.

Mallmann, Klaus-Michael & Cuppers, Martin. *Nazi Palestine: The Plans for the Extermination of the Jews in Palestine,* London: Enigma, 2010.

Martin, David & Walcott, John. *Best Laid Plans: The Inside Story of America's War Against Terrorism.* New York: Harper & Row, 1988.

Melman, Yossi & Raviv, Dan. *Spies Against Armageddon.* New York: Levant Books, 2012.

Morris, Benny. *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881–2001,* New York: Vintage Books, 1999, 2001.

1948: The First Arab-Israeli War. New Haven: Yale University Press, 2008.

Morris, Edmund. *Dutch: A Memoir of Ronald Reagan.* New York: Random House, 1999.

Naftali, Timothy. *Blind Spot: The Secret History of American Counterterrorism.* New York: Basic Books, 2005.

Nasr, Kameel B. *Arab and Israeli Terrorism: The Causes and Effects of Political Violence, 1936–1993.* Jefferson, North Carolina: McFarland & Company Inc., 1997.

Norton, Augustus Richard. *Hezbollah: A Short History.* Princeton: Princeton University Press, 2007.

O'Connell, Jack, with Vernon Loeb. *King's Counsel: A Memoir of War, Espionage, and Diplomacy in the Middle East.* New York: WW Norton, 2011.

O'Hern, Steven. *Iran's Revolutionary Guard: The Threat That Grows While America Sleeps.* Washington, DC: Potomac Books, 2012.

Olson, James M. *Fair Play: The Moral Dilemmas of Spying.* Washington, DC: Potomac Books, 2006.

Paseman, Floyd L. *A Spy's Journey: A CIA Memoir.* Minneapolis: Zenith Press, 2004, 2009.

Parry, Robert. *Trick or Treason: The October Surprise Mystery.* New York: Sheridan Square Press, 1993.

Parsi, Trita. *Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the United States.* New Haven: Yale University Press, 2007.

Pedahzur, Ami. *The Israeli Secret Services and the Struggle Against Terrorism.* New York: Columbia University Press, 2009.

Perry, Mark. *A Fire in Zion: The Israeli–Palestinian Search for Peace.* New York: William Morrow and Company, 1994.

Persico, Joseph E. *Casey: The Lives and Secrets of William J. Casey.* New York: Viking Penguin Books, 1990.

Philby, Kim. *My Silent War: The Autobiography of a Spy.* New York: Modern Library, 1968.

Phillips, Wendell. *Qataban and Sheba: Exploring the Ancient Kingdoms on the Biblical Spice Routes of Arabia.* New York: Harcourt, Brace and Company, 1955.

Powers, Thomas. *The Man Who Kept the Secrets: Richard Helms and the CIA.* New York: Alfred A. Knopf, 1979.

Intelligence Wars: American Secret History from Hitler to Al–Qaeda. New York: New York Review of Books, 2002.

Prados, John. *Lost Crusader: The Secret Wars of CIA Director William Colby.* New York: Oxford University Press, 2003.

Raab, David. *Terror in Black September: The First Eyewitness Account of the Infamous 1970 Hijackings.* New York: Palgrave Macmillan, 2007.

Rabinovich, Itamar. *The War for Lebanon: 1970–1985.* Ithaca: Cornell University Press, 1984, 1985.

Randal, Jonathan. *Going All the Way: Christian Warlords, Israeli Adventurers, and the War in Lebanon,* New York: Vintage Books, 1984.

Ranelagh, John. *The Agency: The Rise and Decline of the CIA.* New

York: Simon & Schuster, 1986.

Ranstorp, Magnus. *Hizb'Allah in Lebanon: The Politics of the Western Hostage Crisis*. London: Macmillan Press, 1997.

Rasmuson, John R. ed. *A History of Kagnew Station and American Forces in Eritrea. Asmara, Ethiopia*. Asmara, Ethiopia: Il Poligrafico, 1973.

Raviv, Dan & Melman, Yossi. *Friends Indeed: Inside the U.S.-Israel Alliance*. New York: Hyperion, 1994.

Every Spy A Prince: The Complete History of Israel's Intelligence Community. New York: Houghton Mifflin, 1990.

Read, Anthony and Fisher, David. *Colonel Z: The Secret Life of a Master of Spies*. London: Hodder and Stoughton, 1984.

Reagan, Ronald. *The Reagan Diaries*. New York: Harper Perennial, 2009.

Reeve, Simon. *One Day in September*. New York: Arcade Publishing, 2000.

Rogan, Eugene. *The Arabs: A History*. New York: Penguin Books, 2009.

Roosevelt, Archie. *For Lust of Knowing: Memoirs of an Intelligence Officer*. Boston: Little, Brown & Company, 1988.

Salhani, Claude. *Black September to Desert Storm: A Journalist in the Middle East*. Columbia, MI: University of Missouri Press, 1998.

Sayigh, Yezid. *Armed Struggle and the Search for State: The Palestinian National Movement, 1949–1993*. New York: Oxford University Press, 1997.

Schiff, Ze'ev & Ya'ari, Ehud. *Israel's Lebanon War*. New York: Simon & Schuster, 1984.

Schmidt, Dana Adams. *Yemen: The Unknown War*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1968.

Sheehan, Edward R.F. *The Arabs, Israelis and Kissinger*. New York: Readr's Digest Press, 1976.

Shlaim, Avi. *Lion of Jordan: The Life of King Hussein in War and Peace*. New York: Alfred A. Knopf, 2008.

Shultz, George. *Turmoil and Triumph: My Years as Secretary of State*. New York: Charles Scribner's Sons, 1993.

Sick, Gary. *October Surprise: America's Hostages in Iran and the Election of Ronald Reagan*. New York: Times Books, Random House, 1991.

Snow, Peter & Phillips, David. *The Arab Hijack War: The Whole Story of the Most Incredible Act of Piracy in the Decade*. New York: Ballantine Books, 1971.

Takeyh, Ray. *Guardians of the Revolution: Iran and the World in the Age of the Ayatollahs*. New York: Oxford University Press, 2009.

Taylor, Peter. *States of Terror: Democracy and Political Violence*. London: Penguin Books, 1993.

Theroux, Peter. *Sandstorms: Days and Nights in Arabia*. New York: W.W. Norton, 1990.

Thomas, Evan. *The Very Best Men: The Daring Early Years of the CIA*. New York: Simon & Schuster, 1995, 2006.

Thomas, Gordon. *Gideon's Spies: The Secret History of the Mossad*. New York: St. Martin's Press, 1995.

Timerman, Jacobo. *The Longest War: Israel in Lebanon*. New York: Alfred A. Knopf, 1982.

Tinnan, David B. with Christensen, Dag. *The Hit Team*. New York: Dell Publishing, 1976, 1977.

Turner, Stansfield. *Burn Before Reading*. New York: Hyperion, 2005.
Secrecy and Democracy: The CIA in Transition. Boston: Houghton Mifflin, 1983.

Tveit, Odd Karsten. *Alt for Israel: Oslo–Jerusalem 1948–78*. Oslo: 1996.
Goodbye Lebanon: Israel's First Defeat. Oslo: H. Aschehoug & Co. (W. Nygaard), 2010, 2012.

Van De Ven, Susan Kerr. *One Family's Response to Terrorism: A Daughter's Memoir*. Syracuse: Syracuse University Press, 2008.

Vassiliev, Alexei. *The History of Saudi Arabia*. New York: New York University Press, 2000.

Vitalis, Robert. *America's Kingdom: Mythmaking on the Saudi Oil Frontier*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2007.

Walters, Vernon A. *Silent Missions*. Garden City, New York: Doubleday, 1978.

Weiner, Tim. *Legacy of Ashes: The History of the CIA*. New York: Doubleday, 2007.

Woodward, Bob. *Veil: The Secret Wars of the CIA, 1981–1987*. New York: Simon & Schuster, 1987.

Wright, Lawrence. *The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11*. New York: Alfred A. Knopf, 2006.

Wright, Robin. *Dreams and Shadows: The Future of the Middle East*. New York: Penguin Press, 2008.

Yaniv, Avner. *Dilemmas of Security: Politics, Strategy, and the Israeli Experience in Lebanon*. New York: Oxford University Press, 1987.

مُلحَقُ صُوَر

بوب أيمز في سن (11 عاماً) مع أختيه پاتريشا (14 عاماً) ونانسي (8 أعوام). نشأ الجميع في ضاحية عمالية في مدينة فيلادلفيا. كان والده ألبرت عاملاً في مصنع فولاذ، ووالدته هلن ربة بيت والمسؤولة عن «النظام» داخل البيت.

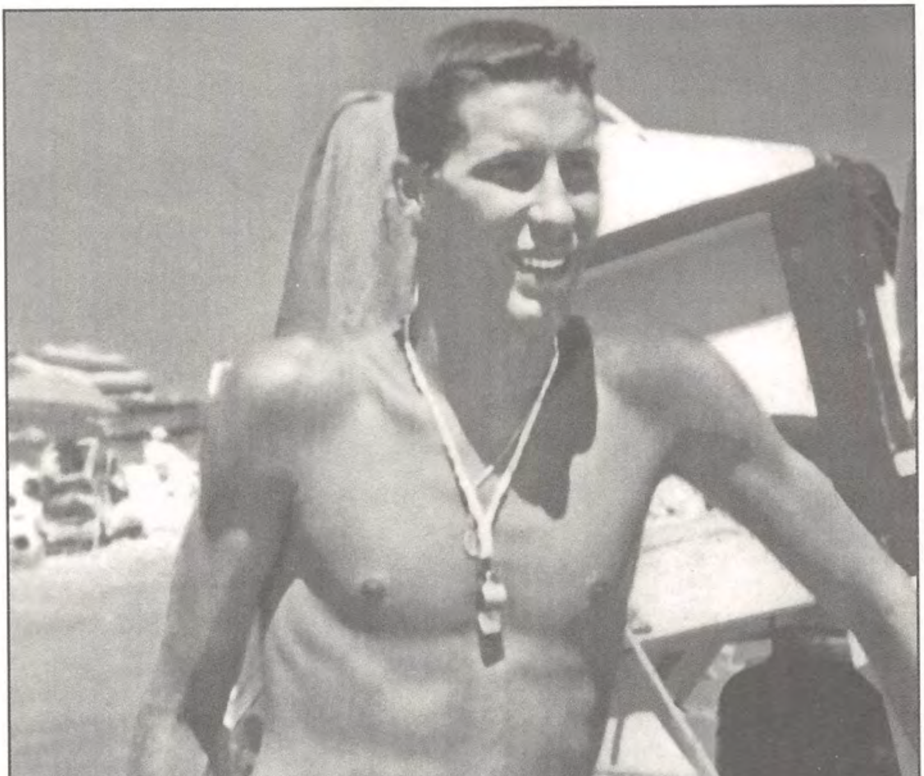

بوب أيمز في سن 19 عاماً، وهو يعمل حارس إنقاذ في ساحل ولاية نيوجرزي خلال موسم الصيف.

في عام 1957 سيق بوب أيمز لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية، التي قضاها في محطة كاكنيو للتنصت في إثيوبيا.

عائلة أيمز في شهر ديسمبر عام 1959. تبدو أخته نانسي في يسار الصورة إلى جانب والده ألبرت وجدته لأمه أموروسا ثم أمه هلن إلى جانب بوب وزوجته إيفون بليكلي.

صورة زفاف بوب أيمز وعروسه إيفون بليكلي في عام 1960.

عُيِّن بوب ضابطاً للمخابرات الأمريكية في الظهران عام 1962، حيث عاش هو وأسرته.

بوب أيمز مع ابنتيه كاثرن وأدريان في السعودية خلال الكرسميس عام **1964.**

نقلت المخابرات الأمريكية بوب أيمز إلى عدن في اليمن الجنوبي عام **1967.**

عُيّن علي حسن سلامة في سن (27 عاماً) مسؤولاً عن وحدة حماية الرئيس ياسر عرفات عام 1969 عندما عرّفه صديقه اللبناني مصطفى زين إلى بوب أيمز في إحدى مقاهي بيروت.

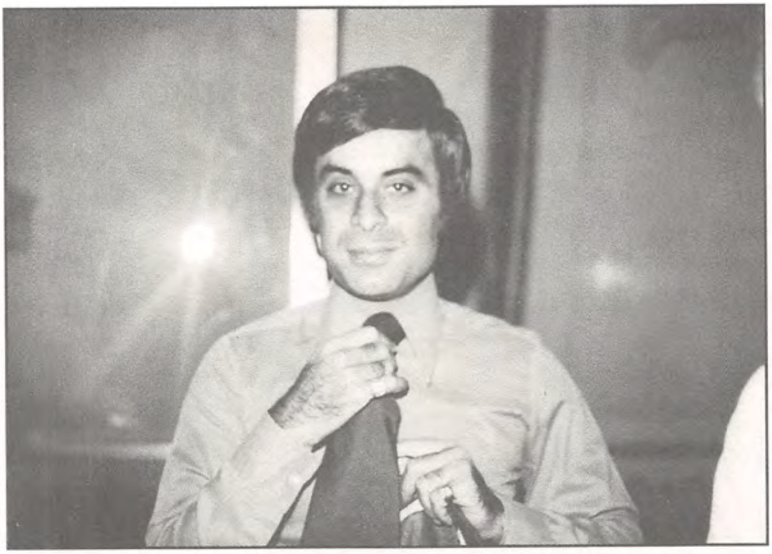

في عام 1969 تعرّف بوب أيمز على رجل الأعمال اللبناني مصطفى زين.

علي حسن سلامة بين
ياسر عرفات ورئيس
وزراء لبنان الأسبق
صائب سلام عام 1976.

علي حسن سلامة يصافح بيار الجميّل مؤسس حزب الكتائب اللبنانية، يبدو في الصورة بينهما ابنه بشير الذي انتخب رئيساً للبنان عام 1982. كما يبدو في الصورة أيضاً عبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا في حينه.

بشير الجميل وعلي حسن سلامة يتحدثان للصحفيين.

علي حسن سلامة مع الإمام موسى الصدر عام 1975. اختفى الإمام أثناء زيارة إلى ليبيا عام 1978. كلفت المخابرات الأمريكية سلامة بالتحقيق في ظروف اختفاء الإمام الصدر.

علي حسن سلامة مع نجليه من زوجته الأولى نشروان شريف.

رقي أيمز في خريف عام 1978 إلى منصب ضابط المخابرات الوطنية المسؤول عن قضايا الشرق الأوسط وجنوب آسيا.

صور لمكان اغتيال علي حسن سلامة بتفجير سيارة في أحد شوارع بيروت بتاريخ 22 يناير 1979. قتل في الحادث 8 أشخاص آخرين.

القادة الفلسطينيون ونجلا علي حسن سلامة في مجلس تأبينه.

ياسر عرفات يقبّل جورجينا رزق الحامل، إحدى أرملتي علي حسن سلامة.

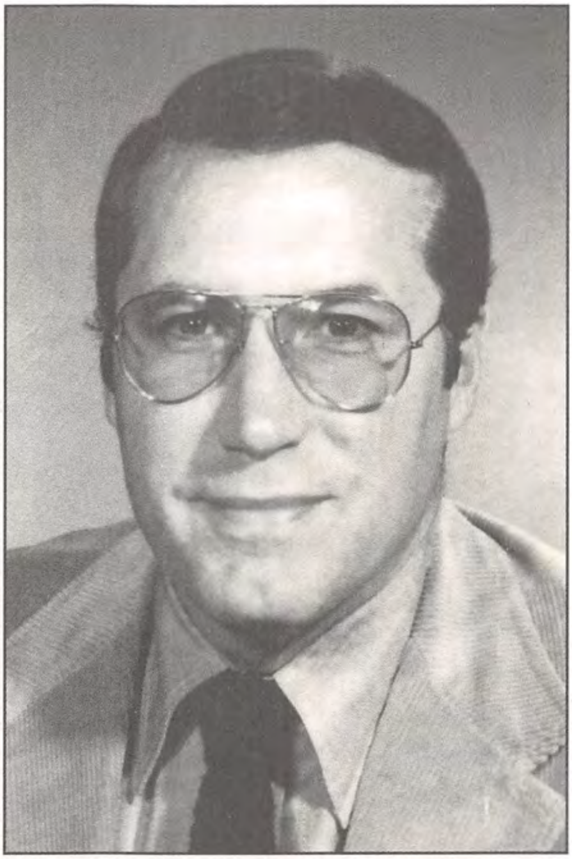

سحر أيمز بقصصه الجاسوسية رئيس المخابرات الأمريكية وليم كيسي الذي عينه رئيس محللي الوكالة لشؤون الشرق الأوسط.

الرئيس ريغان وإلى يمينه پول وولفوتز وإلى يساره بوب أيمز ومستشار آخر في كامپ ديفد. أنيطت المهمة بأيمز لتزويد الرئيس بآخر مستجدات الموقف عن الغزو الإسرائيلي للبنان في صيف عام 1982.

جانت لي ستيفنز (32 عاماً) وهي الصحفية الأمريكية المستقلة التي حققت في جرائم صبرا وشاتيلا حتى مقتلها في حادث تفجير السفارة.

الرئيس ريغان وزوجته نانسي في استقبال جثامين ضحايا تفجير السفارة،
وذلك في قاعدة اندروز الجوية.

الأرملة إيفون أيمز برفقة أخيها الضابط في البحرية الأمريكية، في استقبال جثمان زوجها في قاعدة
اندروز الجوية.

آخر صورة لبوب وإيفون في الكرسمس عام 1982.

عماد مغنية (يساراً) مع الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله.

عماد مغنية مع والدته.

قال إنكلهارت، وهو ضابط عمليات خدم برفقة أيمز، أمام ضريح بوب أيمز بينما كان رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين وياسر عرفات رئيس منظمة التّحرير الفلسطينيّة موجودين في البيت الأبيض يستعدّان للتّوقيع على اتّفاقيّة سلام بحضور الرّئيس الأمريكي بيل كلينتون: «كنّا جميعاً نحسّ بشعور خفيّ من البهجة. فبالنّسبة إلينا نحن الذين امضينا حياتنا وسط عاصفة الصّراع العربي الإسرائيلي، كان احتفال البيت الأبيض علامة إيجابيّة. لقد حصل الطرفان على كلّ ما يبغيان حسب اتّفاقيّات أوسلو، أو هكذا تصوّرا. كان لديّ شعور معيّن في ذلك الوقت أنّ تضحيات رفاقنا الرّاحلين لم تذهب ادراج الرّياح، وأنّ الشّعبين الإسرائيلي والفلسطيني قد اطلق كل منهما رقبة الآخر بعد أنْ كانا يحكمان القبض عليهما، وأنّهم جميعاً إخوة وأخوات».

يروي الكتاب قصة بوب أيمز، احد الذين ساهموا في الخفاء ولسنوات طوال لتمهيد الطريق أمام اتفاقية السلام المذكورة. فمن فيلادلفيا إلى محطة كاكنيو للتنصّت في إرتريا، إلى الظهران فعدن فبيروت. يروي الكتاب احداث استقلال اليمن الجنوبي وأيلول الأسود والاجتياح الإسرائيلي لبيروت وخروج منظمة التحرير الفلسطينية منها، وما تبعه من مجزرة صبرا وشاتيلا، مع تسليط الضوء على شخصيات أثرت في الأحداث من أمثال علي حسن سلامة ومصطفى زين وعماد مغنية وعلي رضا أصغري وما يزعم من دور للأخيرين في تفجير السفارة الاميركية في بيروت عام 1983.

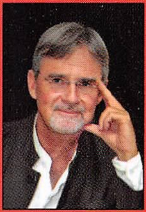
photo - credit: Stephen Frelch

كاي بيرد:

ألف وساهم في تأليف أربعة كتب أخرى غير مترجمة هي:
American Prometheus, Crossing Mandelbaum Gate, The Chairman, and The Color of Truth.
وهو حائز على Guggenheim Fellowship وMacArthur Writing Fellowship و Pulitzer Prize

د. محمد الأزرقي:

أستاذ متمرس في اللغة والأدب العربي في كلية ماونت هوليوك في الولايات المتحدة
ألف ونشر 6 كتب بالعربية والإنكليزية. وساهم في تأليف 3 كتب بالإنكليزية.
أقدم منذ احالته على التقاعد على تنفيذ مشاريع ترجمة. أنجز ترجمة 6 كتب نشر منها 4 كتب آخرها الساحرة يجب أن تموت. وسينُشر الكتابان الآخران قريباً، وهذا الكتاب أحدهما. يعكف حالياً على ترجمة كتاب هام للغاية جدا هو The Age of Sustainable Development من تأليف الخبير الدولي ومستشار الأمين العام للأمم المتحدة Jeffrey D. Sachs

ISBN 978-614-01-1728-0

9 786140 117280

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

جائزة الشيخ زايد للكتاب
SHEIKH ZAYED'S BOOK AWARD 2015
الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic